

الشعبوية والأدب

اسعاد ومضمونات



دار النضال

د. خليل جفال

هذا الكتاب أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة القديس يوسف وقد أشرف عليها الدكتور أحمد أبو حاقه وشارك في قراءتها كل من الأب الدكتور جان فييه والدكتور سليم فهوجي فإليهم جميعاً شكري وتقديري .

المؤلف

الشعرية والأدب أبعاد ومضمونات

من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري

الدكتور

خليل إبراهيم جفال

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه يديل < mktba.net



مشورات دار الافتال للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - ص. ب. 6693 - 113

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى - 1986

منشورات دار النضال

للطباعة - والنشر - والتوزيع

بيروت - ص. ب: 6693 - 113

الأهداء

إلى من كنا سبب وجودي .

إلى من فتحا عيني على نور الحياة والحقيقة .

إلى من علماني الصبر وأدباني بالعلم .

إلى والحي .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الأدب ابن البيئة التي ينشأ فيها ، ومراة صادقة للمجتمع تنعكس فيه هموم الناس ومشاكلهم وتطلعاتهم المستقبلية ، والشعبوية كحركة شعبية تهدف الى مقاومة العرب ومحاوله النيل منهم والتحرر من سلطانهم ، استأثرت باهتمام الأدباء ، والشعراء والمفكرين فانقسموا الى فريقين : فريق يؤيد الشعبوية ، وينهج سبيلها ، وفريق يعارضها ، ويناهض مؤيديها ، وكثرت المساجلاتُ والمناظرات الأدبية والفكرية بين الطرفين ، فكانت هذه الحركة دافعاً لنتاجٍ أدبيٍّ جديدٍ .

كثيرون هم الذين بحثوا الشعبوية ، فدرسوها من النواحي التاريخية والاجتماعية والسياسية ، وأشاروا بإشارات عارضة أو موجزة الى الناحية الأدبية ، غير أن احداً منهم لم يخصصها ببحث شامل او مستقل ، فوقع اختياري على الشعبوية كموضوع للدراسة فكرية أدبية تهدف الى اظهار الأبعاد الشعبوية ، ومفهوماتها وانعكاس ذلك على النصوص الأدبية ومضموناتها ، واتجاهات أصحابها وحاولت إلقاء الضوء على الجذور التاريخية لهذه الحركة ، وأسباب نموها ، ومرآجل هذا النمو والعوامل المختلفة التي أسهمت في اتساعها وانتشارها ، ولقد اعترضني من الصعوبات التي كادت تحول بيني وبين اتمام ما بدأت به :

— صعوبة تمحيص الأخبار التاريخية التي تبالغ في تصوير النفوذ الشعبي في العصور العباسية .

— فقدان النصوص الأساسية لكثير من الكتاب والأدباء الشعبيين الذين انتصروا لهذه الحركة وشحذوا عقولهم وألستهم ، وسخروا أقلامهم لخدمتها والدفاع عنها ، وفقدان الكثير من النصوص التي انتصر أصحابها للعرب وردوا فيها على الشعبوية ، وكشفوا مخططاتها .

— إنسياق عدد من المحدثين وراء أخبار مبالغ فيها ، واعتبارها حقيقة لا مجال لنقدها أو الشك فيها .

ولقد لَقَّت انتباهي الدكتور قهوجي الى وجود دراسة للسيد محمد نبيه حجاب بعنوان : المظاهر الشعبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، وكنت قد انتهيت من هذا البحث ، فعدت الى دراسة السيد حجاب أطالعليها ، وأتفحص مضمونها ، فسررت لأني لم أطلع عليها من قبل لأسباب منها :

— إن المؤلف انطلق من أحكام آمن بها مسبقاً ، وحاول إيجاد مبررات لهذه الأحكام .

— خلطه خلطاً عجيباً بين الموالي والشعبية ، واعتباره كل مولى شعبياً ، يقول : « كانت النزعة الشعبية مستقرة في نفوس الأعاجم مختلطة بدمائهم شعراء كانوا او كتاباً »⁽¹⁾ .

— ضعف المنهجية التي انتهجها فبحث موضوعات لا تمت بصلة مباشرة أو غير مباشرة بالشعبية من ذلك بحثه في تاريخ الدولة الفارسية⁽²⁾ والرومانية⁽³⁾ وتاريخ الممالك العربية قبل الاسلام⁽⁴⁾ ثم اتصال العرب بالفرس والروم في العصر الجاهلي ، وأثر ذلك في الشعر العربي⁽⁵⁾ وبحثه في تاريخ الغناء العربي ، وأثر الغناء الروحي والفارسي فيه ، وأثر الموالي في تطوره . ولو أردنا تتبع ذلك في دراسته لوجدنا معظمها لا يمت بصلة لموضوع البحث . فقد تحدث في كل الفنون الأدبية من حيث المضمون والموضوعات والأساليب ، وأشار في دراسته الى الشعبية إشارات سطحية فيها الكثير من الغلو والمواقف الذاتية والإنفعالية .

— أخطاء تاريخية عديدة بثها في أنحاء دراسته منها :

— اعتبار الشعبية ظاهرة أدبية منذ العصر الجاهلي ، فتحت عنوان : أثر الشعبية في الشعر الجاهلي ، يبحث بحثاً لا طائل منه⁽⁶⁾ .

(1) - محمد نبيه حجاب ، المظاهر الشعبية ص : 397

(2) - مرجع نفسه ص : 39-66

(3) - م. ن. ص : 67-88

(4) - م. ن. ص : 14-38

(5) - محمد نبيه حجاب ، المظاهر الشعبية ص : 91

(6) - مرجع نفسه ص : 112-118

- اعتبار مملكة الأنباط من الممالك العربية ، لأنّ النبط هاجروا من شبه الجزيرة العربية سنة ٥٠٠ قبل الميلاد . فاستناداً لهذا الزعم ، تعتبر كل الشعوب السامية من العرب⁽⁷⁾ .
- زعمه بأنّ الشعوبية هي التي دبرت مقتل عمر ابن الخطاب ، وعثمان ابن عفان ، وعلي ابن أبي طالب⁽⁸⁾ .
- اعتباره ابن ميادة الذي افتخر بأبيه العربي وأمه الفارسية شعوبياً⁽⁹⁾ .
- زعمه بأنّ الرشيد قتل بيد فارسية ، انتقاماً للبرامكة ، وأنّ يحيى ابن خالد قد خطط لقتل الرشيد والأمين وخراب بغداد⁽¹⁰⁾ وأنّ الفضل ابن سهل قد شارك في تنفيذ ما خططه يحيى⁽¹¹⁾ .
- اعتباره أنّ للصراع بين الأمين والمأمون وجهاً واحداً من أوجه الصراع ، وهو الصراع بين الفرس والعرب ، دون أن يؤيد زعمه بدليل علمي واحد⁽¹²⁾ .
- تعليله انتقام العباسيين من الأمويين بأسباب وعلل شعوبية⁽¹²⁾ دون أن يذكر أسباب الحقد بين الهاشميين والأمويين منذ معركة صفين .
- تعليله انتشار التشيع في الفرس بأسباب وعلل شعوبية وقومية⁽¹⁴⁾ متناسياً خيبة الأمل المريرة التي عانى منها الموالي في العهود المختلفة للسلطة .
- اعتباره دعبل الخزاعي وابن الرومي من الشعوبية لأنّ الأول هجا العباسيين ، والثاني ذكر آباءه في شعره ورثى يحيى ابن عمر العلوي⁽¹⁵⁾ .

(7) - م.ن. ص : 39-66

(8) - م.ن. ص : 119 وما بعدها .

(9) - م.ن. ص : 164

(10) - م.ن. ص : 203 وما بعدها

(11) - م.ن. ص : 203 وما بعدها .

(12) محمد نبيه حجاب ، المظاهر الشعوبية ص :

(13) - مرجع نفسه ص : 208

(14) - م.ن. ص : 210-212

(15) - م.ن. ص : 273 وما بعدها .

— في حديثه عن نسب الجاحظ ، يؤكد أصله العربي لأسباب منها : أنه لو كان من الموالي ، لكان شعوبياً . وأنه لو كان من الموالي لوجدناه على بيت الحكمة الذي « اختار له المأمون ثلاثة من الفرس »⁽¹⁶⁾ .

— تضخيمه الأثر الشعبي في الفكر الاسلامي ، ودوره في انشاء الفرق الاسلامية ، ابتداءً بالسبئية ومروراً بالخوارج والشيعة والجبرية والقدرية والمشبّهة والمعتزلة . وزعمه أنّ القول بخلق القرآن من عمل الشعبية الزنادقة⁽¹⁷⁾ .

— توصله الى نتيجة تقول إنّ الشعبية انتصرت في كل الميادين باستثناء الدين واللغة . وعلى العموم ، فإنّ دراسته اتسمت بالعرض والسطحية ، وبالتحليل البعيد عن الموضوعية . فجاءت بالرغم من المادة الوفيرة التي حشدها بعيدة كل البعد عن الرصانة والعمق . حاول فيها ان يرسم اطاراً عاماً للصورة الشعبية المبالغ فيها والذي أسهم في تضخيم دورها التاريخي أسباب منها :

1- إنّ أعداء العباسيين ، حاولوا إظهار دعوتهم ، وكأنها حركة أعجمية خراسانية ، هدفها الانقضاض على العرب والثأر منهم ، وتدمير كيانهم ، ومعتقداتهم ، وقد ظهر ذلك جلياً في أشعار نصر ابن سيار والي خراسان ، والكتاب الذي زعم أنّه ضبطه مروان ابن محمد مع رسول إبراهيم الامام ، ورسالة عبد الحميد الكاتب عن مروان ابن محمد ، والخطبة المنسوبة لخطبة أحد قواد العباسيين العرب في أهل خراسان .

2- استمرار هذا التوجه عند أعداء البيت العباسي من العرب أنفسهم ، بعد انتصار دعوتهم ، وقيام دولتهم ، وذلك لبث الشكوك من حولهم ، وتآليب العرب عليهم .

3- استغلال الشعبية لهذه الدعاية استغلالاً واسعاً ، بهدف إبعاد العرب عن العباسيين ، ليرتمي الخلفاء في أحضان الخراسانيين خاصةً والفرس عامةً ، ثم إظهار الحضارة العباسية ، وكأنها امتداد لحضارة الفرس الساسانية أو تطوير لهذه الحضارة .

4- إعتداد المؤرخين القدماء على تاريخ الطبري كمرجع أساسي لكثير من المؤلفات التاريخية .

(16) - م.ن. ص : 431-432

(17) - م.ن. ص : 485 وما بعدها .

5 - إستغلال العديد من المستشرقين لهذه العوامل ، واستكمال المخطط الذي بدأه الشعبويون .

فكانت الرغبة في تحري الحقيقة وكشفها من الأسباب التي جعلتني أختار الشعبوية وأبعادها موضوعاً لأطروحتي ، خاصةً وإنَّ الأمة العربية تمر بظروف صعبة ومعقدة ، وتعاني من الأزمات الداخلية والخارجية ما يماثل تلك الظروف ، ويضاهي تلك الأزمات التي مرت فيها أبان نمو الحركة الشعبوية ونشاطها ، وهي ظروف تشد الحاجة فيها الى استلهام الماضي ودروسه وعبره . فعسى أن أكون قد وفقت الى ما ذهبت اليه . والله ولي التوفيق .

خليل جفال

بيروت 1983/1/30

الباب الأول : الجزور التاريخفة للشعوبفة

تمهفد : الشعوبفة فف اللغة والاصطلاح

الفصل الأول : الجزور التاريخفة للشعوبفة

الفصل الثاني : السمات الشعوبفة فف الثورة العباسفة

تمهيد

تعريف الشعوبية

الشعوبية في اللغة :

الشعوبية في اللغة نسبة الى شعوب ، ومفردھا شعب ، ولهذه الكلمة معانٍ كثيرة تفيد « المنع والجمع والتفريق والإصلاح والإفساد والإنصداع »⁽¹⁾ سنقتصر منها على تلك التي ترتبط بموضوعنا ، وتُلقي عليه ضوءاً ، يساعدنا على فهم تلك التسمية وماهيتها .

والشعب باعتبارها لفظة تُطلَقُ على جمع كثير من الناس ، فُيَسِّرَتْ على معانٍ ثلاثة :

الأول : الشعب أبو القبائل الذي إليه يتسبون ، فالشعب أكبر من القبيلة والقبيلة أكبر من العمارة ، والعمارة أكبر من البطن ، والبطن أكبر من الفخذ ، والفخذ أكبر من الفصيلة . . وعلى هذا المعنى ، فُسِّرَتْ الآية ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لِّتَعَارَفُوا ﴾⁽²⁾.

فالشعب قبيلة عظيمة ، تشعبت منها القبائل والبطن والأفخاذ . وهي لفظة عَنَتْ العرب دون غيرهم .

الثاني : الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، والجميع شعوب . وأما ما رُوِيَ من حديث عن مسروق « إِنَّ رجلاً من الشعوب ،

(1) - ابن منظور ، لسان العرب . ج 1 ، صادر 1955 ج : 1 ص : 497

(2) - القرآن الكريم ، سورة الحجرات ، رقم الآية : 13 .

أَسْلَمَ ، فكانت تُؤْخَذُ منه الجزية فأمر عمر أن لا تُؤْخَذَ منه ⁽³⁾ ،
فقد فسرهما ابن الأثير : « بأن الشعوب ههنا العجم ، ووجهه إن
الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، فُخِصَ
بأحدهما » ⁽⁴⁾ .

الثالث : الشعوب العجم ، والقبائل العرب ، والقبائل سميت قبائل لتقابلها
وتناظرها ، والشعوب سميت شعوباً لأنها تشعب أكثر من
القبائل . واللفظة بالجمع « شعوب » غلبت على جيل العجم ⁽⁵⁾ .

الشعبية في الإصطلاح :

« هم فرقة لا تفضل العرب على العجم ، ولا ترى لهم فضلاً على
غيرهم » ⁽⁶⁾ .

ولا بد لنا من التساؤل : لماذا سُمِّيَتْ هذه الفرقة بهذا الاسم ؟ ومن سماها
به ، وفي أي عصر ؟ لماذا نُسِبَتْ إلى الشعوب ، ولم تُنسَبْ إلى شعب ، ونسبتها
إلى الشعب أصح ؟

إذا صحَّ حديث مسروق الأنف الذكر ، فالعرب مصدر تلك التسمية ، ولفظة
الشعوب غلبت على العجم لعهد عمر ، فلما فشت العصبية بين الناس وتعصب

(3) - الأزهرى ، تهذيب اللغة ، الدار المصرية 1964 ج : 1 : 442 .

(4) - مصدر نفسه ج : 1 ص 442 .

(5) - اعتمدنا في هذا التقسيم على : ابن منظور ، لسان العرب ، ج : 1 ص : 497 وما بعدها .

الأزهرى ، تهذيب اللغة ، ج : 1 ص : 442 وما بعدها ، الحسيني ، تاج العروس ، ط القاهرة

1306 هـ . ج : 1 ص : 318 وما بعدها . الفيروز أبادي ، ط القاهرة ، 1331 هـ . ج : 1 ص : 88

وما بعدها . الماوردي ، الأحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ص : 36 . البستاني ،

قطر المحيط ، فوتو أوفست عن طبعة 1869 ، بيروت ، ج : 1 ص : 1044 وما بعدها . مسعود ،

الرائد ، دار العلم للملايين ، بيروت - ط 1962 ص : 881

(6) - ابن منظور ، لسان العرب ، ج : 1 ص : 501-500 ، الحسيني ، تاج العروس ، ج : 1 ص :

321 . الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ج : 1 ص : 88

كُلُّ قَوْمٍ لِقَوْمِهِمْ ، أُضِيفَتْ ياء النسبة الى شعوب ، فقليل : شعوبي لكل من يحتقر العرب ، أو لا يرى لهم فضلاً على غيرهم ، كما قيل أنصاري نسبة الى أنصار النبي من أهل المدينة . ولكن أحمد أمين ، يرد هذا الرأي لأسباب ، منها : إنَّ مسروقاً كان في العصر الأموي ، وحديثه قد فسره المفسرون بما عرفوه بعد عصره ، وإنَّ نزعة الشعوبية لم تتخذ شكلاً قوياً واضحاً إلا في العصر العباسي ، فكيف تُسمَّى ولم تُوجد بعد ؟ ثم إنَّ أكثر أسماء المذاهب التي وضعت في صدر الإسلام وبداية العصر الأموي ، لم تكن فيها ياء النسبة ، كالخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة⁽⁷⁾ .

وأما أحمد لوساني ، فيرى أنَّ النسبة الى الشعب لا الشعوب أصح لغة ، وبالتالي فإنَّه يرجح أنَّ مطلقها من غير العرب ، ولا يملك السليقة اللغوية العربية ، وعليه فالتسمية قد اطلقت على القوم من أنفسهم ، وأعجبهم الاسم ، فتسموا به⁽⁸⁾ .

والقراءة التاريخية لصدر الاسلام والعصر الأموي ، تثبت أنَّ هذه الحركة ، وإنَّ وجدت لها البذور والجذور ، فلم يكن مهياً لها السفور والاشتداد إلا في بداية العصر العباسي ، ولم تُطلق هذه التسمية على هذه الجماعة من الناس ، إلا بعد أنَّ سنحت الفرصة لأصحابها بالجهر بأقوالهم والدفاع عنها ، سواء في مناظرات كلامية أو قصائد شعرية ، وفي كتب تكتب ويُنسَط فيها القول وتُحشَد لها البراهين .

وتعريف الشعوبية في القديم كما في الحديث ، لا يخلو من أخذ ورد ، فالجاحظ ميَّز الشعوبية من أهل التسوية ، فقال : « نبدأ على اسم الله تعالى بذكر مذهب الشعوبية ، ومن يتحلى باسم التسوية »⁽⁹⁾ ثم يصف الشعوبية بما لا يتوافق

(7) - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : ١ ، الكتاب العربي ، ط 10 بيروت ، بدون تاريخ ، ج : ١ ص : 56-57 .

(8) أحمد لوساني ، نظرات جديدة في الأدب ، بيروت ، 1980 ، فصل الشعوبية .

(9) - الجاحظ ، البيان والنبين ، دار صعب ، بيروت 1968 . ج : 3 ص :

دينياً على الأقل مع أوصاف أهل التسوية ، الذين ينطلقون بآرائهم على أساس من القرآن والسنة ، فيقول : « واعلم أنك ، لم ترَ قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جشوم⁽¹⁰⁾ الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن⁽¹¹⁾ في قلوبهم ، وغلbian تلك المراحل⁽¹²⁾ الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطربة ولو عرفوا أخلاق كل ملّة وزي كل لغة ، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم ، وشمائلهم وهياتهم ، وعلّة كل شيء من ذلك ، ولمّ اختلقوه ولمّ تكلفوه ؟ لأراحو أنفسهم ، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم »⁽¹³⁾

وقد اتفق ابن قتيبة في ذلك مع الجاحظ فاعتبر أنّ الكره والمحقد والحسد دفع الشعوبية لتدفع العرب « عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة »⁽¹⁴⁾ .

أما المسعودي ، فاعتبر أنّ كلّ من لا يقر بفضل العرب على غيرهم من الشعوب شعوبياً ، أقال بالتسوية أمّ جحد العرب الفضائل وألحق بهم الرذائل⁽¹⁵⁾ .

وكما اختلف الأقدمون ، ولم يتفقوا على تعريف دقيق للشعوبية ، فكذلك اختلف المحدثون حول هذا التعريف ، فاعتبر احمد أمين أنّ الناس في العصر العباسي ، قد انقسموا الى ثلاثة تيارات : الأول : يتعصب للعرب ، والثاني : لا يرى لهم أو لغيرهم فضلاً ، يستند في رأيه على تعاليم الاسلام ، والثالث : يحط من شأن العرب ويفضل العجم عليهم ، ويرى أنّ الشعوبية تاريخياً ، أُطْلِقَتْ على التيارين الأخيرين ، مع أنّ التسمية يجب أن تُطْلَقَ على أصحاب النزعة الثانية ،

(10) جشوم ومفردها جشم فيقال : جشم الليل : إذا انتصف وجثم الرجل إذا تلبد بالأرض .

(11) - الشنآن : البغض مع العداوة وسوء الخلق .

(12) - الجاحظ ، البيان والبيان ج : 3 ص : 405-406 .

(13) -

(14) - ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) القاهرة 1946 ص : 344 .

(15) - المسعودي ، مروج الذهب ، دار الفكر ، بيروت ط 1973 . 54-53 ص : 2 .

لأنها قالت بمساواة الشعوب ، ويلاحظ أن هذه النزعة قد سبقت تاريخياً ، النزعة الثالثة ، وأن الأخيرة كانت نتيجة لها⁽¹⁶⁾ .

واتفق شوقي ضيف مع احمد امين في وجود هذه الفئات الثلاث غير أنه رأى أن الشعوبية لا تصدق إلا على من تجاوز مبدأ التسوية بين المسلمين الى الحط من شأن العرب ، وتفضيل غيرهم عليهم⁽¹⁷⁾ .

وقد عرفها حتي بأنها « حركة ترمي الى مقاومة روح السيادة والأفضلية التي كان يبيدها المسلمون العرب . . . وكان قوامها الدعوة الى التسوية بين كل المسلمين »⁽¹⁸⁾ .

بينما اعتبر جولد زيهر الشعوبية « انهم جماعة المفكرين والكتاب الذين يمثلون خلاصة جماعة كبيرة ، يدعون باسم الاسلام المساواة بين العرب الخالص وغيرهم من مسلمي الشعوب الأخرى »⁽¹⁹⁾ . وقد شاركه فلهوزن في هذا الرأي ، فاعتبر الشعوبية حركة دينية لها طابع اجتماعي سياسي وخالفه باعتبارها جماعة منظمة أو حزباً⁽²⁰⁾ .

أما زاهية قدورة ، فقد وافقت الجاحظ وابن قتيبة ، فعرفتها بأنها فكرة سياسية أدبية ، اتخذت الدين ستاراً لها ، ونشأت عنها حركات بعضها أدبي وبعضها ديني ، وبعضها ثوري ، وقد كان مبعث تلك النزعة الصراع المتصل بين العناصر الجنسية التي كانت تؤلف الدولة العربية حينذاك⁽²¹⁾ .

وقد فهم إسماعيل العوفي الشعوبية فهما قريباً من ذلك مستنداً على ما يظهر

(16) - احمد امين ، ضحى الإسلام ج : اص : 49-55.

(17) - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول ، دار المعارف بمصر ط 3 ، بدون تاريخ ص : 75 .

(18) - فيليب حتي ، تاريخ العرب ، دار الكشاف 1965 ، بيروت ج : 1 ص : 488.

(19) Goldziher, Muhammedanische studien P. 147.

(20) Wellhausen, Arab Kingdom. P.535.

(21) - زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ط 1 بيروت 1972 ص : 22-23.

على كتابات الجاحظ وابن قتيبة ، فعرفها بقوله : إنها حركة عدائية عدوانية مضادة ، ذات طبيعة تعصبية عمياء ، ومقاصد تخريبية هدامة ، وتقوم في جوهرها على مناهضة العرب قوميةً ، وأمةً وشعباً ووطناً ودولةً وحضارةً ، ومحاربتهم محاربةً شعواء لا هوادة فيها ، وتأليب الخصوم والأعداء عليهم في كل مكان⁽²²⁾.

ونحن اذ نتفق مع تعريف فيليب حتي ، بأنها حركة معارضة ومناهضة للسيادة العربية نضيف : أنها حركة غير منظمة ، وغير محددة المبادئ والأهداف ، تصطبغ بذاتية الأشخاص الذين آمنوا بها ، ولئن انطلقت على أساس من مبادئ القرآن والسنة ، فإنها لم تقف عند المناداة بمبادئ العدالة والتسوية بين المسلمين ، بل تعدتها الى الدعوة لتقويض السلطان العربي ، وأحياناً لتحطيم الإسلام من حيث هو قوة إيمانية أو سياسية .

ويمكننا القول بوجود فئات شعوبية ثلاث ، يتعايش بعضها مع بعض من دون أن يلغي وجود احداها وجود الآخرين ، وهي :

الفئة الأولى : ويمثلها أهل التسوية أو الديمقراطيون بتعبير العصر ، وكان بينهم كثير من العرب والمؤمنين⁽²³⁾.

الفئة الثانية : ويمثلها أولئك الذين تطوعوا لمحاربة العرب والمسلمين مادياً بشكل ثورات أو معنوياً في حركات دينية ذات برامج سياسية ، أو حركات فكرية تشكك بالدين ، وتخرب فيه من داخل ، أو تنقضه وتجادل في مرتكزاته الإيمانية من خارج .

الفئة الثالثة : ويمثلها أولئك الذين توسطوا الفئتين الأولى والثانية فلم يكتفوا

(22) - اسماعيل العوفي ، في الشعوبية - بيروت 1979 ص : 15 .

(23) - من المشهور أن الخوارج جروا أن يتولى الإمامة - وهي أكبر منصب ديني وسياسي في الدولة أي مسلم - شرط أن يتمتع بشروط شخصية معينة . وكذلك المعتزلة ، فإن منهم من جوزها حتى في الأنباط .

انظر الملل والنحل - دار المعرفة - بيروت 1980 ج : 1 ص : 116 .

بالمطالبة بالمساواة ، وإنما احتقروا العرب ، وفخروا عليهم ، وحاولوا التفوق عليهم ، دون ان يدفعهم ذلك الى التخلي عن الإسلام أو الكيد له .

ولئن كانت الشعبية تياراً عباسياً ، فإنَّ بذورها تعود الى ما قبل العصر العباسي بأعوام كثيرة . الى بداية الفتوح الإسلامية ، حيث اصطدم العرب المسلمون بجيرانهم من الشعوب الأخرى . فكيف نشأت الحركة الشعبية ، ونمت ؟

الفصل الأول

الجدور التاريخية للشعبوية

- نشأة الشعبوية**
- الموالي في العهد الأموي**
- ثورتا المختار وابن الأشعث**
- ملامح شعبوية في الشعر الأموي**

نشأة الشعوبية

إنَّ ما يظهر في المجتمعات الإنسانية ، من تيارات فكرية ، وصراعات سياسية ، هي نتيجة لعوامل وأسباب في ذات المجتمع ، لم يستطع المجتمع استيعابها في حركته الداخلية ، فظهرت على السطح ، لتأخذ أشكالاً متعددة تعبر فيها عن جوهرها .

وكذلك الحركة الشعوبية ، فإنَّها لم تكن حدثاً طارئاً في تاريخ الدولة العربية الإسلامية ، ولم تظهر فجأة في المجتمع الإسلامي ، ولكنها حركة لها جذورها ، التي تمتد الى بداية الفتوح الإسلامية ، فهذه الحركة لم يُكْتَبْ لها النمو والانتشار لو لم تَجِدْ من الظروف الذاتية والموضوعية ما يبررها ، ويساعدها على النمو .

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، لا بد من رصد الحركة الداخلية التي أفرزت ما يسمى بالحركة الشعوبية في المجتمع الإسلامي .

علاقة العرب بالفرس قبل الإسلام :

تتميز الجزيرة العربية بـمِيزة هامة في التاريخ وهي أنها لم تخضع لسلطة أجنبية قط ، إلا في بعض أطرافها الجنوبية والشمالية ، وفي فترات محدودة من الزمن .

وتاريخ العرب قبل الاسلام غني بحضارة تعود الى أكثر من ألفي سنة قبل

الميلاد⁽¹⁾ ولم يعيش العرب في صحرائهم منكشيين على ذاتهم ، إنما كانت لهم مصالح تجارية وسياسية مع الأمم المجاورة .

وعلاقاتهم تلك لم تكن تشعرهم بالذل أو الضعف كما ظن أحمد أمين⁽²⁾ . إنما كانت تشعرهم بالعزة والفخر لعلمهم بمناعة الصحراء ، وتعذر التغلغل فيها على غيرهم . وقد تركت لنا المصادر القديمة شواهد على ذلك تمثل عزة العربي في صحرائه وتطلعه الى الخروج منها والسيطرة على ما يجاورها من الأمصار . من ذلك مسير تبع ملك اليمن الى الحيرة وإخضاعها ثم توجهه الى الأنبار ثم الموصل ، فأذربيجان وملاقاته جيوش الترك والتغلب عليها ، ورجوعه الى اليمن ثم غزوه الصين وهزيمة جيوشها ، وإخضاعه الروم وفرض الجزية عليهم وقتله لملك الفرس قباد المتزندق⁽³⁾ .

وإذا تجاوزنا التبابعة إلى غيرهم من العرب نجد جماعة من قبائلهم وقد تحالفت على التنوخ وهو المقام ، وتعاقدوا على التآزر والتناصر ، فصاروا يدا واحدة على الناس وضمهم اسم تنوخ ، وذلك أيام ملوك الطوائف من العجم ، وتطلعت نفوسهم الى ريف العراق وطمعوا في غلبة الأعاجم على ما يلي بلاد العرب منه أو مشاركتهم فيه⁽⁴⁾ وكثيراً ما كان العرب يغيرون على السواد فيقتلون ويأسرون ويغنمون لا يمنعهم من ذلك خوف من الفرس أو من بطشهم ، وقد افتخر بعضهم فقال :

« لَقَيْنَاهُمْ بِجَمْعٍ مِنْ عُلَافٍ⁽⁵⁾ وَبِالْخَيْلِ الصَّلَادِمَةِ⁽⁶⁾ الذُّكُورِ

(1) - حتي ، تاريخ العرب ، دار الكشف - بيروت 1965 ج : 1 ص : 56 وما بعدها .

بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية - دار العلم للملايين ط 8 بيروت 1979 ص : 15 وما بعدها .

(2) - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ج : 1 ص : 17-18 .

(3) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك . ط دار الفكر - بيروت 1979 ج : 2 / ص : 3 .

(4) مصدر نفسه ج : 2 ص : 27 .

(5) علاف : اسم لبطن من بطون العرب .

(6) الشديدة الحوافر .

فلاقت فارس منا نكالاً وقتلنا هرايدَ شهرزور⁽⁷⁾

دلفنا للأعاجم من بعيد جمع كالجزيرة في السعير⁽⁸⁾

ولمَّا ملَّك الفرس عليهم سابور ذا الأكتاف وهو حدث ، وعتت الفوضى بلاد فارس ، سار العرب نحوهم في البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أناخوا على إيران شهر وسواحل أردشير خرّه وأسياف فارس ، وغلبوا أهلها على مواشيهم وحروثهم ومعاشهم ، واستمروا على ذلك حتى واقعهم سابور وهزمهم ، واعمل فيهم القتل والأسر وتخليع الأكتاف ، فما كان منهم إلا أن حالفوا الروم وقاتلوا سابور ، وهزموه ، حتى اضطرَّ أن يكتب الى النواحي طالباً النجدة⁽⁹⁾.

وقبل الفرس حاول بخت نصر غزو بلادهم وتوغل حتى الحجاز فتصدى له عدنان واضطره الى الانكفاء والتراجع عن بلاد العرب⁽¹⁰⁾.

أما خبر وفود النعمان على كسرى ، وذكره العرب بين يديه ، وما جرَّ ذلك من مناظرة⁽¹¹⁾

فبالرغم من شك بعض المحدثين فيه ، فإنّه يبقى من حيث الروح والجوهر ، خير مثال لتصوير العلاقة القائمة بين العرب والفرس قبل الاسلام . وأما ما يزعمه أحمد أمين من أن العرب « لم يكن لهم شعور قوي بأنهم أمة ، إنما كان الشعور القوي عندهم شعور الفرد بقبيلته . . . والسبب في ذلك واضح ، وهو أن العرب في الجاهلية ، لم يكونوا أمةً بالمعنى الصحيح ، فلم يتحدثوا لغةً ولا ديناً ، وليس لهم آمال وطنية واحدة ، ولا ما هو شرط أولي للأمة »⁽¹²⁾.

(7) مرايد شهرزور : خدم نار المجوس في شهر زور .

(8) الطبري = تاريخ الأمم والملوك ج : 2 ص : 61-62 ، ابن الأثير الكامل في التاريخ ط دار صادر 1979 ج : 1 ص : 387.

(9) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك ج : 2 ص : 66 ، المسعودي ، مروج الذهب ج : 1 ص : 254 وما بعدها .

(10) - ابن الأثير . الكامل في التاريخ . ج : 1 ص : 271-272.

(11) - ابن عبد ربّه . العقد الفريد . ج : 1 ص : 228 وما بعدها .

(12) - أحمد أمين . ضحى الإسلام ج : 1 ص : 17

فالحقيقة أنَّ شعور العربي بالقبيلة كان قوياً بل كان طاعياً ، ولكن هل ينبغي شعور العربي بالقبيلة شعوره بأنَّه عربي ؟ وإذا قلَّ تَغْنَى الجاهلي بالعروبة وندر افتخاره بها على الأمم ، أيعود ذلك الى فقدان الشعور بالعروبة من وجدانه ؟

إنَّ العربي في صحرائه ، لم يُنَافَسْ إِلَّا من قبل أبناء القبائل الأخرى ، ومجتمعه مجتمع عربي ، يمتاز بالصفاء العرقي والثقافي على العموم ، فأَيُّ شيء يدفعه ليفخر بعروبه، وأَيُّ فضيلة له في ذلك، طالما أنَّ القبائل الأخرى كلها كانت عربية؟ أنا لا أزعَم أنَّ لدى العرب في جاهليتهم مفهومات عن الأمة والعروبة صريحة وواضحة وذلك لا يعود الى العرب ، بقدر ما يعود لطبيعة عصرهم . وهم على تفرقهم وتشرذمهم قبائل وبطوناً متناحرةً فقد امتنعوا في شبه جزيرتهم حتى على الإسكندر⁽¹³⁾.

ثم لو كان في نفوس العرب من الرهبة والخشية للفرس والروم ما يرويه البعض ، فكيف نفسر الوضع الهجومي الذي اتخذه العرب بعد سنوات من تمركز الإسلام في الجزيرة العربية ؟ اليس التتيجة المنطقية للرهبة والخشية ، اتخاذ وضع دفاعي حذر ؟ وإذا تأملنا ظاهرة أخرى ، وهي وجود دولة للغساسنة في سوريا الشمالية ، ودولة للعرب اللخمين في العراق ، لم نجد أحداً من المؤرخين يشك في أنَّ الفرس والروم ، إنما اصطنعوا هاتين الدولتين لرد غارات البدو عن تخومهم⁽¹⁴⁾.

وعندما غدر كسرى الثاني ، بالنعمان الثالث ملك اللخمين لأنَّه رفض تزويجه ابنته ، واستدرجه الى فارس ، وخلعه عن العرش ، لم يلبث العرب ، ولهذا السبب بالذات أنَّ هاجموا الفرس ، وهزمهم هزيمةً حاسمةً في ذي قار⁽¹⁵⁾.

أما ما يعتبره أحمد أمين ، بأنَّ هذا النصر « ليس بشيء ذي خطر ، فأَيَّة

(13) - حتي ، تاريخ العرب ، ج : 1 ص : 56 وما بعدها .

(14) - بروكلمان . تاريخ الشعوب الإسلامية ص : 23

(15) - أبو الفرج ، الأغاني (طبعة دار صعب) ج : 2 ص : 31 ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص : 24 .

فرقة ، لأية أمة ، عرضة للإنهزام»⁽¹⁶⁾ . فإنه لا يقلل من أهمية المعركة شيئاً ، فقد كانت البداية والخطوة الأولى في تقويض العرش الساساني في الفتوح الإسلامية بعد قليل من السنين⁽¹⁷⁾ وقد شعر الرسول العربي بأهمية هذه المعركة ، فقال : « اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبني نُصِرُوا »⁽¹⁸⁾ .

صحيح أن الشعر الذي صدر بعد هذه المعركة ، لم يكن يتغنى بانتصار العرب ، إنما بانتصار القبائل المشتركة في المعركة ، ولكن حتى في الفتوح الإسلامية ظلت هذه النزعة قوية ، يصدر عنها الشعراء في تسجيل الانتصارات والفخر بها ، ولم يقل أحد إن تلك الجيوش لم يكن لديها الاحساس بالعروبة والإسلام .

« لقد كان التنافس قوياً بين أبناء الحضارتين ... منذ آلاف السنين ... والتمايز بين العرب والعجم ضارب في أعماق التاريخ . لكن الصراع لم يبدأ إلا مع أيام الإسلام الأولى ، حين أرسل الخليفة عمر جيشاً بقيادة سعد ابن أبي وقاص »⁽¹⁹⁾ ليَهْزَمَ الأمبراطورية الساسانية في معركة القادسية .

العرب والموالي في العهد الراشدي :

اعتنق العرب الإسلام ، ولم يكن منذ اللحظة الأولى ديناً للعرب ، مقصوراً عليهم ، إنما هو دين للعالمين ، إلى أي جنس انضموا وإلى أي لون انتسبوا ، فآمن به العرب ، وآمن به الموالي ، والعديد من صحابة الرسول (ص) هم من الموالي ، فكيف عالج الإسلام هذه القضية ؟

إن ما ورد في القرآن الكريم من الآيات الكريمة ، وفي المأثور من كلام

(16) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ج : ١ ص : 18 .

(17) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص : 24 .

(18) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج : 6 ص : 96 .

(19) - مجلة الحوادث - عدد تشرين ثاني 1980 ص : 35 .

النبي (ص) لا يميز بين مسلم ومسلم ، إلا بتقواه ، وتقربه إلى الله ، فالإسلام دين للإنسانية ، لا يفضل قوماً على قوم أو جنساً على جنس ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أُخُوَّةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (20) وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (21) وقال عليه السلام « يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتفاخرها بالآباء ، ليس لعربي على عجمي فخر إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب » (22) وقال (ص) : « المؤمنون تنكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » (23).

فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يؤثر عنه تفضيل عربي على مولى ، أو تقديم أحد من الصحابة لعروبه على آخر لأنه من الموالي ، فقد « ولى رسول الله (ص) جيش مؤتة زيداً مولاه ، وقال : إِنْ قُتِلَ فأميركم جعفر ، وأمر رسول الله (ص) أسامة ابن زيد ، فبلغه أَنَّ قوماً طعنوا في إمارته ، وكان أمره على جيش فيه جلة المهاجرين والأنصار ، فقال عليه السلام : إِنْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَتِهِ ، لَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ ، وَلَقَدْ كَانَ لَهَا أَهْلًا ، وَإِنَّ أُسَامَةَ لَهَا أَهْلٌ » (24).

« وقالت عائشة (رض) : لو كان زيد حياً ما استخلف رسول الله غيره » (25).

« وقال عبد الله ابن عمر لأبيه : لِمَ فضلت أسامة علي وأنا وهو سيان ، فقال : كان أبوه أحب إلى رسول الله من أبيك ، وكان أحب إلى رسول الله منك » (26).

(20) - القرآن الكريم ، سورة الحجرات رقم الآية 10

(21) - القرآن الكريم ، سورة الحجرات رقم الآية 13

(22) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 322 وما بعدها .

(23) مصدر نفسه ج : 3 ص : 322 وما بعدها .

(24) - المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف - بيروت ، بدون تاريخ ج : 2 ص : 310

(25) مصدر نفسه ج : 2 ص : 310-311.

(26) - م.ن. ج : 2 ص : 310-311.

« وقال علي بن أبي طالب (عليه السلام) : سلمان منا أهل البيت »⁽²⁷⁾.

فالرسول (ص) لم يرَ في ولاء زيد وأبنته أسامة ما يمنعه من تأميرهما على الجيش ، حتى لو كان في الجيش جلة المهاجرين والأنصار ، وإن امتعض البعض من هذا التصرف ، فلم يلتفت النبي لامتعاضهم ، بل رآهما أهلاً للمهمة الموكولة بهما ، وقد ظنت عائشة أن رسول الله قد يستخلف زيداً لو بقيَ على قيد الحياة ، لِمَا رَأَتْهُ من محبة الرسول له . بل هذا عمر ابن الخطاب يصرح بتقديم منزلة زيد عند رسول الله على منزلته ، وتقدم أسامة ابن زيد على ابن عمر عبد الله ، وعبد الله لم يدعِ على كل حال أكثر من مساواته أسامة . وعلي يعتبر سليمان من أهل البيت بولائه من رسول الله .

واعتبار مولى القوم منهم ، تظهر جلية واضحة في منازعة أسامة ابن زيد وعمرو ابن عثمان في أمر ضيعة يدعيها كل واحد منهما ، « فلجت بهما الخصومة ، فقال عمرو : يا أسامة ، أَتَأْتُفُ أَنْ تكون مولاي ، فقال أسامة : يسرني بولائي من رسول الله (ص) نسبك ، ثم أرتفعاً إلى معاوية ، فلجأ بين يديه في الخصومة ، فتقدم سعيد ابن العاصي الى جانب عمرو ، فجعل يلقيه الحجة ، فتقدم الحسن الى جانب أسامة يلقيه ، فوثب عتبة ابن أبي سفيان ، فصار مع عمرو ، ووثب عبد الله ابن العباس ، فجلس مع أسامة ، فقام الوليد ابن عتبة ، فجلس مع عمرو ، فقام عبد الله ابن جعفر ، فجلس مع أسامة ، فقال معاوية : الجلية عندي ، حضرت رسول الله (ص) وقد أقطع هذه الضيعة أسامة ، فانصرف الهاشميون ، وقد قضى لهم »⁽²⁸⁾.

نرى أن الهاشمين قد تعصبوا لمولاهم ، كما تعصب الأمويون لأحدهم ، ومعاوية لما قضى لأسامة ، إنما قضى للهاشمين .

وفي الزواج ، لم يُنْظَرْ إلى المسلم من حيث هو مولى أو ولي ، بقدر ما

(27) م.ن. ج : 2 ص : 311

(28) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ج : 1 ص : 296 وما بعدها .

نَظَرَ اليه من حيث هو مسلم ، يتقي ربه ، ويخشاه . فقد « خطب بلال على أخيه امرأة من بني حسل من قريش ، فقال : نحن من قد عرفتم ، كنا عبيد ، فأعتقنا الله ، وكنا ضالين ، فهدانا الله ، وفقيرين ، فأغنانا الله ، وأنا أخطب على أخي خالد فلانه ، فإن تَنَكَّحُوهُ ، فالحمد لله ، وإن تردوه ، فالله أكبر ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقال : هو بلال ، وليس مثله يدفع ، فزوجوا أخاه . فلما أنصرفا ، قال خالد لبلال : يغفر الله لك ! ألا ذكرت سوابقنا ، ومشاهدنا من رسول الله (ص) ، قال بلال : مه ، صدقت ، فأنكحك الصدق »⁽²⁹⁾.

والشواهد على تعامل المسلمين الأول بروح الاسلام وتعاليمه أكثر من أن تُحصَى . وأما ما يُنسَبُ الى عمر من قسوته على الموالي في بعض الأحيان ، أو تعصبه للعرب في الأحيان الأخرى ، فقد حُمِلَ على غير وجه ، وأسيء فهمه . فقد كان عمرُ مسلماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وقد رفض - كما سبقت الإشارة إليه - أن يقدّم ابنه عبد الله على أسامة ابن زيد ، وصرح بأن أسامة وأباه أحب إلى رسول الله من عبد الله وأبيه . وإذا قال : « تعلموا النسب ، ولا تكونوا كنبط السواد ، إذا سئل أحدهم عن أصله ، قال : من قرية كذا »⁽³⁰⁾ فدعوته لتعلم النسب ، لا للفرقه به ، وتعلم النسب ضرورة فيه العطاء من بيت المال ، وهو يقوم مقام الهوية الشخصية اليوم ، أضف الى ذلك أن الجيش الإسلامي كان مقسماً الى وحدات قبلية .

أما ما لاحظته السيدة قدورة ، من أن عمر « أراد عزل العرب المسلمين عن غيرهم من الشعوب ، وحفظهم عنصراً ارستقراطياً لا تشوّهه العناصر الغريبة الأخرى . كما فرض أهم الضرائب على عاتق العرب »⁽³¹⁾ فلم يكن بمقدور عمر إلا أن يفعل ذلك ، فالمسلمون جلهم ، بل كثرتهم الكثيرة من العرب ، وهم قلة عددية بالنسبة الى الشعوب الأخرى في البلدان المفتوحة ، والفتوح لم تستقر

(29) ٨ ابن قتيبة ، عيون الأخبار - دار الكتب المصرية 1925 ج : 4 ص : 73.

(30) - ابن خلدون ، المقدمة ، ط . دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ ص : 130.

بعد ، فإذا انخرطت الجيوش في الحياة العادية لسكان تلك البلدان ، فمن يقوم بعبء الدفاع عن الأراضي التي سيطر عليها المسلمون ؟

أما منعه العرب من امتلاكهم الأراضي ، فقد كان لعلة عسكرية بحتة ، كما أشارت السيدة قدورة⁽³²⁾ ، ولأسباب إقتصادية كذلك ، فالعرب لا خبرة زراعية لديهم ، وانتزاع الأرض من زراعيها الأصليين ، يترتب عليه نتائج إقتصادية تسيء لخزينة الدولة الفتية وتسبب اضطراباً إقتصادياً في البلاد المفتوحة . وإذا كان هذا التدبير سبباً من أسباب ظهور الشعوبية كما ظنت السيدة قدورة ، فانتزاع الأراضي ، يكون سبباً أوكد وأبعد أثراً منها .

وأما ما يُروى من أن بعض العمال كتب « الى عمر . . . أن العدو قد كثر ، وأن الجزية قد كثرت ، أفنستعين بالأعاجم ، فكتب اليه : إنهم أعداء الله ، وإنهم لنا غششة فانزلوهم ، حيث أنزلهم الله »⁽³³⁾.

فظاهر أن هؤلاء الأعاجم المقترحين ، كانوا من غير المسلمين ، وأستعمال غير المسلم على شؤون المسلمين مكروه .

وقد منح الخليفة عمر مقاتلة العجم الذين دخلوا في الإسلام طوعاً من الإمتيازات ما يفوق مقاتلة العرب⁽³⁴⁾.

أما قول المأمون ، وقد أستغاث أحد الموالى بعمر « إن عمر ابن الخطاب كان يقول : من كان جاره نبطياً ، وأحتاج الى ثمنه ، فليبعه »⁽³⁵⁾ ، فلم يؤثّر مثل هذا القول إلّا عن المأمون ، ولعل أستغاثة المولى بعمر خير دليل على معاملة عمر للموالى معاملة حسنة ، تتلاءم وتعاليم الدين الحنيف .

(31) - قدورة ، الشعوبية وأثرها ص : 39.

(32) - مرجع نفسه ص : 40.

(33) - الأبيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف بيروت 1952 ، ج : 1 ص : 111

(34) - ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 330.

(35) - الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة الإسلامية بدون تاريخ ج : 1 ص : 51-52

وإذا أتينا على حادثة مقتله⁽³⁶⁾ ، نرى أَنَّ العامل الشخصي لعب الدور الأكبر في هذه القضية ، يغذيه شعور ديني . . . دون شك ، فأبو لؤلؤة ، كان غلاماً للمغيرة آبن شعبة ، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم ، فلقبي عمر ، وشكا إليه ذلك ، فقال عمر : « إتي الله ، وأحسن الى مولاك ، فغضب أبو لؤلؤة وقال : يا عجباه ، قد وسع الناس عدله غيري ، وأضمر على قتله » وعنه قال عمر : قاتله الله ، لقد أمرت به معروفاً ، ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام ، وكان أبو لؤلؤة مجوسياً⁽³⁷⁾ .

فأبو لؤلؤة لاحظ عدل عمر ، ليس مع العرب ، وإنما مع الموالي أيضاً ، وفهم خطأً من كلام عمر أنه رفض دعواه . ولما طعن عمر ، لم يتأثر بكون الطاعن من الموالي ، فقدم صُهيياً « على المهاجرين والأنصار ، فصلى بالناس ، وقيل له : استخلف . فقال : ما أجد من أستخلف ، فذكر له الستة من أهل حرا ، فكلهم طعن عليه ، ثم قال : لو أدركت سالماً مولى أبي حذيفة حياً لما شككت فيه ، فقال في ذلك شاعر العرب :

هذا صهيب أم كل مهاجر	وعلا جميع قبائل الأنصار
لم يرض منهم واحداً لصلاتنا	وهم الهداة وقادة الأخيار
هذا ولو كان المثرم ⁽³⁸⁾ سالم	حياً لنال خلافة الأمصار
ما بال هذي العجم تحيا دوننا	إن الغوي لفي عمى وخسار ⁽³⁹⁾

وإذا انتقلنا الى عهد علي ابن أبي طالب وجدنا تمسكاً شديداً بمبادئ الإسلام ، ورفضاً للمساومة حتى السياسية منها على حساب فئة من المسلمين ، أو جنس من أجناسهم « فقد كان علي . . . لا يفضل شريفاً على مشروف ، ولا

(36) - حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ، اعتبر حجاب أن النزعة الشعوبية وراء مقتل عمر ص : 119 وما بعدها .

(37) - الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ج : 1 ص : 51-52 .

(38) المثرم : من تكسرت اسنانه من أصولها .

(39) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 320-321 .

عربياً على عجمي ، ولا يصانع الرؤساء ، وأمراء القبائل ، فكان هذا من أكد الأسباب في تقاعد العرب عنه ⁽⁴⁰⁾ بل « إن طائفة من أصحاب علي مشوا اليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ، وأستمل من تخاف خلفه من الناس - وإنما قالوا له ذلك ، لما كان معاوية يصنع في المال . فقال لهم : أأمروني أن أطلب النصر بالجور ؟ » ⁽⁴¹⁾.

ولعل خير ما يصور سياسة علي تجاه الموالي ، ردة فعله عندما خاطبه الأشعث ابن قيس قائلاً : « يا أمير المؤمنين ، غلبتنا هذه الحمراء على قريك . . . فركض علي المنبر برجله . فقال صعصعة ابن صوحان العبيدي : مالنا ولهذا (يعني الأشعث) ليقولن أمير المؤمنين اليوم في العرب قولاً لا يزال يذكر . فقال علي : من يعذرني من هذه الضيافة ، يتمرغ أحدهم على فراشه ، تمرغ الحمار ، ويهجر قوم للذكر ، فيأمرني أن أطردهم ، ما كنت لأطردهم ، فأكون من الجاهلين ، والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً ⁽⁴²⁾ » .

الموالي في العهد الأموي :

اعتلى معاوية سدة الخلافة الإسلامية ، لا عن شورى ولا ولاية ، ولا سابقة بالإسلام ، بعد أن ناصب علياً الخلاف مدة خلافته ، وتغلب عليها بعد وفاته ، وجعل ولاية العهد لابنه من بعده ، فأعتبر كثير من المؤمنين أن الأمويين أغتصبوا الخلافة ، وصيروها ملكاً كسروياً . وأنضوت المعارضة للبيت الأموي في ثلاثة أحزاب رئيسية : الشيعة - الزبيرية - الخوارج ⁽⁴³⁾.

(40) - علي ابن أبي طالب ، نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) القاهرة 1329 هـ . ج : 1 ص : 180

(41) - مصدر نفسه . ج : 1 ص : 180 .

(42) - المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ج : 1 ص : 274 .

(43) - خليل جفال ، الخليفة عبد الملك ابن مروان ، الجامعة اللبنانية 1979 ص : 27 وما بعدها

نأصبت هذه الأحزاب الأمويين العداء ، وسعت الى القضاء عليهم . وأعتمدت الخلافة الأموية في توطيد سلطتها إحياء النزعة القبلية ، وحكمت بموجب توازنات أساسها العصبية القبلية ، ولم تفسح المجال لتسرب الموالي وكسب منطقة نفوذ لهم في هذه السياسة . ليس هذا وحسب . إنما مارست الدولة سياسة التفرقة والتمييز بين العرب والموالي ، وحرصت على إبعادهم عن أي من مراكز السلطة أو النفوذ . فكان طبيعياً أن ينحازوا الى المعارضة ، ينخرطون في أحزابها أملاً في التخلص من الحكم الأموي الذي جاهر بعدائه لهم واحتقاره إياهم .

وهذه السياسة ظهرت باكراً عند الأمويين « فقد دعا معاوية الأحنف ابن قيس وسمرة ابن جندب ، فقال : إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت ، وأراها قد طعنت على السلف ، وكأنني أنظر وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت : أن أقتل شطراً ، وأدع شطراً لإقامة السوق ، وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ فقال الأحنف : أرى أن نفسي لا تطيب ، أخي لأمي ، وخالي ومولاي وقد شاركناهم ، وشاركونا في النسب ، فظننت أنني قد قتلت عنهم ، وأطرق . فقال سمرة ابن جندب : أجعلها إلي أيها الأمير ، فأنا أتولى ذلك منهم ، وأبلغ منه . فقال : قوموا حتى أنظر في هذا الأمر . قال الأحنف : فقمنا عنه ، وأنا خائف ، وأتيت أهلي حزيناً ، فلما كان الغداة ، أرسل إلي ، فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأي سمرة » (44) .

فهل بدأت الشعبية تطل برأسها ، بطعن الموالي على السلف ؟ على كل ، فالسياسة الأموية ، لا تسمح بذلك ، والمجتمع العربي وقتئذ تتنازعه نزعتان : نزعة ترى في الموالي إخواناً في الدين ، شركاء في النسب ، ونزعة أرستقراطية ، يمثلها الأمويون ورجال القبائل والأعراب ، لا ترى فيهم إلا عبيداً لإقامة السوق ، وعمارة الطريق .

(44) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 326-327.

وقد بلغت هذه النظرة عند قوم حداً من التطرف والمبالغة ، جعلتهم يعتقدون أنَّ الدماء التي تجري في عروقهم دماء ممتازة ، تختلف عن سائر الدماء ، حتى من الناحية المادية ، قال أبو بكر الشيباني : « كنت أسيراً مع بني عم لي من بني شيبان - وفينا من موالينا جماعة - في أيدي التغالبة ، فضربوا أعناق بني عمي وأعناق الموالي على وهدة من الأرض ، فكنت ، والذي لا إله إلا هو ، أرى دم العربي ينماز من دم الموالي ، حتى أرى بياض الأرض بينهما » (45) .

وأنعكست هذه النظرة على العرب اجتماعياً ، فكانوا « يقولون : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى ، وكانوا لا يكونونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشنون في الصف معهم ، ولا يتقدمونهم في المواكب وإن حضروا طعاماً ، قاموا على رؤوسهم ، وإن أطعموا المولى لسنة وفضله وعلمه ، أجلسوه في طرف الخوان ، لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ، ولا يدعونهم يصلون على الجناز إذا حضر أحد من العرب وإذا كان الذي يحضر غريباً ، وكان الخاطب ، لا يخطب المرأة منهم الى أبيها ، ولا أخيها ، وإنما يخطبها الى مواليتها ، فإن رضي زوج وإلا رد ، فإن زوج الأب والأخ بغير رأي مواليه ، فسيح النكاح ، وإن كان قد دخل بها ، كان سفاح غير نكاح » (46) .

« وكان نافع ابن جبير . . . إذا مرت به جنازة ، قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال : واقوماه ! وإذا قالوا : عربي ، قال : واماداته ! وإذا قالوا : مولى ، قال : اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت ، وتدع من شئت » (47) .

ويُروى أنَّ ناسكاً من تميم ، كان يقول : « اللهم أغفر للعرب خاصة وللموالي عامة ، فأما العجم ، فهم عبيدك ، والأمر متروك إليك » (48) .

(45) - الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 419 .

(46) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 326 .

(47) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج : 2 ص : 312 .

ابن عبد ربه العقد ، ج : 3 ص : 226 .

هذه نظرة معظم العرب للموالي والأعاجم في العهد الأموي ، والواقع أنّ السلطة كانت تغذيها ، وتزيد في إزكائها ، لتستفيد من العصبية العربية في توطيد سلطانها ، وهي نظرة لم يتعد عنها حتى بعض المتعبدین ، فقد « رُوِيَ أَنَّ عامر ابن عبد القيس في نسكه وزهده وتقشفه وإخباته⁽⁴⁹⁾ وعبادته ، كلمه حمران مولى عثمان ابن عفان عند عبد الله ابن عامر صاحب العراق ، في تشنيع عامر على عثمان وطعنه عليه ، فأنكر ذلك ، فقال حمران : لا كثر الله فينا مثلك ! فقال له عامر : بل كثر الله فينا مثلك ! فقيل له : أيدعو عليك ، وتدعوله ؟ قال : نعم ، يكسحون طرقتنا ، ويخرزون خفافنا ، ويحكون ثيابنا ، فاستوى ابن عامر جالساً - وكان متكئاً - فقال : ما كنت أظنك تعرف هذا الباب ، لفضلك وزهادتك : فقال : ليس كل ما ظننت أنني لا أعرفه ، لا أعرفه⁽⁵⁰⁾ .

وإذا كانت هذه نظرة العرب الى الموالي ، فكيف كانت نظرتهم الى أولاد الإمام ؟ .

إنّ نظرة العرب الى أولاد الاماء ، وإنّ لم تصل الى الدرجة التي صورنا ، فإنها لم ترتق بهم الى مستوى مساو للعرب الخالص . فقد « تقدم رجل من بني العبر الى سوار (القاضي) فقال : إنّ أبي تركني وأخالي ، وخط خطين ناحية ، ثم قال : وهجينا لنا ، ثم خط خطأ ناحية ، ثم قال : كيف يقسم المال بيننا ؟ فقال : المال بينكم أثلاثاً ، إنّ لم يكن وارثاً غيركم ، فقال له . لا أحسبك فهمت ، إنّ تركني وأخي وهجينا لنا ، فقال سوار : المال بينكم سواء ، فقال الأعرابي : أياخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخي ؟ قال : أجل ! فغضب الأعرابي وقال : تعلم والله ، أنّك قليل الخالات بالدنهائ ، فقال سوار : إذا لا يضرني ذلك عند الله⁽⁵¹⁾ .

(48) - المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج : 2 ص : 312 .

(49) الأخبات : الخشوع والاطمئنان الى الله تعالى .

(50) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 327 .

(51) - ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 2 ص : 61 ، ابن عبد ربه ، العقد ج : 3 ص : 33 .

وخطب عبد الملك ابن مروان بنتاً لعقيل ابن علفة المري - وكان أشد الناس حمية في العرب - فقال لعبد الملك : « جنبني هجاء ولدك . وهو القائل :

كنا بنو غيظ رجالاً فأصبحت بنو مالك غيظاً وصرنا لمالك
لحي الله دهرأ ذذع⁽⁵²⁾ المال كله وسود أشباه الإمام العوارك⁽⁵³⁾ »

فهذه نظرة العرب الخالص الى الهجاء من أولاد الخلفاء ، فهل تكون لمن هم دونهم خيراً من ذلك ؟ وقد قال الرياشي :

« إن أولاد السراي كثرُوا يا رب فينا
رب أدخلني بلاداً لا أرى فيها هجيناً⁽⁵⁴⁾ »

وإذا استنكفت العرب من أولاد الإمام ، فحري أن تعتبر زواج المولى من عربية سبة تجلب العار والذل والحقارة : فعندما زوج إبراهيم ابن النعمان ابن بشير الأنصاري يحيى ابن أبي حفصة ، مولى عثمان ابن عفان أبنته على عشرين ألف درهم ، قال قائل يعيره :

لعمري لقد جللت نفسك خزية وخالفت فعل الأكثرين الأكارم
ولو كان جداك اللذان تتابعا بيدر لما رامنا صنيع الألائم
فقال إبراهيم ابن النعمان يرد عليه :

ما تركت عشرون ألفاً لقائل مقالاً فلا تحفل ملامة لائم
وإن ألك قد زوجت مولى فقد مضت به سنة قبلي وحب الدراهم⁽⁵⁵⁾ »

وكان يحيى ابن أبي حفصة قد تزوج أيضاً خولة بنت مقاتل ابن طلبة . . .
ابن قيس ابن عاصم سيد أهل الوبر ، فغيرهم القلاع ابن حزن ، فقال :

« أنكحت عبيدين ترجو فضل مالهما في فيك مما رجوت الترب والحجر

(52) ذذع : بدّد وفرّق ، العوارك : الأمة انعركت لكثير الاختلاف اليها .

(53) - ابن عبد ربه ، العقد ، ج : 3 ص : 328 .

(54) - المبرد ، الكامل في اللغة ، ج : 1 ص : 314 « والهجين عند العرب الذي أبوه شريف وأمه وضيفة والأصل في ذلك أن تكون أمه » .

(55) - مصدر نفسه ، ج : 1 ص : 281-282 .

لله در جواد أنت سائسها برذنتها وبها التحجيل والغرر

وقال جرير يعيرهم :

رأيت مقاتل الطلبات حلى فزوج بناته كمر الموالي
لقد أنكحتم عبداً لعبد من الصهب⁽⁵⁶⁾ المشوهة السبال⁽⁵⁷⁾

وإذا كان زواج مولى من عربية يثير مثل هذه العاصفة ، فقد جنح الخيال ببعض الأعراب ، ليتصور الجنة وفيها العرب والموالي حيث لا أجناس ولا عصبيات ، فيستفزع فكرة زواج العربية من العجمي ، فيسأل صاحبه : « أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة ؟ قال : أرى ذلك والله ، بالأعمال الصالحة ، قال : توطأ والله رقابنا قبل ذلك »⁽⁵⁸⁾ وإذا استفزع هذا الأعرابي فكرة المساواة بين العرب والعجم في الآخرة ، فقد ظن غيره ، أن الله قد سخر العجم للعرب في دنياهم ، قال ذو الرمة : « رأيت عبداً اسودّ لبني أسد قدم علينا من شق اليمامة ، وكان وحشياً ، لطول تغربه في الابل ، وربما كان لقي الأكرة⁽⁵⁹⁾ ، فلا يفهم عنهم ، ولا يستطيع إنفهامهم ، فلما رأيته سكن إلي ، ثم قال لي : يا غيلان ، لعن الله بلاداً ليس فيها عربي ، وقاتل الله الشاعر حيث يقول : « حُرُّ الثرى مُسْتَغْرَبُ الترابِ .

وما رأيت هذه العرب في جميع الناس إلا مقدار القرحة في جلد الفرس ، ولولا أن الله رق لهم فجعلهم في حشاه لطمست هذه العجمان آثارهم ، والله ما أمر الله نبيه بقتلهم إلا لظنه بهم ، ولا ترك قبول الجزية منهم إلا لتركها لهم »⁽⁶⁰⁾.

(56)- الصهب : جمع أصهب وهو الأشقر ، السبال : جمع سبلة ما على الشارب من الشعر أو هو الدائرة في وسط الشفة العليا أو مقدم اللحية .

(57)- المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ج : ١ ص 281-282 . ابن عبدربه ، العقد ، ج : 7 ص : 124

(58)- المبرد ، الكامل في اللغة والأدب . ج : 2 ص : 312.

(59)- الأكرة : جمع أكار وهو الحراث .

(60)- ابن عبدربه ، العقد ، ج : 3 ص : 247.

وإذا تتبعنا سياسة الدولة في الموالي ، نراها تتوافق مع هذه النظرة الاجتماعية ، ولعل حوار الحجاج ابن يوسف مع سعيد ابن جبير ، وقد قبض عليه ، لنهوضه مع ابن الأشعث ، وكان سعيد من الموالي ، قال الحجاج : « يا شقي ابن كسير ، أما قدمت الكوفة ، وليس يؤمُّ بها إلّا عربي ، فجعلتك إماماً ؟ » قال : بلى . قال : أفمّا وليتك القضاء فضج أهل الكوفة ، وقالوا : لا يصلح القضاء الا لعربي ، فاستقضيت أبا بردة ابن أبي موسى الأشعري ، وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك ؟ قال : بلى . قال : أوّما جعلتك في سماري وكلهم من رؤوس العرب ؟ قال : بلى : قال : أوّما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها في أهل الحاجة ، ثم لم أسألك عن شيء منها ؟ قال : بلى . قال : فما أخرجك علي ؟ قال : بيعة كانت لابن الأشعث في عنقي . فغضب الحجاج ثم قال : أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عنقك قبل ؟ والله لأقتلنك ، يا حربي اضرب عنقه » (61).

وإذا كان لا يؤمُّ في الصلاة إلا عربي ولا يؤلّى القضاء إلا عربي فحرى ألا يولى ولاية أو يؤمر إمارة إلّا من كان عربياً . وعليه لم يستعمل الأمويون من غير العرب إلّا من كانت تدفعهم الضرورة لاستخدامه ، كاستعمال الدهاقين في فارس وكتاب الدواوين قبل ان تعرب عن الفارسية والرومية في زمن عبد الملك (62).

وجنح الحجاج بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث الى سياسة قاسية بحق الموالي ، ففرقهم في القرى ، ونقش على يد كل منهم اسم القرية التي وجهه اليها ، ولم يعف المسلمين الجدد من الجزية ، ووضع الخراج على الأرض التي أسلم أصحابها . وقد اعتقدت السيدة قدورة أنّ هذه السياسة كانت نتيجة لأزمة مالية ، وظروف اقتصادية وعجز في خزينة الدولة (63) .

والحق أنّ السبب وإن كان له علاقة بالإقتصاد ، فهو سياسي في المحل

(61) - المبرد ، الكامل في اللغة ، ج : 1 ص : 297 .

(62) خليل جفال ، الخليفة عبد الملك ابن مروان الناقد الأديب ص : 78 .

(63) - زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 45 .

الأول ، وقد فطن إلى ذلك الجاحظ ، فقال : « إنَّ الحجاج ، لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله ابن الجارود ، ولقي ما لقي من قراء أهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه ، الفقهاء والمقاتلة من الموالي من أهل البصرة ، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم ، أحب أن يسقط ديوانهم ، ويفرق جماعتهم حتى لا يأتلفوا ولا يتعاقدوا »⁽⁶⁴⁾.

وبقي الموالي يعانون الظلم والعسف على أيدي خلفاء بني أمية وولاتهم حتى ولى الخلافة عمر ابن عبد العزيز ، فانتهج سياسة أقرب الى روح الإسلام من سياسة أسلافه وألطف ، فلم يتعصب إلا للإسلام ، ورفع عن كاهل المسلمين من الموالي والعجم أعباء كثيرة ، ولم يقدم العرب لأنهم عرب ، فعندما جاءه بنو ثعلبة « فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إننا قوم من العرب ، أفرض لنا ، قتال : نصارى ؟ قالوا : نصارى ، فقال : ادعوا إليّ حجاجاً ، ففعلوا ، فجز نواصيتهم ، وشق من أرديتهم حزماً يحتزمون بها ، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج ، وأن يركبوا على الأكف من شق واحد »⁽⁶⁵⁾. فهذا صنيعه مع بني ثعلبة ، وكانوا عرباً ، ولما كتب اليه عبد الحميد ابن عبد الرحمن يستأذنه في أخذ الجزية من اليهود والنصارى والمجوس الذين أسلموا ، كتب اليه : « وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً (ص) داعياً الى الإسلام ، ولم يبعثه جابياً »⁽⁶⁶⁾.

ولكن عهد عمر سرعان ما انقضى ، وعادت الأمور الى سابق عهدها من الظلم والجور⁽⁶⁷⁾

وإذا كان سلوك السلطان الأموي مع الموالي على هذا النمط . فكيف كان سلوك الموالي ، مع هذا السلطان ؟

(64) - ابن عبد ربه ، العقد ، ج : 3 ص : 329.

(65) - الألبشهي ، المستطرف في كل فن مستظرف - دار إحياء التراث العربي - بيروت 1952 ج : 1 ص : 111.

(66) - أبو يوسف ، الخراج ، مصر 1302 هـ . ص : 75.

(67) - الترك ، محاضرات في عالم التاريخ الإسلامي في الجامعة العربية 1972 ص : 77.

« إِنَّ الأمويين عاملوا الموالي معاملة سيئة ، وفرضوا عليهم الجزية والخراج وهذا ما يتنافى مع مبادئ الاسلام الأولى ، وأبعدوهم عن أمور السلطان ، مما جعل هؤلاء يرتمون في أحضان المعارضة ، فانحازوا الى الشيعة بالعراق والخوراج في فارس »⁽⁶⁸⁾ وإذا كنا أكثر إنصافاً ، لاحظنا أَنَّ الموالي قاتلوا في صفوف كل الأطراف حتى في صفوف الأمويين ، ولو بنسب مختلفة ، فقاتلوا في صفوف عبد الله ابن الزبير ، كما قاتلوا في صفوف الخوارج⁽⁶⁹⁾ ولعل أهم الثورات التي اشترك فيها الموالي ، كانت ثورة المختار ثم ثورة ابن الأشعث ، فما هو دور الموالي في هاتين الثورتين ؟

ثورتا المختار وابن الأشعث :

تباين الآراء تبايناً يصل الى حد التناقض في عقيدة المختار والدوافع التي كانت وراء ثورته ، فمنهم من يراه متقلباً لا يثبت على حال ، وآخر يزعم أنه ادعى النبوة ، الى غير ذلك من المزاغم⁽⁷⁰⁾.

وما يهمنا نحن ، هو الأهداف المعلنة لثورة المختار ، وجمهور الناس الذي شكل مادة تلك الثورة .

فأما الهدف ، فقد ذكر ابن الأثير : « أَنَّ الْبَيْعَةَ كَانَتْ » على كتاب الله وسنة رسول الله ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحلين ، والدفع عن الضعفاء »⁽⁷¹⁾.

وأما جمهور أتباعه ، فهم جمهور أهل الكوفة ممن بقي من التوابين وغيرهم من شيعة علي ، وكان هؤلاء خليطاً من عرب وموالي ، أضف الى ذلك مجموعة

(68) مرجع نفسه . ص : 77.

(69) - قدورة ، الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي . ص : 55.

(70) - خليل جفال ، عبد الملك ابن مروان الناقد الأدبي ص : 40 وما بعدها .

(71) - مرجع نفسه ص : 44.

من العبيد كانوا يتوقنون إلى الحرية والإنعتاق من نير العبودية ، فوجدوا الفرصة سانحة بثورة المختار ، فانضموا إليها ، وقاتلوا في صفوفها أملاً بالحرية التي بها يحلمون . فما دور الموالي والعبيد في تلك الثورة ؟

أول خبر في حركة المختار عن الموالي جاء على لسان شبت ابن ربعي ، وكان على رأس من يحاربه ، انه لما صلى بالناس ، « فقرأ : إذا زلزلت الأرض زلزالها . . . وقرأ والعاديات ضبحاً ، فقال له أناس من أصحابه : لو كنت قرأت سورتين هما أطول من هاتين شيئاً ، فقال شبت : ترون الدئلَمَ ، قد نزلت بساحتكم ، وأنتم تقولون : لو قرأت سورة البقرة وآل عمران » (72).

وظاهر الكلام يدل على التحريض والمبالغة ، فليس الديلم من قاتل بهم المختار، ولم يكن من أصحاب المختار وقواده ومستشاريه ، إلا أبو عمرة كيسان مولى بجيلة ، حتى إن الشعبي فيما زعم ، لم يستطع التشكيك برسالة ابن الحنفية الى ابراهيم ابن الاشتر إلا عن طريقه ، فقال : « قلت في نفسي : إن لم أستعملها من العجمي - يعني أبا عمرة - لم أطمع فيها من غيره » (73).

وابن مطيع نفسه ، لم يدع ، وقد هُزِمَ أصحابه ، أن مع المختار أكثر من خمسمائة من الموالي (74) وَيُرَوَّى عن عمرو ابن مالك أبي كبشة القيني أنه « قال : كنت غلاماً حين راهقت مع أحد عمومتي في ذلك ، فلما نزلنا بعسكر الكوفيين ، عباناً رببعة ابن المخارق ، فأحسن التعبئة ، وجعل على ميمته ابن أخيه ، وعلى ميسرته عبد ربه السلمي ، وخرج هو في الخيل والرجال ، وقال : يا أهل الشام إنكم إنما تقاتلون العبيد والأباقي ، وقوماً قد تركوا الإسلام ، وخرجوا منه ليست لهم تقية ، ولا ينطقون بالعربية ، قال : فوالله إن كنت لأحسب أن ذلك كذلك حتى قاتلناهم ، قال : فوالله ، ما هو الا أن اقتتل الناس إذا رجل من أهل العراق يعترض الناس بسيفه ، وهو يقول :

(72) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك . دار الفكر - بيروت 1979 / ج : 7 ص : 103 .

(73) - أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، المعادي 1959 ص : 29 .

(74) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك ،

برئت من دين المحكمينا وذاك فينا شر دين دينا» (75)

ويبين من هذا النص ، أنَّ المحدث قد تبين له كذب تلك الدعوى التي ادعاها قائد أهل الشام . ويظهر جلياً أنَّ الدعاية التي بثها أعداء المختار ، لم تصرح ، ولو مرة واحدة بالهدف المعلن لثورته ، وهو الثأر لأهل بيت الرسول (ص) ، فهذا محمد ابن الأشعث ، لما ذهب بكتاب مصعب الى المهلب ، يطلب منه المجيء لمقاتلة المختار ، يعاتبه المهلب قائلاً : « اما وجد المصعب بريداً غيرك ، قال محمد : إني والله ما أنا ببريد أحد غير أنَّ نساءنا : وأبناءنا وحرمانا غلبنا عليهم عبداننا وموالينا ، فخرج المهلب ، وأقبل بجموع كثيرة ، وأموال عظيمة (76) » .

فالمبالغة والتحريض هي التي صورت ثورة المختار ، وكأنها ثورة للموالي على العرب .

ولكن مع هذا لا يسعنا الإدعاء : أنَّ أتباع المختار كانوا عرباً فقط ، كما لا يمكننا التسليم بأنهم كانوا بأكثريتهم من الموالي والعجم . هذه الحقيقة صرح بها أكثر من واحد من أعداء المختار نفسه ، فعبد الرحمن ابن مخنف ، قال - وقد دعا بعض أشراف الكوفة لقتال المختار : لا ، ولما قيل له : لِمَ ؟ قال : « لأنِّي أخاف أبَّ تفرقوا ، وتختلفوا ، وتتخاذلوا ، ومع الرجل شجعاؤكم وفرسانكم من أنفسكم ، أليس معه فلان وفلان ، ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، وعبيدكم ومواليكم أشد حنقاً عليكم من عدوكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم » (77) فأهل الكوفة مع المختار العرب والموالي ، إلا من أحس بالخطر على نفسه وأهله لاشتراكه بدم الحسين وأهل بيته . ولعل أصدق ما يعبر عن ذلك الشعر الذي طار في تلك الثورة من هذا الجانب أو ذاك ، فقد قال عبد الله ابن همام - حين سيطر المختار على الكوفة - :

(75) - مصدر نفسه . ج : 7 ص 114-115

(76) - م. ن. ج : 7 ص : 147 .

(77) - م. ن. ج : 7 ص : 116-117 .

« وفي ليلة المختار ما يذهل الفتى
دعا ، بالشارات الحسين فأقبلت
ومن مذبح جاء الرئيس ابن مالك
ومن أسد وافى يزيد لنصره
وقال أعشى همدان :

« لم أنس همداناً غداة تجوسنا
فقتل من أشرافنا في محالهم
فكم من كمي قد أبارت سيوفهم
يقتلنا المختار في كل غائط
بأسيافها ، لا سقيت صوب هاضب⁽⁸⁰⁾
عصائب منهم أُرِدِفَتْ بعصائب
إلى الله أشكورزء تلك المصابب
فيا لك دهر مرصد بالعجائب⁽⁸¹⁾ »

فلا عبد الله ابن همام ، ولا أعشى همدان ، صرح بأن الموالى والعبيد هم
الذين يقاتلون في صفوف المختار ، بل إن الشيعة هي التي اختلفت اليه
« واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضى به ، وكان الذي يبيع له الناس ، وهو
في السجن ، خمسة نفر : السائب ابن مالك الأشعري ، ويزيد ابن أنس ، وأحمر
ابن شميظ ورفاعة ابن شداد الفتياي ، وعبد الله ابن شداد الجشمي »⁽⁸²⁾.

فالشيعة قد رأست المختار ، ودعاه من العرب وليس من الموالى . والكوفة
مشهورة بتشيعها قبل المختار وبعده ، وهي قبل كل شيء معسكر عربي ، بل لعل
ما يبرهن بأن ثورة المختار لم تكن في أساسها إلا معارضة عربية ما رواه الطبري
عن عبد الله ابن مطيع ، وقد تولى الكوفة لابن الزبير ، فصعد المنبر ، وقال : إن
أمير المؤمنين أمره أن لا يحمل فضل فيهم عنهم إلا برضاهم ، وأن يسير فيهم
بسيرة عمر ابن الخطاب وعثمان ابن عفان ، فقام السائب ابن مالك الأشعري

(78) رود الشباب : لين الشباب ، أو مكان ارتيادهم

(79) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال . ص : 291.

(80) - تجوسنا بأسيافها : تطاننا بأسيافها

(81) أبو حنيفة الدينوري الأخبار الطوال . ص : 301.

(82) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك ج : 7 ص : 94.

فقال : أمّا ما أمر ابن الزبير بإتيك ، أن لا تحمل فضل فيثنا عنا إلا برضانا ، فإنّا نشهدك ، أنا لا نرضى أن تحمل فضل فيثنا عنا ، وأن لا يسار فينا الا بسيرة علي ابن أبي طالب التي سار في بلادنا هذه حتى هلك ، رحمة الله عليه ، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيثنا ، ولا في أنفسنا ، فإنّها إنّما كانت أثره وهوى ، ولا في سيرة عمر ابن الخطاب في فيثنا ، وإن كانت أهون السيرتين علينا ضرراً ، وقد كان لا يألوا الناس خيراً . . . فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها»⁽⁸³⁾.

فالسائب لم يتكلم بلسان العبيد ولا الموالي ، فالثورة لم تنشب بعد ، إنّما تكلم بلسان الشيعة في الكوفة ، وهم معظم أهلها .

وأخيراً فإنّ ثورة المختار عريية المنطلق ، عريية الأسباب ، عريية الأهداف ، وإن اشترك فيها كثير من الموالي ، فقد كان مع الذين حاربوها موالٍ أيضاً ، فبعد انتصار المختار في جبانة السبيع ، استخرج الأسرى ، وكانوا خمس مائة أسير ، فأتي بهم المختار « فأخذ رجل من بني نهد وهو من رؤساء أصحاب المختار ، يقال له عبد الله ابن شريك ، لا يخلو بعربي إلّا خلى سبيله ، فرفع ذلك الى المختار درهم مولى لبني نهد ، فقال المختار : اعرضوهم علي ، وانظروا كل من شهد منهم قتل الحسين ، فاعلموني به »⁽⁸⁴⁾.

فهؤلاء الأسرى فيهم العربي والعجمي ، كما أن أصحاب المختار فيهم العربي والعجمي . بل قد تكون نسبة الأعاجم في جيش المختار أكثر ، ولكن لم يكن لهم الدور الأكبر في مسير تلك الثورة ، يظهر ذلك من توجيه المختار عماله إلى الآفاق ، إذ لم يكن فيهم واحد من الموالي ، اللهم إلا صاحب الشرطة⁽⁸⁵⁾.

ولكن ما سر مشاركة الموالي بقوة في ثورة المختار ؟ وهل كل من ناصب

(83) - مصدر نفسه . ج : 7 ص : 95 .

(84) - م . ن . ج : 7 ص : 121 .

(85) - أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 292 .

الطبري . تاريخ الأمم والملوك ج : 7 ص : 109 .

تلك الثورة العدا في الكوفة ، كان ممن شارك في قتل الحسين ؟

لقد تدمر العديد من أهل الكوفة ، وقالوا : « والله ، لقد تأمر علينا هذا الرجل (يعني المختار) بغير رضى منا ، ولقد أدنى موالينا ، فحملهم على الدواب ، وأعطاهم ، وأطعمهم فيثنا ، ولقد عصتنا عبيدنا ، فحرب بذلك أيتامنا وأراملنا »⁽⁸⁶⁾.

فالموالي لم يكونوا مع المختار لوجه الله ، إنما كانت لهم مصلحة اقتصادية وسياسية ، وهي إشراكهم بالعطاء والفيء ، وتخلصهم من التبعية لأسيادهم ، وهي أمور كانوا محرومين منها ، فجر ذلك عليه عداوة قسم من العرب ، اعتبروا أن الموالي لا حق لهم بذلك « ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالي من الفيء نصيباً »⁽⁸⁷⁾.

ولكن ما يفعل المختار ، والأعداء تتربص به ، بنو أمية في الشام ، وابن الزبير في البصرة والحجاز ؟ فقال لهم : « إن أنا تركت لكم مواليكم ، وجعلت فياكم فيكم ، أنقاثلون معي بني أمية وابن الزبير ، وتعطون على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه ، وما أطمئن اليه من الأيمان ؟ »⁽⁸⁸⁾.

فالمختار يبحث عن الجيوش ، لأنه يدرك الحاجة اليها ، فإن لم يستطع أن يكون جيشاً عربياً صرفاً ، فليس من المعقول أن يرفض القتال بالموالي ومن أطاعه من العرب ، وقد عبر عن ذلك إبراهيم ابن الأشر ، وقد عاتبه عمير ابن الحباب ، بأنه لم يسمع في عسكره كلاماً عربياً حتى وصل اليه : « والله لو لم أجد إلا النمل لقاتلتهم بها ، فكيف ، وما قوم أشد بصيرة في قتال أهل الشام من هؤلاء الناس الذين تراهم معي »⁽⁸⁹⁾.

(86) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك ج : 7 ص : 116

(87) - مصدر نفسه ج : 7 ص : 116 .

(88) - م . ن . ج : 7 ص : 116 .

(89) - أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 294 .

فلماذا كان أولئك القوم أشد بصيرة ؟ لأن الأمويين يسومون الموالي شتى أنواع الإضطهاد ؟ لأن الأمويين يمثلون السلطة العربية التي قهرت الفرس ، وقضت على دولتهم ؟ ليس ذلك بمستبعد .

ولكن أعني هذا أن الجيش الشامي كان عربياً صرفاً ؟ منطلق العصر والتاريخ يقول : لا ، فكل قوم كان يقاتل معهم مواليهم حتى أهل الشام⁽⁹⁰⁾ .

إنما المهم في ثورة المختار ذلك التنافس بين العرب والموالي في الكوفة . فأنصار المختار أنفسهم ، وكانوا عرباً وموالي ، كان يدور بينهم نوع من الصراع والتنافس كالذي رأينا من النهدي وإطلاقه العرب ، ووشاية درهم مولاه لدى المختار ، وتذمر الموالي من إقبال المختار بحديثه على العرب ، وإظهار امتعاضهم لكيسان ، فقالوا : « أما ترى أبا إسحاق قد أقبل على العرب ، ما ينظر إلينا ، فدعاه المختار ، فقال له : ما يقول لك أولئك الذين رأيتهم يكلمونك ، فقال له ، وأسر إليه ، شق عليهم ، أصلحك الله ، صرفك وجهك عنهم إلى العرب ، فقال له : قل لهم لا ينقلن ذلك عليكم ، فأنتم مني وأنا منكم ، ثم سكت طويلاً ، ثم قرأ : إنا من المجرمين منتقمون . . . فما هو إلا أن سمعها الموالي منه ، فقال بعضهم لبعض : ابشروا ، فإنكم والله به ، قد قتلهم »⁽⁹¹⁾ .

وهذه الرواية لو صحت ، لأظهرت مدى الحقد الذي يكنه الموالي للعرب في صدورهم ، إذ فسروا لفظة المجرمين بالعرب ، وهذا الحقد نتيجة منطقية لما كان يمارس على هذه الفئة من أنواع الإضطهاد . فقد أُسِرَ أحدُ الموالي من أنصار المختار مع مولى وعربي ، قال : « فَأُسِرَ مسعر (الحنفي) وأُسِرْتُ أنا وخليد مولى حسان ابن يخدج ، فقال شبت لخليد ، وكان وسيماً جسيماً من أنت ؟ فقال : خليد مولى حسان ابن يخدج الذهلي ، فقال له شبت : يا ابن المتكأ ، تركت بيع الصحنة بالكناسة ، وكان جزاء من أعتقك ، أن تعدو عليه بسيفك تضرب

(90) - المسعودي . مروج الذهب . ج : 3 ص : 114 .

(91) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك . ج : 7 ص : 109 .

رقابه ، اضربوا عنقه ، فُقْتِلَ ، ورأى مسعراً الحنفي ، فعرفه ، فقال : أخو بني حنيفة ، فقال له : نعم ، فقال : ويحك ، ما أردت الى اتباع هذه السبابة ، قبح الله رأيك ، دعوا ذا ، فقلت في نفسي : قتل المولى وترك العربي ، إن علم ، والله إنني مولى قتلني ، فلما عرضت عليه ، قال من أنت ؟ فقلت : من بني تيم الله ، قال : أعربي أنت أم مولى ؟ فقلت : لا بل عربي ، أنا من آل زياد ابن حفصة ، فقال : بخ بخ ، ذكرت الشريف المعروف ، الحق بأهلك ، قال : فأقبلت حتى انتهيت الى الحمراء ، وكانت إليّ في قتال القوم بصيرة ⁽⁹²⁾ وما البصيرة بقتالهم ، إلّا حقه عليهم ، لِمَا رآه منهم .

فالتمايز بين العرب والموالي كان واضحاً ، حتّى في جيش المختار نفسه ، ولكنه تمايز ، لم يصل درجة الاشتباك بالسلح ، والعنصر العربي ما زال قوياً طاعياً بين أنصار المختار ، يظهر جيداً في الصورة التي رسمها الطبري لجيش المختار قبيل المعركة الحاسمة التي خاضها ضد مصعب ابن الزبير ، « فجعل أحمر ابن شميطة على ميمته عبد الله ابن كامل الشاكري ، وعلى ميسرته عبد الله ابن وهب ابن فضلة الجشمي ، وعلى الخيل رزين ابن عبد السلولي وعلى الرجالة كثير ابن اسماعيل الكندي . . . وجعل كيسان أبا عمرة وكان مولى لعرينة على الموالي ، فجاء عبد الله ابن وهب ابن فضلة الجشمي الى ابن شميطة ، وقد جعله على ميسرته ، فقال : إن الموالي والعبيد آل خور عند المصدوقة ، وإنّ معهم رجالاً كثيراً على الخيل ، وأنت تمشي ، فمرهم ، فلينزّلوا معك ، فإنّ لهم بك أسوة ، فإنّي أخاف إنّ طُورِدوا ساعة ، وطُوعُوا ، وضُورِبُوا ، أن يطيروا على متنها ، ويسلموك ، وإنك إنّ أرجلتهم ، لم يجدوا من الصبر بدءاً ، وإنّما كان هذا منه غشا للموالي والعبيد ، لما كانوا لقوا منهم بالكوفة : فأحب إنّ كانت عليهم الدبرة ⁽⁹³⁾ ، أن يكونوا رجّالا ، لا ينجو منهم أحد ، ولم يتهمه ابن شميطة ، وظن أنه إنّما أراد بذلك نصحه ، ليصبروا ، ويقاتلوا ، فقال : يا معشر الموالي ، انزلوا

(92) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك . ج : 7 ص : 104 .

(93) - الدبرة : الهزيمة

معي ، فقاتلوا ، فنزلوا معه ، ثم مشوا بين يديه » (94).

يمكننا مما تقدم أن نلاحظ أموراً منها : أنَّ جيش المختار ، يتألف من عدة فرق إحداها فرقة خاصة بالموالي . وأنَّ الموالي يقاتلون بإشراف قائد منهم ، فهم غير مندمجين تماماً في الجيش ، وأنَّ ابن شميظ ، لم يقبل قول ابن نضلة الجشمي مع ما فيه من الغش ، لو لم تكن آراؤه في الموالي مطابقة لما قاله ابن نضلة ، وأنَّ الموالي قاتلوا بحقد وضراوة ، قاتلوا بهاجس الانتقام من العرب . لكنهم لم يتمتعوا بحقوق مساوية للعرب حتى في جيش المختار ، فكل من يستطيع أن يقاتل ركباً لا يُمنع من ذلك إلا الموالي ، فإنهم قد حُرِّموا من هذا الحق .

إنَّ عرب الكوفة سواء كانوا من أنصار المختار أو من أعدائه ، كانوا ينظرون الى الموالي نظرة استخفاف وازدراء والموالي ينظرون الى العرب بحقد وغيظ شديدين ، ولكن دون أن يجهروا بذلك صراحة ، فحاربوا مع المختار ، كما حاربوا مع غيره ظناً منهم أنَّ ذلك كفيل بتصحيح أوضاعهم الإجتماعية والسياسية .

ثم إنَّ ثورة المختار كانت عربية في كل شيء ، وكان الموالي وسيلة من وسائلها . وكل ثورة سياسية لها أعداؤها كما أنَّ لها انصارها ، لذلك حاول المؤرخون تحليل عداء قسم من العرب في الكوفة لتلك الثورة ، فعزوا ذلك الى تقريبه (أي المختار) العجم ، وإقصائه العرب (95) ناسين بذلك الأطماع السياسية والعصبيات القبلية ، التي كانت تعصف برؤوس البعض ، وخوف البعض الآخر نتيجة تورطه في السياسة الأموية .

وقد تابع آراءهم عدد من المحدثين ، فاعتبروا ثورة المختار من أولى الحركات الشعبية في التاريخ الإسلامي ، فقال الحاجري « عندي أنَّ حركة

(94) - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج : 7 ص : 148 .

(95) - أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص : 299 .

المختار الثقفي ، تعتبر من أولى الحركات الشعبية ، وأقواها في العراق ، وقد أتاحت للموالي أن يحسوا بشخصيتهم ، ويستعيدوا كيانهم ، وينتهيأوا للدور الخطير الذي قاموا به بعد ، في صبغ الدولة بصبغتهم فبذلك ، وباتخاذ هذه الحركة صورة دينية الى جانب حقيقتها الشعبية ، فتحت السبيل أمام الثقافات الكلدانية والفارسية القديمة واسعة ممهدة ⁽⁹⁶⁾.

لوصح هذا الزعم ، لتركت لنا هذه الحركة أصداء في التاريخ غير التي تركتها ، وصبغتها الدينية ، لم تأت اصطناعاً ، ولم تكن لها قناعاتاً ، وإنما كانت السبب الرئيسي الذي فجرها ، وثورة المختار إنما هي ثورة أهل الكوفة ، فقبل المختار ، كان التوابون ، ولم يدع أحد أنهم كانوا من الموالى والفرس .

وأما الحقد الذي تصرف فيه كيسان كما يزعم الدوري ⁽⁹⁷⁾ فلم يكن إلا تنفيذاً لأوامر المختار العربي ، وطبيعي أن يكون الموالى من يهدم البيوت ، لأنهم الفعل ، وهدم البيوت من الأمور الشاقة التي يتجنبها العربي ، ويأمر مولاه بمباشرتها.

وحركة الموالى في زمن ابن الأشعث كانت أوسع ، وتأثيرها أكبر ، فقد روى الطبري أنه كان مع ابن الأشعث مئة ألف من العرب ومثلهم من العجم ⁽⁹⁸⁾.

ومع هذه الثورة تبدو الأسباب الاقتصادية والعسكرية ، توحد بين عرب العراق ومواليهم في الثورة على الحجاج ، فقد « ذكر ضمرة ابن ربيعة عن ابن شاذب ، أن عمال الحجاج كتبوا اليه : إن الخراج قد انكسر ، وإن أهل الذمة ، قد أسلموا ، ولحقوا بالأمصار ، فكتب الى البصرة وغيرها : إن من كان له أصل في قرية ، فليخرج إليها ، فخرج الناس ، فعسكروا ، فجعلوا يكون وينادون : يا محمداه ، يا محمداه ، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون ! فجعل قراء أهل البصرة

(96) - طه الحاجري ، الجاحظ - حياته وآثاره / دار المعارف بمصر 1969 ص : 216 حاشية

(97) - الدوري ، الجذور التاريخية للشعبية . ص : 21.

(98) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك ج : 8 ص : 15

يَخْرُجُونَ إِلَيْهِمْ مَتَّقِينَ ، فَيَكُونُ ، لِمَا يَسْمَعُونَ وَيُرُونَ ، قَالَ : فَقَدِمَ ابْنُ الْأَشْعَثِ عَلَى نَضِيشَةَ⁽⁹⁹⁾ ذَلِكَ ، وَاسْتَبَصَرَ قَرَاءَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فِي قِتَالِ الْحِجَابِ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الْأَشْعَثِ⁽¹⁰⁰⁾ .

فثورة ابن الأشعث كانت ثورة العراق كله ، ثورة العرب لتجميرهم في الثغور ، وثورة الموالي لتعسف الحجاج بحقهم ، وظلمه لهم .

وبعد ، فَإِنَّ سياسة الموالي في العهد الأموي ، لم تكن تطمح لأكثر من نظام عادل ، يعيد للإنسان حقوقه وكرامته ، لأيّ جنس انتمى نظام يستلهم القرآن في سياسته ، وتدبيره لشؤون المسلمين ، وهم في سبيل ذلك ينخرطون في كل ثورة أو حركة مناهضة لسلطان الأسرة الأموية ، ولكن لم يكن لدى الموالي في ذلك العهد برنامج عمل أو خطة سياسة تسعى لتحقيق أهدافهم ، فثورة المختار ، لم تكن ثورة الموالي ، إنما كانت « نتيجة التذمر الواسع الانتشار الذي عمّ المجتمع الإسلامي ، ذلك التذمر الناشيء عن حياة معظم الخلفاء الأمويين الداعرة ، واحتقارهم للموالي ، ذلك الإحتقار البعيد عن حكمة الإسلام ومبادئه ، وسياساتهم الإدارية والمالية الرجعية الظالمة ، التي كانت ترمي الى جعل الرعية ، بما فيها المسلمون الذين اعتنقوا الإسلام أخيراً - قطاع خشب وسقائين » هذه كانت الأسباب الحقيقية لثورة المختار⁽¹⁰¹⁾ .

وعن الدور الذي لعبه الموالي في كل من الثورتين قال فون كريمر « قد كان الموالي في ثورات كل من المختار وابن الأشعث يعدون بالآلاف ، ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا ، أنه لم تكن واحدة من هاتين الثورتين حركة من حركات الموالي الخالصة ، كما ذهب الى ذلك بعض الكتاب المشهورين . وقد كان من

(99) - نضيشة ونضيشة : صوت نشيش اللحم يشوى على الحجار المحممة . والمعنى أن ابن الأشعث قد قدم والناس تتحرق غيظاً من صنع الحجاج .

(100) - الطبري . تاريخ الأمم والملوك . ج : 8 ص : 35 .

(101) - فون كريمر ، الحصار الإسلامية مصر 1947 ص : 37-38 .

الطبيعي ان يتعاون الموالي الذي تضغط عليهم ، وتدوسهم تحت أقدامها السياسة الأموية ، مع الثوار الذين يسعون للقضاء على تلك الدولة ، وكانت للموالي مصلحة في كل من هاتين الثورتين ، ولكنهم لعبوا دوراً ثانوياً فقط » (102).

مراجع شعبية في الشعر الأموي :

وإذا كانت منزلة الموالي هي التي دفعتهم الى الإشتراك في كل الثورات التي قامت بوجه الدولة الأموية ، فكيف تصرفوا في حال السلم ؟

إن المجتمع العربي كان يحتقر الموالي ، كما بينا آنفاً ، ويعتبرهم أدنى منزلة من العرب . وبين العرب أنفسهم تقوم المنافرات والمفاخرات ، كل يفخر بنفسه وآبائه وقبيلته ، ويفضلها على غيرها من القبائل ، ويهجو أعداءها ، والموالي في غضون ذلك يحاولون تدعيم منزلتهم الإجتماعية ، بعضهم يفخر على العجم ، لأن المولى بولائه لإحدى القبائل ، صار أشرف من العجمي الذي لا ولاء له (103) ، وبعضهم يفخر بمواليه ، والبعض يدعي بأنه عربي ، والبعض الآخر يجاهر بأصله ، ويفخر به شأن العرب وافتخارهم بأنسابهم . وقد ظهرت هذه النزعة باكراً إذا صح ما ينسب لسلمان الفارسي من القول :

« أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم » (104)

فإن المولى كان يقف حائراً في مجتمع يمجّد القبيلة والإنساب إليها خاصة وإن الظروف لا تسمح له بالفخر بأصله ، فماذا يصنع ؟ أما أن يفخر بالإسلام ، كما فعل سلمان الفارسي ، وأما أن يدعي نسباً في العرب ، ويتصنع في ذلك ، كأبي بكر الشيباني ، فقد « ادعى أبو بكر الشيباني الى العرب ذات ليلة ، فأصبح

(102) - مرجع نفسه ص : 39.

(103) - زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها الإجتماعي والسياسي ص : 50.

(104) - الأبيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ج : 1 ص : 131.

من الغد سلى الشمس ، فقعدها فيها ، فثارت به مرة ، فجعل يحك جلده بأظفاره خمباً ، ويقول : انما نحن ابل ، فقال له قائل : والله إنك تشبه العرب ، فغضب وقال : أيقال لي هذا : أنا حرباء تنضبة⁽¹⁰⁵⁾ ، يشهد لي سواد لوني ، وغر عيني وحي للشمس⁽¹⁰⁶⁾ .

وافتحز بشار ابن برد بولائه في قيس ، فقال :

« أمنت مضرة الفحشاء أني أرى قيساً تشب ولا تضار
 كأن الناس حين يغيب عنهم نبات الأرض أخطأ القطار
 وقد كانت بتدمر خيل قيس فكان لتدمر فيها دمار . . .

بحي من بني غيلان شوس يسير الموت حيث يقال ساروا⁽¹⁰⁷⁾

وأما إسماعيل ابن يسار النسائي ، فكان يجاهر بفخره على العرب بأصله ، وكان ذلك ردة فعل ، تعبر عما يعانيه من شعور بالقهر والكبت . فقد روى أبو الفرج ، أنه لما مات أخوه محمد ابن يسار ، رثاه إسماعيل بقصيدة يتفجع فيها عليه ، مطلعها :

« عيل العزاء وخانني صبري لما نعي الناعي أبا بكر⁽¹⁰⁸⁾ »

فقال له رجل من آل الزبير : « أحسنت ، وأسرفت في القول ، فلو قلت هذا في رجل من سادات قريش لكان كثيراً⁽¹⁰⁹⁾ » . فهذا المجتمع الذي يستكثر على المرء شعوراً بفداحة المصاب بفقد أخيه ، لأنه ليس عربياً أو قُرَشِيّاً ، هو الذي دفعه للثورة والفخر على العرب ، فقال :

(105) - تنضبة : شجر له شوك نكث عليه الحرابي

(106) - ابن قتيبة ، عيون الأخبار . ج : 2 ص : 48.

(107) - أبو الفرج . الأغاني ج : 3 ص : 21.

(108) - مصدر نفسه . ج : 4 ص : 127 .

(109) - م.ن. ج : 4 ص : 127 .

« رَبِّ خَالِ مَتَوَجِّ لِي وَعَمَّ
 انما سمي الفوارس بالفِر
 فاتركي الفخر يا امام علينا
 واسألني إن جهلت عنا وعنكم
 إذ تُرَبِّي بناتنا وتُدسو
 ما جد مجتدى كريم النصاب
 س مضاهاة رفعة الأنساب
 واتركي الجور وانطقي بالصواب
 كيف كنا في سالف الأحقاب
 ن سفاها بناتكم في التراب

فقال رجل : . . . إنَّ خاجتنا الى بناتنا غير حاجتكم ، فافحمه - يريد أنَّ العجم ، يربون بناتهم لينكحوهن ، والعرب لا تفعل ذلك » (110).

وإسماعيل هذا ، ما كان يتورع عن الفخر بنفسه وقومه ، حتى بحضرة الخلفاء ، فقد « دخل على هشام ابن عبد الملك في خلافته ، وهو بالرصافة جالس على بركة في قصره ، فاستنشه ، وهو يرى أنه ينشد مديحاً له ، فأنشده قصيدته التي يفخر فيها بالعجم :

يا ربع رامة بالعلياء من ريم
 هل ترجعن إذا حييت تسليمي
 والتي يقول فيها :

لاني وجدك ما عودى بذى خور
 أصلي كريم ومجدي لا يقاس به
 أحمي به مجد أقوام ذوي حسب
 جحاجح سادة بلج مرازمة
 من مثل كسرى وسابور الجنود معا
 أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا
 يمشون في حلق الماذي سابغة
 عند اللقاء ولا حوضي بمهدوم
 ولي لسان كحد السيف مسموم
 من كل قرم بتاج الملك معموم
 جرد عتاق مساميح مطاعيم (111)
 والهرمزان لفخر أو لتعظيم
 وهم أذلوا ملوك الترك والروم
 مشي الضراغمة الأسد اللهاميم (112)

(110) م. ن. ج : 4 ص : 121.

(111) - جحاجح : جمع جحجج : وهو السيد المسارع إلى المكارم ، البلج : جمع أبلج : المفترق الحاجبين وقيل الطلق الوجه . الجرد : مفردها أجرد وهو التام المتجرد من النقص . مساميح : أجواد .

(112) - حلق الماذي : دروع الحديد المجلوة

هناك إن تسألني تُنبي بأن لنا جرثومة قهرت عز الجرائمِ

... فغضب هشام ، وقال له ... أعليّ تفخر ، وإياي تشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ، غطوه في الماء ، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه ... ونفاه من وقته ، فأخرجَ عن الرصافة منفياً إلى الحجاز ... وكان مُبتلى بالعصية للعجم ، والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً⁽¹¹³⁾ وإذا كان هذا جزء من يفخر بنفسه أو بقومه من الموالي⁽¹¹⁴⁾ ، فمن الطبيعي أن يتحاشوا ذلك ، خشية ما يسبب التصريح به من عقاب ونكال ، ويلتمسون سراً حزباً أو زعامَةً تحل محل الأمويين ، وترفع عن كواهلهم شتى أنواع الإضطهاد ، وإذا فشل الخوارج والزيريون والشيعة وابن الأشعث بالقضاء على سلطان بني أمية ، فإن حركةً سريةً كانت تعمل للقضاء على هذا السلطان متوسلةً لذلك السواعد الفارسية ، تلك هي الدعوة العباسية .

(113) - أبو الفرج ، الأغاني . ج : 4 ص : 125 .

(114) - مصدر نفسه . ج : 4 ص : 127 . وكان لاسماعيل ابن شاعر اسمه ابراهيم وهو القائل :

مضى الجهل عنك إلى طيته وأبك حلمك من غيبته
وهي طويلة يفخر فيها بالعجم .

الفصل الثاني

الدعوة العباسية

الصراع القبلي

أسباب شعبية :

١ - الهاجس القومي والشعور بالقهر

٢ - الموروث الحضاري

٣ - الدين

٤ - الإقتصاد

٥ - السياسة

انتشار الشيوعية

الدعوة العباسية :

نشأت الدعوة العباسية نشأة سرية، تكاد تخفى على الباحثين ! فهل كان للدعوة العباسية جذور قبل السنة المائة من الهجرة ؟

إن من يجيب بنعم ، يعتمد على الروايات التي تجعل الدعوة العباسية امتداداً للعقيدة الكيسانية التي رأت ، أن الإمامة بعد علي صارت الى ابنه محمد ابن الحنفية بعد أن بايع الحسن ابن علي معاوية ابن أبي سفيان . فلما توفي (محمد ابن الحنفية) أوصى بالأمر بعده لابنه عبد الله ابن محمد ابن علي ، وهو أمير الشيعة ، فسممه سليمان ابن عبد الملك ، فخرج علي الحميمة ، ونزل على محمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس ، وقال له : اليك الأمر ، فولاه ، وأشهد شهوداً من الشيعة على ذلك⁽¹⁾.

ومنهم من رأى ، أن الدعوة العباسية ، لم تبدأ إلا في سنة 101 هـ/720 م . عندما توافدت الشيعة على الإمام محمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس ، وكان مستقره بأرض الشام ، بمكان يسمى الحميمة ، وكان أول من قدم من الشيعة : ميسرة العبدى ، وأبو عكرمة السراج ، ومحمد ابن خنيس وحيان العطار . فقدم هؤلاء عليه ، فأرادوه على البيعة ، وقالوا له : « أبسط يدك لنبايعك على طلب

(1) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، دار المعرفة : 1967 .

بيروت ، ج : 2 ص : 108-109 .

هذا السلطان ، لعل الله أن يحيى بك العدل ، ويميت بك الجور ، فإن هذا وقت ذلك ، وأوانه ، والذي وجدناه مأثوراً عن علمائكم . فقال لهم : ... فانطلقوا أيها النفر ، فادعوا الناس في رفق وستر ، فلإني أرجو أن يتمم الله أمركم ، ويظهر دَعْوَتُكُمْ ، ولا قوة إلا بالله»⁽²⁾.

ولكن لماذا اختار هؤلاء الرجال محمد ابن علي دون غيره من بني هاشم ؟

هل كانوا على مذهب الكيسانية ، فلما قضى أبو هاشم ، توسموا في محمد ابن علي قدرته على خلافته ؟ لم يتعرض الدينوري لذلك ولا لشيء غيره ، والمسعودي يرى أن « الراوندية ، هم شيعة ولد العباس ابن عبد المطلب ، من أهل خراسان وغيرهم »⁽³⁾ أما رأيهم بالإمامة ، فانهم يقولون : « إن رسول الله (ص) قُبِضَ ، وإن أحقَّ الناس بالإمامة بعده العباس ابن عبد المطلب ، لأنه عمه ووارثه وعصبته ، لقوله عز وجل : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ أَوْلَى بِعِصِّ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾⁽⁴⁾ وإنَّ الناس اغتصبوه حقه ، وظلموه أمره ، إلى أن رده الله اليهم ، وتبرؤا من أبي بكر وعمر ، وأجازوا بيعته علي ابن أبي طالب ، بإجازته لها ، وذلك لقوله : يا ابن أخي ، هلم الي أن أبايعك ، فلا يَخْتَلِفُ عليك اثنان ، ولقول داود ابن علي على منبر الكوفة يوم بُويِعَ لأبي العباس ، يا أهل الكوفة ، لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله (ص) إلا علي ابن أبي طالب وهذا القائم فيكم ، يعني أبا العباس »⁽⁵⁾.

ويظهر من النص أن المسعودي لم يعين متى ابتدأت هذه العقيدة بالتبلور عند دعاة بني العباس ، لكنه جزم بأنها (أي الراوندية) سبقت القول بأن الإمامة محمد ابن علي انتقلت اليه من أبي هاشم ابن محمد ابن علي ، فقال : « والذي ذهب اليه من تأخر من الراوندية ، وانتقل وتحير عن جملة الكيسانية القائلة بإمامة

(2) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 332.

(3) المسعودي . مروج الذهب . ج : 3 ص : 252.

(4) القرآن الكريم ، سورة الأنفال ، رقم الآية : 75.

(5) المسعودي . مروج الذهب ، ج : 3 ص : 252.

محمد ابن الحنفية - وهم الجريانية - أصحاب ابي مسلم عبد الرحمن ابن مسلم صاحب الدعوة العباسية - وكان يلقب بجريان - إنَّ محمد ابن الحنفية هو الإمام بعد علي ابن أبي طالب ، إنَّ محمداً أوصى الى ابنه أبي هاشم ، وإنَّ أبا هاشم أوصى الى علي ابن عبد الله ابن العباس ابن عبد المطلب ، وإنَّ علي ابن عبد الله أوصى إلى ابنه محمد ابن علي ، وإنَّ محمداً أوصى إلى إبراهيم الإمام المقتول بخران ، وإنَّ إبراهيم أوصى الى أخيه أبي العباس⁽⁶⁾.

ويعزز هذا الرأي مراسلات محمد ابن عبد الله ابن الحسن وأبي جعفر المنصور ، فقد جاء في رسالة محمد ابن عبد الله ابن الحسن ، « وقد تعلم أنَّ الحق حقنا ، وأنَّكم إنَّما طلبتموه بنا ، ونهضتم فيه بشيعتنا ، وخیطتموه بفضلنا ، وأنَّ أبانا علياً عليه السلام ، كان الوصي والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ، ونحن أحياء⁽⁷⁾ . وجاء في رد المنصور عليها ، ما يطابق العقيدة الراوندية ، فقد أجابه : « ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، ولكنكم بنوا ابنته ، وإنَّها لقربة قريبة ، غير أنَّها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز ان تُؤمَّ ، فكيف تُورث الإمامة من قبلها⁽⁸⁾ » وقال « توفي رسول الله (ص) ، وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس ، وكان وارثه دون بني عبد المطلب ، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم ، فلم ينلها إلا ولده ، فاجتمع للعباس أنَّه أبو الرسول (ص) خاتم الأنبياء ، وبنوه القادة الخلفاء⁽⁹⁾ »

ومروان ابن أبي حفصة شاعر العباسيين ، يقرر النظرية ذاتها ، فيقول :

« أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثه الأعمام⁽¹⁰⁾ »

وعندما عاتب أبان ابن عبد الحميد اللاحقى البرامكة ، لأنهم لم يصلوه

(6) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 254.

(7) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب . ج : 2 ص : 384.

(8) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 285-286.

(9) م.ن. ج : 2 ص : 287.

(10) أبو الفرج . الأغاني . ج : 9 ص : 287.

بالرشيد ، قال له الفضل : « إن سلكت مذهب مروان ، أوصلت شعرك ، وبلغتكَ إرادتك »⁽¹¹⁾ . فحاك أبان قصيدته التي يقرر فيها نظرية العباسيين في الخلافة :

« نشدت بحق الله من كان مسلماً	أعْمُ بما قد قلته العجم والعرب
أعْمُ نبي الله أقرب زلفةً	إليه أم ابن العم في رتبة النسب
فإن كان عباسٌ أحقّ بتلكم	وكان علي بعد ذاك على سبب
فأبناء عباس هم يرثونه	كما العم لابن العم في الإرث قد حجب
وفي حسن إذ قلتم فيه حجةً	فقد باعها لا ينكر الناس أو وهب

...

...

...

فقام بها من لم يكلها إليكمُ	ومن هو أولى بالذي بز واستلب
إمام بني العباس حين سما لها	وبالله فيما رام أدرك ما طلب

...

...

...

...

فإن كانت القربى فهم أهل حقه وهم أهلها إن كان حق لمن غلب»⁽¹²⁾

وهذه القصيدة تكاد تكون نظماً لرسالة أبي جعفر المنصور لمحمد ابن عبد الله ، فهل يعقل أن تقوم نظرية الدعوة العباسية على الكيسانية ، ثم تنقلب لهذه الحال ؟

وسواء ابتدأت الدعوة العباسية مستقلة ، أو كانت امتداداً للحركة الكيسانية ، فإن زعامة هاشميةً جديدةً بدأت بالظهور مستفيدةً من الأزمات السياسية والاجتماعية ، التي يعاني الحكم الأموي منها ، وفوضوية الدعوة الشيعية العلوية وعدم تنظيمها ، ومع مطلع القرن الثاني للهجرة ، لم تعد لفظة « الشيعة » تطلق على أنصار العلويين وحدهم ، وإنما على أنصار العباسيين أيضاً . فكيف نُظِّم العباسيون دعوتهم ؟ .

أدرك محمد ابن علي أنّ تنظيم الدعوة تنظيماً جيداً من أولى الضرورات

(11) الصولي ، أخبار الشعراء المحدثين / دار المسيرة - بيروت ط 5، 1979 ص : 14

(12) مصدر نفسه . ص : 14

لإنجاحها ، كما أنَّ السرية في العمل تفرضها المعطيات السياسية ، فالأمويون لن يتساهلوا مع العباسيين ، والجهر بدعواهم سيجر عليهم عداوة أبناء عموماتهم العلويين . لهذا أوصى محمد ابن علي دعائه الأوائل بكتمان أمرهم ، ودعوة الناس في رفق وستر⁽¹³⁾ واتجهت أنظاره الى أقاليم المعارضة للبيت الأموي : العراق ، وفارس وخراسان ، فوجه « ميسرة العبدى ومحمد ابن خنيس الى أرض العراق ، ووجه أبا عكرمة وحيان العطار الى خراسان »⁽¹⁴⁾.

وقد أوصاهم بالتركيز على إقليم خراسان ، لأنَّه الأقليم المؤهل أكثر من غيره لقبول الدعوة العباسية ، فقال لهم : « أمَّا الكوفة وسوادها ، فهناك شيعة علي ابن أبي طالب ، وأما البصرة ، فعثمانية الهوى تدين بالكف ، وتقول : كن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة فحرورية ، مارقة وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى . وأما أهل الشام ، فليس يعرفون إلا آل سفيان وطاعة بني مروان عداوة لنا راسخة وجهلاً متراكماً ، وأما أهل مكا والمدينة ، فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان ، فإنَّ هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وصدوراً سليمةً ، وقلوباً فارغةً لم تتقسَّمها الأهواء ، ولم تتوزَّعها النحل ، ولم تشغلها ديانة ، ولم يتقدم فيها فساد ، وليست لهم اليوم همم العرب ، ولا فيهم كتحازب الأتباع بالسادات ، وكتحالف القبائل وعصبيّة العشائر ، ولم يزالوا يذالون ، يمتنون ، ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ، ويؤملون الدول ، وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب ، وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة . وبعد ، فإنِّي أنفءل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق »⁽¹⁵⁾.

لم تبقَ إذاً إلا خراسان ، لم يشغلها التحازب والتمذهب ، وبالتالي فهي بعيدة عن التيارات السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، وهذا الفراغ يطمح محمد ابن علي في إملائه بالدعوة العباسية .

(13) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال . ص : 332.

(14) مصدر نفسه ص : 332.

(15) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ج : 1 ص : 204.

إتجه دعاة محمد الى حيث أرسلهم ، فجعلوا يدعون الناس الى الرضا من آل محمد ، وينفرونهم من البيت الأموي⁽¹⁶⁾ فاستجاب لدعاة العباسيين عدد كبير من أهل خراسان ، ولكن سراعان ما اكتُشِفَ أمرُ أبي عكرمة وحيان فقبض عليهما ، وقتلا⁽¹⁷⁾ فاختر الإمام من كبار شيعته اثني عشر نقيباً ، هم :

« من خزاعة : سليمان ابن كثير ، ومالك ابن الهيثم ، وزباد ابن صالح ، وطلحة ابن زريق ، وعمرو ابن أعين ، ومن طيء قحطبة واسمه زياد ابن شبيب ابن خالد ابن معدان ، ومن تميم موسى ابن كعب (أبو عينية) ولاهز ابن قريظ ، والقاسم ابن مجاشع - كلهم من بني امرئ القيس - وأسلم ابن سلام (أبو سلام) ومن بكر ابن وائل ابو داود خالد ابن ابراهيم من بني عمرو ابن شيبان أخي سدوس ، وأبو علي الهووي ، ويقال سبل ابن طهمان »⁽¹⁸⁾.

وأما في العراق ، فقد قبض للدعوة رجل من اهل الغنى واليسار ، آمن بالدعوة إيماناً عميقاً ، فسخر لها نفسه وماله هو بكير ابن ماهان ، ولما مات ميسرة ، تسلم أمر الدعوة حتى مات ، قال الأمر الى أبي سلمة الخلال ، الذي أوكل إليه أمر الإشراف على الدعوة في خراسان والعراق⁽¹⁹⁾. وفي هذه الأثناء ظهر في صفوف العباسيين رجل فهم فطن ذو حكمة ودهاء ، هو أبو مسلم الخراساني ، الذي لعب دوراً قيادياً بارزاً ، وقاد العباسيين الى النصر ، فمن هو أبو مسلم ؟ وكيف استطاع أن يقوم بأعباء القيادة ؟

أبو مسلم الخراساني (عبد الله ابن مسلم) مملوك لعيسى ومعقل ابني إدريس ابن عيسى العجليين ، وكان هذان الرجلان محبوسين بواسط ، وكان أبو مسلم يخدمهما في حبسهما فمر دعاة لبني العباس في المدينة في طريقهم الى الحج ، ودخلوا السجن ، فرأوا أبا مسلم ، وحدثوه ، وأعجبهم حديثه وهيئته وحبه

(16) الطبري . تاريخ الأمم والملوك ج : 9 ص : 98 ، أما الدينوري فيروى أن الدعاة الأوائل كانوا يدعون الناس إلى أمانة محمد ابن علي العباسي ، الأخبار الطوال ص : 333.

(17) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص : 335.

(18) مصدر نفسه . ص : 335 ، الطبري . تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ، ص : 98.

(19) أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 334.

لبنی هاشم ، فسألوه عن أمره ، فعزا نفسه لعمير العجلي ، وروی سبب كونه مملوكا لعيسى ومعقل ابني ادریس ، ولما التقى الدعاة الإمام محمد ابن علي في مكة ، قصوا عليه خبر أبي مسلم ، فكلفهم أن يبتاعوه ، ويرسلوه الى الحميمة ، ليكون الرسول بين الإمام ودعائه⁽²⁰⁾.

« ثم تُوفِّيَ الإمام محمد ابن علي ، فقام بالأمر بعده ابنه إبراهيم ابن محمد ، وكان أكبر ولده ، فأمر أبا مسلم أن يسير الى الدعاة بالعراق ، وخراسان ، فيُعَلِّمَهُمْ وفاةَ الإمام ، وقيامه بالأمر من بعده ، فارتحل حتى وافى العراق ، ولقي أبا سلمة ، ومن كان معه من الشيعة ، فأخبرهم بما أمره به ، ثم سار الى خراسان ، ولقي الدعاة بها ، فأخبرهم بذلك »⁽²¹⁾ فسودت شيعة بني العباس حزناً على الإمام محمد ، وكان أول من لبس السواد حريش مولى خزاعة ، ثم سود قحطبة ابن شبيب⁽²²⁾.

واضطرب حبل الأمن بخراسان بسبب الصراع بين القيسية واليمينية ، وأصبحت الظروف مؤاتية أكثر للدعوة العباسية ، فرقابة السلطة ضعفت ، بل قل انعدمت لاشتغال نصر بن سيار - وكان والي خراسان - بمحاربة الكرمانيين زعيم اليمانية ، فكتب سليمان ابن كثير الى أبي سلمة الخلال ، ان يكتب الى الإمام ليرسل الى خراسان رجلاً من أهل بيته ، فكتب أبو سلمة الى الإمام بذلك⁽²³⁾. ثم التقى نفر من الدعاة بإبراهيم الإمام بموسم الحج بمكة بينهم : سليمان ابن كثير ولاهز ابن قريظ ومالك ابن الهيثم وقحطبة ابن شبيب ، فأمره بشأن خراسان ، فقال لهم : « إني قد رأيت أن أولي هناك أبا مسلم ، لما جربت من عقله ، وبلوت من أمانته ، وأنا موجهه معكم ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، فإن والدي - رحمة الله عليه - كان وصف لنا صفته ، وقد رجوت أن يكون هو الذي يسوق إلينا الملك ،

(20) مصدر نفسه . ص : 337-338 ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب - دار المسيرة ط 2 - بيروت

1979 ج : 1 ص : 179.

(21) أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 339.

(22) مصدر نفسه . ص : 339.

(23) الطبري . تاريخ الأمم والملوك ج : 9 ص : 82 وما بعدها .

فعاونوه ، وكانفوه ، وانتهوا الى رأيه وأمره» (24).

وأوصى أبا مسلم بأمور تمثل خطة بني العباس في الوصول إلى السلطة ، فقال له : « يا عبد الرحمن ، إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتي ، انظر هذا الحي من اليمن ، فأكرمهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحي من ربيعة ، فإنهم معهم (25) .

وانظر هذا الحي من مضر ، فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت في أمره ، ومن وقع في نفسك منه تهمة . فقال : أيها الإمام ، فإن وقع في أنفسنا من رجل هو على غير ذلك ، أحبسّه حتى تستبينه ؟ قال : لا ، السيف ، السيف ، لا تتقي العدو بطرف . . . ثم قال له : إن استطعت أن لا تدع بخراسان أرضاً فيها عربي فافعل ، وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار ، فاتهمته ، فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ ، يعني سليمان ابن كثير ، ولا تعصه» (26).

شخص أبو مسلم مع الدعاة الى خراسان « فتشمر . . . للدعاء ، وأخذ القوم بالبيعة ، ووجه كل رجل من أصحابه الى ناحية من خراسان ، فكانوا يدورون بها كورة كورة ، وبلداً بلداً ، في زي التجار . فاتبعه عالم من الناس عظيم ، فواعدهم لظهوره يوماً سماه ، وولى على من بايعه في كل كورة رجل من اهلها ، وتقدم اليهم بالاستعداد للخروج من ذلك اليوم الذي سماه لهم ، حتى أجاب أرض خراسان ، سهلها وجبلها ، وأقصاها وأدناها . وبلغ (أبو مسلم) ما لم يبلغه من أصحابه أحد من قبله ، واستتب له الأمر على محبته ، وصار من

(24) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص : 342.

(25) في الطبري . تاريخ الأمم والملوك : وانظر هذا الحي من ربيعة ، فاتهمهم في أمرهم ج : 9 ص : 76.

(26) ابن قتيبة . الإمامة والسياسة . ج : 2 ص : 114 والطبري . تاريخ الأمم والملوك ج : 9 ص : 76 مع اختلاف في بعض الألفاظ وزيادة « وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني

أعظم الناس منزلاً عند شيعته ، حتى كانوا يتحالفون به ، فلا يحشون ، ويذكرونه ، فلا يملّون» (27).

ولما تشاغل العرب بالفتنة بين اليمينية ومضر ، واستفحل الصراع بين الطرفين ، وبلغ درجة من الحدة لا يسهل معها إيقافه ، عندها ظهر أبو مسلم على مسرح الأحداث ، وأصبحت الدعوة العباسية علنيةً بعد أن كانت سرية ، فداعى المخلصون للبيت الأموي لرأب الصدع بين المتقاتلين ، ولكن الجهود المبذولة لم تؤتِ أكلها ، واستمر الصراع القبلي ، وازداد تأججاً عندما جُذِدَ الحلف بين اليمن وربيعه (28). ويعود السبب في ذلك إلى تعنت نصر ابن سيار عامل مروان ابن محمد على خراسان ، فإنه استفز الكرمانى زعيم اليمينية ، وسجنه ، وعندما فرّ الأخير من السجن ، أبى إلا إخضاعه ، رغم تحذير الكرمانى له من خطر المسودة المطلة برأسها (29). وقد نُصِحَ نصر كثيراً بمهادنة الكرمانى ، إلا أنه أبى : من ذلك ، أنّ رجلاً دخل عليه ، فقال له : « إنّ مروان ابن محمد ، قد خالف ما ظنّ به الناس وقد كان رجى وأمل ، وما أرى أمره إلا وقد أنتقض ، وأجترأت عليه الخوارج ، وأنتقضت عليه البلاد ، وخرج عليه ثابت ابن نعيم ، ورأى الإشتغال بلذاته ، أهم عليه ، فلو اجتمعت كلمتك مع الكرمانى ، فإني خائف أنّ يوقعك هذا الخلاف فيما نكره ، وأنت شيخ العرب وسيدها ، وأرى والله في هذه الكور شيئاً ، وأسمع أموراً ، أخاف أن تذهب أو تذهل منها العقول ، فقال نصر ابن سيار : والله ، ما أتهم عقلك ولا نصيحتك . ولكن أكف عن هذا القول ، فلا يُسمعن منك ، فالتحم ما بين الرجلين ، وهاجت الحرب ، وتقاتلوا ، وجعلت رجال الشيعة (شيعة بني العباس) تجتمع في الكور الألف والألفان ، فيجتمعون في المساجد ويتعلمون : أي يتعارفون بينهم ، فبلغ ذلك نصراً ، وأغتم لذلك ، وخاف إنّ وجه اليهم من يقاتلهم ، أنّ ينحازوا إلى الكرمانى ، فلما استفحل أمر القوم ، وقام بأمرهم أبو مسلم الخراساني ، ثم

(27) أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال ، ص : 343.

(28) مصدر نفسه . ص : 351 وما بعدها .

اجتمعوا ، وأظهروا أمرهم ، كتب نصر ابن سيار إلى مروان ابن محمد :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري أليقظ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نياماً فقل قوموا فقد حان القيام
ففري عن رحالك ثم قولي على الإسلام والعرب السلام» (30)

لكن مروان ، كان مشغولاً بإخضاع ثائرين آخرين ، فلم يستطع نجدة نصر ، وجعل أبو مسلم يحتال الحيل لمنع تقارب اليمانية والمضربة ، « يكتب الكتب ، ثم يقول للرسول : مروا بها على اليمانية ، فإنهم يتعرضون لكم ، ويأخذون كتبكم ، فإذا رأوا فيها : فإنني رأيت المضربة لا وفاء لهم ، ولا خير فيهم ، فلا تتق بهم ، ولا تطمئن إليهم ، فإنني أرجو أن يريك الله في اليمانية ما تحب ، ويرسل رسولاً آخر بمثل ذلك على المضربة . فيقول مر على المضربة ، فكان الفريقان معه ، وجعل يكتب الى نصر ابن سيار ، والى الكرمانى : إن الإمام قد أوصاني بكم ، ولست أعدوا رأيه فيكم ، فجعل نصر يقول : يا عباد الله ، هذه والله الدلة ، رجل بين أظهرنا يكتب إلينا بمثل هذا ، لا نقدر له على ضر ولا نفع» (31).

وافى كتاب نصر ابن سيار الى مروان ابن محمد ، وقد قبض على رسول أبي مسلم الى إبراهيم الإمام ، فرشا مروان الرسول ، وأمره بإيصال الكتاب وكنم الأمر ، وإتيانه بالجواب ، فاطلع عليه ، فأخذ إبراهيم وجماعة من أهل بيته وقتلهم ، وكان في جواب إبراهيم « لعن لأبي مسلم حين ظفر بالرجلين ، ألا يدع

(29) م. ن. ص : 351 وما بعدها .

(30) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج : 2 ص : 114-115 وعيون الأخبار ، ج : 1 ص : 128 .

الدينوري الأخبار الطوال ، ص : 357 ، الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج : 9 ص : 92

المسعودي . مروج الذهب ، ج : 3 ، ص : 255 ، ابن عبد ربه العقد الفريد ج : 5 ص : 206

(31) ابن قتيبة . الإمامة والسياسة ، ج : 2 ص : 115 .

بخراسان عربياً إلا قتله»⁽³²⁾ وكان في ذيل الكتاب أبيات من الرجز ، منها :

« دونك أمر قد بدت أشراطه إنَّ السَّيْلَ واضِح صراطه
لم يبقَ إلاَّ السيف واختراطه »⁽³³⁾

ولما حان الموعد الذي واعد فيه « أبو مسلم أصحابه ، خرج جميع من كان واعدته في يوم واحد من جميع كور خراسان ، وقد لبسوا السواد ، وكانوا زهاء مئة ألف رجل ، خاف نصر ابن سيار من انحياز الكرمانى في اليمانية والربعية اليهم ، « فأراد أن يستعطف من كان مع الكرمانى من ربعة (فقال) :

أَبْلَغَ رَبِيعَةٍ فِي مَرَوْ وَإِخْوَتَهَا	أَنْ يَغْضَبُوا قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الْغَضَبُ
مَا بِالْكُفِّ تَلْقَحُونَ الْحَرْبَ بَيْنَكُمْ	كَانَ أَهْلُ الْحِجَا عَنْ فِعْلِكُمْ غُيْبٌ ⁽³⁴⁾
وَتَشْرُكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظْلَكَكُمْ	مِمَّنْ تَأَشَّبَ ، لَا دِينَ وَلَا حَسَبٌ ⁽³⁵⁾
لَيْسُوا إِلَى عَرَبٍ مِنَّا فَتَعْرِفَهُمْ	وَلَا صَمِيمَ الْمَوَالِي إِنْ هُمْ نُسِبُوا
قَوْمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ	عَنِ الرَّسُولِ ، وَلَا جَاءَتْ بِهِ الْكُتُبُ
فَمَنْ يَكُنْ سَائِلِي عَنْ أَصْلِ دِينِهِمْ	فَإِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ » ⁽³⁶⁾

لكن ربعة لم تحفل بهذا النداء ، واستمرت حليفة لليمانية ، « وكان أبو مسلم يحب أن يستميل أحد الرجلين ، ليفصم به شوكة الآخر ، فأرسل الى الكرمانى يسأله أن ينضم اليه ، لينتقم له من نصر ابن سيار ، فعزم على المسير اليه ، وأقبل أبو مسلم في عساكره الى أرض مرو ، فعسكر على ستة فراسخ من المدينة »⁽³⁷⁾.

(32) مصدر نفسه ، ج : 2 ص : 116 . الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 92 المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 258 .

(33) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 258 .

(34) تلقحون الحرب : تهيجونها ، الحجا : العقل وفي المنجد الحجي : العقل ، الحجا . الناحية .

(35) تأشب القوم اختلطوا .

(36) أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 360 وما بعدها . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج : 5

ص : 207 مع تغيير طفيف في الرواية .

(37) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص : 362

خرج الكرمانى الى أبى مسلم، وخشى نصر على نفسه، وظن إن هو قتل الكرمانى، تفرق شمل اليمن وربيعه، فأرسل الى الكرمانى، يسأله الرجوع على أن يعتزلاً، ويوليا الأمر رجلاً من ربيعة، وهو ما كان يطالب به الكرمانى، وافق الكرمانى، وخرج من معسكر أبى مسلم ليلاً، فغدر به نصر، وأرسل من اغتاله، فانظم ابن الكرمانى على الى عسكر أبى مسلم، وطلب اليه الثأر لأبيه من نصر، وجه أبو مسلم قحطبة على رأس جيش الى نصر، وأمره بمحاربته أو ينيب الى الطاعة فتظاهر نصر بالطاعة، وفرّ ليلاً من مرو، فدخلها قحطبة، وانضم الى أبى مسلم جماعة الكرمانى وجماعة نصر، إلا من كره ذلك فخرج هارباً⁽³⁸⁾.

استولى أبو مسلم على خراسان، وبدأت المدن والأقاليم تتساقط الواحدة بعد الأخرى دون مقاومة عنيدة، وكان مروان قد حشد قواته على الزابيين، فوجه قحطبة أبا عون العكي في ثلاثين ألف فارس اليه، وتوجه مع بقية الجنود نحو واسط، ليمنع يزيد ابن عمر من إمداد مروان، فهزم مروان، وكانت هزيمته نهاية الدولة الأموية⁽³⁹⁾.

فما هي الأسباب التي مكنت للدعوة العباسية من الانتصار، واكتساح الأمصار الإسلامية، وما هو الدور الذي لعبه الموالى والعجم في ذلك؟ إن أسباب انتصار الدعوة العباسية عديدة، ولكننا سنتعرض لسببين برأى، أنهما من أهم الأسباب التي قوضت السلطة الأموية وساعدت الدعوة العباسية على الإنتصار، هما: الصراع القبلي، والمعاملة القاسية التي أنتهجها الأمويون في معاملة الموالى.

الصراع القبلي :

وكان الذي هَيَّجَ الصراع القبلي، أن الكميّ، لمّا مدح آل البيت، وقام

(38) مصدر نفسه . ص : 362-363. الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج : 9 ص : 98-97

(39) ابن قتيبة . الامامة والسياسة، ج : 2 ص : 118 وما بعدها .

الدينورى، الأخبار الطوال، ص : 364 - 365.

عبد الله ابن معاوية ابن عبد الله ابن جعفر ، فجمع له المال ، فأبى أن يأخذه ، طلب اليه عبد الله أن يقول شيئاً ، يُغضبُ فيه بين الناس « لعلَّ فتنةً تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض ما تحب ، فابتدأ الكميت قصيدته التي يذكر فيها مناقب قومه من مضر ابن نزار ابن معدّ ، وربيعة ابن نزار ، وإياد وأنماربني نزار ، ويكثر فيها تفضيلهم ، ويطنب في وصفهم ، وأنهم أفضل من قحطان ، فغضب بها بين اليمانية والنزارية . . . وهي قصيدته التي أولها :

أَلَا حُسَيْبَ عَنَّا يَا مَدِينَا وَهَلْ نَاسٌ نَقُولُ مُسْلَمِينَ⁽⁴⁰⁾

« وقد نقض دِعْبِلُ ابن علي الخُزَاعِي هذه القصيدة على الكميت وغيرها ، وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها وغيرها ، وصرّح وعَرَضَ بغيرهم ، كما فعل الكميت ، وذلك في قصيدته التي أولها :

أَفِيقِي مِنْ مَلَامِكِ يَا ظَعِينَا كَفَاكِ اللَّوَمُ مَرُّ الْأَرْبَعِينَ

. . . ونمى قول الكميت في النزارية واليمانية ، وافتخرت نزار على اليمن ، وافتخرت اليمن على نزار ، وأدلى كل فريق بماله من المناقب ، وتحزبت الناس ، وثارت العصبية في البدو والحضر ، فتتج بذلك أمر مروان ابن محمد الجعدي ، وتعصبه لقومه من نزار على اليمن ، وانحرف اليمن عنه الى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر الى انتقال الدولة من بني أمية الى بني هاشم⁽⁴¹⁾.

وقد أثر هذا الصراع على الخلافة الأموية نفسها ، حتى صار الخليفة ألعوبة بيد هذا الفريق أو ذاك ، فإذا تغلبت اليمنية ولت أموياً يحطب في حبلها ، وإذا تغلبت المضربة قتلت الخليفة ، وولت آخر يؤيدها .

وكانت بداية اهتزاز العرش الأموي ، أن الوليد ابن يزيد قتل خالد ابن عبد الله القسري ، بسبب مال متوجب عليه أيام كان والياً على العراق ، وقال يفتخر في ذلك :

(40) السمعودي . مروج الذهب ، ج : 3 ص : 244 .

(41) السمعودي . مروج الذهب ، ج : 3 ص : 245 .

« شَدَدْنَا مُلْكَنَا بِبَنِي نِزَارٍ وَقَوَّمْنَا بِهِمْ مِنْ كَانَ مَالَا
وَهَذَا خَالِدٌ فِينَا قَتِيلًا أَلَا مَنَعُوهُ إِنْ كَانُوا رِجَالَا
وَلَوْ كَانَتْ بَنُو قَحْطَانَ عُرْبًا لَمَّا ذَهَبَتْ صَنَائِعُهُ ضَلَالَا
وَلَا تَرَكَوْهُ مَسْلُوبًا أَسِيرًا نُحْمَلُهُ سَلَاسِلَنَا الثَّقَالَا
وَلَكِنَّ الْمَذَلَّةَ ضَعُضَعَتْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لِذِلَّتِهِمْ مَقَالَا »⁽⁴²⁾

وكانت نتيجة هذا الشعر أن تألبت اليمنية وتداغت ، فحاربت الوليد ابن يزيد ، وهزمت المضربة ، وأخرجت محمد ابن خالد من سجنه ، وأمرته عليها ، فبايع يزيد ابن الوليد ابن عبد الملك ، وخلع الوليد ابن يزيد ثم قتله ، ولكن يزيد ابن الوليد ما لبث أن توفي ، وقام بالأمر أخوه ابراهيم ، فتجمعت المضربة وجاشت ، وبايعت مروان ابن محمد الجعدي على أن يطلب بشار الوليد ابن يزيد ، فقام مروان بالأمر ، ودخل دمشق وبايع له الناس ، وهرب محمد ابن خالد الى الكوفة ، وبقي مختفياً فيها حتى ظهر داعياً للعباسيين⁽⁴³⁾

فكان نتيجة هذا الصراع الذي عمّ الدولة الإسلامية ، أن ملّ الناس القتال ، وبدأوا يتطلعون الى منقذ يخلصهم من هذه الحرب القذرة ، أضف الى ذلك تهتك بعض الخلفاء الأمويين ، وأنغماسهم باللهو والترف ، مما دفع الكثير من المؤمنين للعمل على نقض سلطانهم .

معاملة الموالى القاسية وردة فعلهم :

لقد مر فيما سبق نماذج من معاملة السلطة للموالى والعجم ، مما دفع هؤلاء للتطلع الى حزب أو حركة تخلصهم من نير بني أمية ، فوجدوا في الدعوة العباسية ضالتهم المنشودة ، « فقد كانوا عللوا نفوسهم حين دخلوا في الإسلام بالتساوي مع العرب ، ولكنهم رأوا عوضاً عن ذلك أن مركزهم تدنى الى درجة الموالى ، وما يرافقها في بعض الأحيان من دفع الجزية المرسومة على غير

(42) ص : 347 - 348 .

(43) مصدر نفسه . ص : 350 - 351 ، 367 .

المسلمين . وزاد في نفقتهم شعورهم ، بأنهم أرقى وأعرق ثقافة من أسيادهم العرب»⁽⁴⁴⁾ زد على ذلك أنَّ النزعة القومية الإيرانية بدأت تقوى تحت قناع التشيع⁽⁴⁵⁾.

وبعد ، ما هو الدور الذي لعبه الموالي والفرس في تلك الثورة ؟ هل أشتركوا في الثورة ضد العرب ، أم ضد الأمويين ؟ ثم هل كان العامل القومي في تحركهم أقوى من العامل الديني والإجتماعي ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة ، لا بد من العودة الى بداية الدعوة العباسية ، لنرى مقومات نجاحها ، فنجد أنَّ للعباسيين فضل أقتطاف ثمرة قد غرس شجرتها غيرهم ، فلواء التشيع لآل بيت الرسول ، قد حملة العلويون طويلاً ، وضحووا من أجله الكثير ، وصراع اليمن ومضر خطط له عبد الله ابن معاوية والكميت الشاعر ، فأفرز من الحروب والفتن ما كان من الأسباب المباشرة لدك السلطان الأموي ، والنقمة على الأمويين ، كانت عامة في مختلف الأمصار الإسلامية ، بسبب الحروب والفتن الداخلية ، وأنغماس الخلفاء في الصراعات المحلية ، وأصبح الناس يتطلعون الى منقذ ، ينهي مرحلة اللاإستقرار في المجتمع الإسلامي ، فلا العرب يريدون استمرار سلطان بني أمية ، ولا العجم يرغبون في ذلك ، فالحال العامة والظروف السياسية والإجتماعية تعمل لصالح العباسيين . فغضب الفرس والموالي على بني أمية أحد العوامل المهمة ، لكنّه ليس العامل الوحيد الحاسم في هذا الصراع . وإنَّ ما يثير الدهشة حقاً ، هو نجاح الشعوبيين بتصوير الدولة العباسية وكأنها دولة أعجمية . وأظن أنَّ الهدف من ذلك هو الوصول الى القول : بأنَّ الحضارة العباسية ما كان لها أنْ تصل الى ما وصلت اليه ، لولا هم الفرس والموالي ، أو إنها صورة متطورة للحضارة الساسانية . وقد بدأت تلك المحاولة بالوضع والدس على أقوال الزعماء العباسيين الأوائل ، كتلك الوصية التي نُسبت الى إبراهيم الإمام عندما وجه أبا مسلم الخراساني الى

(44) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ج : ١ : 354 .

(45) مرجع نفسه . ج : ١ : ص 354 .

خراسان ، وقد أكذت السيدة قدورة وضعها وتابعت رأي الدوري ، الذي شك فيها وبرر ذلك الشك بأسباب منها : ضعف الدعوة آنذاك ، والتناقض بين الطلب بمحو العرب ، وخطب ود اليمينية ، لأن نجاح الدعوة متوقف عليهم ، وهم من العرب ، وشيوخ الدعوة كانوا من العرب أيضاً⁽⁴⁶⁾. وأرى أنه أولى بالشك من ذلك خطبة قحطبة ابن شبيب في أهل خراسان ، وهم على وشك قتال الأمويين ، فقد نُسبَ إليه قوله : « يا أهل خراسان ، هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين . . . حتى بدلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، وأستكحوا نساءهم ، واسترقوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون المظلوم ، ثم بدلوا وغيروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله (ص) فسلطكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبة ، لأنكم طلبتموهم بالثأر ، وقد عهد إلي الإمام ، أنكم تلقونهم في مثل هذه العدة ، فينصركم الله عز وجل عليهم ، فتهزمونهم ، وتقتلونهم »⁽⁴⁷⁾.

فهل يُعقل أن يقول مثل هذا الكلام عربي ؟ إن التحريض في هذه الخطبة ليس موجهاً لحزب ضد آخر ، إنما هو موجه لأمة ضد أمة أخرى ، ومنطق الأحداث والعصر ، يدفعنا للشك فيها ، فالصراع له واجهة دينية واقتصادية

(46) زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 75 وما بعدها .

إن مفهوم العروبة أثناء الدعوة العباسية لم يكن واضحاً سواء بالنسبة للعجم أو العرب . فبالنسبة للعجم ، كانت العروبة ترتبط ارتباطاً كلياً بالإسلام ، حتى أن البعض يعتبر المسلم عربياً وإن كان من غير العرب .

(انظر الطبري ، تاريخ العم والملوك ، ج : 3 ص : 196-197 .

أما العرب أنفسهم ، فكانت العروبة أحياناً لا تعني أكثر من قبيلة أو مجموعة قبائل ، فعبادة ابن الحارث ، لم يعتبر اليمانية من العرب ، فقال في الحرب التي كانت بخراسان بين الأزدي ومضر :
الأزدي رأيتها عزت بمرور وذلّت العرب
فجاز الصفر لما كان ذاك وبهرج الذهب

الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 75 وعليه فقد يكون إبراهيم الإمام قد عني بكلمة العرب مضر أنصار مروان ابن محمد الجعدي .

(47) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 9 ص : 106 .

وسياسية ، وقحطبة عربي لا شك في عرويته ، وأمرأء جنوده من العرب ، وجنوده من العرب والعجم ، فلو صحت هذه الخطبة لكانت خليقة بأن تسبب الانقسام داخل جيشه . بل كيف يصرح بهذه الأفكار وقد قال قبلها « يا أهل خراسان أتدرون الى من تسيرون ؟ ومن تقاتلون ؟ إنما تقاتلون بقية قوم حرقوا بيت الله عز وجل »⁽⁴⁸⁾ فهل كل العرب شاركوا في حرق بيت الله ؟ .

لقد بالغت السيدة قدورة حين رأت أن قحطبة من غير المعقول أن يقول هذه الخطبة في جيش معظمه من العرب ، ورأت أن الروح المعنوية للعرب في خراسان قد ضعفت⁽⁴⁹⁾ ولم تشك في هذه الخطبة مع أنها أولى بالشك من وصية إبراهيم الإمام ، والعرب في خراسان لم تضعف معنوياتهم ولم يقبلوا تحكم الموالي بهم ، حتى بعد انتصار الشعوبية ، وتمكنها من ناصية الدولة العباسية في سنة المائة والتسعين بعد الهجرة ، فقد خرج رافع ابن نصر ابن سيار مغاضباً بأرض خراسان ، وكان سبب خروجه ، أن عيسى ابن ماهان لما ولي خراسان ، أساء السيرة ، وتحامل على من كان فيها من العرب ، وأظهر الجور ، فخرج عليه رافع ، فواقعه وقعات ، ثم أنحاز فيمن معه من أهل خراسان ، وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً الى سمرقند وأقام بمدينتها ، ولما بلغ الرشيد ذلك عزل ابن ماهان ، وولى هزيمة ابن عيين⁽⁵⁰⁾ . فخراسان فيها من العرب مثل ما فيها من العجم ، ولفظة أهل خراسان تشمل الطرفين ، فمستحيل والحال هذه أن يواجه قحطبة مثل هذه الخطبة في أهل خراسان .

إن مثل هذه الأخبار والروايات جاءت نتيجة تلك الدعاية الأموية ، التي كانت تصور الدعوة العباسية ، وكأنها ثورة فارسية ، لعلها تستطيع تأليب العرب ، وتجييشهم لصالحها ، يظهر ذلك في قصائد نصر ابن سيار ، ورسالة عبد الحميد

(48) مصدر نفسه . ج : 9 ص : 106 .

(49) زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها . ص : 80

(50) أبو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 391 .

الكاتب بلسان مروان والتي يقول فيها : « فلا تمكنوا من ناصية الدولة العربية ، يد
الفئة العجمية »⁽⁵¹⁾.

استفاد الشعوبيون فيما بعد من هذه الدعاية ، فزادوا فيها ولفقوا الأخبار
والإدعاءات ، وصوروا الثورة العباسية ، وكأنها ثورة الفرس على العرب⁽⁵²⁾.

هذه الأمور نقلها بعض المؤرخين ، وبني عدد من المستشرقين ، عليها
ظاهرة لا تمت الى الواقع بصلة وثيقة ، فاعتبر خودابوش (Khuda Buhsh) : أن
العباسيين إنما أنتصروا بسيف أهل خراسان ، وبقيادة أبي مسلم الخراساني⁽⁵³⁾.
وأما براون وهارت ، فقد اعتبرا أن معركة الزاب كانت ثأراً لموقعة القادسية
ونهاوند⁽⁵⁴⁾ فهل ما ذهب إليه هؤلاء كان صحيحاً ؟.

إن الدعوة العباسية عربية الأصل ، والعباسيين عرب أيضاً ، وأداة الدعوة
الأولى كانت عربية ، صحيح أن الدعوة نمت واتسعت في خراسان ، وأن الرايات
السود رُفِعَتْ أول ما رُفِعَتْ فيها ، ولكنها لم تكن عجمية خراسانية صرفة ، وأهل
خراسان - كما بينا - كانوا من العرب والعجم ، والعنصر العربي في خراسان كان
له شأنه ، يظهر ذلك في عدد النقباء العرب ، وكذلك أمراء الجيوش ، فإنا إذا
أستثنينا أبا مسلم الخراساني وخالد ابن برمك ، قلما نجد قائداً بارزاً من الموالي
في تلك الفترة . وقائد معركة الزاب كان عربياً صليباً ، فكيف تكون تلك المعركة
ثأراً لمعركة قد سبقتها ؟

إن دوافع عديدة جعلت الخراسانيين ينضمون للدعوة العباسية ، والدافع
القومي كان بين تلك الدوافع ما من ذلك شك ، لكنه لم يكن قوياً للدرجة التي
يحاول البعض تصويرها . بل إن الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والدينية كانت

(51) عبد الحميد الكاتب ، رسالة عبد الحميد ص : 221 (رسائل البلغاء) القاهرة 1946 .

(52) البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية لبيزغ 1878 ص : 212 وما بعدها .

(53) Khuda Buhsh, The Orient Under the Caliphs, P. 339

(54) Browne, Literary History of Persia, P. 247.

Huart, Histoire des Arabes, P. 286.

أقوى منه ، وقد لاحظ ذلك الدوري ، فقال : إن جل المنضمين الى الدعوة العباسية ، كانوا من العامة ، وهناك مجموعات من الأشراف أيّذتها ، خاصة في منطقة خُرّاسان ، وبينهم الدهاقين نبلاء القرى والمناطق ، وقد عهد اليهم العرب بجباية الضرائب في قراهم ، أو مناطقهم ، كما كانوا يفعلون في العصر الساساني ، ولذا كانت لهم امتيازات إجتماعية واقتصادية وقد خسر الدهاقين امتيازاتهم نتيجة التنظيمات المالية التي وضعها نصر ابن سيار في أواخر العصر الأموي ، ذلك لأنّه فرض الخراج على الأرض مهما كان مالکها ، وأبقى الجزية على أهل الذمة ، وأحلّ هذا النظام محلّ الضريبة الواحدة التي كانت تفرض على الأفراد ، كنوع من الجزية ، والتي كان الدهاقين وأعوانهم يتخلصون منها ، فتقع على العامة ، وهذا يعني أنّ جلّ الضريبة صار على الدهاقين لا العامة . فأنقلب الدهاقين في السنين الأخيرة على الأمويين وانضم كثير منهم الى الدعوة العباسية⁽⁵⁵⁾.

فالحال الإقتصادية والأمر المعاشية هي التي كانت تفرض نفسها على الناس وتحدد مسلكيتهم قبل كل شيء ، والدهاقين وهم الطبقة الممتازة في المجتمع الفارسي ، لم تناصر الدعوة العباسية ، إلّا بعد أن رأت مصلحة اقتصادية في ذلك .

أمّا الشعبية بمعناها الإصطلاحي ، فإنها لم تبرز بعد ، ورؤساء الدعوة العباسية حريصون على تجنب كل ما يثير الإنقسام بين أتباعهم ، وعندما حاول عيسى ابن ماهان أن يثير فتنة من هذا النوع بين أبي مسلم الخراساني وأبي داود العربي ، ضُربَ على يده ، وكان جزاء فعله قتلُهُ ، فقد « ظهر أبو مسلم بستة عشر كتاباً وجدها من عيسى ابن ماهان الى كامل ابن مظفر صاحب أبي مسلم ، يعيّب فيها أبا داود ، وينسبه فيها الى العصبية ، وإثارة العرب وقومه على غيرهم من أهل الدعوة ، وأنّ في عسكره ستة وثلاثين سرادقاً للمستأمنة ، فبعث بها أبو مسلم الى أبي داود ، وكتب اليه : أنّ هذه كتب العلج الذي صيرته عدل

(55) الدوري ، الجذور التاريخية للشعبية ص : 19

نفسك ، فشأنك به ، فكتب أبو داود الى عيسى ابن ماهان ، يأمره بالانصراف اليه عن بسام (وكان في محاربته) ، فلما قدم عليه ، حبسه ، ودفعه الى عمر النغم ، وكان في يده محبوساً ، ثم دعا به بعد يومين أو ثلاثة ، فذكره صنيعة به ، وإشارة إياه على ولده ، فأقر بذلك ، فقال أبو داود : فكان جزاء ما صنعت بك أن سعت بي ، وأردت قتلي ، فأنكر ذلك ، فأخرج كتبه ، فعرفها ، فضربه أبو داود يومئذ حدين ، أحدهما للحسن ابن حمدان ، ثم قال أبو داود : أما إنني قد تركت ذنبك لك ولكنَّ الجند أعلم ، فأخرج في القيود ، فلما خرج من السراشق ، وثب عليه حرب ابن زياد وحفص ابن دينار مولى يحيى ابن حصين ، فضرباه بعمود وطبرزين ، فوقع الى الأرض ، وعذاً عليه أهل الطالقان وغيرهم ، فأدخلوه في جوالق ، وضربوه بالأعمدة حتى مات ⁽⁵⁶⁾.

فهذا عقاب من كان يحاول إثارة فتنة بين العرب والموالي من أنصار الدعوة العباسية حتى ولو كان من القادة ، فكيف إن كان من غيرهم ؟

وأبو مسلم نفسه لم يؤثر عنه تعصب على العرب أو للعجم ، وهو نفسه كان يدعي أنه من عجل ، ومن الناس من كان يرى أنه من العرب ⁽⁵⁷⁾ ، وعندما خرج الى الحج « كان . . . يصلح العقاب ، ويكسو الأعراب في كل منزل ، ويصل من سألته ، وكسا الأعراب البُتوت ⁽⁵⁸⁾ ، والملاحف ، وحفر الآبار ، وسهل الطرق ، فكان الصوت له ، فكان الأعراب يقولون : هذا المكذوب عليه » ⁽⁵⁹⁾.

وخلاصة القول : أن الثورة العباسية مهدت للموالي عامة ، والفرس خاصة ، فشعروا بكيانهم وقدرتهم على الفعل بالأحداث ، وشارك كبارهم في تسيير دفة السلطة ، فأصبحت لديهم الجرأة بالجهر بأرائهم ، وما يضمرون من

(56) الطبري . تاريخ الامم والملوك . ج : 9 ص : 152 .

(57) المسعودي . مروج الذهب . ج : 3 ص : 254 .

(58) البتوت : ثوب غليظ

(59) الطبري . تاريخ الامم والملوك . ج : 9 ص : 159 .

اعداء للعرب والعروبة ، وأخذت الشعبية تبلور كتيار فكري له أنصار في كل مكان في السلطة وخارجها .

وبعد أن عرضنا لنوعية العلاقة بين العرب وجيرانهم في الجاهلية ، ولعلاقتهم مع الموالي في العهدين الراشدي والأموي ، يمكننا أن نوجز الأسباب التي مهدت وساعدت في تبلور الفكرة الشعبية كما يلي :

الهاجس القومي والشعور بالقهر :

فالإسلام لم يغزِ المجتمعات الأخرى ابتداءً بالفكر ، إنما غزاها بالسيف ، ودمر أمجادها ، وسبى أهلها ، وقوّض حضارتها ، وفرض قيمه ومثله على أهلها . فكان طبعياً أن تحاول تلك الشعوب التخلص من الإحتلال يحدوها أمل كبير باستعادة أمجادها وبعث تراثها من جديد .

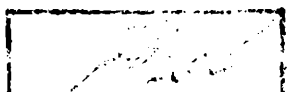
الموروث الحضاري :

إن الشعوب المجاورة للعرب ذات حضارات عريقة متفوقة نسبياً على الحضارة الجاهلية ، ولم يكن أحد يتوقع أن العرب سينطلقون من صحرائهم لتدمير الامبراطورية الساسانية ، وانتزاع أفضل الأقاليم من الامبراطورية البيزنطية ، وبمرور الوقت أفاقت تلك الشعوب من صدمة الهزيمة ، وراحت تقارن بين حضارتها وحضارة العرب ، وتعتقد أنها الأولى والأجدر بقيادة الدولة الجديدة إن لم يكن بالمستطاع إعادة العرب الى الصحراء .

الدين :

كان الدين وخاصة لدى الفرس ، مرتبطاً ارتباطاً متيناً بمفهوم الأمة ، لذلك لم يستطع الفرس أن يعتبروا المسلم غير عربي حتى ولو كان فارسياً⁽⁶⁰⁾ وكان

(60) الطبري . تاريخ الامم والملوك ج : 3 ص : 196 - 197 .



الحنين الى الماضي ، الى الدولة القومية مقروناً بالحنين الى الدين القديم ، خاصة وإن الداخلين في الإسلام ، لم يعتنقوه في أحيان كثيرة إلا بدوافع إقتصادية او اجتماعية . وكان اعتناقهم للإسلام يمثل إحباطاً آخر ، فحالهم في الإسلام ليس أفضل بكثير من حالهم قبله والعودة الصريحة الى الدين القديم لا تعني إلا النهاية⁽⁶¹⁾ ، فظاهروا بالإسلام ، وأضمرؤا غيره .

الإقتصاد :

لقد تركزت الثروة في مقر الخلافة والحواضر العربية الأخرى ، وأصبح العرب يمثلون الطبقة الغنية المتمتعة بكلّ الإمتيازات الاجتماعية والاقتصادية . أما الموالي وغيرهم من طبقات الشعب ، فكانوا فقراء كادحين ممّا دفع الموالي الى ترك القرى والرحيل الى الحواضر طمعاً بالراحة والثروة ، ولكنّ حالهم في الحواضر لم تكن أفضل من حالهم في الأرياف ، إضافة الى العديد من التدابير التعسفية التي أُخذت بحقهم⁽⁶²⁾.

السياسة :

تمركزت السلطة بأيدي العرب طيلة العهدين الراشدي والأموي ، واستُبعد غير العرب خاصة في العهد الأموي ، مما ساعد على توسيع الهوة بين العرب وغيرهم من الشعوب ، ودفع الموالي والأعاجم الى العمل بكل الوسائل المتاحة للنيل من السلطان العربي .

(61) عقوبة الإرتداد عن الإسلام القتل إذا لم يتب المرتد .

(62) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ، ص : 329 - 330 ، وفيه انتقم الحجاج

من الموالي لمشاركتهم في ثورة ابن الأشعث ، فأسقط ديوانهم وفرق جماعتهم ، ونفّس على يد كل منهم اسم البلدة التي وجه إليها .

انتشار الشعوبية :

لم يكن من الممكن إذاً في ظل الأمويين أن ينشط الموالي والأعاجم صراحة للمطالبة بحقوقهم ، والجهر بدعواهم ، فلجأوا الى الحركات والأحزاب المعارضة للبيت الأموي أملاً بتسوية أوضاعهم ، أو خلق فرص جديدة تساعد في تحقيق غاياتهم . وقد ناضلوا في صفوف المعارضة التي كانت تدعو للعدل والمساواة بين المسلمين ، فاشتركوا في ثورات الخوارج ، كما اشتركوا في ثورات ابن الزبير والعلويين وابن الأشعث وغيره . وسنحت لهم الفرصة فعملوا في الدعوة العباسية ، وتصدروها تنظيراً وتنظيماً وقتالاً ، ونجحوا بنجاحها ، فكان منصب الوزير لهم لا يكاد ينازعهم عليه احد ، فأحسوا بقوتهم ودألتهم على الدولة الجديدة التي كانت برأيهم مدينة لهم بكل شيء . وإذا كان يأسهم من السلطان الأموي هو الدافع الرئيسي لهم الى أحضان المعارضة ، فقد عانوا من السلطان العباسي خيبة أمل مريرة ، تتمثل بالصراع الذي كان ينشب من حين لآخر بين الوزير الفارسي والخليفة العربي ، والذي كان يحسم في الأغلب لصالح الخليفة ، أضف الى ذلك أن الصراع على الخلافة لم يهدأ . فالعلويون يدعون بأحقيتهم فيها ، والعباسيون يتشبثون بها . في ظل هذه الظروف ظهرت الشعوبية في المجتمع الاسلامي لتعلن بدء مرحلة جديدة من الصراع بين العرب وغيرهم من الشعوب بشكل عام ، وبينهم وبين الفرس بشكل خاص .

الباب الثاني :

الشعوبية والبعد الديني

الفصل الأول : الزندقة وتلازمها مع الشعوبية

- الأديان الفارسية في العراق وفارس قبل الاسلام

- الزندقة وتلازمها مع الشعوبية

- تغفل الزندقة في المجتمع العباسي

الشعوبية والبعد الديني

لعب الدين دوراً مهماً في حياة الأمم عبر العصور ، وكان غالباً الأساس الذي تقوم عليه الدول ، والدولة العربية ، شأنها شأن مثيلاتها ، نشأت نشأة دينية ، وكان الإسلام الرابط الموحد للقبائل العربية ، والبوتقة التي انصهرت فيها النوازع المختلفة ، والدافع للفتوح ورفع راية الجهاد . وترافق الصراع العسكري في سبيل تثبيت أقدام الدولة في الأقاليم المفتوحة مع الصراع الفكري والعقائدي لنشر الدين الجديد . ولئن كان انتصار السيف العربي الإسلامي حاسماً وسريعاً ، فإن انتصار الدين الإسلامي ، لم يكن سريعاً أو سهلاً ، فقد واجه من العقبات والأزمات الداخلية والخارجية الكثير مما جعل انتشاره بطيئاً قياساً بالانتصار العسكري الذي أحرزه العرب .

ولقد واجهت شعوب البلدان المفتوحة الدعوة الإسلامية في أشكال مختلفة : فئة آمنت بالإسلام إيماناً عميقاً ، فحسن إسلامها وأسهمت بنشر الإسلام ودرسه والدفاع عنه . وفئة أخرى آمنت بالإسلام إيماناً ظاهراً لحماية مصالحها المعنوية ، أو الإقتصادية ، وبقيت على إيمانها القديم ، تسره ، ولا تعلنه خوفاً من السلطان . وفئة ثالثة تشبثت بدين الآباء والأجداد ، وحاولت بعثه في فترات مختلفة عبر ثورات دموية ، انتهت بالفشل وزعمائها بالموت . وكان أخطر هذه الفئات ، الفئة التي أظهرت الإسلام ، وأسرت غيره ، وانطلقت تعمل بالظلام بعيدة عن رقابة السلطة والمسلمين ، على هدم الإسلام وتقويض أركانه وبث الفرقة في صفوف أتباعه ، إيماناً منها بأن الإسلام هو القوة الحقيقية التي استطاع

بها العرب قهرهم وأبناء جنسهم ومللهم ، محاولين بذلك الكيد للإسلام والدولة التي تقوم على أساسه ، ليتسنى لهم إعادة بعث أمجادهم وأديانهم .

وتوزع نشاط هذه الفئة مختلف الميادين، للوصول الى هدف واحد، تقويض الدولة وزعزعتها ، عبر هدم الأساس الأول الذي قامت عليه : الإسلام .

فنشطت في الأحزاب السياسية ، واستطاعت أن تبتدع بدعاً مختلفة ، تشوّه الدين ، وتبتعد به عن مساره الصحيح عن طريق تمويلات عقائدية مختلفة ، ظاهرها إسلامي وباطنها مجوسي أو مزيج من ديانات أخرى . وشرعت في الوضع والكذب على الرسول ، بهدف تخريب احد مصادر التشريع الإسلامي وبث الشكوك حوله⁽¹⁾ .

كما مارست دوراً تشكيكياً مخرباً ، فشك البعض بوحدانية الخالق عزّ وجلّ ، وأنكر البعض النبوة ، وحاول البعض الآخر نقض القرآن الكريم .

لم يقف المسلمون مكتوفي الأيدي أمام هذه الحملات المتعددة التي كانت تُشنّ على دينهم ، فتحولوا الى دعاة لله ومبشرين بالإسلام ومناظرين ومجادلين لأصحاب الديانات والملل الأخرى . ووقفت السلطة - يساندها جمهور المسلمين - بحزم في وجه المخربين والمشككين ، ففشلت بذلك جميع المحاولات أن تنال من الدين الإسلامي او تحدّ من نشاطه وتغلغله بين الناس .

الذيل الفارسية في العراق وفارس قبل الإسلام

لا بد لنا قبل البحث في البدع الدينية او الحديث عن الزندقة والزنادقة من أن نلقي نظرة سريعة على الأديان التي كانت سائدة في سواد العراق وبلاد فارس وبلاد ما وراء النهر ، لأنّ جُلّ من اتهم بالزندقة أو اعتقدها كان على أحد هذه الأديان أو على مزيج منها . كما أنّ أصول كثير من البدع الإسلامية جاء عن طريقها أو بتأثيرها .

(1) لقد ساعد هذه الفئة افراد كثيرون كانوا يتعيشون بهذه الطريقة .

المجوسية

وهي الديانة القومية للفرس ، وقد آمن المجوس بأصلين ، الأول : النور ، والثاني الظلمة ، وقالوا : إنّ النور أزليّ ، والظلمة محدثة⁽²⁾. وقالوا : إنّ للعالم مدبرين يقتسمان الخير والشر والنفع والضرر ، يسمون أحدهما النور (يزدان) والآخر الظلمة (أهر من) . ومسائلهم تدور على مسألتين : الأولى كيفية امتزاج النور والظلمة والثانية كيفية تخلص النور من الظلمة . وإذا كان امتزاج النور بالظلمة مبدأ العالم ، فإنّ تخلص النور من الظلمة معاده⁽³⁾ .

والمجوس فرق ثلاث :

أ- الكيومرثية :

أصحاب المقدم الأول (كيومرث) قالوا بالإنثنين : « يزدان وأهر من » . وعن سبب وجود العالم ، قالوا : إنّ يزدان فكّر في نفسه لو كان له منازع كيف يكون ؟ فكان من هذه الفكرة أهر من ، فجاشت الحرب بين يزدان وأهر من ، حتى توسط الملائكة ، وكانت الهدنة ، وزعموا : أنّ النور خيرّ الناس ، فاختاروا مقاتلة الشر والظلمة ، واشترطوا النصر من يزدان ، وعندما ينتصر الإنسان على الظلمة تكون القيامة⁽⁴⁾.

ب- الزروانية :

وهم الذين قالوا : إنّ النور أبدع أشخاصاً نورانيةً روحانيةً ، لكنّه شكّ في شيء من الأشياء ، فحدث أهر من بسبب هذا الشك . وقال بعضهم : إنّ زروان الكبير زمزم تسعة آلاف وتسعمائة وتسعاً وتسعين سنة ليكون له ابن ، فلم يكن ، فشكّ بالعالم ، فحدث أهر من وهو في اعتقادهم أخو هرمز ، والإنسان أبناء لزروان

(2) الشهرستاني ، الملل والنحل / تحقيق محمد الكيلاني - دار المعرفة ، بيروت - 1980 ج : 1 ص : 233 .

(3) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 232 .

(4) م . ن . ج : 1 ص : 233-234 .

الكبير ، وإن هـرمز كان خيراً صالحاً طاهراً ، وأهرمن كان فاسداً شريراً . وبعضهم الآخر زعم أن أهرمن لم يزل مع الله . وزعم بعضهم : أن الشيطان كان خارجاً عن سلطان الله ، فاحتال حتى دخل سلطانه ، فخلق الله هذا العالم شبكة له ، فهو محبوس فيها يطغى عباد الله⁽⁵⁾.

ج - الزرادشتية :

وهم أصحاب زرادشت ابن يوراشب أحد أنبياء المجوس « وكان دينه عبادة الله ، والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث »⁽⁶⁾ وكان يقول بأصلين متضادين : النور والظلمة ، وهما مبدأ موجودات العالم ، وإن الله تعالى خالقهما ومبدعهما ، وإنه واحد لا شريك له ، ولا ند ، ولا ضد ، ولا يجوز أن يُنسب إليه وجود الظلمة ، كما قالت الزروانية . وله كتاب يدعي المجوس أنه أنزل عليه ، يسمى « زنداوستا »⁽⁷⁾ ، ومن المجوس الزرادشتية ، طائفة يقال لها : السيسانية أو البها فريديّة ، نسبة الى رئيسهم سيسان ، خرج في أيام أبي مسلم الخراساني ، وكان في الأصل زمزمياً ، يعبد النيران ، لكنه ترك ذلك ، ودعا المجوس الى ترك الزمزمة وعبادة النيران ، وأمرهم بإرسال شعورهم ، وحرّم عليهم الأمهات والبنات والأخوات ، وحرّم شرب الخمر ، ودعا للسجود ناحية الشمس على ركبة واحدة ، وترك أكل الميتة ، ودعاهم أن لا يذبحوا الحيوان حتى يهرم ، وأصحابه أعدى خلق الله للمجوس الزمزمية . شكاه موبذ المجوس الى أبي مسلم ، فقتله على باب جامع نيسابور⁽⁸⁾ . ولم تنتشر المجوسية إلا في بلاد الفرس⁽⁹⁾.

(5) الشهرستاني ، الملل والنحل ج : 1 ص 234 وما بعدها

(6) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 237 .

(7) م . ن . ج : 1 ص : 237 - 238 .

(8) م . ن . ج : 1 ص : 238 - 239 .

(9) الجاحظ ، الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون / المجمع العلمي ،

ط3 - بيروت 1969 ج : 5 ص : 325 وما بعدها .

ومن الثبوتية من قال « بتناسخ الأرواح في الأجساد ، والانتقال من شخص الى شخص ، وما يلقي الإنسان من الراحة والتعب والدقة والنصب ، فمرتب على ما أسلفه من قبل ، وهو في بدن آخر جزاء على ذلك . والإنسان أبداً في أحد أمرين إما في فعل وإما في جزاء ، وما هو فيه : فإمّا مكافأة على عمل قدمه ، وإمّا عمل ينتظر المكافأة عليه . والجنة والنار في هذه الأبدان ، وأعلى عليين درجة النبوة ، وأسفل السافلين : دركة الحية »⁽¹⁰⁾.

المانوية :

هم « أصحاب ماني ابن فاتك ، الذي ظهر في زمان سابور ابن أردشير وقتله بهرام ابن هرمز ابن سابور ، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام . أحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية ، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام »⁽¹¹⁾. وقد جاء في كتابه المعروف بالشابور كان ، وهو الذي ألفه لسابور ابن أردشير : « أن الحكمة والأعمال هي التي لم يزل رسل الله يأتون بها في زمن دون زمن ، فكان مجيئهم في بعض القرون على يدي الرسول الذي هو البد الى بلاد الهند . . . ثم نزل هذا الوحي ، وجاءت هذه النبوة في هذا القرن الأخير على يدي أنا ماني ، رسول اله الحق إلى أرض بابل ، وذكر في إنجيله الذي وضعه على حروف الأبجد الإثني والعشرين حرفاً ، أنه الفارقليط ، الذي يشر به المسيح ، وأنه خاتم النبيين ، وأخبر عن كون العالم وهيته بما يضاد نتائج البراهين والدلالات ، ودعا الى ملك عوالم النور والانسان القديم ، وروح الحياة ، وقال بقدم النور والظلمة وأزليتهما ، وحرّم ذبح الحيوان وإيلامه ، وإيذاء النار والماء والنبات على أبلغ وجه . وشرّع نواميس يفترضها الصديقون ، وهم أبرار المانوية وزهادهم ، على أنفسهم ، من إيثار المسكنة وقمع الحرص والشهوة ، ورفض الدنيا ، والزهد فيها ، ومواصلة الصوم والتصدق بما

(10) الشهرستاني ، الملل والنحل ج : 1 ص : 253 - 254 .

(11) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 244 وما بعدها .

أمكن ، وتحريم اقتناء شيء خلا قوت يوم واحد ، ولباس سنة ، وترك السفاد ، وإدامة التطواف في الدنيا ، للدعوة والإرشاد . . . ولما ظهر « كثر مصدقوه وأتباعه ، وألف كتباً كثيرة ، كإنجيله ، والشابور - قان ، وكنز الأحياء وسفر الجبابرة ، وسفر الأسفار ، ومقالات كثيرة ، زعم فيها أنه بسط ما رمز به المسيح »⁽¹²⁾ وكان قد نُفِيَ إلى الهند ، فأخذ عنها نحلة التناسخ⁽¹³⁾.

المزدكية :

هم « أصحاب مزدك (ابن همدان من أهل نسا ، وكان موبذان موبذ ، أي قاضي القضاة ، في أيام قباد ابن فيروز ، وخالف زرادشت في كثير من مذهبه)⁽¹⁴⁾ ، ودعا قباد إلى مذهبه ، فأجابه ، وأطلع أنوشروان على خزيه وافترائه فطلبه ، فوجده ، فقتله »⁽¹⁵⁾. وقول المزدكية كقول المانوية في الأصلين القديمين ، إلا أن ما يميز مزدك عن المانوية قوله : « إنَّ النور يفعل بالقصد والإختيار . والظلمة تفعل على الخبط والإتفاق . والنور عالم حساس . والظلام جاهل أعمى »⁽¹⁶⁾.

وكان مزدك ينهي عن المباغضة والقتال ، وأحل النساء والأموال ، ويقال : إنَّ قباد اشترط عليه إحلال النساء ، لأنه اشتهى امرأة ابن عمه ، فأحلها مزدك⁽¹⁷⁾.

الديصانية :

وهم أصحاب ديسان - قالوا بأصلين : النور والظلمة . وقالوا : إنَّ النور

(12) البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ص : 207 - 208 .

(13) البيروني ، تحقيق ما للهند ، حيدر اباد 1958 ج : 1 ص : 41 ، ص : 29 .

ابن النديم ، الفهرست / دار المعرفة - بيروت 1978 ، ص : 458 - 459 .

(14) البيروني ، الآثار الباقية ص : 209 .

(15) الشهرستاني ، الملل والنحل ج : 1 ص : 249 .

(16) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 249 .

(17) البيروني ، الآثار الباقية ص : 209 .

يفعل الخير قصداً واختياراً ، والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراباً⁽¹⁸⁾.

وديصان هذا قبل ماني ، ومذهبه قريب من مذهبه ، وخلاف المذهبين ، في اختلاط النور بالظلمة ، فالديصانية طائفتان : طائفة قالت : إنّ النور مازج الظلمة باختياره ليصلحها ، فامتنعت عليه ، وأراد الخروج ، فلم يقدر . وطائفة قالت : إنّ النور أحسّ بخشونة الظلمة ، فأراد دفعها عنه ، وكان كلما دفعها عنه ، ازدادت ولوجاً فيه⁽¹⁹⁾.

المرفيونية :

« أصحاب مرفيون : أثبتوا أصليين قديمين متضادين : أحدهما النور والثاني الظلمة . وأثبتوا أصلاً ثالثاً ، هو المعدل الجامع ، وهو سبب المزاج ، فإنّ المتنافرين المتضادين لا يمتزجان إلّا بجامع . وقالوا : إنّ الجامع دون النور في المرتبة ، وفوق الظلمة ، وحصل من الاجتماع والإمتزاج هذا العالم »⁽²⁰⁾ واختلّفوا في الكون الثالث ما هو ! فزعمت طائفة : أنّ عيسى رسول ذلك الكون الثالث أو المعدل . إلا أنّهم أجمعوا على أنّ العالم محدث « وأنّ الصنعة بينة فيه ، لا يشكون في ذلك . . . وهم يتسترون بالنصرانية »⁽²¹⁾.

الزندقة

الزندقة في الأصل لفظة فارسية ، كانت تُطلَقُ على صنيع من يؤولون كتاب زرادشت بما يُخالفُ ظاهراً نصوصه . وقد نعتوا بها دعوة ماني وأتباعها⁽²²⁾.

(18) الشهرستاني ، الملل والنحل ج : 1 ص : 250 .

(19) ابن النديم ، الفهرست ص : 474 .

(20) الشهرستاني ، الملل والنحل ج : 1 ص : 252 .

(21) ابن النديم ، الفهرست ص : 474 - 475 .

(22) خيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الاول ص : 79 .

وتطور مدلول هذه اللفظة في العصور الإسلامية ، بحيث شمل كل من تظاهر بالإسلام ، وأسرّ غيره من الأديان ، كما أُطْلِقَت اللفظة على الملاحدة ، والمجان والشكّاك .

وقد رأى الأستاذ أحمد أمين : أنّ هذه اللفظة كانت تدور في العصر العباسي الأول على معان أربعة :

« 1 - التهنك والإستهتار والفجور مع تنجح في القول ، يصل أحياناً الى ما يمس الدين ، ولكنّ قائله ، لم يقله عن نظر ، وإنّما قاله عن خلاعة ومجون .

2- أتباع دين المجوس . وخاصة دين مانى مع التظاهر بالإسلام ، كالذي اتّهم به الأفشين ، والذي اتّهم به بشار وحمام وابن المقفع .

3- أتباع دين المجوس ، وخاصة « مانى » من غير تظاهر بالإسلام ، كالذي يرويه الجاحظ عن كتب الزنادقة .

4- ملحدون لا دين لهم ، كالذي يحكيه المعري ، ولكن يظهر أنّ الكلمة أكثر ما كانت تطلق على من اعتنق المانوية باطنياً والإسلام ظاهراً ، ثم توسعوا في معناها على الإباحي ، والملحد الذي لا دين له »⁽²³⁾.

والزنادقة بهذا المفهوم ، لم تكن حكراً على الفرس ، ولا وليدة العصر العباسي ، وإنّ ظهر نشاطها ، وكثُر أتباعها في هذا العصر . فقد قال أبو العلاء « ولا ملّة ، إلّا ولها قوم ملحدون ، يرون أصحاب شرعهم أنّهم موالفون ، وهم فيما بطن مخالفون ، ولا بد من أن ينهتك مخادع وتبدو من الشر جنادع . وقد كانت ملوك فارس تقتل على الزنادقة والزنادقة الذين يسمون الدهرية ، ولا يقولون بنبوة ولا كتاب »⁽²⁴⁾.

غير أنّ الزنادقة في الحياة الإسلامية ، قبل العصر العباسي ، كانت ضعيفة ،

(23) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : 1 ص : 154 - 155 .

(24) أبو العلاء المعري ، رسالة الغفران ص : 21 .

خافية ، لا تكاد تظهر ، لأن السلطان الإسلامي في أوجه ، والعرب المسلمون يمسكون زمام السلطة بحزم ، أما في العصر العباسي . . . وقد شارك غير العرب العرب في سلطتهم ، وخاصة الفرس ، وتنفست الشعوبية ، ونشطت ، لتثبث أقدامها في السلطة الجديدة ، فقد تحركت ربيبتها الزندقة ، وفشت ، ونمت في أحضانها ، حتى قلَّ من اتَّهم بالشعوبية ، ونادى بها إلا وكان زنديقاً .

ودوافع الزندقة مختلفة ، والنوازع إليها متعددة ، فمن الناس من آمن بالإسلام ، لكنه أُصيبَ بخيبة أمل في تطبيقه ، وأصابته عدوى الشعوبية ، والتعصب للعجم على العرب ، وكرههم ، وكل ما يمت إليهم بصلة ، بما فيه الدين ، وقد لاحظ الجاحظ العلاقة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة ، فقال « إنَّ عامة من ارتاب بالإسلام ، إنما كان أول ذلك على رأي الشعوبية ، والتمادي فيه ، وطول الجدال المؤدي الى القتال ، فإذا أبغض شيئاً أبغضَ أهله ، وإنَّ أبغض تلك اللغة ، أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به ، حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف والقُدوة »⁽²⁵⁾.

وطائفة انتقلت إليها الزندقة والشعوبية ، عن طريق الثقافة ، كجماعة الكتاب الذين وصفهم ابن قتيبة بقوله « أبعد غايات كاتبنا في كتابته ، أن يكون حسن الخط ، قويماً الحروف ، وأعلى منازل أدينا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة ، أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً في تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن ، وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالتكذيب ، وهو لا يدري من نقله ، قد رضي عوضاً من الله ومما عنده ، بأن يقال : فلان لطيف ، وفلان دقيق النظر . . . ولكنه طال عليه ، أن ينظر في علم الكتاب ، وفي أخبار الرسول (ص) وصحابته ، وفي علوم العرب ولغاتها

(25) الجاحظ ، الحيوان ج : 7 ص : 220

وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف عنه الى علم سلمه له ولأمثاله
المسلمون ، وقل فيه المتناظرون »⁽²⁶⁾.

وهذه الزندقة زندقة ثقافية كما ترى ، سببها انغماس طائفة الكتاب بثقافة غير
إسلامية ، تعينهم في مهنتهم ، فتأت لهم الزندقة عن طريقها . وقد فطن قوم من
الزنادقة لضعف ثقافة الكتاب الإسلامية ، فكانوا ينشرون فيهم نحلهم وشكوكهم ،
حتى أن بعض الكتاب تباهى في إحدى رسائله بعدم نجاح المضللين في
تضليله ، فقال : « ونحن نحمد الله اليك ، فإن عقدة الإسلام في قلوبنا
صحيحة ، وأواخيه ثابتة ، ولقد اجتهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم ،
وأن يلبسوا يقيننا بشكهم ، فمنعنا عصمة الله منهم ، وحال توفيقه دونهم »⁽²⁷⁾ .

وأسهم انتشار علم الكلام ، وكثرة الجدل بين أصحاب الفرق المختلفة
والديانات المتباينة ، في إذكاء روح الشك والريبة في حقيقة الأديان وصدقها .
وقد صور الجاحظ بعض نتائج هذا الجدل ، خاصة بين النصارى والمسلمين ،
فقال : « على أن هذه الأمة ، لم تبتل باليهود ، ولا المجوس ولا الصابئين . كما
أبُتِلت بالنصارى ، وذلك إنهم يتبعون المتناقض ، من أحاديثنا ، والضعيف
بالإسناد من روايتنا ، والمتشابه من أي كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها
عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة والملاعين ، وحتى مع
ذلك ربما تبرؤا الى علمائنا وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون
على الضعيف »⁽²⁸⁾.

« وقوم دعاهم الى التزندق شك في الأديان ، والقول بسلطان العقل إلى
أقصى حدوده فهم لا يريدون أن يؤمنوا إلا بما يرون بأعينهم ، ويحكمون العقل

(26) ابن قتيبة ، ادب الكاتب ، تحقيق محمد عبيد الدين عبد الحميد ط 4 - مصر

1963 ص : 2 - 3 .

(27) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 1 ص : 325 .

(28) الجاحظ ، رسالة الرد على النصارى ، (ثلاث رسائل) - القاهرة ، بدون تاريخ ص :

20 - 19 .

حتى فيما ليس للعقل فيه مجال ، فنبذوا الأديان جملة ، ودعوا الى الإلحاد»^(٢٩) ، كما أنّ مجموعة من الأدباء والشعراء ، انسأقت وراء الخمرة والمجون ، وتهالكت على اللذة ، وأظهرت السخرية من المجتمع وقيمه ومثله ، بما فيها الدين .

أساليب الزنادقة في عرض أذكأرهم :

كان الزنادقة يتخرون لكتبهم الورق النقي الأبيض ، والجبر الأسود البراق ، ويعملون على إجادة الخط في كتبهم ، وينفقون المال لمن يخط ، وغايتهم في ذلك إغراء الناس في قراءتها ، لعلهم يتشككون ، فيقعوا في شباكها⁽³⁰⁾. وقد وصف الجاحظ هذه الكتب بالقول « وليس في كتبهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحه ولا تدبير حرب ، ولا مقارعة عن دين ، ولا مناقضة عن نحلة »⁽³¹⁾ وعليه فالمضمون غير نافع لبني البشر في دنيا أو دين لأنه لا يحتوي إلا ذكر النور والظلمة والعفاري والخرافات . وفيه دعوة للإيمان بهذا المضمون لا عن طريق النظر والإستبصار وإنما عن طريق التسليم الأعمى لكل ما جاء به من ترهات وأباطيل ، وأما الألفاظ التي أكثروا استعمالها وشاعت في كتبهم فهي « التناكح » ، والتنتاج والمزاج والنور والظلمة والدفاع والمناع ، والسائر . . . »⁽³²⁾ الى ما هنالك من ألفاظ .

وانطلق الزنادقة يكيدون للإسلام ، ويحكون « لذوي السلامة في القلوب من كتبهم ، ما لم يخلق الله منه شيئاً ، لا قليلاً ولا كثيراً ، فصدقوهم وكتبوها عنهم مغترين بنفاقهم ، وتركوا ما عندهم من الكتاب الحق ، لأن قلوب العامة الى

(29) احمد امين ، ضحى الاسلام ج : 1 ص : 155 .

(30) الجاحظ ، الحيوان ج : 1 ص : 55 .

(31) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 57 وما بعدها .

(32) م . ن . ج : 3 ص : 366 .

الخرافات أميل»⁽³³⁾ وانطلق أصحاب ماني من الزنادقة يشككون الناس في الواحد الأول من جهة التعديل والتجوير ، وزينوا لهم الإنغماس في مذهبهم ، وحبسوا اليهم صورة ماني وسيرته ، أضف الى ذلك ما انتشر من « المكاييد اليهودية ، فصار رأياً منسوباً الى الإسلام »⁽³⁴⁾.

موقف السلطة العباسية من الزنادقة :

إن موقف السلطة العباسية من الزندقة لم يكن واضحاً في البداية ، وكان فيه شيء من التساهل ، والإهمال ، ولما أحس الخليفة بخطورة الزندقة وأهدافها ، ونقمة جمهور المسلمين على أصحابها ، تجرد للزندقة وأتباعها ، ونصب لهم الأرصاد ، وجرد فيهم السيف ، لكنهم مع ذلك لم يهدأوا ، ولم يخففوا من نشاطهم ، والسبب عندي : أن الزندقة نمت في أحضان الشعبية ، وترعرعت على يديها ، واستترت بها كلما أحست بالخطر ، والسلطان العباسي ، وإن حارب الزندقة ، فإننا لم نسمع أنه قتل إنساناً ، أو عاقبه على شعوية أو عصبية عرقية . وملاحقة الزنادقة لم تكن بنفس النشاط في عهود الخلفاء جميعاً .

فأبو العباس الخليفة العباسي الأول ، لم يكن موقفه من هذه الفئة واضحاً ، نظراً لاهتمامه بتركيز أسس الدولة الناشئة . وحاول المنصور استخدامهم لأغراضه السياسية ، فوجه مع محمد ابن أبي العباس « بالزندقة والمجان ، فكان فيهم حماد عجرد ، فأقاموا معه بالبصرة ، يظهر منهم المجنون ، وإنما أراد بذلك أن يبعثه الى الناس . . . وكان الخصب يظهر النصرانية ، وهو زنديق معطل ، لا يبالي من قتل ، فأرسل اليه المنصور رسولا ، يأمره ان يتوخي قتل محمد ابن أبي العباس »⁽³⁵⁾ ولما أيقن عبد الكريم ابن أبي العوجاء بالموت ، وقد قبض عليه ، قال : أما والله ، لئن قتلتموني ، لقد وضعت أربعة آلاف حديث ، أحرم فيها

(33) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ج : ١ ص : 219 .

(34) البيروني ، تحقيق ما للهند ج : ١ ص : 220 .

(35) الطبري . تاريخ الامم والملوك . ج : 9 ص : 308 - 309 .

الحلال ، وأحل الحرام ، وأنه ، لقد فطرتكم في يوم صومكم ، وصومتكم في يوم فطركم»⁽³⁶⁾ ، وبالرغم من هذا الاعتراف ، فقد غضب المنصور من واليه لقتله دون إذن منه وهم أن يقيلاه به ، لولا خوفه من الرأي العام⁽³⁷⁾ وكلامه عن الراوندية ، وقد زعمت أنه رب العزة ، يدل على أن المنصور مهتم بالدرجة الأولى بما يثبت دعائم سلطانه ، متساهل في كل ما لا يمس هذا السلطان .

وفي عصر المهدي ازداد نشاط الزنادقة ، وعظم خطرهم ، وازدادت النقمة الشعبية عليهم . فحاول المهدي أن يتقرب لله والناس في دمائهم وأحدث لذلك جهازاً خاصاً على رأسه صاحب الزنادقة ، « وأمعن في قتل الملحدين ، والمداهنين ، عن الدين ، لظهورهم في أيامه ، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لِمَا انتشر من كتب ماني وابن ديصان ، ومرقيون ، مما نقله عبد الله ابن المقفع وغيره ، وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنعه في ذلك ابن أبي الموجاء ، وحماد عجرد ، ويحيى ابن زياد ، ومطيع ابن إلياس ، من تأييد المذاهب المنائية والديصانية والمرفقونية ، فكثُر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم في الناس ، وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين ، بتصنيف الكتب على الملحدين . . . من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين ، وأوضحوا الحق للشاكين »⁽³⁸⁾.

« وَجَدُ المهدي في طلب الزنادقة في الآفاق ، وأكثر الفحص عنهم ، وقتل طائفة »⁽³⁹⁾. وصرف همته في تتبعهم ومصادرة كتبهم ، وتمزيقها⁽⁴⁰⁾.

والحق أنه صرف مدة ولايته في تعقبهم ، والإقتصاص منهم ، فأهلك طائفة كبيرة ، وأوصى خلفه وابنه الهادي في تتبعهم وقتلهم وذكر له صفاتهم ، فقال :

(36) مصدر نفسه . ج : 9 ص : 286 - 287 .

(37) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 97 .

(38) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 315 .

(39) الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 262 .

(40) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 8 ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص :

75 ، الحنبلي ، شذرات الذهب ج : 1 ص : 257

« يا بني ، إن صار لك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ، ومس الماء للظهور ، وترك قتل الهوام تخرجاً وتحوباً ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والإغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطريق ، لتتقدمهم من ضلال الظلمة الى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد السيف ، وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له ، فإني رأيت جدك العباس في المنام ، قلدني بسيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الإثنين »⁽⁴¹⁾.

فلما ولي الهادي تابع مسلك أبيه في طلب الزنادقة⁽⁴²⁾. واشتد طلبه لهم ، « فقتل منهم جماعة ، فكان ممن قتل منهم يزدان ابن ياذان كاتب يقطين وابنه علي ابن يقطين من أهل النهروان ، ذكر عنه أنه حج ، فنظر الى الناس في الطواف ، يهرولون فقال : ما أشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر ، وله يقول العلاء ابن الحداد الأعمى :

يا. أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوا حمراً تدوس البر والدوسر⁽⁴³⁾

فقتله موسى ثم صلبه . . . وقتل من بني هاشم يعقوب ابن الفضل . . . وكان المهدي أتي بابن لداود ابن علي زنديقاً ، وأتي يعقوب ابن الفضل ابن عبد الرحمن ابن عباس ابن ربيعة ابن الحارث ابن عبد المطلب زنديقاً في مجلسين متفرقين ، فقال لكل واحد منهما كلاماً واحداً ، وذلك بعد أن أقرأ له بالزندقة ، أما يعقوب ابن الفضل ، فقال له : أقر بهاييني وبينك ، فأما أن أظهر ذلك عند الناس ، فلا أفعل ، ولو قرضتني بالمقاريض ، فقال له : ويلك ، لو كُشِفَتْ لك

(41) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 42 .

(42) الحنيلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 269 .

(43) الدوسر : الرزوان

السموات ، وكان الأمر كما تقول ، كنت حقيقاً أن تتعصب لمحمد ، ولولا محمد (ص) من كنت ؟ هل كنت إلّا إنساناً من الناس ؟ أما والله لولا إني كنت جعلت لله عهداً إذ ولاني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ، ولقتلتك ، ثم التفت إلى موسى الهادي ، فقال : يا موسى : أقسمت عليك بحقي ، إن وليت هذا الأمر بعدي ألا تناظرهما ساعة واحدة ⁽⁴⁴⁾.

ولما ولي هارون الرشيد سلك سبيل أبيه وأخيه ، إلّا أن وطأته عليهم كانت أخف ، فقتل منهم جماعة كيونس ابن أبي فروة ويزيد الفيض ⁽⁴⁵⁾. لكنه تساهل مع علي ابن الخليل الشاعر وأجازاه وقربه ⁽⁴⁶⁾ ويقال إنه نكب البرامكة لاتهمهم بالزندقة ⁽⁴⁷⁾.

وقتل أنس ابن أبي شيخ المحدث ، وكان صديقاً لجعفر ابن يحيى البرمكي بتهمة الزندقة ، وفي ذلك يقول الشاعر :

« تلمظ السيف من شوق الى أنس فالموت يلحظ والأقدار تنتظر
أظله منك حتف قد تجلله حتى يؤامر فيه رأيك القدر
أمضى من السيف إلا عند قدرته وليس للسيف عفو حين يقتدر ⁽⁴⁸⁾ »

ولما مات الرشيد ، وولي ابنه محمد الأمين ، قضى سني خلافته في محاربة أخيه المأمون ، وبعد انتصار الأخير واستتباب سلطانه ، تابع سيرة من قبله من الخلفاء ، واستعمل سلاح المناظرة والإقناع ، إضافة الى السيف ، لكنه لم يسلم هو نفسه من أن يُرمى بهذه التهمة ، فقد ذكر ابن النديم أنه قرأ بخط بعض أصحاب أهل المذهب : « أن المأمون كان منهم » لكنه استبعد التهمة ⁽⁴⁹⁾.

(44) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 23 — 24 .

(45) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 50 .

(46) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، دار صعب ، مصورة عن طبعة بولاق ج : 3 ص : 14 .

(47) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 1 ص : 51 .

(48) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 131 .

(49) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 473 .

ويروي المسعودي أنه أدخل على المأمون عشرة من الزنادقة ، امتنعوا عن التوبة فأمر بقتلهم⁽⁵⁰⁾.

لكن المهم لعهد المأمون ، ليس قتل الزنادقة ، وإنما منحهم الحرية في الجدل والمناظرة والدفاع عن آرائهم ومشاركته بهذا الجدل ، وإفحامه رؤساءهم ، فقد رأى : أنَّ القتل والقمع يؤجج هذه النحلة بدل أن يميته . فاستعمل سلاح العقل والمناظرة في الدفاع عن الدين⁽⁵¹⁾ من ذلك أنَّ المأمون قال للمرتد الخراساني⁽⁵²⁾ : « أخبرني ، يا الذي أوحشك مما كنت به آنساً من ديننا ؟ فوالله لأنَّ أستحييك بحق أحب الي من أنَّ أقتلك بحق ، وقد صرت مسلماً بعد أن كنت كافراً ، ثم عدت كافراً بعد أن صرت مسلماً ، وإنَّ أخطأك الشفاء ونبا عليك الدواء ، كنت قد أبلت العذر في نفسك ولم تقصّر في الإجهاد لها ، فإنَّ قتلناك ، قتلناك في الشريعة ، وترجع أنت في نفسك الى الإستبصار واليقين ، ولم تفرط في الدخول من باب الحزم . قال المرتد : أوحشني منكم ، ما رأيت من الاختلاف في دينكم . قال المأمون : لنا اختلافان : أحدهما كاختلافنا في الأذان ، والتكبير في الجناز وصلاة العيدين والتشهد ، والتسليم من الصلاة ، ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفتيا ، وما أشبه ذلك ، وهذا ليس باختلاف ، وإنما تخيير وتوسعة وتخفيف من السنة ، فمن أذن مثني وأقام مثني لم يأثم ، ومن رُبّع لم يأثم ، والاختلاف الآخر ، كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتاب الله ، وتأويل الحديث عن نبينا ، مع اجتماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإنَّ كان إنَّما أوحشك هذا ، فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقاً على تأويله ، كما يكون متفقاً على تنزيله ، ولا يكون بين اليهود

(50) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 9 .

ابن حجة ، ثمرات الاوراق في المحاضرات - بيروت 1952 ج : 1 ص : 220 — 221

(51) انظر مناظرات المأمون للزنادقة في ابن قتيبة ، ميون الاخبار ج : 2 ص : 152 — 154 ابن النديم ، الفهرست ، ص : 273 .

ابن عبد ربه ، المعقد الفريد ، ج : 2 ص : 196 — 197 .

(52) وكان هذا الرجل قد اسلم على يدي المأمون ، فحمله معه الى العراق ، لكنه عاد فارتد عن الاسلام .

والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات ولو شاء الله أن ينزل كتبه مفسرة ،
 ويجعل كلام أنبيائه ورسله لا يُخْتَلَفُ في تأويله ، لفعل ، ولكننا لم نجد شيئاً من
 أمور الدين والدنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طول البحث والتحصيل والنظر ،
 ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحن ، وذهب التفاضل والتباين ، ولَمَّا
 عُرِفَ الحازم من العاجز ، ولا الجاهل من العالم ، وليس على هذا بنيت الدنيا .
 قال المرتد : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن المسيح عبد
 الله ، وأن محمداً صادق ، وأنك أمير المؤمنين » (53).

واستقدم المأمون أبا علي رجاء يزدانبحث من الري وكان من رؤساء الزنادقة
 « بعد أن أمته ، فقطعه المتكلمون ، فقال له المأمون : أسلم يا يزدانبحث ! فلولاً
 ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن ! فقال له يزدانبحث : نصيحتك يا
 أمير المؤمنين مسموعة ، وقولك مقبول ! ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك
 مذاهبهم ، فقال المأمون أجل » (54).

هذه الحرية التي أعطاها المأمون ، دفعت الزنادقة لتنشيط حركتهم ،
 فظهرت الخرمية ، وتزعّمها بابك الذي استفحل أمره طيلة ما بقي من عصر
 المأمون ، وقضى عليه المعتصم بعد حروب كثيرة ؛ كلفت الدولة والأمة الكثير من
 الرجال والأموال ، وكانت السبب في محاولة الأفشين قلب الدولة وإحياء دين
 العجم (55).

ورث الخلافة عن المأمون أخوه المعتصم ، وثورة بابك لم تهدأ بعد ، فبذل
 جهوداً جبارة للقضاء عليها ، وُقِيَ في نهايتها الأفشين بالقضاء على بابك وأسرّه
 وأخاه ، وقدم بهما سامراء (56) ولم يكد الأفشين ينهي هذه الثورة ، حتى قلب له
 المعتصم ظهر المجن ، واتهمه بالزندقة ومحاولة قلب الدولة وتغيير رسومها ،

(53) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 197 — 198 .

(54) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 473 .

(55) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 61 .

(56) أبو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 403 وما بعدها .

وعقد له لأجل ذلك محاكمة طويلة للتشهير به ، وتبرير قتله . وقد سبقت هذه التهمة مقدمات وأسباب ، أسهمت في البعد بين الرجلين ، ومهدت لهذه المحاكمة منها :

— إن الأفشين نقم على أبي دلف العجلي ، وهو مضموم اليد بأشياء ، فلما ظفر ببابك شكا أبا دلف للمعتصم ، وسأله ليأمره به ، ففعل ، فكان أحمد ابن أبي دؤاد متعصباً لأبي دلف ، فحاول إبعاد التهمة عن أبي دلف وتبرير مخالفته للأفشين ، لأن الأفشين ، كان يعتمد مطاولة بابك ، فينفق الأموال ، ويتبسط في الأعمال ، فغرس في نفس المعتصم غرسة شك بالأفشين⁽⁵⁷⁾.

— إن عبد الله ابن طاهر ، كان يغري المعتصم بالأفشين ، ويكتب له عن تسيير الأفشين للأموال إلى أشروسنة ، وقد صادر بعضها في بعض المرات ، فحقدها الأفشين عليه ، وكان الأخير يسمع من المعتصم ما يدل على أنه يريد عزل عبد الله عن خراسان ، فطمع الأفشين في ولايتها ، وكاتب مازيار يحرضه على الخروج ظناً منه أن المعتصم يعزل عبد الله ويولي خراسان وقال المازيار⁽⁵⁸⁾ .

— وكان منكجور أحد ولاة الأفشيد وأقربائه ، قد خرج قبل ذلك ، فتحقق المعتصم أمر الأفشين ، وتغير له⁽⁵⁹⁾.

— اضطغن أحمد ابن أبي دؤاد على الأفشين بسبب أبي دلف العجلي فأوغر صدر المعتصم عليه بجملة تهم منها : أنه أغرل ، ويطأ امرأة عربية ، وأنه كاتب المازيار وزين له العصيان⁽⁶⁰⁾ وانضاف إلى ذلك تهمة أعظم ، وهي أنه حاول أن يصنع طعاماً مسموماً ، يدعو إليه المعتصم ووجوه قواده⁽⁶¹⁾.

(57) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، تحقيق الشالجي ، دار صادر - بيروت 1978 ، ج : 2 ص : 71 .

(58) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : ٦ ص : 510 .

(59) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 510 .

(60) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 265 .

(61) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 349 وما بعدها .

وقائع محاكمة الأفشين :

حُوكِمَ الأفشين بحضور محمد ابن عبد الملك الزيات وأحمد ابن أبي دؤاد وإسحاق ابن ابراهيم وغيرهم من الأعيان وكان المناظر له ابن الزيات ، وقد اتُّهِمَ بعدة تهم :

1 - أنه ضرب رجلين من الصغد ، بنيا مسجداً ، فكان الأول مؤذن المسجد ، والثاني إمامه ، كل رجل ألف سوط حتى عرى ظهراهما من اللحم .

وقد برر الأفشين صنيعه هذا ، بأن بينه وبين ملك الصغد عهداً وشرطاً أن يترك كل قوم على دينهم ، وأن هذين الرجلين قد وثبا على بيت فيه أصنام أهل اشروسنة ، فأخرجوا الأصنام ، وجعلوه مسجداً .

2 - أن في حيازته كتاباً محلي بالجواهر فيه كفر بالله تعالى . ودافع الأفشين عن التهمة بقوله : « هذا كتاب ورثته عن أبي ، فيه أدب من آداب العجم ، وما ذكرت من الكفر ، فكنت أستمع منه بالأدب ، وأترك ما سوى ذلك ، ووجدته محلي ، فلم تضطرنني الحاجة الى أخذ الحلية منه فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك في منزلك فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام »⁽⁶²⁾.

3 - أنه اتُّهِمَ بأكل المخنوقة ، وأنه يزعم أنها أرطب من المذبوحة ، وأنه يقتل كل يوم أربعاء شاة سوداء ، يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشي بين نصفيها ، ويأكل لحمها .

4 - أنه ترك الإختتان . وكان قد وجه له هذه التهمة والتي قبلها أحد الموايزة ، فقال الأفشين « خبروني عن هذا الذي يتكلم بهذا الكلام ، ثقة هو في دينه ؟ - وكان الموبذ مجوسياً - قالوا : لا ، قال : فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به ولا تعدُّلونه ؟ ثم أقبل على الموبذ ، فقال : هل كان بين منزلي ومنزلك كوة أو باب تطلع علي منها ، وتعرف أخباري ؟ قال : لا ، فقال : أفليس كنت ادخلك علي ، وأبثك سري ، وأخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلي أهلها ؟ قال :

(62) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 366 .

نعم ، قال : فلبست بالثقة في دينك ، ولا بالكريم في عهدك ، إذا أفشيت سرّاً أسرته إليك» (63).

5- قوله مكاتبة أهل اشروسنة اليه بما تفسيره بالعربية : الى إله الآلهة من عبده فلان ابن فلان . فدافع الأفشين هذه التهمة ، بأن القوم كانوا يكتبون بذلك لإبيه وجده وله قبل دخوله الإسلام ، بهذه الطريقة ، فكره أن يضع نفسه دونهم ، فيفسدوا عليه .

6- وأحضّر المازيار ، فأقرّ أنّ أخا الأفشين ، كتب الى أخيه قوهيار : « إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك ؛ فأما بابك ؟ فإنّه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فأبى حمقه إلا أن دلّاه فيما وقع فيه ، فإنّ خالفت ، لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ، ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس ، فإنّ وُجِّهْتُ اليك ، لم يبقَ أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك . والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ، ثم اضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذباب (يعني المغاربة ، إنّما هم أكلة رأس ، وأولاد الشياطين - يعني الأتراك - فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة ، فتأتي على آخرهم ، ويعود الدين الى ما لم يزل عليه أيام العجم » (64) .

فقال الأفشين : « هذا يدعي أنّ أخي كتب الى أخيه ! لا يجب علي ، ولو كنت كتبت هذا الكتاب اليه لأستميله ، ويثق بي ، ثم آخذه بقفاه ، وأحطى به عند الخليفة ، كما حظي عبد الله ابن طاهر » .

وقد ذكر ابن الأثير رواية مفادها أنّ الأفشين كان مختوناً ، لكنه قبل التهمة مخافة كشفه وفضحه بمحفل من الناس (65).

(63) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 366 وما بعدها .

(64) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 365 وما بعدها .

(65) انظر حاكمه الأفشين في الطبري ، تاريخ الامم والملوك ج : 10 ص : 365 وما بعدها .

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 513 وما بعدها .

أُعِيدَ الأفشين إلى سجنه ومُنِعَ من الطعام حتى مات ، وفي رواية أَنَّهُ خُنِقَ ، ثم صُلِبَ إلى جانب بابك . وقد لاحظ ابن العماد الحنبلي : أَنَّ المعتصم كان قد خافه⁽⁶⁶⁾ . ووجد في داره مجموعة من الأصنام وكتب فيها ديانة المجوس⁽⁶⁷⁾ .

والجدير بالذكر ، أَنَّ عددا من المؤرخين ، يشكون بزندقة الأفشين ، منهم الدينوري ، الذي رأى أَنَّ قتله كان يتحريض من ابن أبي دؤاد⁽⁶⁸⁾ والتبريزي الذي نفى أَنَّ يكون الأفشين كافراً أو منافقاً⁽⁶⁹⁾ .

وبعد المعتصم ، تابع الخلفاء الاهتمام بالزندقة والزنادقة كلما ساحت لهم الفرصة على الرغم من سيطرة الأتراك عليهم واستئثارهم بالسلطان دونهم ، وسرى بعضاً من ذلك عند الكلام على الحلاج وابن أبي العداقر . لكنهم في أحيان أخرى ، كانوا يرضخون للأمر الواقع ، فقد لطف الخليفة الراضي مرداويخ الديلمي ، وبعث إليه بالعهد واللواء على أذربيجان وأرمينية وإيران وقم ونهاوند وسجستان على الرغم من تصريح مرداويخ ، بأنه يريد أَنَّ يعيد دولة العجم ودينهم ، ويقهر دولة العرب⁽⁷⁰⁾ .

تغلغل الزندقة في المجتمع العباسي :

لقد تفشت الزندقة في المجتمع الإسلامي ، ونشطت تحاول هدم الدين واجتثاث جذوره ، وانتشر الزنادقة بين مختلف الطبقات والأمم التي تؤلف المجتمع الإسلامي ، حتى وصلت العدوى إلى البيت الهاشمي نفسه ، وتغلغل الزنادقة في مناصب الدولة ، وتعددت أنماطهم وأساليب تخريبهم في المجتمع الإسلامي لا فكان من الزنادقة أدباء وشعراء ورواة ، وكان منهم محدثون وفقهاء

(66) الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ، ص : 58 .

(67) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 11 ، ص : 40 .

(68) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 403 .

(69) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ، ص : 146 .

(70) الصولي ، اخبار الراضي والمتقي ، ط 2 دار المسيرة - بيروت 1979 ص : 62 .

وأصحاب كلام ومتصوفة ، مما اضطر الخليفة المهدي لاستحداث جهاز خاص بتتبعهم ، والكشف عنهم ومعاقبتهم على رأسه صاحب الزنادقة⁽⁷¹⁾.

وكان من اشهر أدباء الزنادقة عبد الله ابن المقفع ، الذي قال عنه المهدي : « ما وجدت كتاب زندقة قط ، إلا وأصله ابن المقفع »⁽⁷²⁾ واتهمه البيروني بعدم الأمانة فيما ينقل ، فقال عن كتاب كليله ودمنة : « وبودي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب (ينح تنتر) وهو المعروف عندنا بكتاب (كليله ودمنة) فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه ، كعبد الله ابن المقفع في زيادة باب برزويه فيه ، قاصداً تشكيك ضعفى العقائد في الدين للدعوة إلى مذهب المنانية ، وإذا كان متهما فيما زاد ، لم يخل عن مثله فيما نقل »⁽⁷³⁾.

ويقال أنه مرّ بيت نار للمجوس فتمثل :

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل⁽⁷⁴⁾

وفي الأغاني أنه تمثل بهذا البيت عندما مرّ به جماعة من الزنادقة فيهم ابنه ، فخشي أن يسلموا عليه ، فيؤخذ معهم ، ففهموا ، ولم يسلموا عليه⁽⁷⁵⁾ ولو صحت الآراء المنسوبة اليه في كتاب ابن طباطبا⁽⁷⁶⁾ ، لكان رأساً من رؤوس الزنادقة ، غير أن أحمد أمين شك في نسبة هذه الآراء لابن المقفع ، ونسبة الكتاب لابن طباطبا⁽⁷⁷⁾.

أما اتهامه بوضع باب برزويه من كتاب كليله ودمنة ، فقد ثبت أن هذا الباب

(71) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 1 ص : 345,9.

(72) ضيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الاول ص : 81 نقلاً عن أمالي المرتضى .

(73) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ج : 1 ص : 123 .

(74) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 1 ص : 51.

(75) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج : 18 ص : 200.

(76) القاسم ابن ابراهيم ابن طباطبا ، كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع (طبع جويدي)

(77) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 225 وما بعدها .

من الأصول الفارسية للكتاب، ولا دور لابن المقفع فيه إلا النقل والترجمة⁽⁷⁸⁾.

ويظهر أن ابن المقفع قد تصرف في ترجمة هذا الباب بعض التصرف يظهر ذلك في المسحة الإسلامية التي تغلف النص، فصاحبه مؤمن بالله وبالأخرة وبأن هناك ثواباً وعقاباً. فقد قسم الأمور التي يطلبها الناس الى أربعة أقسام: المال، والذكر، واللذة، والأخرة، واعتبر أن الذي يعمل ويتغنى بعمله الأخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا⁽⁷⁹⁾ ولم يغبط أحداً من نظرائه، وإن كان دونه في العلم وفوقه في الجاه، وعندما تتوق نفسه إليهم، يحدثها حديث النساك أو صديقي المانوية، فيقول: «يا نفس أما تعرفين نفعك من ضرك ألا تنتهين عن تمنى ما لا يناله أحد إلا قل انتفاعه به! وكثر عناؤه فيه، واشتدت المؤونة عليه، وعظمت المشقة لديه... يا نفس لا يبعد عليك أمر الأخرة، فتميلي الى العاجلة في استعجال القليل، وبيع الكثير باليسير...»⁽⁸⁰⁾.

وبعد هذا الحديث عن الأخرة والإيمان فيها، وترغيب نفسه بها، وحثها في البعد عن الدنيا الخادعة المضللة، ينطلق للتشكيك في الأيان، فيقول: «وقد وجدت آراء الناس مختلفة، وأهواءهم متباينة، وكل على كل راد، وله عدو ومغتتاب، ولقوله مخالف. فلما رأيت ذلك، لم أجد الى متابعة أحد منهم سبيلاً، وعرفت أنني إن صدقت أحداً منهم لا علم لي بحاله كنت في ذلك كالمصدق المخدوع... فلما تحرزت من تصديق ما لا يكون... عدت الى طلب الأديان والتماس العدل منها، فلم أجد ممن كلمته جواباً فيما سألته عنه فيها»⁽⁸¹⁾.

(78) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص: 521، إلا أن هذا الأصل لم ينشر فلم يتيسر لي مقابلته مع النص المتداول. ومعرفة مدى التصرف في ترجمته.

(79) ابن المقفع، كليله ودمته، تحقيق محمد حسن المرصفي، المؤسسة المتحدة للكتاب ط 2 بيروت 1980

ص: 80

(80) مصدر نفسه ص: 81 — 82.

(81) م. ن. ص: 82 — 84

وعندما لم يجد اليقين عند احد أثر دين الآباء والأجداد بالإعتقاد إلا أنه لم يجد لنفسه قدرة على الثبوت ، وحدثته نفسه بالرغبة في البحث عن الأديان والمعتقدات الا أنه وجد نفسه لا يملك القدرة على ذلك لقرب الأجل ، وسرعة انقطاع الدنيا ، فيقول : « رأيت ألا أتعرض لِمَا أتخوف منه المكروه ، وأن أقتصر على عمل تشهد النفس ، أنه يوافق كل الأديان »⁽⁸²⁾ .

وهو بعد هذا الموقف التشكيكي ، يعود للحديث عن النسك والزهد ، فيرغب فيه ، ويسهب في ذكر حسناته ، لكنه يتهيبه ، ويخاف أن لا يستطيع عليه صبرا « فلم أزد في النسك نظراً إلا ازددت فيه رغبة ، حتى هممت أن أكون من أهله ، ثم تخوفت ألا أصبر على عيش الناسك »⁽⁸³⁾ .

ومما يحجب الزهد الى نفسه الواقع الاجتماعي والسياسي الذي يعيش ، فالزمان شبيه بالصافي وهو كدر . ثم يمّوه فيمدح السلطان في الظاهر ، لينقلب عليه في الباطن ، ويكيل له الطعنات « فيقول : « فإنه وان كان الملك حازماً ، عظيم المقدرة ، رفيع الهمة ، بليغ الفحص ، عدلاً مرجوئاً صدوقاً شكوراً ، رحب الذراع مفتقداً مواظباً مستمراً عالماً بالناس والأمور ، محباً للعلم والخير والاختيار ، شديداً على الظلمة ، غير جبان ولا خفيف القياد ، رفيقاً بالتوسع على الرعية فيما يحبون ، والدفع لما يكرهون . فإننا قد نرى الزمان مديراً بكل مكان . فكأن أمور الصديق قد نُزعت من الناس . فأصبح ما كان عزيزاً ففقد مفقوداً ، وموجوداً ما كان ضائراً وجوده ، وكان الخير أصبح ذابلاً ! والشر ناضراً ! وكان الفهم أصبح قد زالت سبله ! وكان الحق وَلَّى كسيراً ! وأقبل الباطل تابعه ! وكان أتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكام موكلأ ، وأصبح المظلوم بالحييف مقرأ ، والظالم لنفسه مستظلياً وكان الحرص أصبح فاغراً فاه من كل جهة ، يتلقف ما قُرب منه وما بُعد ! وكان الرضا أصبح مجهولاً ! وكان الأشرار يقصدون السماء صعوداً !

(82) ابن المقفع ، كليله ودمته ، تحقيق محمد حسن المرصفي ، المؤسسة المتحدة للكتاب ،

ط 2 بيروت 1980 ص : 85 .

(83) مصدر نفسه . ص : 87 .

وكان الأخيار يريدون بطن الأرض . . . وأصبح السلطان منتقلاً من أهل الفضل الى أهل النقص»⁽⁸⁴⁾.

وبعبارة أوضح فإنه عصر انتصر فيه إله الشر على إله الخير ، فزهده في الدنيا دعوة مجوسية في روحها ، ونظراته للواقع الاجتماعي والسياسي نظرة لهفة وأسف ، لهفة على الماضي أيام ملك الأكاسرة ، وازدهار المجوسية ، وأسف لأنّ الملك انتقل الى العرب ، ومالت الناس عن دين المجوس وثنية الخير والشر الى الإسلام ووحداية الله .

فزندقة ابن المقفع إن صحت ، فإنها تمثل الزندقة الخفية التي لا تكاد تظهر . وزندقة بشار ابن برد كانت أوضح وأصرح ، ودفع حياته ثمنها لها . فقد روى المبرد عن بشار ، أنّه كان يتعصب للنار على الأرض ، ويصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود لآدم ، وفي ذلك يقول :

« الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار »⁽⁸⁵⁾

وقد تمادى في غيّه وفجوره ، ففضل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين قائلاً :

« إبليس أفضل من أيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار »⁽⁸⁶⁾

ومِمَّا يُروى عن واصل ابن عطاء ، أنّه ضاق ذرعاً بتهتكه وفجوره ، فهتف باسمه في المسجد⁽⁸⁷⁾ . وقال لبشار من يعرف طويته « أتأكل اللحم وهو مبين لديانتك - يذهب الى أنّه ثوي . . . فقال بشار : ليسوا يدرون أنّ اللحم يدفع عني شر هذه الظلمة »⁽⁸⁸⁾.

(84) م . ن . ص : 90 — 91 .

(85) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج : 2 ص : 143 — 144 .

(86) انظر رسالة الففران لأبي العلاء نشر كامل كيلاني ج : 2 ص : 137 .

(87) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج : 2 ص : 143 — 144 .

(88) مصدر نفسه . ص : 143 — 144 .

وفي الأغاني ، أن الفضل ابن يعقوب ، قال : « كنا عند جارية لبعض
التجار بالكرخ تغنيا ، وبشار عندنا ، فغنت :

إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيته
ومخضب رخص البنا ن بكى علي وما بكيته

... فطرب بشار ، وقال : هذا والله يا أبا عبد الله أحسن من سورة
الحشر⁽⁸⁹⁾ وعقب أبو الفرج على ذلك بالقول : « وقد روى هذه الكلمة عن بشار
غير من ذكرته »⁽⁹⁰⁾.

ونرى بشاراً أحياناً يعترف بما ينسب اليه ، كالذي رُوِيَ عن أحمد ابن خالد
عن أبيه ، قال : « كنت أكلّم بشاراً وأرد عليه سؤ مذهبه بميله الى الإلحاد ، فكان
يقول : لا أعرف إلّا ما عاينته أو عاينت مثله ، وكان الكلام يطول بيننا ، فقال
لي ، ما أظن الأمر يا أبا خالد ، إلّا كما تقول ، وأنّ الذي نحن فيه خذلان ،
ولذلك أقول :

طبت على ما في غير مخير هواي ولو خيّرُ كنت المهذبا
أريد ، فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقبت إلّا التعجبا »⁽⁹¹⁾

وَرُوِيَ عن بشار استهائته بالصلاة ، وقوله « إنّ الذي يقبلها تفارق يقبلها
جملة »⁽⁹²⁾ وعنه قال بعض أصحابه : « كنا إذا حضرت الصلاة نقوم ويقعد بشار ،
فنجعل حول ثيابه تراباً ، لننظر هل يصلي ؟ فنعود والتراب بحالة »⁽⁹³⁾ وزعموا أنّه
لَمّا « دان بالرجعة ، زعم أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله (ص) فقليل له :
وعلي ابن أبي طالب ؟ فقال :

(89) ابو الفرج ، الاغانى ، ج : 3 ص : 55 .

(90) مصدر نفسه ، ج : 3 ص : 55 .

(91) م . ن . ج : 3 ص : 62 .

(92) م . ن . ج : 3 ص : 42 — 43 .

(93) م . ن . ج : 3 ص : 42 — 43 .

« وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا »⁽⁹⁴⁾

فرد عليه صفوان الأنصاري ، فقال :

« فيا بن حليف الشؤم واللؤم والعمى وأبعد خلق الله من طرق الرشد

أتهجو أباً بكر ، وتخلع بعده علياً ، وتعزو كل ذاك الى برد

كأنك غضبان على الدين كله وطالب ذحل لا بيت على حقد

توائب أقماراً وأنت مشوه وأقرب خلق الله من نسب القرد »⁽⁹⁵⁾

وكان بشار يهجو حماد عجرد ويتهمة بالزندقة ، فقال :

« يا بن نهيا رأسي علي ثقیل واحتمال الرأسين عبء ثقیل

فادعُ غيري الى عبادة ربين فلاني بواحد مشغول

... فأساغ حماد هذه الأبيات لبشار ، وجعل فيها مكان فلاني بواحد

مشغول ، فلاني عن واحد مشغول ، ليصح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى »⁽⁹⁶⁾.

وفي رواية أنه قال « والله ما أبالي بهذا من قوله ، وإنما يغبطني منه تجاهله

بالزندقة ، يوهم الناس أنه يظن أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال أنه لا يعرفها ،

لأن هذا القول تقوله العامة لا حقيقة له ، وهو والله أعلم بالزندقة من ماني »⁽⁹⁷⁾.

وكما وجد من يروي زندقه بشار ويحققها ، فقد وجد من ينكرها ويشك

فيها ، ويعزو قتله لأسباب خاصة ، كهجائه لصالح ابن داود او المهدي .

فقد هجا صالح ابن داود ويعقوب ابن داود الوزير ، فقال :

« هم حملوا فوق المنابر صالحاً أخاك فضجت من أخيك المنابرُ

(94) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 42 — 43 .

(95) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 55 — 56 .

(96) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 74 .

محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ج : 3 ص : 259 .

(97) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 76 .

فبلغ يعقوب هجاؤه ، فدخل على المهدي ، فقال له : « إن هذا الأعمى
المشرك قد هجا أمير المؤمنين ، قال : وما قال ؟ قال : يعفيني أمير المؤمنين من
إنشاده ، فأبى أن يعفيه ، فأنشده :

« خليفة يزني بعَمَّاته يلعب بالدبوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره ودس موسى في حر الخيزران »⁽⁹⁸⁾

ويقال إن بشار ، إنما هجا المهدي بسبب منعه من الغزل ، وعدم إعطائه
شيئاً وذلك أن المهدي بلغه قول بشار :

قاس الهموم نل بها نجحا والليل إن وراءه صباحا
لا يؤيسنك من مخبأة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء الى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحا⁽⁹⁹⁾

فأمر المهدي أن لا يقول النسيب وإلا قتله ولم يشبه بشيء رغم مدحه
المتكرر له ، فهجاه بقوله (خليفة يزني بعَمَّاته) وكان قد هجا قبل ، يعقوب ابن
داود بقوله :

بني أمية هبوا طال نومكم إنَّ الخليفة يعقوب ابن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

فدخل يعقوب على المهدي ، وأخبره أن بشاراً هجاه وأسمعه بعد إلحاح
هجاءه ، فغضب المهدي وانحدر إلى البصرة في طلب بشار ، فلما قرب منها
سمع أذاناً في غيروقه ، فاستفسر عن سبب ذلك ، فإذا بشار يؤذن وهو سكران ،
فقال له : « يا زنديق . . . أتلهوا بالأذان في غير وقت وأنت سكران » وأمر
بقتله⁽¹⁰⁰⁾.

وقيل إنه وجد في منزله بعد قتله كتاب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، إني

(98) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 18 .

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 86 — 87 .

(99) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 68 وما بعدها .

(100) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 68 — 73 .

أردت هجاء آل سليمان ابن علي ، فذكرت قرابتهم من رسول الله (ص)
فأمسكت عنهم إلا أنني قلت :

« دينار آل سليمان ودرهمهم كبابليين حُفّا بالعفاريت
لا يرجيان ولا يرجي نوالهما كما سمعت بهاروت وماروت »⁽¹⁰¹⁾

قال أبو الفرج إنّ المهدي « لما قرأه بكى وندم على قتله وقال لا جزى الله
يعقوب ابن داود خيراً »⁽¹⁰²⁾.

ويروى له من الشعر ما يبدد عنه الشكوك مثل قوله :

« كيف يبكي لمحبس في طول من سيقضي ليوم حبس طويل
إنّ في البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار مخيل »⁽¹⁰³⁾

وقد ظن فيه أبو العلاء خيراً فقال عنه « ولا أحكم عليه بأنّه من اهل
النار »⁽¹⁰⁴⁾.

وذهب نكلسون الى اعتباره أحسن مثال للزندقة في عصره لأنّه كان شعوبياً
يحن الى قومه ووطنه ، ويكره الإسلام ، بينما اعتبره فاجدا شكاكاً ، لكنه لم
يتزندق زندقة علمية⁽¹⁰⁵⁾

وكان صالح ابن عبد القدوس شاعراً من أصحاب الكلام ، وعنه قال أبو
الفرج إنّه صحح التوبة⁽¹⁰⁶⁾ فقتله المهدي ، وقيل قتله الرشيد⁽¹⁰⁷⁾.

وكان المهدي قد أمر به فُحِمِلَ اليه ، فلما خاطبه ، أعجب بأدبه ، وغزارة

(101) المبرد ، الكامل في اللغة والادب ، ج : 2 ص : 143 — 144 .

(102) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 73 .

(103) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء - دار الثقافة ، بيروت 1964 ج : 2 ص : 643
البیهقي ، المحاسن والمساوي دار صادر ، بيروت 1970 ص : 335 .

(104) ابو العلاء المعري ، رسالة الغفران ، ص : 216 .

(105) زاهية قدورة ، الشعوبية واثرها ، ص : 162 .

(106) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 24 .

(107) مصدر نفسه . ج : 13 ص : 14 — 15 .

علمه ، فأمر بتخليفة سبيله ، فلما ولى رده ، وقال له : ألسنت القائل :

« رب سر كتمته فكأنني أخرس أو ثنى لساني عقل
ولو اني أظهرت للناس ديني لم يكن لي في غير حبي أكل
يا عدي الله وعدي نفسه :

الستر دون الفاحشات ولا يلفاك دون الخير من ستر
فقال : قد كنت زنديقاً ، وقد تبث عن الزندقة . قال : كيف وأنت القائل :
والشيخ لا يترك عاداته حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد الى غيه كذي الضنى عناد الى نكسه
وأخذ غفلته السيف ، فاذا رأسه يتدهدى على النطع »⁽¹⁰⁸⁾

« وكان حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد ابن الزبرقان ،
ويونس ابن هارون وعلي ابن الخليل ، يزيد ابن الفيض ، وعباد ،
وجميل ابن محفوظ ، وقاسم ، ومطيع وواله ابن الحباب ، وأبان ابن عبد
الحميد ، وعمارة ابن حربية ، يتواصلون ، وكأنهم نفس واحدة . . . ويونس . . .
كان أشهر بهذا الرأي منهم ، وقد كان كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب
وعيوب الإسلام بزعمه »⁽¹⁰⁹⁾.

وحماد عجرد مولى بني سوء ابن عامر ابن صعصعة ، « لم يشتهر في أيام
بني أمية شهرته في أيام بني العباس ، وكان خليعاً ماجناً متهماً في دينه مرمياً
بالزندقة . . . وكان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون : حماد عجرد وحماد
الراوية وحماد ابن الزبرقان ، يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الأشعار ،
ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يرمون بالزندقة جميعاً

(108) ابن الفارح ، رسالة ابن الفارح ، (رسائل البلغاء) ص : 259 .

الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي - بيروت ، بدون تاريخ ج : 9 ص : 303 .

ياقوت ، معجم الادباء ، مصر 1936 ج : 12 ص : 6-8 .

(109) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 4 ص : 447-448 .

وأشهرهم حماد عجرد⁽¹¹⁰⁾ وذكر عنه أبو الفرج معروفة تامة بدين الزندقة⁽¹¹¹⁾ ورُوِيَ عن أبي نواس قوله « كنت أتوهم أنَّ حماد عجرد إنما يُرْمَى بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى حُبِسْتُ في حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين يقرؤون به في صلاتهم ، . . وكان له صاحب يقال له حريب على مذهبه ، وله يقول بشار حين مات حماد عجرد على سبيل التعزية :

بكى حريب فوقره بتعزية	مات ابن نهى وقد كانا شريكين
تفاوضا حين شابا في نسائهما	وحللا كل شيء بين رجلين
أمسى حريب بما أسدى له غيرا	كراكب اثنين يرجو قوة اثنين
حتى اذا أخذنا في غير وجههما	تفرقا وهوى بين الطريقين

يعني أنه كان يقول بقول الثنوية في عبادة اثنين ، فتفرقا وبقي بينهما حائراً⁽¹¹²⁾ وكثيراً ما كان هؤلاء الزنادقة يتهمون بعضهم بعضاً بهذه التهمة ، فكما اتهم بشار حماداً وغيره بالزندقة ، فقد اتهم حماد عجرد عماراً ، فقال :

لو كنت زنديقاً ، عمار ، حبوتي	او كنت أعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتي	كالنضر أو ألفت كابن المعقد
أو كابن حماد ربيثة دينكم	جبل وما جبل الغوي بمرشد
لكنني وحدت ربي مخلصاً	فجفوتني بغضاً لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت	والأرض خالفها لها لم يمهّد
والنسم مثل الزرع آن حصاده	منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

(110) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 13 ص : 73 ج : 5 ص : 166 .

الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 8 ص : 148 — 149 .

ياقوت ، معجم الادباء ، ج : 11 ص : 249 — 250 .

(111) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 13 ص : 76 .

(112) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 74 .

وحمد أشهر بالزندقة من عمارة ابن حريية ، الذي هجاه بهذه
الآيات ⁽¹¹³⁾ .

ويعتبر الجاحظ أن قول حماد « وحبوت من زعم السماء تكونت » يدل على
جهل حماد بمقالة القوم ، ويراه من مقلديهم ⁽¹¹⁴⁾ .

« وهجا حماد ابن الزبرقان حماد الراوية ، فقال :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه	ويقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافرة الدنان فأنفه	مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه	فبياضه يوم الحساب سواد ⁽¹¹⁵⁾ »

ورغم خطورة الزندقة وخطورة التهمة بها ، فإن كل رجل يخاصم رجلاً ،
كان يتسابق وإياه عليها ويتناعتان بها ، لأنها التهمة التي تقضي على الخصم من
أقصر الطرق ، فقد هجا أبو الشمقم جميل ابن محفوظ ، واتهمه بالزندقة ،
وتصوره يساق الى الموت بهذه التهمة ، فقال :

« هذا جميل على بغله	وقد كان يعدو على رجله
وقد زعموا أنه كافر	وأن التزندق من شكله
كأنني به قد دعاه الإمام	وآذن ربك في قتله ⁽¹¹⁶⁾ »

كما اتهم بها يحيى ابن زياد الحارثي ، وهو ابن خال أبي العباس
السفاح ⁽¹¹⁷⁾ .

ولعل أفضل من يمثل الزندقة الصارخة الممزوجة بعصبية شعبية ، بالإضافة
لبشار ابن برد ، هو أبو النواس ، فقد كان مهتكمًا ، يجري وراء لذاته ، جسوراً

(113) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 4 ص : 443 — 444 .

(114) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 443 — 444 .

(115) م . ن . ج : 4 ص : 445 .

(116) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 4 ص : 454 .

(117) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 14 ص : 106 — 107 .

على الموبقات ، يصرح بفجوره ، لا يردعه رادع ، ليس هذا فحسب ، بل يصرح بأن ارتكاب المعاصي والإقدام على المحظورات جهرة تزيد في نشوته وشعوره باللذة والسعادة ، لا يقيم وزناً للمثل الروحية او الاجتماعية ، فيقول :

« جريت مع الصبا طلق الجموح وهان عليّ مأثور القبيح
وإني عالم أن سوف تنأى مسافة بين جثماني وروحي »⁽¹¹⁸⁾
وهجا قريش ، فقال :

« أمّا قريش فلا افتخار لها إلا التجارات من مكاسبها
وإنها إن ذكرت مكرمة جاءت قريش تسعى بغالبها
إن قريشاً إذا هي انتسبت كان لها الشطر من مناسبتها
... فبلغ الرشيد في حياته ، فأمر بحبسه ، فلم يزل محبوساً حتى ولي محمد »⁽¹¹⁹⁾ واتهمه الفضل ابن الربيع بالزندقة ، فتخلص من التهمة رغم قوله :

اسقنيها يا ذفافة مزة الطعم سلافه
ذل عندي من قلاها لرجاء أو مخافه
مثلما ذلت وضاعت بعد هارون الخلافه

وقال أيضاً :

فجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا
عندها اتهمه الأمين بالزندقة والكفر وحبسه عليها⁽¹²⁰⁾.

والذي يدفع للغرابة حقاً هو عدم أخذه بهذه التهمة إلا عندما يتعرض للدولة بشخص الخليفة أو أحد مساعديه رغم كل ما ينقل من صور تزندقه ، فقد قال سليم ابن منصور : « رأيت أبا نواس في مجلس أبي ، بكى بكاء شديداً ، فقلت : إني لأرجو ألا يعذبك الله بعد هذا البكاء أبداً ، فأنشأ يقول :

(118) الفالي ، الامالي ، دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ - بيروت ، ذيل الامالي ، ص : 63 .

(119) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص 219 .

(120) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص 225 — 226 .

لم أبكِ في مجلس منصور شوقاً الى الجنة والحدور
ولا من القبر وأهواله ولا من النفخة والصور
لكن بكائي لبكا شادن تقيه نفسي كل محذور

ثم قال : أما ترى الأمر الذي عن يمين أبيك ؟ إنما بكيت لبكائه ⁽¹²¹⁾.

وكان يسخر بالحديث النبوي ويسخر من رجاله ، كالذي حكاه ابن عائشة

من قوله :

وحدثنا الخفاف عن وائل وخالد الحذاء عن جابر
ومسعد عن بعض أصحابه يرفعه الشيخ الى عامر
قالوا جميعاً : أيما طفلة علقها ذو خلق طاهر
فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ الذاكِر
كانت لها الجنة مفتوحة ترتع في مرتعها الزاهر
وأي معشوق جفا عاشقا بعد وصال دائم ناضر
ففي عذاب الله بعد له وسحق دائم داحِر ⁽¹²²⁾

قد يظن أن أبا نواس إنما كان يتماجن أما الزندقة العلمية فإنه لا يقول بها بل لا يكاد يعرفها ، والجاحظ استغرب جهل أبي نواس بها رغم مجالسته المتكلمين وذلك لقوله في هجاء أبان اللاحقي ، حكاية عن أبان :

« فقال كيف شهدتم بذا بغير عيان
لا أشهد الدهر حتى تعاین العينان
فقلت سبحان ربي فقال سبحان مان
فقلت عيسى رسول فقال من شيطان ⁽¹²³⁾ »

وقد عقب الجاحظ على ذلك بقوله : « وتعجبي من أبي نواس ، وقد كان

(121) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج : 7 ص : 439.

(122) م . ن . ج : 7 ص : 439

(123) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 4 ص : 448 — 450 .

جالس المتكلمين أشد . من تعجبي من حماد ، حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولاً لا يقوله أحد ، وهذه قرة عين المهجو . والذي يقول سبحان ماني ، يعظم أمر عيسى تعظيماً شديداً ! فكيف يقول إنه من قبل شيطان ؟ وأما قوله (نفسه خلقته أم من) فإن هذه مسألة ظاهرة على ألسن العوام ، والمتكلمون لا يحكون هذا عن أحد . . . » (124)

وعندي أن أبا نواس ، شأنه شأن بشار وحماد عجرد يهجون الزنادقة بأشياء لا تقرها الزندقة ، ليوهموا الناس بأنهم لا يعرفون الزندقة ولا يقولون بها .

أما نهايته ، وكيف واجه ربه ؟ فالبعض يقول : إنه تأله وتعبد ، وقال في آخر أيامه :

« يا ارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك ربي كما أمرت تضرعاً ولئن رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجاء وجميل ظني ثم أني مسلم » (125)

وبالبعض الآخر يقول إنه مات على الزندقة ، وكان على رأي الدهرية ، ويروى له وهو على فراش الموت قوله :

« باح لساني بمضمر السر وذاك أني أقول بالدهر
وليس بعد الممات منقلب وإنما الموت بيضة العمر » (126)

واتهم أبان ابن عبد الحميد اللاحقي بالزندقة ، وكان قد اتصل بالبرامكة ، ونظم لهم كتاب كليله ودمنة شعراً (127) وذكر ابن النديم أنه نظم أيضاً كتاباً مزدك (128) ورآه المعذل ابن غيلان يصلي ، فاندعش من صلاته لعلمه بمذهبه ، فقال :

(124) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 451.

(125) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 347.

(126) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 347.

(127) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 20 ص : 73.

الصولي ، أخبار الشعراء المحدثين ، ص : 1.

(128) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 232.

« رأيت أبنائاً يوم فطر مصلياً فقسم فكري واستفزني الطرب
وكيف يصلي مظلم القلب دينه على دين مان إنَّ ذاك من العجب »⁽¹²⁹⁾

والجاحظ لم يدفع التهمة عنه ولم يؤكد لها عندما تعرض لقصيدة أبي نواس
في هجائه لكن الشواهد على صحة تدينه أكثر وأوثق⁽¹³⁰⁾.

وأتهم بالزندقة كثير من الشعراء مثل مطيع ابن إلياس ، وقد ذكر أبو الفرج
عدة روايات اتهمه بالزندقة ، « كان ظريفاً خليعاً حلوا العشرة مليح النادرة ماجناً
متهماً في دينه بالزندقة »⁽¹³¹⁾ لكنه سلم من المهدي وكما سلم من المنصور ، ولعل
موقفه من بَيْعَةِ المهدي وتأييده لها واختلاقه الحديث النبوي الذي يزكها ، كان
من الأسباب التي جعلت المهدي يدافع عنه أمام المنصور ويقول « أنابه عارف ،
أمّا الزندقة ، فليس من أهلها ، ولكنه خبيث الدين فاسق ، مستحل
للمحارم »⁽¹³²⁾.

وذكر البغدادي : أنّه كان مرمياً بالزندقة⁽¹³³⁾ وحمل علي ابن القاسم - وكان
من أصدقائه - لمطيع ما يشيعه الناس عنه ، فسأله إنَّ كان رأى منه شيئاً يدل على
الزندقة ، أو رآه مخلاً بالفرائض في الصوم والصلاة ، لكنه أنشد في إحدى
الليالي ، وكان علي ابن القاسم ينام عنده ، بأبيات تحقق منها قوله بالزندقة ، وإن
حاول مطيع بعد ذلك تستيرها ، وهي :

أصبحت جم بلال الصدر عصراً أكاتمه الى عصر
إن بحث ظل دمي وإن تركت وقدت علي توقد الجمر

فلما اتهمه علي قوله هذا بالزندقة قال ، إنّه قال بيتاً ثالثاً ، وأنشد :

(129) الصولي ، اخبار الشعراء المحدثين ، ص : 7 .

(130) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 20 ص : 73 — 78 .

الصولي ، اخبار الشعراء المحدثين ، ص : 8 وما بعدها .

الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 7 ص : 44 — 45 .

(131) انظر ترجمة مطيع ابن إلياس ، ابو فرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 12 ص : 8 وما بعدها .

(32) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 12 ص : 100 — 101 .

(133) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 13 ص : 225 .

مما جناه على أبي حسن عمر وصاحبه أبو بكر⁽¹³⁴⁾

وأقرت بنته بالزندقة أمام الرشيد ، « وقالت : هذا دين علمنيه أبي ، وتبت منه »⁽¹³⁵⁾

ونسب للزندقة عدد من الشعراء العرب كوالبة ابن الحبيب ، وهو كوفي ، وكان من الفتيان الخلعاء والمجان⁽¹³⁶⁾ واتهم ابن القارح أبا تمام بالزندقة ، فذكر عن الحسن ابن رجاء الكاتب قوله : « جاءني أبو تمام الى خراسان ، فبلغني أنه لا يصلي ، فوكلت به من لازمه أياماً ، فلم يره صلى يوماً واحداً ، فعاتبته ، فقال : يا مولاي ، قطعت الى حضرتك من بغداد ، فاحتملت المشقة وبعد الشقة ، ولم أره يثقل علي ، فلو كنت أعلم أن الصلاة تنفعني ، وتركها يضرني ما تركتها »⁽¹³⁷⁾.

واتهم أبو العلاء دُعبل ابن علي الخزاعي ، وقال عنه : « لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع ، وإنما غرضه التكبس ، وكم أثبت نسباً بتنسب ، ولا أرتاب أن دُعبلًا كان على رأي الحكمي وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية »⁽¹³⁸⁾.

ولم يسلم أبو العتاهية من تهمة الزندقة ، فوشت عليه امرأة ، كانت جارة له ، أنه يكلم القمر ، واتصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة ، فصار الى منزلها ، وبات يرقب أبا العتاهية حتى رآه يصلي ، ثم يعود الى مضجعه . وشكا أبو العتاهية لبعض صحبه ، ما يشيعه الناس عنه ، وقال له : « والله ما ديني إلا التوحيد » فقليل له : « فقل شيئاً نتحدث به عنك ، فقال :

ألا إننا كلنا بائد . وأي بني آدم خالدُ

(134) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 12 ص : 88 .

(135) مصدر نفسه . ج : 12 ص : 89 .

(136) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 13 ص : 487 .

(137) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 264 .

(138) ابو العلاء المعري ، رسالة الغفران ، ص : 210 .

وبدؤهم كان من ربهم وكل الى ربه عائداً
 فيا عجباً كيف يُعصى إلا له أم كيف يجحده الجاحد
 وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد (139)

الكتاب الزنادقة :

لم تكن الزندقة حكراً على الشعراء ، وإنما تعدتهم للكتاب وفشت فيهم ، كما فشت الشعوبية ، وقد وصفهم الجاحظ بقوله : « والناس منكم إذا حفظ من الكلام فتيقه ومن العلم ملحه ، وروى لبزر جمهر أمثاله ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع أدبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليله ودمنة كثر حكمته ، وتوهم أنه الفاروق الأكبر في التدبير وابن عباس في العلم والتأويل ... » (140).

« فيطعن في القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه . يكذب الأخبار ويهجن نفلتها ، ويمتعض من ذكر الرسول أو صحابته ، ولا يرى في ذلك منفعة ولا علماً إنما هو موله « سياسة أردشير بابكان ، وتدبير أنوشروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان ، فإن حذر العيون ، وتفقد المسلمون ، رجع بذكر السنن الى المعقول ، ومحكم القرآن الى المنسوخ ، ونفى ما لا يُدرك بالعيان ، وشبه بالشاهد الغائب ، لا يرضى من الكتب الا المنطق » (141).

ومن هؤلاء الكتاب الزنادقة يونس ابن أبي فروة « وكان زنديقاً ، فطُلب ، فاختفى بالكوفة ، ... واستكتب الرشيد يزيدا بعدادان على ديوان الخراج وكان ثوبياً » (142).

(139) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ،

ج : 3 ص 142 — 143 .

(140) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، (نشر فنكل) (ذم اخلاق الكتاب) ص : 42 .

(141) مصدر نفسه . ص : 42 .

(142) م . ن . ص : 47 .

« وكان إبراهيم (ابن إسماعيل ابن داود) شعوبياً ، وكان يتهم بالثنوية »⁽¹⁴³⁾ وكان علي ابن عبيدة الريحاني « أحد البلغاء والفصحاء له اختصاص بالمأمون ، ويسلك في تصنيفاته ، وتأليفاته طريقة الحكمة ، وكان يُرمَى بالزندقة »⁽¹⁴⁴⁾ واتهم أيضاً محمد ابن الخطيب مولى بني أمية ، وكان من كتاب البرامكة والغريب في الأمر أن له كتاب « الرد على الزنادقة »⁽¹⁴⁵⁾.

وكان لأصحاب النشاط العقلي زنادقتهم ، فقد نسب للزندقة ثمامة ابن أشرس زعيم القدرية في زمن المأمون والمعتصم والواثق⁽¹⁴⁶⁾ وممن أشتهر بها من علماء الكلام « ابن طالوت ، أبو شاكر ، ابن أخي أبي شاكر ، ابن الأعدى الحريري ، نعمان ابن أبي العوجاء ، صالح ابن عبد القدوس ، ولهؤلاء كتب مصنفه في نصره الاثني عشر مذهب أهلها ، وقد نقضوا كتباً كثيرةً صنفها المتكلمون في ذلك . . . وممن تشهر أخيراً أبو عيسى الوراق ، وأبو العباس الناشي ، والجيواني محمد ابن أحمد »⁽¹⁴⁷⁾.

الزندقة العقلية :

ونوع آخر من الزندقة العقلية قائم على إنكار الأديان جملة ، وإنكار النبوة والبعث والحساب ، تمثله الدهرية بالإضافة لمن اعتبر العقل إماماً يستطيع من خلاله الوصول الى كل شيء ولعل أهم من يمثل هذا الإتجاه أحمد ابن يحيى الراوندي ومحمد ابن زكريا الرازي .

فأمّا ابن الراوندي ، فهو « أبو الحسين أحمد ابن يحيى ابن حمد ابن إسحاق الراوندي من اهل مرو الروذ ، ولم يكن في نظرائه في زمنه أحق منه

(143) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، ص : 48 . (ذم أخلاق الكتاب)

(144) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 173 . ياقوت ، معجم الادباء ، ج : 14 ص : 51 — 52

(145) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 175 .

(146) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 172 وما بعدها .

(147) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 473 .

بالكلام ، ولا أعرف بدقيقه وجليله ، وكان في أول أمره حسن السيرة جميل المذهب ، كثير الحياء ، ثم انسلخ من ذلك كله بأسباب عرضت له ⁽¹⁴⁸⁾ . وأشهر كتبه التاج يحتج فيه لقدم العالم . والزمردة يحتج فيه لإبطال الرسالة . ونعت الحكمة سفة الله تعالى فيه في تكليف خلقه أمره ، والدامغ يطعن فيه على نظم القرآن . والقضيب يثبت في أن علم الله محدث ، وأنه كان غير عالم حتى خلق لنفسه علماً . الفريد في الطعن على النبي عليه الصلاة والسلام . والمرجان في اختلاف أهل الإسلام ⁽¹⁴⁹⁾ .

وقد نقض الخياط وغيره كُتُبَهُ وهو الذي لَقِّنَ اليهود القولَ بعدم نسخ شريعتهم ⁽¹⁵⁰⁾

ويتلخص موقفه من الدين : بأنَّ العقل هو أصل المعرفة ، وأصل العمل ، والوحي إمَّا أن يوافقَّ العقل أو يخالفه ، فإن وافق العقل ، فلا حاجة له ، وبالعقل عنه غنى ، وإن خالفه فحينئذ يجب رفضه ، يقول « إنَّ العقل أعظم نعم الله . . . وإنَّه هو الذي يعرف به الرب ونعمه ، ومن أجله صح الأمر والنهي والترغيب والترهيب . فإن كان الرسول يأتي مؤكداً لما فيه من التحسين والتقيح والإيجاب والحظر ، فساقط عنا النظر في حجته وإجابة دعوته ، إذ قد غنينا بما في العقل عنه ، والإرسال على هذا الوجه خطأ ، وإن كان بخلاف ما في العقل من التحسين والتقيح والإطلاق والحظر ، فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته » ⁽¹⁵¹⁾ .

وعلى هذا الأساس رأى في الشريعة الإسلامية ما يتناقض مع العقل كالصلاة وغسل الجنابة ورمي الحجارة والطواف في الحج ⁽¹⁵²⁾ وانتقد المعجزات ، وكذب

(148) ابن التديم ، تكملة الفهرست ، ص : 4 — 5 .

محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 263 .

(149) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 263 .

(150) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص 236 .

(151) ادوينس ، الثابت والمتحول - الكتاب الثاني ط 2 ، دار العودة ، بيروت 1979 ص : 74

(152) مرجع نفسه . ص : 74 .

الأخبار الواردة عن « شرذمة قليلة يجوز عليها المواطأة في الكذب » . وانتقد معجزة هبوط الملائكة ، ومساعدة النبي في بدر متسائلاً عن عدم نصرتها له في أحد رغم تستره بين القتلى⁽¹⁵³⁾ ويعتقد أنّ الكلام الإنساني حادث يتعلمه الانسان عن أبويه ، يريد بذلك نقض الآية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁽¹⁵⁴⁾. ويرى أنّ إعجاز القرآن ليس بمعجزة فإنّه « لا يمتنع أنّ تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلها ، وتكون عدة من تلك القبيلة أفصح من تلك القبيلة ، ويكون واحد من العدة أفصح من تلك العدة . . . وهب أنّ باع فصاحته طالت على العرب ، فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون اللسان ، وما حجته عليهم »⁽¹⁵⁵⁾.

ورغم إنكاره معجزة الإعجاز في القرآن على النحو الذي ذكرناه ، فقد أنكر تحقيقها من الناحية العملية ، ورأى في كلام أكثر ابن صيفي أحسن من ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾⁽¹⁵⁶⁾.

وكما انتقد القرآن من الناحية البلاغية فقد انتقده من الناحية المعنوية ، ورأى فيه ما يناقض العقل ، مثل وصف القرآن للجنة : فيها ﴿أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾⁽¹⁵⁷⁾ وهو الحليب ، ولا يكاد يشتهي الا الجائع ، وذكر العسل ، ولا يطلب صرفاً ، والزنجبيل وليس من لذيذ الأشربة ، والسندس ، يفرش ولا تلبس ، وكذلك الإستبرق الغليظ من الديباج . . . ومن تخايل أنّه في الجنة يلبس هذا الغلظ ، ويشرب الحليب والزنجبيل ، صار كعروس الأكراد والنبط⁽¹⁵⁸⁾.

أما الرازي ، فقد انكر النبوة من وجهين . عقلي وتاريخي ، وقال إنّ العقل أساس المعرفة ، ولذلك يجب أن يكون متبوعاً لا تابعاً ، وهو « ينزع نزعة

(153) م . ن . ص : 74 — 75 .

(154) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، آية رقم : 31 .

(155) ادونيس ، الثابت والمتحول - الكتاب الثاني ، ص : 76 .

(156) القرآن الكريم ، سورة الكوثر ، آية رقم : 1 ، انظر ادونيس الثابت والمتحول ص : 76 .

(157) القرآن الكريم ، سورة محمد ، آية رقم : 15 .

(158) ادونيس ، الثابت والمتحول - الكتاب الثاني ، ص : 76 .

فكرية حرة من كل آثار التقليد او العدوى ، ويؤكد حقوق العقل وسلطانه الذي لا يحده شيء »⁽¹⁵⁹⁾.

الزنادقة الصوفية :

ومن الزنادقة من نشط بين المتصوفين ، وكان أشهرهم في هذا المجال الحسين ابن منصور الحلاج ، ومحمد ابن علي الشلمغاني ، وإن لم ينسب الأخير للصوفية ، فقد كانت حركته استمراراً لحركة الحلاج ، ومتابعة لها ، وأضاف إليها القول بالتناسخ ، وكانت صورته بصورة الحلاج⁽¹⁶⁰⁾.

وكان « الحسين ابن منصور الحلاج ، يُكَنَّى أبا مغيث ، وقيل أبا عبد الله ، وكان جده مجوسياً . . . من أهل فارس »⁽¹⁶¹⁾. وقيل من خراسان من نيسابور ، وقيل من مرو ، وعنه قال ابن النديم « ليس يصح في أمره وأمر بلده شيء البتة »⁽¹⁶²⁾. وكما اختلف في بلده ، فقد اختلف في نشأته ، فقيل نشأ بواسط ، وادعى آخرون أنَّ نشأته كانت بتستر⁽¹⁶³⁾.

المهم أنه قدم بغداد ، فخالط الصوفية ، وصحب من مشيختهم الجنيد ابن محمد ، وعمرو المكي⁽¹⁶⁴⁾ ودعا الى المهدي وزعم أنه يخرج من الظالقان ، فاعتقل بسبب دعوته تلك ، وأدخل بغداد وحُبِسَ فيها ، واتهم أنه يريد قلب الدولة⁽¹⁶⁵⁾ ، فاحتال حتى هرب من السجن « وكان رجلاً مشعبذاً ومتصنعاً مازجاً

(159) المرجع نفسه . ص : 85 .

(160) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 263 .

(161) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 8 ص : 112 .

(162) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 279 .

(163) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 8 ص : 112 .

(164) مصدر نفسه . ج : 8 ص : 112 .

(165) ابن النديم . الفهرست ، ص : 269 — 270 .

كرد علي ، رسائل البلغاء ، رسالة ابن القارح ص : 262.

نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه ، ثم ادعى حلول روح القدس فيه ، وتسمى بالإله ، وصارت له الى أصحابه رقعاً معنونة بهذه الألفاظ : من الهوهو الأزلي الأول ، النور الساطع اللامع ، والأصل الأصلي وحجة الحجج ، ورب الأرباب ، ومنشئ السحاب ، ومشكاة النور ، رب الطور المتصور في كل صورة الى عبده فلان . وكان أصحابه يفتتحون كتبهم اليه : بسبحانك يا ذات الذات ، ومنتهى غاية اللذات ، يا عظيم ، يا كبير ، أشهد أنك الباري القديم المنير المتصور في كل زمان وأوان ، وفي زماننا هذا في صورة الحسين ابن منصور عبدك ، ومسكينك وفقيرك والمستجير بك ، والمنيب اليك الراجي رحمتك ، يا علّام الغيوب ، يقول كذا وكذا» (166).

وَمِمَّا يُنسَبُ له قوله في الحلول :

جُبِلْتُ رُوحَكَ في رُوحِي كما
فإذا مَسَّكَ شيءٌ مَسَّنِي
وَقوله :

مُزِجْتُ رُوحَكَ في رُوحِي كما
فإذا مَسَّكَ شيءٌ مَسَّنِي
وقال في حلقة أبي بكر الشبلي :

« يا سرَّ سرٍّ يَدُقُّ حَتَّى
وِظَاهِرًا بِاطْنًا تَبَدَّى
يا جَمَلَةَ الكُلِّ لست غَيْرِي
يَجُلُّ عَن وَصْفِ كُلِّ حَيٍّ
مِن كُلِّ شَيْءٍ بِكُلِّ شَيْءٍ
فَمَا اعْتِذَارِي إِذَا إِلَيَّ

وهو يعتقد أنَّ العارف من الله بمنزلة شعاع الشمس ، منها بدأ واليها

يعود» (168)

(166) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 211 — 212 .

(167) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 8 ص : 115 .

(168) كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 262 — 263 . (رسالة ابن القارح) .

ويسبب دعواه الحلول ، ادعى أنه يستطيع أن يقول مثل القرآن⁽¹⁶⁹⁾ وآمن به قوم ، وادعوا له الألوهية ، فقبض حامد الوزير على جماعة منهم ، وناظرهم في ذلك ، فذكروا له « أنهم قد صح عندهم أنه إله ، وأنه يحيي الموتى »⁽¹⁷⁰⁾.

« وقد اختلف فيه المتكلمون ، والفقهاء ، والصوفية ، فأما المتكلمون ، فأكثرهم على تكفيره ، على أنه كان على مذهب الحلولية ، وقبله قوم من متكلمي السالمية بالبصرة ، ونسبوه الى حقائق معاني الصوفية »⁽¹⁷¹⁾.

وانقسم فيه مشايخ الصوفية منهم من برىء منه ومنهم من قبله ،⁽¹⁷²⁾ وظنَّ الغزالي وعبد القاهر الكيلاني فيه خيراً واعتذرا عنه ، وكان لَمَّا خرج ليقتل ، قال :

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرا⁽¹⁷³⁾

وقد تشكك ابن الأثير فيما نُسِبَ اليه ، وروى أن الحلّاج أنكر التهمة ، وقال : « أعوذ بالله أن أدعي الربوبية أو النبوة ، إنما أنا رجل أعبد الله عز وجل »⁽¹⁷⁴⁾.

وظهر بعد الحلّاج رجل يُدعى محمد ابن علي ابن أبي العذاقر⁽¹⁷⁵⁾ الشلمغاني⁽¹⁷⁶⁾

وكانت صورته صورة الحلّاج⁽¹⁷⁷⁾ ، فادعى أنه رب الأرباب عن طريق الحلول والتناسخ، وأبطل الشريعة ، فقبض عليه وعلى أصحابه الراضي بالله وقتلهم . وكان

(169) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 8 ص : 121 .

(170) مصدر نفسه . ج : 8 ص : 133 .

(171) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 261 .

(172) مصدر نفسه . ص : 262 .

(173) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج : 1 ص : 245 — 246 .

(174) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 8 ص : 290 وما بعدها .

(175) ورد هذا اللقب بروايات مختلفة منها : العذاقر والعذاقر والقراقر .

(176) نسبة الى قرية من قرى واسط تعرف بشلمغان .

(177) كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 263 . (رسالة ابن الفارح) .

من معتقداته : أن الله حل في آدم وإبليس ، ثم في إدريس وإبليس ثم في نوح وإبليس ثم في هود وإبليس ، ثم في صالح وإبليس ، ثم في إبراهيم وإبليس ، ثم في هارون وإبليس ثم في سليمان وإبليس ثم في عيسى وإبليس ، ثم في تلاميذ عيسى وأبائهم ثم في علي ابن أبي طالب وإبليس ، ثم في ابن أبي العذاقر وإبليس » ، ويصف أن الله عز وجل يظهر في كل شيء بكل معنى ، وأنه في كل أحد بالخاطر الذي يخطر بقلبه ، فيتصور له ، يغيب عنه كأنه يشاهده ، وأن الله اسم لمعنى ، ومن احتاج اليه الناس فهو إلههم ، ولهذا يستوجب كل كفي أن يُسمى الله ، وأن كل واحد من أشياعه لعنه الله ، يقول : إنه رب لمن هو دون درجته ، وإن الرجل منهم يقول : إني رب فلان ، وفلان رب فلان ، حتى الانتهاء الى ابن أبي العذاقر ، لعنه الله ، فيقول : أنا رب الأرباب ، إله الآلهة ، لا ربوبية لرب بعدي⁽¹⁷⁸⁾ والعذاقرية ينكرون أن يكون الحسن والحسين أولاد علي ، لأن من اجتمعت له اللاهوتية لم يكن له والد ولا ولد ، ويسمون موسى ومحمداً بالخائنين لأنهم يدعون : أن هاروناً أرسل موسى ، وأن علياً أرسل محمداً ، فخاناها . ويقولون إن الملائكة من ملك نفسه ، وإن الجنة معرفتهم (العذاقرية) والنار الجهل بهم ، ويغتفرون الصيام والصلاة والإغتسال ، ويتناكحون على غير تزويج ، ويبيحون الفروج ، ويتهادون النساء ، وكانوا يرون البراءة من الطالبين والعباسيين⁽¹⁷⁹⁾ وقد تغرر بابن أبي العذاقر قوم منهم : إبراهيم ابن أبي عون⁽¹⁸⁰⁾ والحسين ابن القاسم ابن وهب الذي وزر للمقتدر ، وأبو جعفر وأبو علي ابنا بسطام ، وابن شبيب الزيات ، وأحمد ابن عبدوس⁽¹⁸¹⁾.

وقد ذكر لهم ياقوت رسائل وجوابات ، لا يخاطب بمثلها البشر بشراً مثلهم⁽¹⁸²⁾.

(178) ياقوت ، معجم الادباء ، ج : 1 ص : 245 وما بعدها .

(179) مصدر نفسه . ص : 243 ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج : 8 ص : 290 .

(180) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 211 شذرات الذهب ج : 2 ص : 293 .

(181) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج : 2 ص : 90 . وما بعدها .

(182) ياقوت ، معجم الادباء ، ج : 1 ص : 234 وما بعدها .

استغلالُ الزندقةِ للتكيدِ بالمعارضة :

وبعدُ ، هل كانت الزندقةُ فاشيةً لدرجة اضطرت الدولة لاستنفار أجهزتها في سبيل القضاء عليها واجتثاث أصولها ؟ وهل كان هذا العمل خالصاً الى الله تعالى ، بريئاً من الأغراض والخصومات السياسية والشخصية ؟

إنَّ ما يلفتنا لهذا العصر هو تنبه العامة الى هذا المعنى ، فكان ينسب اليه كل من تظهر منه بادرة مجون واستهتار بأمور الدين ، كما إنَّها تهمة يتهم بها كل إنسان من يعانده أو يعاديه ، صحيح أنَّ الزندقة كانت موجودة وكان الزنادقة ناشطين في مختلف الطبقات ، لكنهم لم يشكلوا حركةً أو حزباً ينظم نشاطهم ، ويرعى تحقيق أهدافهم ، فبقيت الزندقة عملاً فردياً يختلف الدافع اليه باختلاف الأشخاص .

واتخذت السلطة العباسية من الزندقة ستاراً للتكيد بمعارضيتها وأشياءهم . وقد مر معنا كيف تساهل أبو جعفر المنصور مع الزنادقة وكيف استغلهم لمآربه السياسية ، وكيف اجتهد المهدي في دفع التهمة عن مطيع ابن إلياس ، لمعونة الأخير له في تثبيت البيعة .

وقد تعجب الأستاذ احمد أمين كيف أنَّ بشاراً ظل طول حياته « يقول الشعر الماجن الخليع ويتعرَّض للدين من قريب أو بعيد ، ويظل في ذلك ثمانين عاماً أو نحوها ، فلا يتعرَّض له أحد ، إلا ما نهاه الخليفة عن الغزل ! بل نرى المهدي - وهو أكبر من اضطهد الزنادقة - يحميه ، ويتأول له الفقهاء ، فلما بلغ الثمانين أو جاوزها ، هجا يعقوب ابن داود . . . وهجا المهدي نفسه فأفحش ، فعند ذلك - فقط - عوقب بشار على زندقته ! »⁽¹⁸³⁾. ولما أفسد الربيع المهدي على شريك القاضي ، اتهم المهدي شريكا بالزندقة⁽¹⁸⁴⁾. وكان الأعراب في بادية البصرة قد

(183) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 157 .

(184) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 43 .

ثاروا وقطعوا الطريق ، فجرد المهدي لهم الجيوش ، وأشاع بأنهم قطعوا الصلاة⁽¹⁸⁵⁾.

وطالما مدح الأصمعي البرامكة وغرد في مجالسهم ، فنكبوا ، واتهموا بأنهم زنادقة على دين المجوس ، فقال الأصمعي :

إذا ذكر الشرك في مجلس أنارت وجوه بني برمك
وإن تُلِيَتْ عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك
وقيل فيهم :

إن الفراغ دعاني الى ابتناء المساجد
وإن رأيي فيها ك رأي يحيى ابن خالد⁽¹⁸⁶⁾

ومدح علي ابن جبلة العكوك أبا دلف العجلي بقصيدة فيها :

« إنما الدنيا أبو دلف بين يديه ومحتضره
فإذا ولي أبو دلف ولت الدنيا على أثره
كل من في الأرض من عرب بين يديه الى حضره
مستعير منك مكرمة يكتسيها يوم مفتخره

فأعطاه أبو دلف مائة ألف درهم ، ولما بلغت المأمون ، غضب غضباً شديداً على العكوك ، فطُلبَ ، فتهربَ . فاجتهدوا الى أن جاؤا به مقيداً ، فلما صار بين يديه (المأمون) قال له : « يا ابن اللخناء ، أنت القائل في مدحك لأبي دلف : كل من في الأرض من عرب . . جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ، ويفتخر بها ! فقال : يا أمير المؤمنين ، أنتم أهل بيت لا يقال بكم ، لأن الله تعالى اختصكم لنفسه على عباده ، وآتاكم الكتاب والحكم ، وإنما ذهبت في شعري

(185) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 77 .

(186) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 1 ص : 51 .

ابن العماد الحنبلي ، ج : 1 ص : 206 ، 337 .

لأقران وأشكال أبي دلف : فقال : والله ما أبقيت من احد ولقد أدخلتنا في الكل ، وما استحل دمك بهذا ، ولكن بكفرك حيث قلت في عبد ذليل :

أنت الذي تنزل الآيات منزلها وتنقل الدهر من حال الى حال
وما نظرت مدى طرف الى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

ذاك هو الله يا كافر ، اخرجوا لسانه من قفاه ، ففعلوا به ذلك فمات ⁽¹⁸⁷⁾

لقد تحيل المأمون الحيل على العكوك حتى اتهمه بالزندقة والكفر وقتله عليها ، لأنه مدح رجلاً في شعر يرى المأمون أنه أحق بالمدح في هذا الشعر، في حين أن الزنادقة ورؤساءهم ، كانوا يأتونه ، ويجاهرون بآرائهم في مجالسه ويناظرونه ، ويعودون الى ديارهم سالمين .

والزندقة في أي حال لم تكن سمة هذا العصر كما قد يُخيّل الينا ، فهي « بمعنى الشك أو الإلحاد ، كانت حظ قليل من المفكرين إذا قيس بالعدد العديد من المؤمنين . ولذلك استطاع المؤرخون ، وكتاب المقالات الدينية أن يسموا الزنادقة على شكهم في زندقه بعضهم ، ولكن كان من العسير ان يسموا المؤمنين ، لأن الإيمان هو الأساس ، والزندقه ليست إلا شذوذاً في اتجاه التيار العام ⁽¹⁸⁸⁾ وفشلت الشعبية في هذا المجال فشلاً كاملاً وانتصر الإسلام .

(187) ابن حجة ، ثمرات الاوراق ، ج : 1 ص : 112 .

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 30.

(188) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 158 .

الفصل الثاني

الحركات الثورية ذات الأساس الديني وعلاقتها بالشعبوية

الحركات الثورية

ذات الأساس الديني وعلاقتها بالشعبية

لَئِنْ تَسَتْ الزنادقة في عمق الدولة العربية ، فأظهروا الإسلام وأسروا غيره حرصاً على حياتهم ، وَلَئِنْ فَشِلُوا في تنظيم صفوفهم في حركة ثورية تسير في تحقيق أهدافهم الى الأمام . فقد جاھروا بعقائدهم في الأقاليم الفارسية ، وقاموا بسلسلة من الحركات الثورية ، كان هدفها القضاء على العرب والمسلمين ، والعودة ببلادهم الى الحالة السياسية الدينية التي كانت قائمة قبل الفتح العربي .

وإذا كان انتقال الحكم من الأمويين الى العباسيين ، يعني نهاية العهد ذي الصبغة العربية الخالصة ، وبداية عهد ذي صبغة اسلامية ، فإن ذلك لم يُرض المتعصبين من الفرس تمام الرضى ، لكنهم قبلوه وعاضدوه في البداية ، لأنه يتيح لهم حرية أكثر في العمل على تحقيق أهدافهم القومية والدينية . وكان لقتل أبي مسلم الخراساني أثر هام في نشوب العديد من الثورات الفارسية ، فقد تبنته الحرّمية⁽¹⁾ وجعلته رمزاً ملهماً للثورة على العرب والإسلام ، « وكان الدين الإيراني

(1) الحرّمية ، وهم المحمرة ، ينتشرون فيما بين أذربيجان وأرمينية وبلاد الديلم ، وهمذان ودينور واصفهان وبلاد الأهواز ، وهم محموس في الأصل ، وصاحبهم مزدك القديم « أمرهم بتناول اللذات ، والإنعكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب والمواثاة والإختلاط ، وترك الإستبداد بعضهم على بعض ، ولم يشاركوا في الحرم والأهل ، لا يتمتع الواحد منهم من حرمة الآخر ، ولا يمنع ، ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير ، وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس ، وهم مذهب في الضيافات ليس لأحد من الأمم ، إذا أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شيء يلتصه . . . وعلى هذا المذهب مزدك الأخير ، وأحدث بابك في مذاهب الحرّمية القتل والغصب والحروب والمثلة وادعى أنه إله . ابن النديم ، الفهرست ، ص : 479 — 480 .

القومي . . . لا يزال يؤثر في عقول الناس تأثيراً قوياً»⁽²⁾.

وقد بُذِلَتْ قبل ذلك جهود حثيثة في بعثها وتهذيبها ، قام بها فريز الذي حاول تهذيب المجوسية والعودة بها الى أصولها الزرادشتية ، فادعى أنه صعد الى السماء ، وأن الله أوصى اليه ، فتبعه خلق كثير من المجوس ، وكان قد خالف الديانة المجوسية في أكثر الشرائع ، وصدق زرادشت ، « وزعم أنه يُوحى اليه في السر ، وفرض عليهم سبع صلوات ، صلاة في توحيد الله ، وصلاة في خلق السموات والأرض ، وصلاة في خلق الحيوان وإرزاقه ، وصلاة في الموت ، وصلاة في البعث والحساب ، وصلاة في أهل الجنة والنار وما أُعِدَّ لهم ، وصلاة في الموت »⁽³⁾ وأمرهم بالسجود ناحية الشمس على ركبة واحدة وإرسالهم الشعر وترك الزمزمة عند الطعام ، وحرم ذبح الحيوان إلا ما هرم ، وشرب الخمر وأكل الميتة ونكاح الأمهات والبنات والأخوات وبنات الأخ ، وشى به الموابذة ، فعرض عليه أبو مسلم الخراساني الإسلام فقبله ، ثم لم يُقبل إسلامه لأنه تَكَهَّنَ ، فَقُتِلَ وَصُلِبَ⁽⁴⁾.

وإذا قتل بها فريز بتحريض من الفرس المجوس أنفسهم ، فإن قتل أبي مسلم الخراساني من قبل المنصور قد أجاج العواطف الفارسية ، وانقسم أشياعه بين مصدق بموته ومنكر ، فزعم إسحاق الترك - احد دعاة في بلاد ما وراء النهر - أنه حي وأنه محبوس في جبال الري ، وأنه يخرج في وقت يعرفه . وادعى أنه نبي أرسله زرادشت وزعم أن زرادشت حي أيضاً « أنه يخرج حتى يقيم الدين لهم »⁽⁵⁾ . فقد أصبح أبو مسلم بعد مقتله المهدي المنتظر عند الخرمية من المجوس . والحق أن كثيراً من علماء المجوس ورجالانهم كانوا يسمعون بين

(2) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص : 181 — 182 .

(3) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 210 — 211 .

(4) مصدر نفسه . ص : 210 — 211 .

ابن النديم ، الفهرست ، ص : 482 وما بعدها .

(5) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 483 .

الناس حتمية خروج « إنسان يعيد دولة المجوسية ، ويستولي على الأرض كلها
ويزيل ملك العرب »⁽⁶⁾

هذا الأمر جعل نفوسهم تنوق لخروج هذا الرجل ، فناصروا كل رافع راية
عله يكون القائم الذي ينتظرون .

ثورة سباز :

أما الذي رفع راية الثار لأبي مسلم فهو سباز الذي خرج يطلب بدمه ،
فسار في جيش كبير الى الري فغلب عليها ، وعلى قومس وما يليها واستولى على
خزائن أبي مسلم . وكان قد تسمى فيروز أصبهذ وأظهر أنه يريد أن يقصد الكعبة
ويهدمها ، كثر أتباعه ومعظمهم من أهل الجبال وطبرستان ، فوجه المنصور جمهور
ابن مرار العجلي في عشرة آلاف فارس ، فلما التقى الجمعان قدم سباز السبايا
من النساء المسلمات « فلما رأين عسكر المسلمين قمن في المحامل ونادين :
وامحمداه ! ذهب الإسلام ، ووقعت الريح في أثوابهن ، فنفرت الإبل ، وعادت
على عسكر سباز ، ففرق العسكر ، وكان ذلك سبب الهزيمة ، وتبع المسلمون
الإبل ، ووضعوا السيوف في المجوس ومن معهم فقتلوه كيف شاؤوا ، وكان
عدد القتلى نحواً من ستين ألفاً⁽⁷⁾ وفر سباز فقتل في فراره بين طبرستان وقومس ،
وقد استمرت ثورته سبعين يوماً⁽⁸⁾ .

ثورة استاذ ميس :

ولكن القضاء السريع على سباز وثورته ، لم يقضِ على النعمة في صدور

(6) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 213 .

(7) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 481

(8) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 306 .

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 481 .

ابن طباطبا - الفخري ، ص : 171 .

أتباعه ، بقيت تضطرم وتتأجج وتنتظر ، فخرج أستاذ سيس ، فدعى النبوة ، وكثر أتباعه حتى بلغوا ثلاثمائة ألف مقاتل فاستولى بهم على خراسان ، وهاجم مرو الروذ ، فنهض لقتاله الأجشم المروذي ، فَقُتِلَ واستُبيحَ عَشْرُهُ ، فوجه له المنصور عدة من القواد فهزمهم ، منهم : معاذ ابن مسلم ، وجبرائيل ابن يحيى ، وحماد ابن عمرو ، وأبو النجم السجستاني ، وداود ابن كرار ، وأخيراً وُفِّقَ خازم ابن خزيمة ، فهزمه بعد معركة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً وأسر من أتباعه أربعة عشر ألفاً ، وانهزم أستاذ سيس ، وتحصن في جبل ، فحاصره خازم وأجبره على الإستسلام فقيده وأعتق من أتباعه أكثر من ثلاثين ألفاً⁽⁹⁾.

ثورة المقتنع :

ولم تهدأ الخَرَمِيَّة لا في زمن المهدي ولا في عهد الرشيد ، فظهر المقتنع الخراساني ، وكان رجلاً أعور من أهل مرو ، ويسمى حكيماً وقيل عطاء وسمى نفسه هاشماً ، وادعى أنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد أبي مسلم وكان يقول : إنَّ الله خلق آدم ، فتحول في صورته ، ثم في صورة واحد واحد من الأنبياء ، حتى تحول في صورة أبي مسلم الخراساني ، ثم تحول الى هاشم - يعني المقتنع - وكان يغطي وجهه بقناع من ذهب ، وقال بتناسخ الأرواح وتابعه خلق من ضلال الناس ، وكانوا يسجدون ناحيته ويقولون : يا هاشم أعنا⁽¹⁰⁾

« وكاتب خاقان واستنجده ، واجتمع اليه المبيضة والترك ، فأباح لهم الأموال والفروج وقتل من خالف ، وشرع لهم جميع ما أتى به مزدك »⁽¹¹⁾.
وقد غلب على عقولهم بالتمويه والسحر والنيرجات ، من ذلك أنه أظهر لهم

(9) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 591 وما بعدها .

الحنيلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 225 .

(10) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 38 — 39 .

(11) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 211 .

صورة قمر يطلع ، ويراه الناس من مسافات بعيدة ، ففتنهم فعظم اعتقادهم فيه وصدقوه⁽¹²⁾.

فما كان من المهدي إلّا توجيه الجيوش في طلبه ، فهزم جيشاً بعد آخر حتى استطاع سعيد الحرشي هزيمته ، وحصاره بقلعته بكش ، فلما أيقن بالموت ، أحرق أهله ونفسه ، وقيل شرب سماً وسقاهم ، فدخل المسلمون القلعة فوجدوها خالية ، خاوية ، فاحتزوا رأسه ، وأرسلوه الى المهدي ، وكان بحلب⁽¹³⁾.

الخرّمية :

وظهرت الخرّمية مجدداً ، فوجه إليهم محمد الأمين عبد الله ابن مالك الخزاعي ، ففضى على ثورتهم ، وشردهم⁽¹⁴⁾ . ولكن الى حين ، فما إن اشتعلت الحرب بين الأمين والمأمون ، واضطرب جبل الأمن في البلاد ، حتى أحست الخرّمية أنّ الفرصة مؤاتية هذه المرة أكثر من ذي قبل ، فأعلنوا ثورتهم بقيادة بابك الخرّمي ، الذي ينتسب في رواية الى فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني ، التي ينتسب اليها الفاطمية من الخرّمية⁽¹⁵⁾ وقيل في نسبه روايات أخرى . ومهما يكن من أمر ، فإنّ جاويدان⁽¹⁶⁾ صاحب جبل البذ اصطفاه لنفسه ، فلما مات من أثر جراحة كانت قد أصابته في بعض حروبه ، اتفقت امرأته مع بابك وكان يتعشقها ، ويفجر بها ، بأن تروي لأصحاب زوجها أنّ جاويدان قد صرح قبل موته بأنّ روحه ستحل في بابك وتشارك مع روحه ، وأنّ بابك سيبلغ بالخرّمية أمراً لم يبلغه أحد ، ولن يبلغه بعده أحد ، وأنّه الرجل الذي سيملك الأرض ، ويرد المزدكية

(12) ابن خلّكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس دار صادر 1978 ج : 3 ص : 263 .

(13) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 9 ص : 338 ، 342 البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 211 . ابن

الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 38 — 39 . كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 259 .

(14) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 391 — 392 .

(15) مصدر نفسه . ص : 402 .

(16) جاويدان ، يعني الدائم الباقي / ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 328 .

الى عزاها ومنعتها ، فلما تجمع اليها الجيش وتساءلوا ، لماذا لم يدعُ بهم ، ولم يوصِ اليهم اعتذرت بقولها : إنهم كانوا متفرقين في منازلهم ، فخشي إن انتشر الخبر ، أن لا يأمن عليهم شرة العرب ، فصدقوها ، وسألوها عن وصية جاويدان ، فاخبرتهم بما كانت قد تأمرت مع بابك عليه ، فأذعن القوم ، وتملك بابك عليهم⁽¹⁷⁾.

نستطيع من خلال الحوار الذي جرى بين المرأة وبابك ثم بينها وبين أتباع زوجها أن نبين الأهداف التي كانوا يحلمون جميعاً بتحقيقها ، من الإستقلال ، حتى العودة بالمزدكية الى سابق عزاها بل الى عزا ما بلغته في يوم من الأيام !

المهم أن بابك تزعم أتباع جاويدان ، واستغل فترة الإضطراب والقلق التي تلت قتل الأمين ، فأعلن عصيانه ، وفشلت جميع حملات المأمون في القضاء عليه . وأخيراً هُزِمَ بابك ، وفتحت مدينته على يد الأفشين كبير قواد المعتصم بعد حروب دامت زهاء عشرين عاماً كلفت الدولة الكثير من العناء والأزمات ، وبلغت الضحايا أكثر من ربع مليون قتيل . ويعود سبب صمود بابك كل هذه الفترة لحماسة أتباعه ، واندفاعهم ، واشتغال المأمون بالأزمات الداخلية العديدة التي نشبت إثر توليه السلطة والتي وقفت حائلاً دون الإهتمام الكلي ببابك وثورته أضف الى ذلك وعورة الإقليم الذي ثار به بابك ، وتحالفه مع الروم والعديد من القوى المحلية الأخرى⁽¹⁸⁾.

(17) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 480 وما بعدها .

(18) انظر في هذه الثورة ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 402 .

الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج : 10 ص : 244 .

أسمودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 29 ، ج : 4 ص : 55 .

ابن النديم ، الفهرست ، ص : 480 وما بعدها .

البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص : 266 وما بعدها .

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 328 وما بعدها .

ثورة المازيار :

ولم تكد ثورة بابك تخمد حتى اشتعلت ثورة المازيار ابن قارن ابن بنداھرس صاحب جبال طبرستان ، وكان المأمون قد اصطنعه وولاه ، فتمرد أيام المعتصم ، وُبُعِدَ القضاء على بابك ، وكان السبب منافرة وعداوة بينه وبين عبد الله ابن طاهر والي خراسان الذي أوغر صدر المعتصم عليه ، وقام الأفشين بلعب دور المحرض لمازيار على الثورة طمعاً أن يوليه المعتصم خُراسان . فأظهر دين المحمّرة وجبى الخراج بسرعة واستعد للمواجهة مع جنود الخلافة ، واعتدى على المسلمين ، فكلّف المعتصم عبد الله ابن طاهر بحربه ، فاستناب عمه الحسن ابن الحسين الذي حاربه وأسرّه ، وحمله الى سامراء ليلقى مصير بابك ، وفي عاصمة الخلافة ، فضح الدور الذي لعبه الأفشين في هذه الثورة وأقر المازيار بتحريض الأفشين له ، وكُشِفَت مكاتبات تدل على مؤامرة كبرى كانت تحاك ضد العرب والمسلمين ، ولما عزم المعتصم على قتله ، قيل له : لا تعجل عليه ، فإنّ عنده أموالاً ، فأُشْد :

« إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَابِ هَمَّتْهَا يَوْمَ الْكَرْبِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ »⁽¹⁹⁾

فقتله ، وصلبه بجانب بابك ، وأمر بسجن الأفشين حتى مات ، ثم صلبه مع صاحبيه ، وقد خلد أبو تمام هذه المناسبة بقصيدة يقول فيها :

« ولقد شفى الأحشاء من برحائها	إذ صار بابك جار مازيار
ثانيه في كبد السماء ولم يكن	كأثنين ثان اذ هما في الغار
وكانما انتبذا لكيما يطويا	من ناطس خبيراً من الأخبار
سود اللباس كأنما نسجت لهم	أيدي السموم مدارعاً من قار
بكروا وأسروا في متون ضوامر	قيدت لهم من مربوط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم	أبدا على سفر من الأسفار

وقبل هذا في وصف الأفشين خاصة :

(19) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج : 2 ص : 22

رمقوا أعالي جذعه فكأنما رمقوا الهلال عشية الإفطار» (20)

وقد بقيت طائفة تؤمن بمازيار كما آمنت ببابك ، ولكنها تظهر الإسلام خوفاً من السلطان (21) .

يمكننا القول بعد استعراض هذه الحركات إن الدعوة العباسية أسهمت في تنشيط الشعور القومي بين الفرس ، وساعدت على بعث الحركات الدينية الفارسية ، بتهيئة الظروف الملائمة لها ، وخاصة الخرمية التي رفعت راية الثورة على أساس برنامج سياسي اقتصادي ديني متكامل ، يتلخص بتطبيق اشتراكية مزدك على الصعيد الاجتماعي وضرب الإسلام على الصعيد الديني ، وإعادة السلطان إلى العجم على الصعيد السياسي .

ويلاحظ الدوري : أن الصدام بين العرب والفرس ، كان يقابله صراع مواز بين المجوسية والإسلام . وأن هذه الثورات لم تكن إسلامية مهما تستر أصحابها بالإسلام ، وأن فشلها يشعر بقوة السلطان القائم (22) في حين رأى فاروق عمر أن هذه الثورات كانت نتيجة طبيعية لقيام الدولة العباسية فالدعاة العباسيون قد حركوا أفكاراً وأمالاً كان من الصعب إخمادها والقضاء عليها وفشلت السلطة العباسية في تطبيقها فأصبحت الشعوب الإيرانية بخيبة أملٍ مريرة فعبروا عن نقتهم بمناصرة الثوار ضد السلطة العباسية المركزية سواء أكان الثوار من الفرس كسباز أو اسحاق الذرك والمقنع وغيرهم أو كانوا من العرب كجمهور ابن مرار العجلي وعبد الجبار الأزدي ورافع ابن الليث وأن الطابع الاجتماعي والاقتصادي كان متلازماً مع الطابع الديني الذي كان مزيجاً من تعاليم الإسلام والديانات الفارسية (23) .

(20) ابن خلكان ، وفیات الاعيان ، ج : 5 ص : 123 .

(21) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 61 وما بعدها .

البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 268 وما بعدها .

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 495 وما بعدها .

(22) الدوري ، الجذور التاريخية للشعبوية ، ص : 32 وما بعدها .

(23) F. Omar, Islamic Culture, Vol. 48, January 1974, Huder Abad. P. 1—9.

الباب الثالث

الفصل الأول : الشعوبية والبعد الاجتماعي

الفصل الثاني : الشعوبية والبعد السياسي

الفصل الأول :

الشعوية والبعد الاجتماعي

الشعبية والبعد الاجتماعي

الإنسان بفطرته كائن اجتماعي ، عاش في إطار الجماعة منذ عرف الوجود ، ولم يعرف العزلة المطلقة في أي دور من أدوار حياته ، ذلك لأنه بحكم تكوينه الطبيعي بحاجة الى غيره لتأمين حاجاته المختلفة ، وكما يستحيل على الإنسان أن يعيش في عزلة عن أفراد مجتمعه ، كذلك يستحيل على المجتمعات أن يبقى بعضها في عزلة عن بعض ، فقد خصت الطبيعة كل مجتمع بلون من الانتاج تحتاج اليه المجتمعات الأخرى ، مما يضطرها للتبادل ، ومن ثم لتكوين العلاقات فيما بينها .

وهذه العلاقات - مع الزمن - تكون تفاعلاً حضارياً إنسانياً عاماً ، فتظهر الفلسفات الإنسانية ، وتتجلى القيم والمثل العليا التي يجب أن تسود العلاقات الإجتماعية ، التي تنشأ عادة استجابة لنشاط أو سلوك اجتماعي . وهذه العلاقات تشمل كل ما يقيمه الإنسان في مجتمعه وخارج هذا المجتمع من صلات ، تختلف باختلاف المجتمعات تبعاً لتراثها الثقافي والحضاري .

والعرب حين اندفعوا خارج جزيرتهم ، لم يندفعوا فاتحين فحسب بل مبشرين أيضاً برسالة جديدة هي : « الإسلام » . فالتقت حضارتهم الصحراوية البسيطة بحضارة البلدان المفتوحة ، ولا سيما بحضارة الفرس . ورغم أن التمايز كان عظيماً بين الحضارتين ، وقواعد السلوك الاجتماعي متباينة لدى الشعبين ، فقد تزاوجت الحضارتان ، وتفاعلتا ، وأسهمت في ارتقاء الحضارة الإسلامية ، وخلال عملية التزاوج تلك حدث كثير من المنافسة بين الحضارتين ، وكانت كل

حضارة تحاول فرض نفسها وإثبات وجودها في المجتمع الجديد

ولقد نجح العرب في تمثل الإسلام تمثلاً صحيحاً قبل أن ينطلقوا بدينهم الجديد خارج شبه الجزيرة العربية . والإسلام لا يمثل بعداً ميتافيزيقياً أو إيماناً غيبياً فقط ، إنما يقرر قواعد لسلوك الإنسان الاجتماعي ، لا تقل أهميتها عن معتقداته في البعث والحساب ، وعليه فإنّ للإسلام بعداً اجتماعياً ، ويتقرر على معتقه أن يحترم في سلوكه الاجتماعي أوامر الدين ونواهيه .

وبعد ، هل انتصر الشعوبيون اجتماعياً بعد أن انتصر العرب في الحرب والسياسة كما ترى زاهية قدورة ؟⁽¹⁾.

صحيح أن الحياة الاجتماعية « لم تُبَحَثْ في تلك العهود من الناحية التاريخية بحثاً وافياً »⁽²⁾ كما تقول السيدة قدورة ، وأن المؤرخين لم يلتفتوا الى المجتمع كله ، ولم يصوروا إلا حياة النخبة من الخلفاء والأمراء والقواد والعلماء والأدباء . أما العامة من الجنود والخدم والعمال ، فلم يلتفت اليها أحد إلا بما يتصل بحياة تلك الطبقة الممتازة . فمصادر البحث قليلة ، والمادة الاجتماعية في هذه المصادر متناثرة ، لا تفي بالغرض ، ولا تشبع نهم الباحث والمحقق ، لكننا مع ذلك نستطيع أن نبين الخطوط العامة لذلك المجتمع ، ونلمح أن صراعاً كان يدور فيه ، بين العقلية السامية والآرية ، بين سلوك إسلامي وآخر مجوسي أو متأثر مباشرة أو غير مباشرة بالمجوسية .

وإذا كانت الحياة الاجتماعية تمثل كل ما يفرزه المجتمع أو ينتجه من عادات وتقاليد وأعراف وأدب ودين وفلسفة وعلم وفنون . فالانتصار الاجتماعي لم يكن للفرس بقدر ما كان للعرب .

وإذا اعتبرنا أنه من المستحيل أن تطمس حضارة معالم حضارة أخرى مهما كان الفارق بينهما كبيراً في التطور والرقى أو الفتوة والشباب ، استطعنا أن ندرك

(1) زاهية قدورة ، الشعوبية واثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 175 وما بعدها .

(2) مرجع نفسه . ص : 176 .

السبب في بقاء ومقاومة الكثير من العادات والتقاليد الفارسية التي لم يكن العرب والمسلمون بحاجة اليها . فقد أعطت العرب الشعوب الأخرى الدين واللغة وكثيراً من العادات والتقاليد العربية ، والمجتمع برمته مصبوغ بصبغة دينية والمجتمع على العموم محكوم بمسلك إسلامي بروحه ومظاهره . وما الانتصار الظاهري الذي رآته الدكتورة قدورة ، إلا انتصار المدنية على البداءة ، وهو تطور كان سيصل اليه المجتمع الاسلامي سواء اغترف من معين الحضارة الفارسية او لم يغترف . لقد كان للفرس دور في تسريع هذا التطور وزيادة نموه دون شك ، لكنه تطور تفرضه الحياة ومنطقها . فلا يعد إذن انتصاراً سهلاً للشعبوية كما ظنت الدكتورة قدورة ، فالعرب لم يتركوا الشعبوية تغزوهم « بمحض اختيارهم وملء إرادتهم »⁽³⁾.

قد يكون لرأي ابن خلدون بعض التأثير في تكوين رأيها ، فهو يقول في المقدمة : « لما كان الفتح ، وملكوا (العرب) فارس والروم ، واستخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حُكِيَ أَنَّهُ قدم لهم المرقق ، فكانوا يحسبونه رقاعاً ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى ، فاستعملوه في عجنهم ملحاً ، ومثال ذلك كثير ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم ، أفادهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترّف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية ، وسائر الماعون والخُرُثي⁽⁴⁾ ، وكذلك أحوالهم في أيام المباشرة والولائم وليالي الأعراس ، فأتوا من ذلك وراء الغاية⁽⁵⁾ » .

(3) الدكتورة زاهية قدورة ، الشعبية واثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 198 .

(4) الخُرثي : سقط المتاع

(5) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 172 .

فابن خلدون يقرر حتمية تاريخية في قانس التطور الحضاري ، فمن الطبيعي أن يقتبس العرب من حضارة جيرانهم كل ما يساعدهم على التطور والرفي دون أن يُسمّى ذلك أنتصاراً للشعبوية أو غيرها ، فالحضارات تتفاعل وتتمازج ، وقلما شهد التاريخ نمو حضارة بمعزل عن الحضارات الأخرى ، وهكذا كان شأن الحضارة العربية الإسلامية . فقد بقيت في روحها وعطاءاتها عربية رغم كل العناصر التي مازجتها . لذلك سنحصر بحثنا في بعض المظاهر الحضارية والاجتماعية حيث حصل صدام بين العرب والشعبوية !

فقد شنت الشعبوية هجماتها على ماضي العرب وتراثهم بهدف خلخلة القيم والمفاهيم العربية ، وخلق شعور بالنقص والتخلف لدى العرب⁽⁶⁾.

الشعبوية والأنساب العربية :

ولما كان العرب يفاخرون بأنسابهم ، ويبالغون فيها ، وعلى أساسها تُحدّد المكانة الاجتماعية في كثير من الأحيان . انطلقت الشعبوية تنتقد هذه الظاهرة ، وتظهر هشاشة تلك الأنساب وعدم صحتها ، فادعوا أن العرب كانوا « يرتكبون العظائم ، من نكاح الحيف والحبالى ، واجتماع النفر على إتيان امرأة واحدة في الطهر الواحد ، وادعاء الأدياء وأولاد الأضياف »⁽⁷⁾ وزعموا أن « نكاح العرب في جاهليتها على ضرور منها : أن أحدهم كان يرسم لامرأته أن ترسل الى فلان وتستبضع منه ، ثم يعزلها في أيام حملها رغبة منه في نجابة الولد . . . ومنها أنه كان يقول للآخر : انزل عن امرأتك لي ، وانزل لك عن امرأتي ، فيفعلان بالبدال ، ومنها أن النفر كانوا يغشونها ، فإذا وضعت الحقنة بأبيه ، فإن لم

(6) قال الجاحظ : « والشعبوية والأزادمردية المبغضون لآل النبي (صلعم) واصحابه ممن فتح الفتوح ، وقتل الجوس ، وجاء بالاسلام ، تزيد في جشوبة عيشهم وخشونة ملابسهم ، وتنقص من نعيمهم ورفاغة عيشهم » .

الجاحظ ، البخل ، ص : 319 .

(7) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، ج : 1 ص : 148

تعرفه ، عرفته القافة ، ومنها نكاح المقت بامرأة الأب والإبن واسم الولد منه ضيزن»⁽⁸⁾ .

« وقالت الشعوبية : إنما كانت العرب في الجاهلية ، ينكح بعضهم نساء بعض في غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمث ، فكيف يدري أحدهم من أبوه ؟ وقد فخر الفرزدق ببني ضبة حين يتزون العيال في حروبهم في سبية سبوها من بني عامر ابن صعصعة ، فقال :

فظلت وظلوا يركبون هبيرا⁽⁹⁾ وليس لهم إلا عواليهم ستر⁽¹⁰⁾»

وصورت الشعوبية العرب « كالذئاب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونسأؤها سبايا مردفات على حقائب الابل ، فإذا أدركهن الصريخ ، استنقذن بالعشي ، وقد وطن كما توطأ الطريق المهيح⁽¹¹⁾ ، فخر بذلك شاعر ، فقال :

وألحق ركب المر دفات عشيبة

ف قيل له : ويلك ، وأي فخر لك أن تلحق بالعشي ، وقد نكحن وامتهن ؟ »⁽¹²⁾.

وهذه المقالة لم تكن عند من يشعر بوضاعة النسب من الشعوبيين فحسب ، بل إنَّ بعض المتحدرين من أسر فارسية عريقة ، والمتمتعين بمكانة اجتماعية وسياسية عالية ، كانوا يضيّقون ذرعاً بالأنساب العربية والفخر بها ، فحتى الفضل ابن يحيى البرمكي ، وهو من هو في المكانة الاجتماعية والسلطة السياسية ، كان يؤلمه الفخر بالنسب العربي ، فنسب حديثاً لقس ابن ساعده فيه : « وجدنا الأحساب ليست بالأباء ، والأمهات ولكنها أخلاق محمودة »⁽¹³⁾

(8) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 83

(9) الهبير : ما كان مطمئناً من الأرض وحوله مرتفع ومن الإنسان ما كثر لحمه

(10) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 325 .

(11) الطريق المهيح : الطريق الواسع الواضح .

(12) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 319 — 320 .

(13) ابراهيم ابن محمد البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص : 327 .

« وحين تهاجم الشعوبية العرب ، وتحاول رسم أسطورة مربكة للأنساب ، نجد من يكتب بروح المؤرخ المحقق ، ليظهر متانة الأنساب العربية ، وليبين دور العرب في التاريخ الإسلامي عامة ، أنظر الى (أنساب الأشراف للبلاذري) وتأمل محتوياته ، تر أن هيكل هذا التاريخ يستند الى الأنساب العربية ، وتشعر بأن العرب كانوا محور التاريخ الإسلامي ، وهو في خلال عرضه لهذا التاريخ ، يكشف لك عن مصدر الحيوية فيه ، وعن مركز الثقل في سيره »⁽¹⁴⁾

اتهام الشعوبية للعرب بالإفلاس الحضاري :

وكما حاولت الشعوبية هدم الأساس الذي تقوم عليه فضيلة النسب العربي ، فقد حاولت إظهار العرب بلا حضارة يعتد بها ، فهم شعب حديث النشأة ، طري العود ، قياساً الى حضارات الأمم الأخرى ، فقالت : « ولم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها ، ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها ، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات ، مثل صنعة الديباج ، وهي أبداع صنعة ، ولعب الشطرنج ، وهي أشرف لعبة ، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون ، والاسطرلاب الذي يعدل به النجوم ، ويدرك علم الأبعاد ودوران الأفلاك ، وعلم الكسوف وغيرها من الآثار المتقنة »⁽¹⁵⁾.

فأين العرب من كل ذلك ولم يكن لها ملك يملكها ويجمع سوادها ، ويدبر مصالحها ، وينصف مظلومها ، ويقمع ظالمها . وكيف تقارن العرب بغيرها من الأمم وهي لا نتاج إنسانياً لها سواء بالصناعة أو بغيرها .

والعرب لم يكن لها غير الشعر « وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك إنَّ للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض ، فما الذي يفخر به العرب على العجم ؟ »⁽¹⁶⁾.

(14) عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص : 76 .

(15) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 319 .

(16) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 319 .

وانبرى أنصار العروبة ، يردون هذه التهم ، ويدافعون عن حياة العرب في صحرائهم ، ويفاخرون بمآثرهم ، ويأنّ العرب في جاهليتها كانت « تحتال في تخليدها (أي المآثر) بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هوديونها . وعلى أنّ الشعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح ، وفضيلة المآثرة على السيد المرغوب اليه ، والممدوح به ، وذهبت العجم على أنّ تقيد مآثرها بالبنين ، فبنوا مثل كرد بيداد ، وبنى أردشير بيضاء أصطخر وبيضاء المدائن والحضر والمدن . . . »⁽¹⁷⁾.

فالعرب متحضرون رغم تبديهم ، ويتحلون بأشرف أحوال الأمرين⁽¹⁸⁾ ، فقد شاركوا العجم بالبناء بعد انفرادهم بالشعر « فبنوا غمدان ، وكعبة نجران ، وقصر مارد وقصر مأرب وقصر شعوب والأبلى الفرد » ، وفيه وفي مارد قالوا : « تمرد مارد وعز الأبلق وغير ذلك من البنين »⁽¹⁹⁾ .

بل زعموا أنّ للعرب خصائص وخصالاً لا تجتمع لأمة غيرهم ، وقد حدد ابن الكلبي هذه الخصال بقوله ؛ « كانت في العرب خاصة عشر خصال ، لم تكن في أمة من الأمم : خمس منها في الرأس ، وخمس في الجسد ، فأما التي في الرأس : فالفرق ، والسبوك ، والمضمضة ، والإستنشاء ، وقص الشارب . وأما التي في الجسد : فتقليم الأظفار ، ونفث الإبط وحلق العانة ، والختان ، والإستنجاء ، وكانت في العرب خاصة القيافة ، لم يكن في جميع الأمم أحد ينظر الى رجلين ، أحدهما طويل والآخر قصير ، أو أحدهما أسود والآخر أبيض ، فيقول : هذا القصير ابن هذا الطويل وهذا الأسود ابن هذا الأبيض إلا في العرب »⁽²⁰⁾.

(17) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 72 — 73 .

البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص : 10 — 11 .

(18) التوحيد ، الامتناع والمؤانسة ، تحقيق احمد امين واحمد الزين ، مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون

تاريخ ، ج : 1 ص : 83 .

(19) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 73 .

(20) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 246 .

طعن الشعوبية على العرب بتسميتهم بما ليس في لغتهم :

وكما عابت الشعوبية العرب في أنسابها ، وموروثها الحضاري ، فقد راحت ، تسخر من أسماء العرب ، وتستشنع تسميتهم ، وتطعن عليهم ، وتنسب اليهم التسمية بما لا أصل له في لغتهم . مما دفع ابن دريد اللغوي للرد عليهم ، فوضع كتاب الإشتقاق لدفع هذه الشبهة ، وقد صرح عن غايته في مقدمة كتابه فقال : « كانت الأميون من العرب ... في جاهليتهم الجهلاء ، وضلالتهم العمياء ، لهم مذاهب في أسماء ابنائهم وعبيدهم وأتلاذهم ، فاستشنع قوم إمّا جهلاً وإمّا تجاهلاً ، تسميتهم كلباً وكنياً وأكلب ، وخنزيراً وقرداً وما أشبه ... فطعنوا من حيث لا يجب الطعن ، وعابوا من حيث لا يستبط عيب . فشرحنا في كتابنا هذا أسماء القبائل والعمائر ، وأفخاذا وبطونها »⁽²¹⁾ وقد رد على الذين طعنوا على العرب بأنهم يسمون بما لا أصل له في لغتهم ، وبما لا يقع عليه اصطلاح من أوليتهم . فقال إنهم « عدوا أسماء جهلوا اشتقاقها ، ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها ، فعارضوا بالإنكار واحتجوا بما ذكر الخليل ... : أنه سأل أبا الدقيش : ما الدقيش ؟ فقال : لا أدري إنما هي أسماء نسمعها ولا نعرف معانيها . وهذا غلط على الخليل ، وادعاء على أبي الدقيش . وكيف يغبي على أبي عبد الرحمن الخليل ابن أحمد ... مثل هذا وقد سمع العرب سمت : « دقشاً ودقيشاً ودنقشاً »⁽²²⁾

وقد أجاب على من تساءل لماذا تسمي العرب أبناءها بالأسماء المستشعبة ، وتخص عبيدها بالأسماء المستحسنة ؟ فقال : « إنّ للعرب مذاهب في تسمية ابنائها ، فمنها ما سموه تفاؤلاً على أعدائهم نحو غالب وغلاب ، وظالم ، وعارم ... ومنها ما تفاءلوا به للأبناء نحو نائل ، وواثل ، وناج ... ومنها ما سمي بالسباع ترهيباً لأعدائهم : نحو أسد وليث ... ومنها ما سمي بما غلظ وخشن من الشجر تفاؤلاً أيضاً نحو طلحة وسمرة ... ومنها ما سمي بما غلظ من

(21) ابن دريد ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المسيرة 1979 ، بيروت ، ص : 3 .

(22) ابن دريد ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المسيرة 1979 / بيروت ص : 3 .

الأرض . . . مثل حجر وحجير . . . ومنها أن الرجل يخرج وامرأته تمخض فيسمي ابنه بأول ما يلقاه من ذلك ، نحو : ثعلب ، وثعلبة . . . ،⁽²³⁾.

مهاجمة العادات العربية :

وانطلق الشعوبيون ، يجردون العرب من كل فضيلة ، ويلصقون بها كل رذيلة ممكنة ، فعابوا عليهم أسلوب حياتهم ، ومطاعمهم ، وملابسهم وعاداتهم ، من كرم ونجدة . كما عابوا عليهم أساليبهم في القتال ، وحتى آدابهم وخطبهم لم تسلم من هجمات الشعوبية .

فقطعوا على العرب أكلها الضباب ، ووسموها بهذه الصفة ، قال أبو نواس :

« إذا ما تميمي أذاك مفاخراً فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب
تفاخر أبناء الملوك سفاهةً وبولك يجري فوق ساقك والكعب »⁽²⁴⁾
« ودخل كاتب على مريض ، فوجده يئن ، فخرج من عنده ، فوجد طائراً ، يقال له الشعانين بباب الطاق (محلة في بغداد) ، فاشتراه ، وبعث به إليه ، وكتب كتاباً يتنطع فيه ، ويذكر أنه يقال له الشعانين ، شفاء من الأنين . فأجابه : لو عطست ضباً ، لم تكن عندي إلا نبطياً ، فاقصر عن بعضك ، وسهل كلامك »⁽²⁵⁾.

والفردوسي يعيب على العرب في الشاهنامة أكلهم الضباب ، وشربهم حليب النوق ، ويرأها السبب في تخيل عقولهم⁽²⁶⁾.

وكما عاب العجم طعام الأعراب واتخذوه مادة للسخرية بهم ، فقد دافع

(23) مصدر نفسه . ص : 5—6 .

(24) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 6 ص : 101—102 .

(25) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، الرسالة العذراء ، ص : 245 .

(26) مجلة الحوادث ، عدد : 1256 ، ص : 35 .

الأعراب عن طعامهم ، وعابوا أطعمة الفرس ، فَذَكِرَ أَنَّ رجلاً من بني عامر كان على مائدة الفضل ابن يحيى ، فذكر الضب ومن يأكله ، فأفرط الفضل في ذمه وذم آكله ، ولم يكن على المائدة عربي غير ذلك الرجل ، ثم أُتِيَ الفضلُ بصفحة فيها فراخ الزنابير ، فخرج العربي وهو يقول :

« وعلج يعاف الضب لزوماً وبطنة وبعض أدام العلج هام ذباب »⁽²⁷⁾

بل إننا نرى بعض العرب يتفزز من أكل الدجاج ، وبعض أنواع السمك ، ويجادل بأفضلية الضب عليها ، فقد ذكر الدميري أَنَّ أحد أبناء تيم الله تلكأ عن أكل الدجاج ، لأنه رآه يأكل العذرة⁽²⁸⁾ وقال غيره ، يفضل الضباب على مآكل الفرس :

تري أبتغي من صيده وأخاتله	« أقول له يوماً وقد راح صحبتي
وشالت شمالي زایل الضب باطله	فلما التقت كفي على فضل ذيله
تمشي على القيزان ⁽²⁹⁾ حولا حلائله	فأصبح محنوداً نضيجاً وأصبحت
تطلى بورس ⁽³¹⁾ بطنه وشواكله ⁽³²⁾	شدید اصفرار الكشيتين ⁽³⁰⁾ كأنما
لحي الله شاريه وقبح آكله ⁽³³⁾	فذلك أشهى عندنا من نتاجكم
	وقال أبو الهندي :

« أكلت الضباب، فما عفتها وإنني لأشهى قديد⁽³⁴⁾ الغنم

(27) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 6 ص : 91 — 92 .

ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 3 ص : 280 .

(28) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج : 1 ص : 331 .

(29) القيزان : جمع قوز وهو الكتيب الصغير من الرمال .

(30) الكشيتين : ومفردها كشية : مشحمة بطن الضب أو اصل ذنبه

(31) اللورس : صبغة صفراء يصغ بها

(32) شواكله : جمع شاكلة وهي الخاصرة .

(33) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 3 ص : 212 .

(34) القديد : اللحم المملوح المجفف بالشمس

ولحم الخروف حنيذا⁽³⁵⁾ وقد أتيت به فاترا في الشبم⁽³⁶⁾
فأما البهط⁽³⁷⁾ وحيثانكم فما زلت منها كثير السقم
وقد نلت منها كما نلتُم فلم أرَ فيها كضب مرم
ولا في البيوض كبيض الدجاج وبيض الدجاج شفاء القرم
ومكن⁽³⁸⁾ الضباب طعام العريب ولا تشتهيهِ نفوس العجم⁽³⁹⁾

وكان افتخار الشعوبيين بألوان طعامهم وأنواع شراهم ، الدافع للجاحظ وغيره ، للرد عليهم ، وذكر ألوان من أطعمة العرب ، ممدوحها ومذمومها ، وبرهان أن العرب في جاهليتها ، عرفت من أنواع الأطعمة ما يضاهاي أطعمة الفرس⁽⁴⁰⁾ فقال : « وهم من أحسن الأمم حالاً مع الغيث ، وأسوئهم حالاً إذا خفت السحاب ... وإذا نظرت في أشعارهم ، علمت أنهم قد أكلوا الطيب وعرفوه ، لأنّ النعام من الطعام لا يكون إلاّ عند أهل الثراء وأصحاب العيش »⁽⁴¹⁾.

وعن رمي العرب بأكل الكلاب والناس ، قال : « والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً ، ألزمت ذلك القبيلة كلها ، كما تمدح القبيلة بفعل جميل ، وإن لم يكن ذلك إلاّ بواحد منها »⁽⁴²⁾ وبعد أن يذكر الأدلة والشواهد على رأيه ، يقول : « وهذا الباب يكثر ويطول ، وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا اليه من تصنيف الحالات ، فإن أردته مجموعاً ، فاطلبه في كتاب الشعوبية »⁽⁴³⁾.

(35) الحنيذ : المشوي

(36) الشبم : فسره الديميري بماء الأسنان والظاهر أنه معنى البرد

(37) البهط : كلمة سنديّة : الأرض يطبخ باللبن والسمن بلا ماء .

(38) مكن الضباب : بيضاها

(39) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 3 ص : 210 — 211

(40) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 297

(41) مصدر نفسه . ص : 319 .

(42) مصدر نفسه . ص : 326 — 327

(43) مصدر نفسه . ص : 331 .

وطعنت الشعوبية على أساليب العرب في القتال ، وعابت عليهم أسلحتهم البدائية ، التي كانوا يستعملونها ، وقد فند الجاحظ مزاعمهم ، ورد عليهم في كتابه البيان والتبيين⁽⁴⁴⁾.

كما هاجم الشعوبيون فضيلة الكرم العربية ، وصوروها دليلاً على سوء التصرف والبعد عن التفكير السليم ، فصنف سهل ابن هارون الشعوبي رسالة يمدح فيها البخل ، ويحتج له ، ويُرَغَّب فيه ، وقد أثبت الجاحظ هذه الرسالة في بداية كتابه البخلاء⁽⁴⁵⁾ وكما صنف سهل ابن هارون رسالة في البخل ، فقد صنف أبو العاص ابن عبد الوهاب الثقفي رسالة يذم فيها البخل وأهله ، ويمدح فيها الكرم وأهله⁽⁴⁶⁾.

وبالجملة ، فإن كتاب البخلاء ، يضحج بالسخرية من أهل مرو وخراسان ، وبخلهم وطريقة تفكيرهم . ولكن هل أقرّ الفرس جميعاً بالبخل وانتحلوه ؟ لا ، والشواهد على ذلك كثيرة ومتناثرة في كتب الأدب والتاريخ ، لذلك حاول بعضهم إظهار مزايا الكرم الفارسي ، وأنهم أكرم من العرب وأحزم ، فقد « تنازع رجل من أبناء الأعاجم وأعرابي في الضيافة ، فقال الأعرابي : نحن أقرى للضيف قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنّ أحدنا ربما لم يملك إلّا بعيراً ، فإذا حلّ به ضيف نحر له ، قال العجمي : فنحن أحسن مذهباً في القرى منكم ، قال : وما ذاك ؟ قال : نسمي الضيف مهمان ، ومعناه أنّه أكبر من في المنزل وأملكنا به »⁽⁴⁷⁾.

انتهام العرب بقلة انتاجهم العقلي :

وركزت الشعوبية هجومها على النتاج العقلي للعرب ، فغيرتهم بحدائث علمهم ، وقلة نتاجهم وابتكارهم ، فالعرب لا يعرفون الحملانات ، ولا صنعة

(44) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 : ص : 399 — 403

(45) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 21

(46) مصدر نفسه . ص : 22 وما بعدها .

(47) البيهقي : المحاسن والمساوي ، ص : 187 .

الشبه ، ولولا غضار الصين : ما عرفوا الغضار ، وما صنع العرب منه فظاهر فيه التوليد ، لا يقارب الصيني في المنفعة والجودة . والعرب في ذلك لا يخرجون من أمرين : إمّا تقليد الغير ، والسير على خطاهم ، وإمّا أن يتهيا لهم الشيء عن طريق الصدفة والإنفاق . فأما الابتكار والإختراع فليس من طبعهم . وقالوا : « وقد علمتم أن أول شأن الجمازات ، إن أم جعفر ، أمرت الرحالين أن يزيدوا في سير النجبية التي كانت عليها ، وخافت فوت الرشيد ، فلما حرّكت ، مشت ضروباً من المشي وصنوفاً من السير ، نجمرت خلال ذلك ، ووافقت امرأة تحسن الإختيار ، وتفهم الأمور ، فوجدت لذلك الجمز راحة ، ومع الراحة لذة ، فأمرتهم أن يسيروا بها في تلك السيرة ، فما زالوا يقربون ، ويتعدون ، ويخطثون ، ويصيبون ، وهي في كل ذلك تصوبهم ، وتخطّطهم على قدر ما عرفت ، حتى شدوا من معرفة ذلك ما شدوا ، ثم إنها فرغتهم لإتمام ذلك حتى تم ، واستوى ، وكذلك ، لا يخلو جميع أمرهم من أن يكون اتفاقاً أو اتباع أثر »⁽⁴⁸⁾.

وفخرت الشعوبية بأن « ليس للعرب كتاب اقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقى ولا كتاب الفلاحة ولا ما يجري في مصالح الأبدان ، ويدخل في خواص الأنفس »⁽⁴⁹⁾ ، وحاولت إشاعة مفهوم بين الناس يقول : بأن حملة العلم في الإسلام من الأعاجم ، محاولين بذلك إظهار العرب وكأنهم على هامش الحياة الفكرية⁽⁵⁰⁾ ، حتى انطلت تلك الفكرة على ابن خلدون ، فقال : « من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، وإن كان فيهم العربي في نسبته ، فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي »⁽⁵¹⁾.

(48) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 83 — 84

(49) الترحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج : 1 ص : 89 .

(50) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 328 — 329 ، انظر تفاخر الموالي على العرب بكثرة

الفقهاء ،

(51) ابن خلدون ، المقدمة ، 543 .

بل لقد حاولوا إظهار الأعراب ، وكأنهم لا يعرفون الإسلام وشعائره فحاكوا الروايات التي تؤيد فكرتهم ، وتوحي بصدق ما يقولون ، من ذلك ما رواه : أنَّ أعرابياً قدم على ابن عم له بالحضر « فأدركه شهر رمضان ، ف قيل له : أبا عمرو ، لقد أتاك شهر رمضان ، قال : وما شهر رمضان ؟ قالوا : الإمساك عن الطعام ، قال : أبالليل أم النهار ؟ قالوا : لا ، بالنهار ، قال : أفيرضون بدلاً من الشهر ؟ قالوا : لا ، قال : فإن لم أصم فعلوا ماذا ؟ قالوا : تضرب وتحبس ، فصام أياماً ، فلم يصبر ، فارتحل عنهم ، وجعل يقول :

« يقول بنو عمي وقد زرت مصرهم تهبأ أبا عمرو لشهر صيام

فقلت لهم هاتوا جراي ومزودي سلام عليكم فاذهبوا بسلام

فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر علي ولا مناع أكل طعام» (52)

وافتخر بعضهم بالعلم كردة فعل على افتخار العرب بانسابها ، فقال :

« ما لي عقلي وهمتي حسبي ما أنا مولى وما أنا عربي

إذا انتمى منتم الى أحد فلإني منتم الى أدبي» (53)

لكنَّ المنتصرين للعرب والعروبة دافعوهم في منطقهم هذا ، وردوا عليهم وبالعنوا في الرد ، فقال البغدادي : « وصف أرسطا طاليس في طبائع الحيوان كتاباً ، وما ذكرت الفلاسفة من هذا النوع شيئاً الا مسروقاً من حكماء العرب الذين كانوا قبل زمان الفلاسفة ، من العرب القحطانية والجرهمية ، والطسمية ، وسائر الأصناف الحميرية . وقد ذكرت العرب في أشعارها وأمثالها جميع طبائع الحيوان . . . وإنما أخذ أرسطا طاليس الفرق بين ما يلد وما يبيض من قول العرب في أمثالها : كل شرقاء ولود ، وكل حسكاء بيوض» (54).

وقال الجاحظ : « وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة

(52) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 3 ، ص : 223 .

(53) الألبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ج : 1 ، ص : 24 .

(54) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 307 — 308 .

وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين ، إلا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب ، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا . ولولا أن يطول الكتاب لذكرت ذلك أجمع»⁽⁵⁵⁾.

ورد ابن قتيبة ، بقوله : « ولو إنَّ مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو ، لعد نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله (ص) وصحابته ، لأيقن أنَّ للعرب الحكمة وفصل الخطاب »⁽⁵⁶⁾ وقد يصل التعصب ببعض العرب الى مواقف فيها كثير من التجني ، كاعتقاد البعض بأنَّ « نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم »⁽⁵⁷⁾.

وكما عكف الشعوبيون على تنقص العرب من كل فضيلة فقد ذهبوا ، يكيلون المديح للعجم عامة والفرس خاصة ، ويتزيدون في أحاديث مآثرهم وحسن درايتهم ، فهذا ابن المقفع لا يكف عن كيل المديح لأنوشروان ووزيره بزرجمهر وبرزويه وسائر ملوك الفرس تارة على لسانه وتارة على لسان ذلك الهندي الذي ساعد برزويه على اقتناص كليلة ودمنة⁽⁵⁸⁾ ، وقد فطن الناس لتزيّد الفرس في نفجهم وفخرهم بأمجادهم وملوكهم ، فقد اتهمهم الجاحظ بذلك وردّ على أحد مزاعمهم بأن كسرى أبرويز استنتج دغفلا ، فقال : « تكفينا هذه الحجة ، وهي بيننا وبينكم ، أوليس قد جهد في ذلك جميع الملوك من جميع الأمم في قديم الدهر ، فلم يستنتجوا إلا واحداً ، وعلى أنَّ هذه الأحاديث من أحاديث الفرس ، وهم أصحاب نفج وتزيّد ولا سيما في كل شيء ممّا يدخل في باب العصبية ويزيد في أقدار الأكاسرة ، وإنَّ كانوا كذلك فهم أظناء ، والمتهم لا شهادة له . ولكن هل رأيتم قط هندياً أقرّ بذلك ؟ أو هل أقرت بقايا سائر الأمم للفرس بهذا الأمر »⁽⁵⁹⁾ ، وقد تندّر الأصمعي على تزيّد الفرس في أخبارهم ،

(55) الجاحظ ، الحيوان ، ج 3 ص : 268 .

(56) ابن قتيبة ، ادب الكاتب ، ص : 5 .

(57) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 286 .

(58) ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، ص : 22 وما بعدها .

(59) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ص : 188 — 189 .

فقال : « قال الخليل ابن سهل : يا أبا سعيد أعلمت أنّ طول رمح رستم كان سبعين ذراعاً من حديد مصمت في غلظ الراقود ؟ قال : فقلت : ها هنا أعرابي له معرفة ، فاذهب بنا إليه نحدثه بهذا : فذهبت به الى الأعرابي ، فقال له ذلك ، فقال الأعرابي : قد سمعنا بهذا ، وقد بلغنا أنّ رستم واسفنديار أنيا لقمان ابن عاد بالبادية ، فوجداه نائماً ورأسه في حجر أمّه ، فقالت لهما : ما شأنكما ؟ فقالا : بلغنا شدة هذا الرجل ، فأتيناه ، فانتبه من كلامهما ، فنفخهما ، فآلقاهما الى أصفان ، فقبورهما اليوم بها ، فقال الخليل : قبحك الله ما أكذبك فقال : يا ابن أخي ، ما بيننا شيء إلا وهو دون الراقود »⁽⁶⁰⁾.

نفسي العصبية بين الشعوبية والعرب :

وتفتشت العصبية بين الشعوبية وأنصار العروبة الى الحيوان ، فتعصب كل قوم لحيوان بلدهم ، فتعصب العرب للجمل والكلب ، وتعصب الفرس للدجاج والهنود للفيل وغير ذلك ، ووضعوا الأحاديث الشريفة التي تنصر وجهة نظرهم ، حتى صار من الحماسة والبله أن يذم إنسان حيواناً مختصاً ببلده ، فقد قال الجاحظ عن هندي يتعصب على الفيل « وكان من أموى الناس ، وأرقعهم رقاعة ، مع تبه شديد وعجب ورضا عن نفسه ، وسخط على الناس ، فمن حمقه ، أنّه هندي وهو يتعصب على الفيل »⁽⁶¹⁾ وعن تعصب العرب للإبل ، يقول الجاحظ : وقلت مرة لعبيد الكلابي ، وأظهر من حب الإبل والشغف بها ما دعاني الى أن قلت له : أبينها وبينكم قرابة ؟ قال نعم ، لها فينا خوولة ، إني والله ما أعني البخاتي ، ولكنني أعني العراب ، التي هي أعرب ! قلت له : مسحك الله تعالى بغيراً ! قال : الله لا يمسح الإنسان على صورة كريم ، وإنما يمسحه على صورة لئيم ، مثل الخنزير ثم القرد »⁽⁶²⁾. ويروى أنّ أعرابياً أُدْخِلَ على كسرى ليعجب من جفائه

(60) البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص : 392 — 393

(61) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ، ص : 109 .

(62) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 100

وجهله ، فقليل له « أي شيء أبعد صوتاً ؟ قال : الجمل ، قال : فأني شيء أطيب لحماً ؟ قال : الجمل ، قال : فأني شيء أنهض بالحمل ؟ قال الجمل »⁽⁶³⁾ ومثلما تعصب العرب للجمل ، فقد تعصبوا على الدجاج ، فيروى أن أعرابياً سئل : « أتعرف القرني قال : « وما لي لا أعرف القرني ؟ فوالله لربما لم يكن غذائي إلا القرني يحسحس لي . قال : فقلت له : إنها دوية تأكل العذرة ! قال : ودجاجكم تأكل العذرة »⁽⁶⁴⁾.

وإذا تعصب العرب للجمل والحيوانات الصحراوية ، فقد تعصب الفرس للدجاج ، وأحاطوا الديك بهالة من القدسية ، فزعموا : أن الديك يحرس من الشيطان⁽⁶⁵⁾ وأن من كان في داره ديك أبيض أفرق لم يدخله شيطان⁽⁶⁶⁾ وأن الرجل إذا ذبحه ، لا يزال ينكب في أهله وماله⁽⁶⁷⁾ .

وروا على لسان النبي محمد أحاديث مختلفة ، يظهر فيها فضل الديك ، فزعموا أن الرسول (ص) قال : « الديك الأبيض صديقي وعدو الشيطان ، يحرس صاحبه وسبع دور خلفه . وكان النبي (ص) يقنيه في البيت والمسجد »⁽⁶⁸⁾ وفي حديث آخر : « الديك الأبيض الأفرق حبيبي وحبيب حبيبي ، جبريل يحرس بيته وستة عشر بيتاً من جيرانه »⁽⁶⁹⁾ لكن هذه الأحاديث لم تنطل على العامة من المسلمين ، فاتهموا كل من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة⁽⁷⁰⁾ .

(63) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 194 . (قد يكون هذا الخبر موضوعاً لكن يصور مدى تعصب العرب للجمل) .

(64) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 525 .

(65) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 377 .

(66) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 2 ص : 207 .

(67) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 259 . الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج : 1 ص : 44 .

(68) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج : 1 ص : 344 .

(69) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 344 .

ابن العماد الحنبلي ، شلرات الذهب ، ج : 2 ص : 121 .

(70) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 2 ص : 207 .

وبعد هل أثَّرت حملات الشعوبية على منزلة العرب الاجتماعية ؟

إنَّ الشواهد التي بين أيدينا تنطق بغير ذلك ، فقد ظل العربي يمثل أرستقراطية اجتماعية ، يغبطة عليها أبناء العناصر الأخرى ، والمصادر جميعاً لا تذكر أنَّ عربياً حاول التنصل من عروبه ، بل إنَّ الكثير من أصحاب النباهة والوجاهة من كتاب وأدباء وشعراء ورجال سياسة أدعوا نسباً عربياً ، وقد تصدى لهم من تعصب لأصله من الفرس والأعاجم فهاجموا من ادعى نسباً في العرب ، فقد « وقف رجل من بني زيد . . . على بشار ، فقال له : يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم الى الإنتفاء منا ، وترغبهم في الرجوع الى أصولهم ، وترك الولاء ، وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل ، فقال بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ولفرعي أزكي من عمل الأبرار ، وما في الأرض كلب يود أنَّ نسبك له بنسبه ، ولو شئت أنَّ أجعل جواب كلامك كلاماً لفعلت »⁽⁷¹⁾.

ويروي البلاذري ، أنه كان من العجم من لا يقبل بنسبه ولاية في العرب⁽⁷²⁾ وانتفض بشار ، وثار ، لما قيل له : ما للموالي والشعر ، فلم يشتم الرجل الذي خاطبه او يهجه ، إنما عمم ذلك حتى عم العرب جميعاً ، فقال :

« أحين كُسيَ بعد العربي خزاً	ونادمت الكرام على العقارِ
تفاخر يا ابن راعية وراع	بني الأحرار حسبك من خسارِ
وكنت إذا ظمئت الى قراح	شركت الكلب في ولغ الاطارِ
تربيع بخطبه كسر الموالي	وينسيك المكارم صيد فارِ
وتغدو للقنافذ تدريها	ولم تعقل بدراج الديارِ
وتتشح الشمال للابسيها	وترعى الضأن في البلد القفارِ
مقامك بيننا دنس علينا	فليتك غائب في حرنارِ
وفخرك بين خنزير وكلب	على مثلي من الحدث الكبارِ » ⁽⁷³⁾

(71) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 51 .

(72) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص : 32 .

(73) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 33 — 34 .

فواضح أنّ بشاراً يعيّر العرب ببداوتهم ، فهم رعاة ، حفاة ، عراة ، لا
 يقدرّون على شرب الماء النظيف ، فيشركون الكلب في شربه أمّا غذاؤهم فقار
 وقنفذ ، وهم متوشحون يعيشون في الفيافي والقفار مع الإبل والماشية . إذا
 تغيّرت بهم الحال ، فلبسوا الخز ، ونادموا الكرام على الشراب ، يفاخرون
 الموالي ، ويفخرون عليهم وهم أصل المدينة والحضارة ؟ أمّا حقد بشار على
 العرب وكرهه لهم على أعلى مستوى ، فيظهر في بيتيه الأخيرين ، فما مقام
 الأعرابي بين الموالي إلّا تدنيس لهم ، وتعكير لصفائهم .

أساليب السخرية من العرب :

‘ أمّا علي ابن الخليل ، فقد هجّن من انتسب الى العرب ، وترك أصله ،
 وسخر في غضون ذلك من العرب ، وقارن حياتهم وبلادهم بحياة العجم
 وبلادها ، فقال :

يا أيّها الراغب عن أصله	ما كنت في موضع تهجين
متى تعربت وكنت امرأ	من الموالي صالح الدين
لو كنت صرت الى دعوة	فزت من القوم بتمكين
لكف من جدى ولكنني	أراك بين الضب والنون
فلو تراه صارفاً أنفه	من ربح خيرى ونسرين
لقلت جلف من بني دارم	حن الى الشيخ بيسرين
دعموص رمل زل عن صخرة	يعاف أرواح البساتين
تنبوعن الناعم أعطافه	والخز والسنجاب واللين» (74)

ولكن كل هذه الحملات ، لم تمنع كثيراً من الموالي من الإدعاء في
 العرب ، فقد كان لعلي ابن الخليل صديق من الدهاقين ، فغاب عنه فترة ، ثم
 أصاب غنى ، فادعى أنّه من بني تميم ، فجاءه علي ابن الخليل ، فلم يأذن له ،
 ولم يسلم عليه فهجاه بقوله :

(74) ابو الفرج الاصفهاني الاغانى ، ج : 13 ص : 18 — 19

« يروح بنسبة المولى ويصبح يدعى العربا
فلا هذا ولا هذا ك يدركه إذا طلبا
أتيناه بشبوط
فقال أما لبخلك من طعام يذهب السغبنا
فصد لأخيك يربوعاً وضبا واترك اللعبا
فرشت له قريح المسد ك والنسرين والغربا
فأمسك أنفه عنها وقام مولياً حرباً⁽⁷⁵⁾»

وهجا أبو نواس أشجع ابن عمرو ، لأنه ادعى نسباً عربياً ، فقال فيه :

« وقل لمن يدعى سليمي سفاها لست منها ولا قلامه ظفر
إنما أنت من سليمي كواو ألحقت في الهجاء ظلماً بعمرو⁽⁷⁶⁾»

وهذا إبراهيم ابن المدير ، وقد تولى الولايات الجليلة ، ثم الوزارة ، وكان يدعى أنه من ضبة⁽⁷⁷⁾ وسخر الجاحظ من بعض من ادعى نسباً في العرب ، فقال : « كان يأتيني رجل فصحيح من العجم . . . فقلت له : هذه الفصاحة ، وهذا البيان لو ادعت في قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها . قال : فأجابني إلى ذلك فجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه ، وهذه هذأ . فقلت له : الآن لا ته علينا ، فقال : سبحان الله ، إن فعلت ذلك فإذا أنا دعي⁽⁷⁸⁾ .

والواقع أنه لم ينتسب للعرب إلا من كان ذا جاه أو مركز اجتماعي وكأنه يأنف معه أن يكون من الموالي ، فهذا عمارة ابن حمزة مولى أبي جعفر المنصور ، يقول للمهدي ، وقد سئل عنه ، فأجاب : بأنه أخوه وابن عمه ، إنما انتظرت ، أن تقول : مولاي ، فانفض ، والله ، يدي من يدك⁽⁷⁹⁾ .

(75) مصدر نفسه . ج : 13 ص : 18 .

ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج : 7 ص : 127 .

(76) ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج : 7 ص : 130 — 131 .

(77) ياقوت ، معجم الادباء ، ج : اص : 226 — 227 .

(78) ياقوت ، معجم الادباء ، 16 ص : 94 .

(79) مصدر نفسه . ج : 15 ص : 245 — 246 .

واسحاق ابن ابراهيم الموصلي ، رغم الجاه الذي أصابه ، والشهرة التي وصل إليها ، لم يجد أمامه ، لتعزيز مركزه الاجتماعي إلا الولاء لبيت عربي ، فقال :

« إذا كانت الأحرار أصلي ومنصبي ورافع ضيمي خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداي الثريا قاعداً غير قائم »⁽⁸⁰⁾

هجوم الشعوبية على اللغة العربية :

وكانت اللغة العربية من الأهداف الرئيسية لهجمات الشعوبية ، باعتبارها لغة القرآن ، والوعاء الثقافي لتراث العرب الحضاري ، فهاجموها من حيث هي لغة ، كما حاولوا تخريبها ، وهزّ الثقة بمعانيها ، ومدلولاتها ، عن طريق وضع الشعر ونحله لشعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، وقد مرّ معنا كيف عابوا على العرب أسماءهم ، واتهموهم بالتكلم بما لا أصل له في لغتهم . وعاب البيروني على العربية كثرة مترادفات ، فقال في معرض حديثه عن الهنود : « فإنّهم يسمون الشيء بأسماء كثيرة جداً ، والمثال بالشمس ، فإنهم سموها بألف اسم على ما ذكروا ، كسمية العرب الأسد بقرّيب من ذلك ، بعضها مقتضبة اقتضاباً ، وبعضها مشتقة من الأحوال المتغيرة فيه ، أو الأفعال الصادرة . . . وهم ، ومن شابههم ، يتبحّون بذلك ، وهو من أعظم معائب اللغة ».

إذا كان للشيء الواحد أسماء كثيرة ، ولم يكن سبب ذلك استبداد كل قبيلة ، أو كل طبقة بواحد منها ، وكان في الواحد منها كفاية ، اتصفت الباقية بالهمز والهديان والهدّز ، وصارت سبب التعمية والإخفاء أو تحمّل المشاق لحفظ الجملة بلا فائدة غير ضياع العمر⁽⁸¹⁾ . . . »

وأما ابن مقفع فقد ألمه ، أن يرى قومه ، وقد هجروا لسانهم القومي

(80) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 6 ص : 341

(81) البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة ، ج : 1 ص : 185

وأقبلوا على اللسان العربي ، يتعلمونه ، ويستعملونه في حياتهم اليومية ، فدعا قومه للتمسك بلغتهم ، وعدم تركها ، فكتب في باب الناسك والضيف « وأنت تركت لسانك الذي طُبِعَ عليه ، وأقبلت على لسان العبرانية ، وهو لا يشاكلك . وأخاف ألا تدركه ، وتنسى لسانك ، وترجع إلى أهلِكَ وأنت شرهم لساناً . فإنه قد قيل : إنه يعد جاهلاً من تكلف من الأمور ما لا يشاكله ، وليس من عمله ، ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل » (82) .

وانطلقت فئة أخرى تعمل على تخريب اللغة عن طريق نشر الفساد فيها ، كخلف الأحمر الذي كان يقول الشعر ، وينسب لشعراء العرب الأقدمين ، فلا يفظن له أحد ، « من ذلك قصيدته التي نحلها ابن أخت تأبط شراً ، والتي أولها :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يطلُّ

جازت على جميع الرواة ، فما فُظِنَ لها إلا بعد دهر طويل بقوله :

خير ما نابنا مصمئلاً جل حتى دقَّ فيه الأجل

فقال بعضهم : جل حتى دقَّ فيه الأجل من كلام المولدين ، فحيثُ أقرَّ خلف » (83) وفعل مثل فعله حماد الراوية الذي كان « يخلط الشعر بأبيات له . قال حماد : ما من شاعر إلا قد زدت في شعره أبياتاً جازت عليه ، إلا الأعشى ، أعشى بكر ، فإنِّي لم أزد في شعره قط غير بيت ، فأفسدت عليه الشعر ، قيل له : وما البيت الذي أدخلته في شعر الأعشى ؟ فقال :

« وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا » (84)

وكان المفضل الضبي يقول : « قد سُلِّطَ على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقليل له : وكيف ذلك ، يخطيء في روايته أم يلحن ؟

(82) ابن المقفع ، كلية ودمية ، ص : 271 وما بعدها .

(83) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج : 2 ص : 674 . ابو الفرج ، الاغانى ، ج : 5 ص : 74

ابن النديم ، الفهرست ، ص : 74 ، ياقوت ، معجم الادباء ، ج : 11 ص : 66

(84) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 6 ص : 131 ، 136 ، 137 .

قال : ليته كان كذلك ، فإنَّ أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر ، يشبه به مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك » (85) .

وأمثال خلف وحماد كثيرون ، انطلقوا يعيرون أساليب العرب في أشعارها وأمثالها وحكمها وخطبها (86) .

ولكن رغم هجمات الشعوبية على العربية ، وآدابها ، فقد صمدت تلك اللغة ، وأصبحت ليس لغة الدين والسياسة فحسب ، بل لغة العلم والثقافة في كافة أرجاء العالم الإسلامي ، وهجرت الشعوب المختلفة ألسنتها ، وتكلمت بالعربية ، ووضعت مؤلفاتها فيها ، وقد علَّل ابن خلدون تغلب العربية بقوله : « إنَّ لغات أهل الأمصار ، إنَّما تكون بلسان الأمة ، أو الجيل الغالبين عليها ، المختطين لها ، لذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالشرق والمغرب لهذا العهد عربية ، وإنَّ كان اللسان المضري قد فسدت ملكته ، وتغير إعرابه ، والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها مواد له ، والصورة مقدمة على المادة ، والدين ، إنَّما يستفاد من الشريعة ، وهي بلسان العرب ، كما أنَّ النبي (ص) عربي ، فوجبَ هجر ما سوى اللسان العربيِّ من الألسن في جميع ممالكها .

واعتبر ذلك في نهْي عُمرَ (ص) عن بطانة الأعاجم ، وقال إنَّها خبٌ ، أي مكر وخديعة ، فلما هجر الدين اللغات الأعجمية ، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً ، هجرت كلُّها في جميع ممالكها ، لأنَّ الفاسق تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام في طاعة العرب ،

(85) ابو الفرج الاغاني ، ج : ٥ ص : 172

(86) سيكون لنا عودة لهذا الموضوع في باب الشعوبية والبعد الادبي

وَهَجَرَ الْأُمَمُ لُغَاتِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَالْمَمَالِكِ ، وَصَارَ اللَّسَانُ الْعَرَبِيُّ لِسَانَهُمْ ،
حَتَّى رَسَخَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ وَمَدَنِهِمْ ، وَصَارَتِ الْأَلْسُنَةُ الْعَجَمِيَّةُ دَخِيلَةً
فِيهَا وَغَرِيبَةً ⁽⁸⁷⁾ .

وَتَبَعًا لِذَلِكَ ، فَقَدْ فَسَدَتْ مَلَكَةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِمَخَالَطَةِ أَهْلِهَا لِلْأَعْجَامِ وَإِقْبَالِ
النَّاسِ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ عَلَى تَعْلُمِهَا ، فَدَخَلَتْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْفَارْسِيَّةِ وَالرُّومِيَّةِ ،
وَفُشِيَ اللَّحْنُ ، وَفَسَادَ الْأَلْسُنُ ، حَتَّى قِيلَ إِنَّ الشَّعْبِيَّ مَرَّ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُوَالِيِّ يَتَذَكَّرُونَ
النَّحْوَ ، فَقَالَ : « لَيْتَ أَصْلَحْتُمُوهُ ، إِنَّكُمْ لِأَوَّلُ مَنْ أَفْسَدَهُ » ⁽⁸⁸⁾ .

الشعوبية ومحاولة تزيف الحديث النبوي :

وكَمَا حَاولُوا تَزْيِيفَ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ بِالْوَضْعِ وَالنَّحْلِ ، فَقَدْ حَاولُوا تَزْيِيفَ
الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ، لِمَا لِهَذَا الْحَدِيثِ مِنْ أَهْمِيَّةٍ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ خَاصَّةً وَالْمُسْلِمِينَ
عَامَةً ، وَلَعَلَّ أَصْدَقَ مِثَالٍ لِذَلِكَ ، الدُّورُ التَّخْرِيْبِيُّ الَّذِي قَامَ بِهِ عَبْدُ الْكَرِيمِ ابْنُ
أَبِي الْعُوجَاءِ . وَقَدْ حَاولُوا فِي غَضْوْنِ ذَلِكَ دَسَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَفْضِلُ الْعَجْمَ عَلَى
الْعَرَبِ . فَقَدْ رَوَوْا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « رَأَيْتُ غَنَمًا سَوْدَاءَ ، وَدَخَلَتْ فِيهَا غَنَمٌ
كَثِيرٌ بَيْضٌ ، وَقَالُوا : فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ الْعَجْمُ ، يَشْرِكُونَكُمْ فِي دِينِكُمْ
وَأَنْسَابِكُمْ ، قَالُوا : الْعَجْمُ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مَعْلَقًا بِالثَّرِيَا
لَنَالَهُ رِجَالُ مِنَ الْعَجْمِ » ⁽⁸⁹⁾ . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ ، أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا قَالَ : « لَأَنْسَابُهُمْ
أَوْثَقُ مِنِّي بِكُمْ » ⁽⁹⁰⁾ . لَيْسَ هَذَا فَحَسْبَ ، فَقَدْ تَخَرَّصُوا عَلَى لِسَانِهِ (ص) حَدِيثًا
لَا يُعْقَلُ أَنْ يَتَفَوَّهُ بِهِ ، وَرَائِحَةُ الْحَقِّدِ وَالْكِرَاهِيَّةِ عَلَى الْعَرَبِ فِيهِ وَاضِحَةٌ ، مِنْهُ أَنَّ
قَرِيشًا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ : (ص) « أَتَبَاعُكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُوَالِيِّ كِبَالَالِ وَعِمَارِ وَصَهْبِ خَيْرٌ
مِنْ قَصِي ابْنِ كِلَابٍ وَعَبْدِ مَنْافٍ وَهَاشِمٍ وَعَبْدِ شَمْسٍ ؟ فَقَالَ نَعَمْ ، وَاللَّهِ ، لَيْتَ
كَانُوا قَلِيلًا لِيَكْثُرْنَ ، وَإِنْ كَانُوا وَضَعَاءَ لِيَشْرَفْنَ ، حَتَّى يَصْبِرُوا نَجُومًا يُهْتَدَى بِهِمْ

(87) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 379 .

(88) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 275 .

(89) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج : 2 ص : 189 — 190 .

(90) شوقي ضيف ، العصر العباسي الاول ، ص : 76 .

وَيُقْتَلَى ، فَيَقَالَ : هذا قول فلان وذكر فلان ، فلا تفاخروني بآبائكم الذين مَوُّتُوا في الجاهلية ، فَلَمَّا يدهده الجعل بمنخره خير من آبائكم الذين موتوا فيها ، فاتبعوني أجعلكم أنساباً»⁽⁹¹⁾ وكما حاولوا تفضيل العجم على العرب على لسان الرسول (ص) فقد نسبوا حديثاً للإمام علي (ع) ينتسب فيه للنبط ، فقال رداً على سؤال « نحن قوم من نبط كوثي »⁽⁹²⁾ .

هذه الأحاديث وأمثالها دفع بعض المتعصبين للعرب للرد عليها بالمثل ، فأطلقوا العنان لمخيلاتهم ، يضعون الأحاديث على لسان نبيهم بما يناسبهم من القول ، كمثل الحديث المنسوب إليه (ص) والذي يقول « إذا سألتم الحوائج ، فاسألوا العرب ، فإنها تعطى لثلاث خصال : كرم أحسابها ، واستحياء بعضها من بعض ، والمواساة لله . ثم قال : من أبغض العرب أبغضه الله »⁽⁹³⁾ . وإنه قال : (ص) « يا سلمان ، لا تبغضني ، فتفارق دينك ، قال : قلت يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هداني الله ؟ قال : لا تبغض العرب فتبغضني »⁽⁹⁴⁾ . وإنه قال : (ص) : « من غش العرب لم يدخل شفاعتي ولم تنله مودتي »⁽⁹⁵⁾ .

والحقيقة أنَّ المجتمع العباسي كان خليطاً من العرب والعجم بالإضافة إلى العناصر الأخرى ، وأنَّ الشعوبية لم تهدأ عن تحريض الأعاجم عامة والفرس خاصة للإلتقاض على المكتسبات العربية وتدميرها . ففشت تبعاً لذلك العصبية ، حتى أنَّ حرباً وقعت بين أنصار الأمين بسبب دابة كان يركبها أحد العرب ، فتعرف عليها أحد الأبناء ، وتخاصم الرجلان ، واقتتلا ، فشبت الحرب بين الأبناء وعرب الزواquil بسببها ، بل إنَّ تلك الحادثة كانت السبب الذي دفع الحسين ابن علي ابن ماهان للثورة ببغداد وخلع الأمين⁽⁹⁶⁾ .

(91) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، رسالة ابن القادح ، ص : 267 .

(92) ياقوت ، معجم البلدان ، انظر مادة كوثي .

(93) ابن عبد ربه العقد الفريد ، ج : 3 ص : 246 .

(94) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 375 .

(95) مصدر نفسه . ص : 375 .

(96) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 161 .

وأصبحت العادات الإجتماعية خليطاً من عادات العرب والفرس والأمم الأخرى وانتشر اللهو والمجون بين أبناء الطبقات الموسرة ، فأقبلوا على اللذة والموبقات ينهلون منها ويدعون الناس إليها ، لا يردعهم طهر ولا دين ، وكان رواد هذه الدعوة والمروجون لها من الفرس والزنادقة ، وما سيرة مطيع ابن إبّاس ، وبشار وأبي نواس والحمادين الثلاثة وغيرهم كثير إلا مثلٌ بسيط لنمط الحياة التي كانوا بها يعيشون . وفشا التغزل بالغلمان وهي عادة ما عرفها المجتمع العربي من قبل ، وانتشر بالإضافة للهو والمجون الغناء الذي لا يُستغنى عنه في مجالس الشرب والسمر ، وارتفعت أسعار الجوارى المغنيات ارتفاعاً خيالياً⁽⁹⁷⁾ وأصبح لبعض المغنين شهرة تفوق شهرة الكثير من العلماء والزعماء والقواد كإبراهيم الموصلي وابنه إسحق وابن جامع وغيرهم من أهل الغناء وأرباب الموسيقى ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج يستفيض بذكر أخبارهم ومجالسهم وتوزع المغنون على مدارس بعضها متأثر بالغناء والموسيقى العربية والبعض الآخر متأثر بالموسيقى الفارسية ، وحتى الغناء باللغة الفارسية ، استمر وطُرب إليه العرب كما طُربَ الفرس ، فقد وصف أبو نمام إحدى المغنيات الفارسيات فقال :

« مَرَّتْ أوتارها ، فشجت وشاقت فلو يستطيع سامعها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدي فلم أجهل شجاها
فبت كأني أعمى معنئى يحب الغانيات ولا يراها »⁽⁹⁸⁾

وانتشرت في المجتمع الإسلامي عادة الإحتفال بعيدي المهرجان والنيروز ، وهما عيدان فارسيان ، وكان الخليفة يتقبل فيهما التهاني والهدايا ، كما كان الناس يحتفلون فيهما احتفالاً عاماً⁽⁹⁹⁾ .

والنسيء عادة جاهلية حرّمها الإسلام . وقد حاول دهاقنة الفرس منذ زمن هشام ابن عبد الملك أن يؤخروا النيروز - وهو موعد افتتاح الخراج ، بحجة أن

(97) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج : 5 ص : 6 وما بعدها ونواح عديدة ومتفرقة أخرى

(98) كرم البستاني ، المجاني الحديثة ، ج : 3 ص : 95 .

(99) الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، بيروت 1970 ، ص : 148

الغلال لم تنضج بعد ، لكنهم فشلوا في ذلك ، فلما كانت أيام الرشيد ، اجتمعوا إلى يحيى ابن خالد ابن برمك ، وسألوه تأخير النيروز شهرين ، فهمّ بذلك ، لكنه تراجع لأنّ خصومه اهتموه بالتعصب للمجوسية ، وبقي الأمر على حاله حتى أيام المتوكل ، فأمر بتأخير النيروز إلى سبعة عشر من حزيران ، فقال البحري :

« إنّ يوم النيروز قد عاد للعهد الذي كان سنه أردشير
أنت حولته إلى الحالة الأو لى وقد كان حائراً يستدير
منهم الحمد والثناء ومنك الد عدل فيهم والنائل المشكور »⁽¹⁰⁰⁾

أمّا في السياسة ، فكان للأثر الفارسي الحظ الأوفر والنصيب الأكبر « إذ كانوا (الفرس) هم الأول في ذلك ، وعندهم أخذنا قوانين الملك والمملكة ، وترتيب الخاصة والعامة ، وسياسة الرعية ، وإلزام كل طبقة حظها ، والإقتصار على جديلتها »⁽¹⁰¹⁾ فقد كانت الدولة العباسية مطبوعة بطابع الفرس⁽¹⁰²⁾ من حيث النظم ، وأساليب الحكم ، وتقسيم الناس إلى طبقات ، وإلزام كل طبقة بزي معين ، يجب أن ترتديه ، خاصة ، في المحافل الرسمية والدخول على السلطان .

وسنحاول إبراز الأثر الفارسي والدور الشعبي فيه على الحياة السياسية في الدولة العباسية في الفصل التالي .

(100) البيروني ، الآثار الباقية عن الامم الخالية ، ص : 31 وما بعدها .

(101) الجاحظ ، التاج في اخلاق الملوك ، ص : 31 .

(102) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 553 .

الفصل الثاني :
الشعبوية والبعد السياسي .

**العلاقات السياسية في الخلافة العباسية
بين العرب والفرس والأتراك .**

الشعبوية والبعد السياسي

العلاقات السياسية في الخلافة العباسية بين العرب والفرس :

لم يُشكّل انتصار الدعوة العباسية وقيام دولتها انتصاراً للعنصر الفارسي أكثر من الأهداف المعلنة لتلك الثورة كالمساواة والعدالة الإجتماعية بين المسلمين ، فالدولة ما زالت عربية في كل شيء تقريباً ، وانتقال مركز الخلافة من الشام إلى العراق لم يكن نتيجة لتأثير الفرس أو اعترافاً بفضلهم كما رأى أرنولد والدكتورة قدورة⁽¹⁾ بقدر ما كان نتيجة لاستمرار التنافس بين المصريين ، الذي كان سائداً أيام إمارتي الغساسنة والمناذرة ، والذي استؤنف كما هو معلوم أيام علي (ع) ومعاوية . كما لم يكن اختيار بغداد بسبب قربها من فارس أو بعدها عن البيزنطيين كما ظنت الدكتورة قدورة⁽²⁾ إنَّما بنى المنصور بغداد ليتخذها عاصمة للدولة ، فتكون خالصة الولاء للعباسيين ، ينزلها أنصارهم وقواد دولتهم .

أما اختيار موضعها فإنَّ هذا الإختيار ، لم يكن نتيجة كونها قرية فارسية يقام فيها كل عام سوق عظيمة ، إنَّما تم اختيار الموضع لِمَا يمتاز به من توسط الأمصار وما يشكل ذلك الموقع من أهمية عسكرية واقتصادية ، فضلاً عن حسن مناخه . أما الأثر الفارسي في تخطيطها ، فإنَّه لم يكن وحيداً ولا غالباً ، وإنَّ لم يكن من عادة العرب بناء المدن المدورة ، فكذلك لم يُعرَف لأمة أخرى مدن على هذا

(1) د . زاهية قدورة ، الشعبوية واثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 201 .

(2) مرجع نفسه . ص : 202 .

الطراز ، فقد قال البغدادي : « لا يعرف في الدنيا كلها مدينة مدورة سواها »⁽³⁾ .

لذلك لا يمكننا أن نذهب مذهب (Le Stronge) بالتأكيد على الأثر الفارسي في بناء بغداد⁽⁴⁾ لأن المنصور لما أراد بناءها « أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين ، فمثل لهم صفتها التي في نفسه ، ثم أحضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم فأجرى عليهم الأرزاق ، وكتب إلى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئاً من أمر البناء »⁽⁵⁾ .

فصورة المدينة قد تمثلها المنصور في نفسه قبل أن يشرع في بنائها . وبناء المدينة لم يكونوا من الفرس وحدهم ، وإنما استقدموا من مختلف الأمصار والبلدان ، لهذا فإننا لا نستطيع الجزم بغلبة الطابع الفارسي في تخطيطها وبنائها ، وإنما هي مزيج أو خلاصة لحضارات عدة تماماً كما هي الحضارة العباسية .

وأقطع المنصور مدينته رجالات الدولة ومواليها ، وهؤلاء عرب وعجم ، فكان طبعياً أن يظهر التنافس بين الفريقين من حين لآخر . لكن سلطة الخليفة العربي بقيت مطلقة وغالباً ما كان قوله الفصل في هذه المنازعات .

وقد ترددت في السياسة العباسية كلمات أخذت دلالاتها من الحياة السياسية العامة في الدولة : كالشيعة⁽⁶⁾ والمسودة⁽⁷⁾ والمبيضة⁽⁸⁾ وأهل خراسان⁽⁹⁾ وأهل

(3) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 1 ص : 67 .

(4) د. زاهية قدورة ، الشعبية واثرا الاجتماعي والسياسي ، ص : 203 .

(5) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 1 ص : 66 — 67 .

(6) الشيعة : أصبحت هذه الكلمة تطلق على شيعة بني العباس وأنصارهم ، أما شيعة بني علي ، فأصبح اسمها في القاموس العباسي السبئية أو الرافضة والغالية وما أشبه من الأسماء والنعوت . انظر ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج : 2 ص : 108 — 114 . عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 204 . الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 332 — 361 . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 254 ، 218 ، 196 ، 53 . 408 ، 356 ، 347 .

الشام⁽¹⁰⁾ لا بد من الإنباه لمعناها الإصطلاحي حتى لا نفع بالتباس وقع فيه كثير من الباحثين .

وبعد فكيف كانت سياسة الخلفاء العباسيين نحو العرب والفرس ؟

إن الدعوة العباسية قامت على تنفيذ مخطط دقيق نهض به حزب منظم يضم العربي والعجمي ، وانتصار العباسيين يعني انتصار حركتهم ، فتبوا زعماءها مراكز الدولة المختلفة . والخليفة لم يشترط أن يكون معاونوه من العرب ، كما كانت الحال في الدولة الأموية إنما شرطه أن يكونوا من أصحاب السابقة بالعمل والإخلاص للبيت العباسي . بل لعله راعى أن يكون مساعدوه الأقربون من الموالي والفرس تحقيقاً لمبدأ المساواة بين المسلمين⁽¹¹⁾ ولظنه بأن الوزارة أقصى طموحهم ، بينما تشكل خطراً كبيراً على الخليفة ومصير الخلافة لو تسلمها رجل من قريش أو بني هاشم لأن طموحه قد لا يقف عندها .

لكن هذا المنصب المستحدث (الوزارة) كثيراً ما كان السبب في نشوء

(7) المسودة : لما ظهر دعاة العباسيين وانصارهم بقيادة ابي مسلم الخراساني لبسوا السواد حدادا على الامام محمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس ، وكان اول من سود حريش ، مولى خزاعة ، ثم سود من بعد قحطبة ابن شبيب . واصبح السواد شعار الدولة العباسية ولباس رجالها وانصارها وعمالها . انظر : الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 339 .

(8) الميضة : كل من تمرد على الدولة العباسية او ثار عليها سواء كان من ولائها او غيرهم ، كان يخلع السواد رمز الدولة ، فيوصف بالمبيض . يعني المتمرد على الدولة ، فان قيل : بيض فلان يعني خلع الطاعة . انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 432 ، 434 . نواح اخرى .

(9) اهل خراسان : اصبحوا المقيمين في الدولة العباسية لان النصر جاء على ايديهم ، وكانت تعني اللفظة كل من كان يقطن خراسان سواء كان عربياً او عجمياً فقد اطلقت هذه اللفظة على ابي مسلم الخراساني ، كما اطلقت على بسام ابن محمد ابن بسام وعلى خزمية ابن خازم وعلى قحطبة ابن شبيب وابنائهم . انظر : ابن قتيبة ، حيون الاخبار ، ج : 1 ص : 204 . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 135 .

134

(10) أهل الشام : وكانت تعني شيعة بني مروان ، فقد قال محمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس حين وجه دعائه « اما اهل الشام ، فليس يعرفون الا آل ابي سفيان وطاعة بني مروان عداوة لنا راسخة وجهلاً متراكماً » . ابن قتيبة ، حيون الاخبار ، ج : 1 ص : 204

(11) عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشموية ، ص : 30

صراعات بين الخليفة والوزير أو بين الوزير وغيره من رجال الدولة وقوادها . فمنصب الوزير جديد في الدولة العربية ، لم تكن له نظم محددة أو سلطات مُقرَّرة ، فينتج تشابكاً في الصلاحيات بين الوزير والخليفة . وقد وُلدَ هذا الصراع باكراً منذ بدء الدولة العباسية ، وأبو سلمة خلال كان الضحية الأولى لهذا الصراع . وقد عزت المصادر المختلفة سبب نكبته لمحاولته العدول عن البيعة للسفاح إلى رجل من سلالة علي⁽¹²⁾ أما السبب الحقيقي فأظنه تصرف أبي سلمة في شؤون الحكم دون الرجوع إلى الخليفة ، « فكان يصرف الأمور دون مؤامرة »⁽¹³⁾ « ويظهر من الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين ، وكان يقيم عنده كل ليلة إلى حين من الليل ، فإذا أراد الخروج والرجوع إلى منزله ، قُرِبَتْ إليه دابته إلى المجلس ، فيركب منه دون غيره »⁽¹⁴⁾ .

فالسبب الحقيقي لنكبته إذن استبداده بالحكم دون الخليفة وإدلاله عليه ، لأنه السبب في توليته ، وكان على العباسيين أن يحسبوا حساب أبي مسلم الخراساني ، لأنهم لو قتلوا أبا سلمة دون علمه ، لأفسد عليهم أمرهم ، فأوحوا إليه تبرمهم من أبي سلمة ، فأرسل إليه من اغتاله ، وقد انفرد ابن خلكان برواية تقول إن أبا مسلم هو الذي حرّض الخليفة على الخلّال ، ولما رأى إحجام الخليفة عنه ، أرسل له من اغتاله ، فقال الشاعر :

إنّ الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيراً⁽¹⁵⁾

فكان هذا الشعر قد تنبأ بمصير الوزير في الدولة العباسية ، فقَلَّمَا نجا من تسمى بهذا الإسم . ولما علم السفاح أن أبا سلمة قد اغتيل أنشد :

(12) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 120 — 121 . الدينوري ، الاخبار الطوال ، ج ص : .

370 الطبري ، تاريخ الامم والملوك ج : 9 ص : 140 . السعدي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : .

68 ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 409 . ابن الطقطقي ، الفخري ، ص : 155 .

153 ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج : 1 ص : 195 — 196

(13) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 370 .

(14) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 120 — 121 .

(15) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 436 .

إلى النار ، فليذهب ومن كان مثله على أي شيء فانتنا منه نأسف⁽¹⁶⁾
تخلص السفاح من أبي سلمة ، وأدار النظر بالتخلص من أبي مسلم ،
فأرسل له سباع ابن النعمان الأزدي ، فضمه إليه وأمره إن رأى فرصة أن يشب على
أبي مسلم ، فيقتله ، انتبه أبو مسلم للأمر ، فقتل سباعاً⁽¹⁷⁾ فهيب السفاح أبا
مسلم ، وأرسل أخاه أبا جعفر في ثلاثين رجلاً إلى خراسان ، فلم يستقبله أبو
مسلم استقبالاً يرضى به ، وكان بالوفد عبد الله ابن الحسين ابن علي ، فقام إليه
سليمان ابن كثير ، ولاحظه بكلام ، فعلم أبو مسلم بذلك وقتل سليمان « وكتب
إلى محمد ابن الأشعث أن يأخذ عمال أبي سلمة ، فيضرب أعناقهم ، واستعمل
أبو العباس عيسى ابن علي على فارس ، فاحتبسه محمد ، وهم بقتله »⁽¹⁸⁾ فلما
عاد أبو جعفر أوغر صدر السفاح على أبي مسلم ، وقال له : « لست بخليفة ولا
أمرك بشيء ، إن لم تقتل أبا مسلم ، فقال أبو العباس : وكيف ذلك ؟ قال : لا
والله ما يعبأ بنا ، ولا يصنع إلّا ما يريد ، فقال له أبو العباس : إسكت ،
واكتمها »⁽¹⁹⁾.

وطمع ابو مسلم في إمارة الحج ، فكتب الى أبي العباس ، يستأذنه في
الحج ، فأذن له ، وقال : لولا إن أبا جعفر يحج ، لاستعملتك على الموسم .
حاول أبو جعفر أن يقنع أخاه بالتخلص من أبي مسلم خلال هذه الرحلة ، لكنّ
السفاح رفض ذلك ، لِمَا كان يتهيئه من أهل خراسان وموالاتهم لأبي مسلم .
خرج أبو مسلم الى الحج ، فكان إذا كتب لأبي جعفر ، يبدأ بنفسه ، ثم يكتب
إليه « لا يهولئك ما في صدر الكتاب ، فلنّني لك بحيث تحب ، ولكني أحب أن
بعلم أهل خراسان أن لي منزلة عند أمير المؤمنين »⁽²⁰⁾ .

(16) ابن خلكان : وفیات الاعيان ، ج : 1 ص : 196 .

(17) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 455 .

(18) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 124 — 125 .

(19) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 124 — 125 . الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 9

ص : 142 ابن الطقطقي ، الفخرى في الأداب السلطانية ، ص : 168 — 169 .

(20) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 132 .

ويظهر أَنَّ العباسيين كانوا قد بدأوا بترويج الإشاعات حوله تمهيداً لقتله ، فقد ذكر الطبري أَنَّ أبا مسلم كان « يصلح العقاب ، ويكسوا الأعراب في كل منزل ، فكان الصوت له . . . فكان الأعراب يقولون : هذا المكذوب عليه » (21) .

وفي طريق العودة من الحج ، تُوفِّي السفاح ، وتمت البيعةُ لأبي جعفر المنصور ، لكنَّ عمه عبد الله ابن علي ادَّعى البيعةَ لنفسه ، فوجه أبو جعفر أبا مسلم الخراساني لقتال عبد الله ابن علي ، فنازله أبو مسلم وهزمه ، وحاز عسكره وخزائنه أمواله ، فأرسل أبو جعفر يقطين ابن موسى ورجلاً معه على القبض ، فغضب أبو مسلم ، وشمته ، وهم بالعودة إلى خراسان ، فما زال المنصور يلطف به ، ويرسل الرسل له حتى قتله عن رأيه ، واستقدمه إليه ، فقتله . وكان إسحاق ابن مسلم والحسن ابن قحطبه يحرضان المنصور على أبي مسلم (22) .

وكانت جملة المآخذ التي أُخِذَتْ على أبي مسلم تؤكد جميعها تبرم المنصور من القوة والإدلال التي كان يتظاهر بها أبو مسلم ، فقد سأل أبو جعفر المنصور مسلم ابن قتيبة عن أبي مسلم ، فقال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، فقال : حسبك يا أبا أمية » (23) .

وكانت أسباب النفور والبكره بين الرجلين كثيرة منها : أَنَّ أبا جعفر طلب الحذاء من أبي مسلم في موسم الحج ، فقدمها له أبو مسلم وحققها عليه ، وكذلك غضب لما أرسل من يحصي عليه الأموال (24) وكان من مآخذ أبي جعفر عليه ، كتابه إلى أبي العباس ينهاء فيه عن الموات ، وتقدمه إيَّاه في طريق العودة من الحج ، وعدم الرجوع إليه أو انتظاره بعد موت أبي العباس ، ومراغمته إيَّاه

(21) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 159

(22) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 133-136 .

الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 378 وما بعدها .

الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 159 وما بعدها .

(23) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 26 ، ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج : 3 ص : 153

(24) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 26 .

وخروجه الى خُرَاسَانَ ، وكتابه له يبدأ بنفسه ، وكتابه له يخطب أمينة بنت علي ، وزعمه أنه ابن سليط ابن عبد الله ابن عباس (25) .

قال أبو جعفر بعد قتله أبا مسلم : « ثلاث كن في صدري ، شفى الله منها : كتاب أبي مسلم إليّ وأنا خليفة : عافانا الله وإياك من سوء. ودخول رسوله علينا وقوله : أيكم ابن الحارثية ؟ وضرب سليمان ابن حبيب ظهري بالسياط » (26) .

وكان أبو مسلم قد بدأ يظهر تغيراً في ولائه للعباسيين ، فقد قيل له : « أيها الأمير ، لقد قمت بأمر لا يقصر بك ثوابه عن الجنة في إقامة دولة بني العباس ، فقال : خوفي من النار والله ، أولى من الطمع في الجنة ، إنني أطفيت من أمية جمرة ، وألهبت من بني العباس نيراناً ، فإن أفرح بالإطفاء ، فواحزنأ من الإلهاب . وحدث أبو نملة عن أبيه ، قال : سمعت أبا مسلم بعرفات في الموقف ، يقول باكياً : اللهم إنني تائب إليك مما لا أظن أنك تغفره لي ، فقلت : أيها الأمير ، أعظم على الله عز وجل غفران ذنب ؟ فقال : إنني نسجت ثوباً من الظلم لا يبلى ، ما دامت الدولة لبني العباس ، فكم من صارخ وصارخة تلعني عند تفاقم الأمر ، فكيف يغفر الله عز وجل لمن هذا الخلق خصماؤه ؟ قيل : ولما سخط عليه المنصور ، ووكل به سهدام المروذي قال له يوماً : الويل لك من الخليفة ، فقال : الويل لي من ربي ، وأين يقع ويل ساعة من عذاب الأبد ؟ » (27) .

وكان أبو مسلم لا يظهر عصبية للعجم ، فقد « ظهر . . . بستة عشر كتاباً ، وجدها من عيسى ابن ماهان إلى كامل ابن مظفر صاحب أبي مسلم ، يعيب فيها أبا داود ، وينسبه فيها الى العصبية وإشاره العرب وقومه على غيرهم من أهل

(25) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج : 9 ص : 159-169 ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 180 في وفيات الأعيان : آسية ابنة علي ج : 3 ص : 154 .

(26) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 26 .

(27) البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص : 298 .

الدعوة ، وأن في عسكره ستة وثلاثين سرادقا للمستأمنة ، فبعث بها أبو مسلم الى أبي داود ، وكتب إليه : هذه كتب العلاج الذي صيرته عدل نفسك ، فشأنك به ، فكتب أبو داود الى عيسى ابن ماهان ، يأمره بالإنصراف إليه . . فلما قدم عليه . . . « وثب عليه الجند ، فقتلوه »⁽²⁸⁾ .

وعلى الرغم من هذا ، فقد كان لقتل أبي مسلم على يد الخليفة أبعد الأثر في نفوس الفرس ، فعده بعضهم تجسيدا للروح الإلهية واعتبره قوم أنه ما مات لكنه عُيِّبَ ، وكان قتله سبباً لكثير من الثورات القومية التي كانت تهدف الى استئصال العرب والإسلام من الديار الفارسية وقد مر معنا ذكر الراوندية ، وثورة المقنع واستاذ سيس والخرمية .

تخلص العباسيون بقتل أبي مسلم من مراكز القوى التي كانت تشاركهم السلطة بفضل موقعها من الدعوة العباسية ، وصفا الجو لأبي جعفر المنصور الذي وإن تخلص من أبي مسلم ونفوذه ، فإنه لم يصرف النظر عن الفرس والتعاون معهم بعد القضاء عليه ، فكان يقرب مواليه ، ويحسن لهم ، وكان السبب في ذلك ، أنه ظفر برجل من كبراء بني أمية ، فسأله المنصور : « من أين أتيت بنو أمية حتى انتشر أمرهم ؟ قال من تضييع الأخبار . . . قال فعند من وجدوا الوفاء ؟ قال : عند مواليتهم . . . فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته ، ثم قال : أضع من أقدارهم ، فاستعان بمواليه »⁽²⁹⁾ . أما نظرتة للموالي ، فإن خير ما يمثلها تلك الحادثة التي وقعت حين ولي مسلم ابن قتيبة البصرة ، فضرب أحد موالي المنصور ، فغضب المنصور ، وقال : « عليّ تجراً مسلم ! لأجعلنّه نكالا ، فقال ابن عياش - وكان جريئاً عليه - يا أمير المؤمنين ، إن مسلماً لم يضرب مولاك قوته ولا قوة أبيه ، ولكنك قلدته سيفك ، وأصعدته منبرك ، فأراد مولاك يطايطه

(28) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 152 .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 456 .

(29) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 305 .

منه ما رفعت ، ويفسد ما صنعت ، فلم يحتمل ذلك ، يا أمير المؤمنين إنَّ غضب العربي في رأسه ، فإذا غضب ، لم يهدأ حتى يخرج به بلسان أو يد ، وإنَّ غضب النبطي في استه ، فإذا غَضِبَ وخرى ذهب غضبه ، فضحك أبو جعفر ⁽³⁰⁾ . وأما عماله ، فكان معظمهم من العرب باستثناء قلة قليلة مثل عمارة ابن حمزة ومطر وخالد ابن برمك ، وابنه يحيى ⁽³¹⁾ .

أما المهدي ، فكان السبب في تقريبه الموالي لين عريكتهم وسهولة قيادهم ، فقد قال له عبد الصمد ابن علي : « يا أمير المؤمنين ، إننا أهل بيت قد أشربَ قلوبنا حُبَّ موالينا وتقديهم وأنتَ قد صنعت من ذلك ما فرط فيه ، قد وليتهم أمورك كلها ، وخصصتهم في ليلك ونهارك ، ولا آمن تغيير قلوب جنودك وقوادك من أهل خراسان ، قال : يا أبا محمد ، إنَّ الموالي يستحقون ذلك ليس أحد يجتمع فيه ، أن أجلس للعامة ، فأدعوا به ، فأرفعه ، حتى تحك ركبته ركبتي ، ثم يقوم من ذلك المجلس ، فاستكفيه سياسة دابتي ، فيكفيها ، لا يرفع نفسه عن ذلك إلا موالٍ هؤلاء ، فإنهم لا يتعاضدهم لي ذلك ، ولو أردت هذا من غيرهم ، لقال : أين وليك والمتقدم في دعوتك ، وأين من سبق إلى دعوتك لا أدفعه عن ذلك » ⁽³²⁾ .

إلا أن هذا لا يعني تغليب الموالي على العرب ، وإنَّ زاد نفوذهم وعظم في عهد المهدي ، فقد ظل التوازن قائماً بين جناحي الدولة : العرب والعجم ، وعندما أغزى ابنه هارون ، وضم إليه الربيع ابن يونس والحسن ابن قحطبة ، أرسل الحسن ابن قحطبة إليه : « يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - أغزيت هارون وضممتني والربيع إليه ، وأنا قريع قوادك والربيع قريع مواليك ، وليس

(30) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 29 .

(31) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 152 وما بعدها (قد أحصيت الولاة في الدولة العباسية منذ ابتدائها حتى سنة 160 هـ . فلم أجد من العمال غير العرب إلا قلة قليلة بالنسبة لما يروى عن نفوذ الفرس في الدولة) .

(32) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 14

تطيب نفسي بأن نخلي جميعاً بابل» (33) .

إضافة لتعقب المهدي للزنادقة وقتلهم والتفتيش عنهم مع الإشارة بأنه قد ذهب الكثير في هذه الحملة لمجرد الشك في ولائهم لسياسة الدولة .

وبدأ الجيش يمارس نوعاً من الضغط على الخلافة ، يظهر ذلك من الإشارة إلى خوف الموالي والقواد من ثورة الجند ومطالبتهم بأرزاقهم (34) ، وهي إشارة ، لم تسبق من قبل ، وسنرى أنّ هذا الضغط سيتحول إلى سيف مسلط على رقاب الخلفاء خاصة في العهد التركي .

وما زال نفوذ العجم يقوى شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ أوجه في زمن الرشيد ، ليعود ، فيخوب بعد نكبته للبرامكة ، لكنّه ما لبث أن سطع من جديد في عهد المأمون ، بعدما أثبتت خراسان للمرة الثانية أنّها القادرة على تحديد مصير الخلافة العباسية . ففسدت العصبية العربية « لعهد المعتصم وابنه الواثق ، واستظهاهم بعد ذلك ، إنّما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية ، وغيرهم ، ثم تغلب العجم الأولياء على النواحي ، وتقلص ظل الدولة ، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها ، وصار الخلائف في حكمهم ، ثم انقرض أمرهم ، وملك السلجوقية من بعدهم ، فصاروا في حكمهم ، ثم انقرض أمرهم ، وزحف التتار ، فقتلوا الخليفة ومحووا رسم الدولة » (35) .

الوزارة في الدولة العباسية :

« إن تاريخ الوزراء في العصر العباسي الأول ، هو سلسلة احتكاك وتصادم بين الخلفاء وبين الوزراء ، ولم يكن الوزراء جميعاً من الفرس ، وإن كانوا جميعاً ينتسبون إليهم ، كأبي أيوب المورياني الخوزي ، ولقد كان الخلفاء يمثلون الثقافة العربية الإسلامية الشاملة ، وكانوا يمثلون السلطان العربي الإسلامي

(33) مصدر نفسه . ج : 9 ص : 343

(34) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 21 .

(35) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 155 .

بنظر غير العرب ، وهم رمز الكيان القائم . أما الوزراء ، فنجد بينهم من اتخذ هذه الناحية في الصراع السياسي الخفي بين العرب والفرس على السلطة في العاصمة » (36) .

فأبو سلمة الخلال انتهى بالقتل ، وكذلك أبو مسلم الخراساني ، وقام بأعباء الوزارة بعده خالد ابن برمك دون أن يسمى بالوزير مخافة القتل ، بالرغم من تمتعه بكل صلاحيات الوزير فقد كان المستشار الأول عند المنصور ، والمسؤول الإداري والمالي للجيش العباسي (37)

ولم تكن الوزارة في أيام المنصور « طائلة لاستبداده ، واستغنائه برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور في الأمور دائماً ، وإنما كانت هيئته تصغر لها هبة الوزراء ، وكانوا لا يزلون على وجل منه وخوف ، فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق » (38) .

وأما ميله للفرس الذي تستدل عليه الدكتور قدورة من جملة ملاحظات ، كخطابه للخراسانيين بعد الهاشمية « يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا ، وأنصارنا ، وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا ، لم تباعوا خيراً منا » (39) فأهل خراسان - كما سبق أن بينا - عرب وعجم ، ومخاطبته لهم ، كانت على هذا الاساس ، وهو كذلك بوصيته في أهل خراسان (40) أما صرفه للخادم ، لأنه كان عربياً ، فأنفة منه للعرب ، أن يكون أحدهم عبداً حتى في قصر الخلافة (41) وهو وإن أوصى ابنه بمواليه فقد أوصاه بأهل بيته ، قال : « وأوصيك بأهل بيتك ، أن تظهر كرامتهم ، وتقدمهم ، وتكثر الإحسان إليهم ، وتعظم أمرهم ، وتوطئ الناس أعقابهم ،

(36) عبد العزيز الدوري ، الجدور التاريخية للشعبية ، ص : 36-37.

(37) M. Shaban. Islamic History: a new interpretation. V.2.P. 11).

(38) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص : 174.

(39) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 311.

(40) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 319.

(41) مصدر نفسه . ج : 9 ص : 317.

وتوليهم المنابر ، فإنّ عزك عزهم ، وذكرهم لك » (42) . وأما مواليه ، فكان يعتبرهم كماله وعبيده يستخدمهم في غاياته ، فقد قال للمهدي : « يابني إني جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وجمعت لك من الموالي ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وبنيت لك مدينة لم يكن في الإسلام مثلها ، ولست أخاف عليك الا أحد رجلين : عيسى ابن موسى وعيس ابن زيد ، فأما عيسى ابن موسى فقد أعطاني من العهود والمواثيق ما قبلته ، والله لو لم يكن إلا أن يقول قولاً لما خفته عليك ، فاخرجه من قلبك ، وأما عيس ابن زيد ، فانفق هذه الأموال ، واقتل هؤلاء الموالى ، واهدم هذه المدينة حتى تظفر به ثم لا ألومك » (43) وقد مر موقفه من أبي مسلم لما حاول أن يتناول على الخلافة رغم إخلاصه وخدمته للعباسيين (44) ولما اكتشف المنصور خيانة وزيره المورياني ، نكبه وأهل بيته ، وصادر أموالهم ، وفي ذلك قال الشاعر الكوفي :

« قد وجدنا الملوك تحسد من أعد	ظنه طوعاً أزمّة التدبير
وإذا رأوا له النهي والأمر	رأته من رأسهم بنكير
شرب الكأس بعد حفص سلي	حمان ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد ابن برمك منها	إذ دعوه من بعدها بالأمير
أسوأ العاملين حالاً لديهم	من تسمى بكاتب أو وزير » (45)

وعندما تولى المهدي الخلافة ، انتقل نفوذ الفرس نقلة جديدة الى الأمام على الرغم من أن المهدي يتحدر من أب وأم عربيين ، والربيع الذي كان يتزعم المعسكر العربي كما تزعم الدكتوراة قدورة ، لم يكن عربياً ، وإنما كان لقيطاً ، وهو في أحسن الحالات كان من الموالى ، فقد روى ابن قتيبة ، أن شاباً دخل

(42) مصدر نفسه . ج : 9 ص : 319.

(43) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 321.

(44) د. زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها . ، ص : 211 وما بعدها .

(45) ابن الطقطقي ، الفخري في الأداب السلطانية ، ص : 176.

على المنصور ، فسأله عن وفاة أبيه ، فقال « مات رحمه الله يوم كذا وكذا ، وكان مرضه رضي الله عنه كذا وكذا ، وترك عفا الله عنه من المال كذا وكذا ، فانتهره الربيع وقال : أبين يدي أمير المؤمنين ، توالي الدعاء لأبيك ! فقال الشاب : لا ألومك ، إنك لم تعرف حلاوة الآباء ، فما عَلِمَ أَنَّ المنصور ضحك مثل ضحكه يومئذ ، وكان الربيع لقيطاً⁽⁴⁶⁾ وهو الذي أوقع بالوزير أبي عبيد الله ، وكان الموالي « يشنعون على أبي عبيد الله عند المهدي ، ويسعون عليه عنده ، فكانت كتب أبي عبيد الله تنفذ عند المنصور بما يريد من الأمور ، وتختلي الموالي بالمهدي ، فيبلغونه عن أبي عبيد الله ، ويحرضونه عليه . . . فلما رأى أبو عبيد الله غلبة الموالي على المهدي ، وخلوتهم به ، نظر إلى أربعة رجال من قبائل شتى من أهل الأدب والعلم ، فضمهم إلى المهدي فكانوا في صحابته ، فلم يكونوا يدعون الموالي يختلون به » ولكن أبو عبيد الله أُتِيَ من أحد هؤلاء الأربعة بالإتفاق مع الربيع ، فقتل ولده بتهمة الزندقة⁽⁴⁷⁾ واضمحل أمره ، ولم يكن مصير أبي عبد الله يعقوب ابن داود بأحسن من غيره في وزارته للمهدي ، وكان الربيع قد أشار بتوزيعه ، فاستوزره وقدمه على جميع الناس حتى قال بشار ابن برد يهجوهُ :

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب ابن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافة الله بين النسي والعود

وذلك لأنَّ المهدي اشتغل باللهو واللعب وسماع الاغاني ، وفوض الأمور إلى يعقوب ابن داود ، وحاول يعقوب ردّه عن ذلك ووعظه فقال له أحد ندمائه :

فدع عنك يعقوب ابن داود جانباً وأقبل على صهباء طيبة النشر

ثم إنَّ السعاة ما زالوا يسعون بيعقوب حتى نكبه المهدي ، وجعله في حبس

(46) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 2 ص : 50.

(47) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 339 وما بعدها .

التجليد في المطبق ، وكان السبب إطلاقه أحد العلويين وكان قد وكله به المهدي (48) .

وعلى العموم فإنّ الربيع ما كان ليهتم بمعسكر يتزعمه ، إنما كان همه أن يصل الى السلطة حتى عن طريق الدس والوشاية ، فعل ذلك مع أبي عبيد الله واقتدى به ابنه الفضل ، فدرس على البرامكة بعد ذلك وتسبب في نكبتهم .

البرامكة والوزارة :

والبرامكة أسرة فارسية ، عاصرت الدعوة العباسية ، وآمنت بها ، وعملت لها ، فلما انتصرت هذه الدعوة ، وصارت الدولة للعباسيين ، شارك البرامكة في الحكم ، وتدرجوا حتى بلغوا أقصى نفوذهم وأمجادهم أيام الرشيد الذي نكبهم ، واستأصل شأفتهم « وكان جدّهم برمك من محوس بلخ ، وكان يخدم النوبهار ، وهو معبد كان للمحوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران ، واشتهر برمك المذكور وبنيه بسدائنه » (49) .

ويعود السبب في بزوغ نجم الأسرة البرمكية في الدولة العباسية ، إلى خالد ابن برمك الذي كان على اتصال بمحمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس ومن بعده من أئمة العباسيين ، فلما انتصرت الدعوة العباسية ، تقلد مناصب مختلفة كديوان الخراج والجند حتى استوزره السفاح بعد مقتل أبي سلمة الخلّال (50) وكانت علاقته بالسفاح علاقة وطيدة حتى أنّ السفاح دفع بابنته ربيعة إلى خالد ، فأرضعها زوجته ، وأرضعت ابنة لخالد من زوجة السفاح (51) . وهذه العلاقة ما

(48) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 3 ص : 260 .

ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص : 184-186 .

(49) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 6 ص : 219 .

(50) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 148 .

الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص : 89 .

ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص : 156 .

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 6 ص : 219 .

(51) ابن خلكان ، الوزراء والكتاب ، ص : 89 .

كانت لتنشأ ، لولم يكن خالد يتمتع بعاقلة رشيدة ، تؤهله لتأسيس أسرة لعبت دوراً بارزاً ومميزاً في تاريخ الدولة العباسية . وكان خالد يميل الى أبناء قومه من الفرس ، ويحاول التوسيع عليهم والإبقاء على تراثهم ، من ذلك ما رُوِيَ عن المنصور ، أَنَّهُ لَمَّا أراد بناء بغداد ، شاور فيمن شاور خالد ابن برمك في هدم إيوان كسرى وحمل حجارتها الى بغداد ، فأشار عليه بأن لا يفعل معللاً حجته بالقول : « لَأَنَّهُ (الإيوان) علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر إليه على أَنَّهُ لم يكن لَيُزَالُ مثل أصحابه عنه بأمر دنيا ، وإنَّمَا هو على أمر دين . . . وإنَّ فيه مصلى علي ابن أبي طالب صلوات الله عليه ، قال (المنصور) : هيهات يا خالد ، أبيت إلا المَيْلَ الى أصحابك العجم » (52) فلم يأخذ المنصور برأيه ، واتهمه بالميل لقومه ، لِمَا رآه من شدة احترامه لثراث العجم وخوفه على هذا التراث من الزوال والاندثار ، فحذر منه ، وهَمَّ به ، ولكن الظروف تغيرت ، فعدل عن رأيه ، واستعمله وابنه يحيى على الموصل وأذربيجان ، فكانت المحنة الأولى التي يتلقاها البرامكة ، وذلك أَنَّ المنصور اتهم خالد ابن برمك ، وصادره على ثلاثة آلاف ألف درهم ، وأجلَّه ثلاثة أيام لإدائها ، وإلَّا فإنَّ مصيره سيكون الموت ، استصرخ خالد أصدقاءه ، أو من كان يتبادل وإياهم المنافع مثل عمارة ابن حمزة ومبارك التركي ، وصالح صاحب المصلى ، فأجابوه ، وبعثوا بأموالهم إليه ، فدفعها إلا القليل . ولكن الظروف السياسية ، كانت قد تغيرت ، فولَّاه المنصور الموصل وولى ابنه يحيى أذربيجان (53) ولما تولى مقاطعة فارس لعهد المهدي ، تصرف في تدبير خراجها ، ووضع عنها خراج الشجر ، (54) فلما توفي المهدي ، بويع بالخلافة لولده الهادي ، وبولاية العهد للرشيد . فجَدَّ الهادي في

(52) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 260-261.

ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص : 157.

(53) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 289 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 15-16.

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 243.

(54) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص : 151..

خلع الرشيد من ولاية العهد ، وكان في حجر يحيى ابن خالد ابن برمك ، فاحتال يحيى كُلَّ حيلة في منع حدوث ذلك ⁽⁵⁵⁾ .

وسلمت البيعة للرشيد ، فلمّا صارت الخلافة إليه ، كافأ يحيى على صنيعه ، واستوزره ، وأوكل أموره إليه قائلاً : « قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى ، ودفع إليه خاتمه ، ففي ذلك يقول إبراهيم الموصلي :

« ألم ترَ أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها » ⁽⁵⁶⁾

وما إن أُطْلِقَتْ يدُ يحيى في حكم الدولة ، حتى أرسل ولده الفضل الى خراسان والياً عليها ، فأثبت الأخير جدارة في الحكم ونباهة ، وأسس جيشاً ضخماً سمّاه العباسية ، وجعل ولاءه للعباسيين ، وقد بلغ تعداد ذلك الجيش خمس مئة ألف جندي ، استقدم منهم الى بغداد عشرين ألفاً ، فسموا بالكرنيبة ، وخلف الباقين في خراسان ، فمدحه مروان ابن أبي حنصة وخلد هذا الحدث بقوله :

« ما الفضل إلا شهاب لا أقول له عند الحروب إذا ما تأفل الشهبُ
حام على ملك قوم غرّ سهمهم من الوراثة في أيديهم سببُ
أمسّت يد لبني ساقى الحجيج بها كتائب لبني العباس قد عرفت
أثبت خمس مئين في عدادهم ما ألف الفضل منها العجم والعرب
من الألوف التي أحصت لك الكتبُ

(55) وجاء في التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 4 ص : 94 ما يفيد بأن مؤامرة قد حيكت على الهادي وكان أبطالها الخيزران ويحيى البرمكي وإبراهيم ابن ذكوان الحراني وهارون الرشيد ، وانظر ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 96-99 ومقالة فاروق عمر بعنوان هارون الرشيد في :

يقارعون عن القوم الذين هم أولى بأحمد في الفرقان إنْ نُسبوا
 إنْ الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق يبقى على جود كفيه ولا ذَهَبُ⁽⁵⁷⁾
 وكان الفضل والرشيد أخوين من الرضاع ، وفي ذلك قال ابن أبي حفصة
 يمدح الفضل :

كفى لك فضلاً أَنْ أفضل حرة غذتك بشدي والخليفة واحد
 لقد زنت يحيى في المشاهد كلها كما زان يحيى خالداً في المشاهد⁽⁵⁸⁾
 وكان الرشيد قد قلّده الوزارة قبل أخيه جعفر ، وكان يَكُنْ له احتراماً شديداً
 حتى أَنه احتشم من خطابه بعزله ، فقال ليحيى ابن خالد : « قد احتشمت من
 الكتاب إليه في ذلك ، فاكفنيه ، فكتب والده إليه : قد أمر أمير المؤمنين بتحويل
 الخاتم من يمينك الى شمالك ، فكتب إليه الفضل : قد سمعت مقالة أمير
 المؤمنين في أخي ، وأطعت ، وما انتقلت عني نعمة صارت إليه ، ولا غربت
 عني رتبة طلعت عليه »⁽⁵⁹⁾ .

أما جعفر ، فكان « متمكناً عند الرشيد ، غالباً على أمره ، واصلاً منه ،
 وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى أَنَّ الرشيد اتخذ ثوباً له زيقان
 فكان يلبسه هو وجعفر جملة ، ولم يكن للرشيد صبر عنه »⁽⁶⁰⁾ وقلّده البريد ودور
 الضرب والطرز في جميع الكور ، وأشركه معه في النظر في المظالم⁽⁶¹⁾ ، ليس
 هذا فحشاً ، وإنما قسم الرشيد ملكه بين ولدي يحيى ، فولى جعفر ابن يحيى
 المغرب كلّهُ ، وولى الفضل الشرق كلّهُ⁽⁶²⁾ وكان الفضل ينهد إلى ما يليه من

(57) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 62-63.

(58) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 4 ص : 27.

(59) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 27-28.

(60) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 332 (وفي تاريخ بغداد للبغدادى مثل ذلك مع

اختلاف في اللفظ ، ج : 7 ص : 152)

(61) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص : 204.

(62) مصدر نفسه . ص : 190.

الأعمال في حين أن جعفر ابن يحيى كان يُوكَّلُ في أعماله من ينوب عنه ويبقى في بغداد مع الخليفة ، وقد توجس يحيى ابن خالد خيفة من العلاقة الحميمة التي كانت بين جعفر والرشيد ، وتوقع لها نهاية مؤسفة ، فكان ينهى ولده عن كثرة مخالطته الرشيد ، وكان يحذر الرشيد من تسليم زمامه إلى جعفر ، فيقول له : « يا أمير المؤمنين ، إني أكره مداخل جعفر ، ولست آمن أن ترجع العاقبة عليّ في ذلك منك ، فلو أعفيتّه ، واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحب إليّ وأولى بتفضيلك ، وآمن عندي » فقال له الرشيد « ليس بك هذا ، ولكن بك أن تقدم عليه الفضل » (63) وكان يقول ليحيى : « أنت للفضل وأنا لجعفر » (64) وذكر الجهشيارى : أن يحيى ابن خالد كان يعلم أن جعفر سيكون السبب في نكبة أسرته ، ويعلم تاريخ حدوث تلك النكبة (65) .

وكان جعفرُ ابن يحيى عظيمَ الإدلال والقدرة على الرشيد ، حتى أنه كان يصرف الأعمال دون مؤامرتة ، والمصادر تجمع تقريباً على رواية مفادها أنه وهب عبد الملك ابن صالح من بيت المال ألف ألف درهم ، وضمن له رضى الخليفة وزوج ابنه ابنة الخليفة وولاه مصر ، وقد تعجب إبراهيم ابن المهدي من إقدام جعفر ابن يحيى على الرشيد ، وتزويجه بناته من دون استئذانه ، وتعجب من أمر الرشيد وإمضائه ما أمضى جعفر (66) .

وكان الرشيد قد ضم الأمين للفضل ابن يحيى ، والمأمون لجعفر ابن يحيى ، ولذلك لعبَ الفضل دوراً كبيراً في تولية العهد للأمين (67) .

وأخيراً صحت فراسة يحيى ابن خالد ، إذ قتل الرشيد جعفر ابن يحيى ،

(63) مصدر نفسه . ص : 225.

(64) مصدر نفسه . ص : 189.

(65) مصدر نفسه . ص : 249.

(66) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص : 213.

التنوخى ، الفرج بعد الشدة ، ج : 1 ص : 362.

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 330-331 ، ثمرات الأوراق ، ج : 1 ص : 74.

(67) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص : 193.

وصلب جثته ، واعتقل أباه وإخوته وصادر أموالهم وأسبابهم وعمالهم والمقربين منهم ، واستأصل شأفتهم ، ولم يترك لهم إلا ذكرى محمولة على أجنحة الأساطير ، تتناقلها الأجيال ، وتحاول سبر أعماق العلاقة بين الرشيد والبرامكة ، والتعرف على السبب الحقيقي الذي أدى إلى سقوطهم من حائق ، ونكبتهم على هذا النمط المروّع .

والحقيقة أنّ الرشيد لم يتغير للبرامكة فجأة ، ولكنه استشار نصحاءه أولاً ، فذكرَ عن إسحاق ابن علي العباسي ، أنه قال : « كنت أساير الرشيد يوماً والأمين عن يمينه والمأمون عن شماله ، فاستدناي وقدمهما أمامه ، فسأيرته ، فجعل يحدثني ، ثم بدأ يشاورني في أمر البرامكة ، فأخبرني بما أضمر عليه لهم ، فلأنهم استوحشوه من أنفسهم ، ولأنّي عنده بالموضع الذي لا يكتمني شيئاً من أمرهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا تنقلني من السعة الى الضيق ! فقال الرشيد : إلا أن تقول ، ، فلأنّي لا أتهمك في نصيحة ، ولا أخافك على رأي ولا مشورة ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّي أرى نفاستك عليهم بما صاروا إليه من النعمة والسعة ، ولك أن تأمر وتنتهي ، وهم عبيد لك بإنباتك إياهم ، فهل ذلك كله إلا بك ؟ قال ، - وكنت أحطب في جبال البرامكة - فقال لي : فضياعهم ليس لولدى مثلها ، وتطيب نفسي بذلك لهم ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّ الملك لا يحسد ولا يحقد ، ولا ينعم بنعمة ثم يفسد نعمته ، قال : فرأيت قد كره قولي ، وزوى وجهه عني ، قال إسحاق : فعلمت أنه سيوقع بهم ، ثم انصرفت فكتمت الخبر ، فلم يسمع به أحد ، . . . حتى قتلهم ، وكان أشد ما كان إكراماً لهم ، وكان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم »⁽⁶⁸⁾.

وقال مسرور الخادم إنّه سمع الرشيد وهو متعلق بأستار الكعبة ، يقول : « اللهم إنّي أستخيرك في قتل جعفر ابن يحيى ، ثم قتله بعد ذلك بخمس أو ست سنين »⁽⁶⁹⁾ . وحتى يحيى ابن خالد شعر بتغير الرشيد عليه وذمّه له ، فقال « إنّه

(68) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 5 ص : 296 .

(69) الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، ص : 74-73 .

لم يكن مني في هذه الحال التي دُمّني فيها شيء لم يكن مني في ذلك الوقت الذي أحمّدي فيه . ولكن المدة إذا إذنت بالإقضاء جعلت المحاسن مساوية⁽⁷⁰⁾ لقد اختمرت في رأس الرشيد فكرة التخلص من البرامكة طويلاً ، فعمل على تقليص نفوذهم وتحديد صلاحياتهم ، حتى لا يترك غيابهم عن مسرح الأحداث فراغاً في أجهزة السلطة أو اختلالاً في الميزان السياسي لكثرة ما كان لهم من الأشياع والأتباع ، ثم تخلّص منهم ، وعلى الرغم من الخطة الدقيقة التي رسمها الرشيد ، واعتمدها في ذلك ، فقد اختلت فارس ، وانتقضت عليه ، فأحس بالخطورة وسار إليها بنفسه ، لكنه قضى في الطريق ، فدُفِنَ بطوس ، ليفسح المجال لمرحلة جديدة من الصراع بين العصبية العربية والفارسية .

وبعد ما هي الأسباب والدوافع التي حفزت الرشيد على إنزال ما أنزل بهم ؟

كما سبق أن بيّنا ، فنكبة البرامكة ، لم تكن نزوة من نزوات الرشيد العابرة ، لكنها نتيجة لفكرة اختمرت في رأسه لسنوات عديدة ، والبرامكة شعروا بتغير الرشيد عليهم ، كما شعروا بتألب الخصوم من حولهم لكنهم صبروا ينتظرون مصيرهم ، ولم يحاولوا دفع ذلك المصير ، وتجنب تلك الكارثة ، باستثناء ما يُروى عن محاولة موسى ابن يحيى بالوثوب بخراسان⁽⁷¹⁾ ، فجعفر البرمكي سمع التحذير من الرشيد نفسه ، وعلم أنه يَهْمُ بِهِ ، فعندما تأمل الرشيد عنق جعفر ، سأله الأخير عما يتأمل ، فأجابه بما أخافه ، فاستعاذه وقبله ، وقد أفصح الرشيد عن غايته من تأمله لعنق جعفر ، فقال لابن الربيع : « ما تأملت عنقه إلا لموضع السيف منها »⁽⁷²⁾ .

وقد علل الرواة والمؤرخون أسباب النكبة تعليقات مختلفة منها : أن البرامكة قد احتازوا الأموال دون الرشيد ، وتصرفوا بأمور الدولة على هواهم ،

(70) الجهشباري ، الوزراء والكتاب ، ص : 226 .

(71) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 94-90 .

(72) الجهشباري ، الوزراء والكتاب ، ص : 216 .

فأطلقوا رجلاً من آل أبي طالب كان في أيديهم⁽⁷³⁾ وأنَّ محمد ابن الليث رفع رسالة إلى الرشيد فيها : « إنَّ يحيى ابن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه ، فسألك عما عملت في عباده وبلاده ، فقلت : يا رب إنِّي استكفيت يحيى أمور عبادك ، أترأى تحتج حجة يرضى بها ، مع كلام فيه توبيخ وتقريع ، فدعا الرشيد يحيى وقد تقدم إليه خبر الرسالة ، فقال : تعرف محمد ابن الليث ، قال : نعم ، قال : فأبي الرجال هو ؟ قال : متهم على الإسلام ، فأمر به ، فوضع في المطبق دهنأ . وأنَّ الرشيد قتل جعفر ابن يحيى بسبب إطلاقه يحيى ابن عبد الله ابن حسن ، وإيصاله إلى مأمونه ، واتصال الخبر بالرشيد عن طريق ابن الربيع ، فدعا بجعفر ، فسأله عن يحيى ، فاعترف بما صنع ، فتغير الرشيد ، وأصبح يعد العدة للتخلص من البرامكة . ومنها أنَّ جعفر ابن يحيى أنفق على دار له نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وقد لاحظ ابراهيم ابن المهدي ، أنَّ هذا الإنفاق الفاحش قد يغير قلب الخليفة عليه ونبهه إلى ذلك .

ومنها: أنَّ السبب في نكبتهم يعود لدعوة دعاها يحيى ابن خالد في الكعبة وهو متعلق بأستارها ، فاستجابها الله ، ونكبتهم بها .

ومنها ارتياب الرشيد بموسى ابن يحيى إثر وشاية من الفضل ابن الربيع ، إضافة إلى القصة التي تروى عن زواج العباسة أخت الرشيد بجعفر ابن يحيى شريطة ألا يمسه ، ونكوث جعفر بهذا الشرط⁽⁷⁴⁾ .

ثم أورد الطبري رواية أخرى ، تقول : إنَّ الرشيد أراد شراء جارية بمئة ألف دينار ، فاستفزع ذلك يحيى ابن خالد ، واحتج بعدم وجود المال الكافي ، فغضب الرشيد لعدم وجود مئة ألف في بيت المال ، وأصرَّ على الطلب ، فقدمها

(73) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 377.

(74) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 94-79.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 175 وما بعدها .

ابن الطفطقي ، الفخري... ، ص : 209.

يحيى دراهم ، ليستكثرها الرشيد ، ويعدل عن الشراء ، وبالفعل استكثرها الرشيد ، وعدل عن الشراء ، وأخذ في التفتيش عن أموال البرامكة ، ثم أمر الرشيد يحيى ابن خالد بأن يعطي أحد أصحاب الأدب ثلاثين ألف درهم ، ، فتلكأ يحيى ، فاحتال الرجل حتى وصل حديثاً بقول عمر ابن أبي ربيعة :

وعدت هند وما كانت تعد ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

ولمّا أصبح يحيى ابن خالد غادياً على الرشيد ، بادره الرشيد بالقول « قد أردت البارحة أن أرسل إليك بشعر أنشدنيه بعض من كان عندي ثم كرهت أن أزعجك ، فأنشده البيتين ، فقال : ما أحسنهما يا أمير المؤمنين ، وفطن لما أراد »⁽⁷⁵⁾ .

أمّا ابن قتيبة ، فقد علل تلك النكبة بزواج جعفر ابن يحيى من أخت الرشيد ، وقد سماها فاختة⁽⁷⁶⁾ .

وذكر التنوخي أن جعفر ابن يحيى قتل عبد الله ابن الأفطس ، وكان الرشيد قد حبسه عنده ، دون أمر الرشيد ، فلمّا أرسل الرشيد مسروراً الكبير لقتل جعفر ، قال له : إن سألك عن ذنبه الذي أقتله من أجله ، فقل له : إنّما أقتلك بابن عمي ابن الأفطس الذي قتلته من غير أمري⁽⁷⁷⁾ .

وكان الفضل ابن الربيع قد أوغر صدر الرشيد على البرامكة ، بسبب حادثة حقدّها عليهم ، وذلك أنّه صار إلى يحيى ابن خالد ، أو إلى ولده الفضل في حاجة له ، فلم يرفع إليه رأسه ، ولا قضى حاجته ، فقام مغضباً ، فلم يكثرث له ، فتمثل :

(75) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 11 ص : 10-11 .

البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص : 373-374 . (مع تغيير في الرواية)

(76) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج : 2 ص : 172-173 .

(77) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 4 ص : 114-115 .

عسى وعسى يثني الزمان عنانه يدور زمان والزمان يدور
فيعقب روعات سروراً وغبطة وتحدث من بعد الأمور أمور

فلم يكن بين ذلك ، وبين أن سخط الرشيد على البرامكة ، واستوزر الفضل ابن الربيع إلا أياماً يسيرة⁽⁷⁸⁾ . وكان الرشيد يتهم البرامكة بموالاة عبد الملك ابن صالح والعمل معه للإقلاب على الرشيد⁽⁷⁹⁾ .

وكان الرشيد حريصاً على عدم التصريح بالسبب الذي من أجله فتك بالبرامكة ، فقد سأله عليّة بنت المهدي ، فقالت : « ما رأيت لك يوم سرور تاماً منذ قتلت جعفرأ ، فلأي شيء قتلته ؟ فقال : يا حياتي ، لو علمت أن قميصي يعلم السبب الذي قتلت له جعفرأ لأحرقته »⁽⁸⁰⁾ .

وقد نفى ابن خلدون قصة العباسة نفياً مطلقاً ، وعلل ذلك ، بأدلة منها : أن منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها لا يسمح لها بذلك ، وأنها قرية عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفحش ، واستحالة لحم نسبها بجعفر ابن يحيى وتدنيش شرفها العربي بمولى من موالى العجم . وأن الرشيد على بعد همته وعظم آبائه لا يقدم ولا يستسيغ لنفسه أن يصهر إلى موالى العجم ، وبعد استبعاده للقصة ، يقرر أن سبب نكبة البرامكة كان سياسياً واقتصادياً ، سياسي لاستبدادهم على الدولة ، ومشاركتهم السلطان ، وغلبتهم عليه وتقريبهم رجال الشيعة . واقتصادي بسبب احتجانهم الأموال والضياع ، إضافة إلى عقارب السعاية والغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه⁽⁸¹⁾ .

ونحن نميل إلى القول بأن نكبتهم قد أسهمت فيها عوامل متعددة ساعدت في إذكاء نار الحقد والضغينة في قلب الرشيد ، منها :

(78) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 1 ص : 307-308.

(79) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 183-184.

(80) الصولي ، أشعار أولاد الخلفاء ، ص : 57.

(81) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 15 وما بعدها .

- أنهم استمروا بالسلطة دون انقطاع لفترة طويلة نسبياً ، وكل طويل مملول .
- وأنهم بحكم المربى والمنشأ والمعاملة اليومية مع الخليفة ، قد اكتسبوا جرأة ودالة عليه ، قد تجاوزت كل حد ، فجعفر ابن يحيى أصبح يزوج بنات الرشيد دون استئذانه ، فالخليفة والحال هذه كالمحجور عليه ، له من الخلافة الإسم ، ولهم العمل ، فكان لا بد من وضع حد لتلك العلاقة الشاذة .
- وكان لاستشارهم بالسلطة جانب اقتصادي ، إذ استأثروا بأموال الدولة ، يخترنونها ، ويبدرونها دون حسيب أو رقيب بينما الخليفة يطلب القليل أحياناً فلا يحصل عليه .
- تقريبهم من الناس ، وتواضعهم لهم مع حاجة الناس إليهم ، جعلتهم يتمتعون بسمعة طيبة أين منها سمعة الخلفاء . وازدحام الشعراء على أبوابهم ، وكيل المدائح لهم بصفات لا تناسب غير الرجل الأول في الدولة .
- تقريبهم أنصارهم وملء مراكز الدولة بهم وخاصة الفرس .
- الوشاية بهم ، وتضخيم سيئاتهم وتآلب أعدائهم ، ممن يطمح بالحلول محلهم كالفضل ابن الربيع وعلي ابن عيسى ابن ماهان وعبد الله ابن مالك الخزاعي الذي أحس الرشيد بتجني البرامكة وحقدهم عليه وحرصهم بإبعاده عن الخليفة ونكبه⁽⁸²⁾ .
- تقريبهم من رجال الشيعة ، ومساعدتهم بالأموال ، وخاصة إطلاق جعفر ابن يحيى ، ليحيى ابن عبد الله ابن حسن .
- غيرة الرشيد على حرمه ، فليس بمستبعد أن تحاول زبيدة الإيقاع بالبرامكة ولصق أي تهمة بهم لأن يحيى ابن خالد كان يشدد على حرم الرشيد ويضيق عليهن ويقفل أبواب القصر ليلاً⁽⁸³⁾ .

(82) التوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 3 ص : 126 .

البيهقي المحاسن والمساوي ، ص : 387 .

(83) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 333 وما بعدها .

كل هذه العوامل تكاملت وأسهمت في نكبتهم ، أما اتهامهم بالزندقة فقد ألّمنا به في باب الشعوبية والبعد الديني ، وقد نفت الدكتور قدورة تلك التهمة ، فقالت « فاتهام البرامكة بالزندقة لا يقوم على دليل واضح ملموس ، وإنما آتهمهم بذلك المؤرخون الذين تلوا عصرهم ، وكانوا متأثرين بأقوال أعدائهم ، كابن النديم وغيره . ولم يؤثر عن البرامكة أنهم اعتنقوا شيئاً من أقوال الزنادقة ، كالقول بعبادة إلهين أو التناسخ أو الإباحة ، أو الحلولية أو غير ذلك من العقائد التي كان يُرمَى معتنقها بالزندقة ، ولم يثبت عليهم ثبوتاً قاطعاً أنهم علقوا المجامر بالكعبة عن سوء قصد . . . والواقع أننا لم نسمع عن زندقتههم إلا بعد نكبتهم » (84) .

وبعد فما علاقة البرامكة بالشعوبية ؟ وأين موقعهم منها ؟ وهل لنكبتهم صلة بها ؟

إن موقع البرامكة من الخليفة ومركزهم في الدولة كان يحتم عليهم الحذر من إظهار مشاعرهم والإفصاح عما يخالجه من عصبية بصورة علنية ، غير أنّ الحذر ما كان ليمنع حدوث بعض الأمور التي تؤكد ميلهم للعجم وحرصهم على إعلاء العنصر الفارسي وصونه وحفظ حقوقه ونشر ثقافته . وقد مرّ معنا مشورة خالد البرمكي على المنصور لما استشاره في هدم إيوان كسرى ، ومحاولة يحيى ابن خالد تأخير النوروز نحو الشهرين وتراجعها عنها مخافة التهمة بالتعصب للمجوسية (85) . كذلك مرّ معنا تعصب الفضل ابن يحيى على الضب ولعنه ولعن آكله والمقصود العرب طبعاً . وقد روى التنوخي حكاية دخول الأصمعي على الرشيد وإنشاده قصيدة ذي الرمة

« ما بال عينك منها الماء ينسكب »

وكان جعفر ابن يحيى حاضراً ، فلإن الأصمعي مضى في إنشادها حتى وصل

(84) د. زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 277 .

(85) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 31 وما بعدها .

إلى وصف الجمل ، فقال جعفر : ضَيَّقَ علينا ما اتسع من مسامرة السهر ، بجمل أجرب ، فقال الرشيد : اسكت ، فهي التي سلبتك تاج ملكك ، وأزعجتك عن قرارك ، ثم جعلت جلودها سياطاً ، تُضْرَبُ بها أنت وقومك عند الغضب»⁽⁸⁶⁾ فالرشيد يعلم سبب حقد جعفر البرمكي وأمثاله على الجمال ، لذلك أجابه هذا الجواب القاسي ، هذه الفلتات وغيرها تنبئ بشعور البرامكة الخفي بأنهم كانوا مع الشعبية في عواطفهم احتضنوها وأمدوا أربابها بالمساعدة ، فهيأ ذلك مناخاً جيداً للشعبوية ونشاطها إذ وجدت في البرامكة الملاذ والحمى ، فنشطت تشن الحملات على العرب والعروبة ، وقد تجلى ذلك بأمور أوجزها الدكتور الدوري بالقول : « إِنَّ البرامكة الذين تربعوا على دست الوزارة سبعة عشر سنة ، حاولوا تقريب العنصر الفارسي ، وربما ذهبوا أبعد من ذلك ، مما ولد ردة فعل ضدهم ، وقد لاحظ ذلك من محطات رئيسة هي :

— تقريب بني سهل من المأمون وهم يومئذ من المجوس .

— محاولة اضطهادهم للعرب .

— توسيع طبقة الكتاب وتأكيد أهميتها وهي طبقة مثقفة ثقافة فارسية .

— تنشيط الترجمة من الفهلوية إلى العربية .

— تبنيهم عناصر فارسية متطرفة كسهل ابن هارون وهو من أعلام الشعبية .

— دور البرامكة في العهد للمأمون ، ليعطوا للعنصر الفارسي رمزاً في العاصمة يَعْمَلُونَ بِاسْمِهِ بِحُجَّةِ كونه ابن أختهم .

— تمجيد الكتاب للبرامكة ومهاجمة الرشيد والدولة بعدهم»⁽⁸⁷⁾ .

(86) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 3 ص : 304-305.

(87) د. عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعبوية ، ص : 37-38.

— أنظر التنوخي ، الفرج بعد الشدة : ج : 3 ص : 249 ، وفيه قصة مؤداها أن أحمد ابن أبي خالد كان قد أحسن إلى البرامكة في سجنهم ولم يكن يحى قادراً على مكافأته ، فاعطاه رسالة إلى الفضل ابن سهل مختومة بنصف خاتم ، وكانت بقية الرسالة والختم مع الفضل .

وكان لنكبة البرامكة الأثر البالغ على الدولة فاضطربت أنحاء البلاد المختلفة ، وشعر الرشيد بالفراغ من بعدهم ، وندم على ما كان منه في أمرهم ، وذكّر عنه أنّه لو وثق بصفاء نيتهم ، لأعادهم على ما كانوا عليه ، « وكان الرشيد كثيراً ما يقول : حملونا على نصحائنا وكفائنا ، وأوهمونا أنّهم يقومون مقامهم ، فلمّا صرنا إلى ما أرادوا لم يغنوا عنّا ، وأنشد :

أقلوا علينا لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا»⁽⁸⁸⁾
ولما مات يحيى ابن خالد ، وُجِدَ في جيبه رقعة مكتوب فيها : « قد تقدم الخصم والمُدّعى عليه في الأثر ، والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يجوز ولا يحتاج إلى بينة ، ولما قرأ الرشيد الرقعة بكى يومه كلّهُ ، واستمر أياماً يتبين الأسى في وجهه »⁽⁸⁹⁾ .

الفئة بين الأمين والمأمون :

قضى البرامكة ، وقضى الرشيد بعدهم بوقت وجيز ، لكنّ الصراع على السلطة لم ينتهِ . إنّما كانت نهاية الرشيد نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى أخطر وأشدّ على الأمة والدولة من سابقتها .

وذلك إنّ الرشيد كان قد أوصى بولاية العهد لولده محمد من زوجته زبيدة ، ولقّبهُ الأمين ومن بعده لولده عبد الله ، ولقّبهُ المأمون ، وكتب العهد بذلك ، وأشهد الشهود من وجوه بني هاشم والقواد ، ولَمّا حجّ سنة ست وثمانين ومائة ، علق الرشيد العهدين في الكعبة الشريفة ، وأخذ العهود والمواثيق على الأخوين

(88) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 6 ، ص : 228-229 . وأنظر في ذلك مقالة فاروق عمر في :

Enciclopèdie De L'Islam, Nouvelle Edition Tome III.P. 239.

(89) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ، ص : 328 ، وزعم حجاب في مظاهر الشموعية في الأدب العربي أنّ الرشيد قتل بيد فارسية انتقاماً للبرامكة وبتخطيط مسبق من يحيى ابن خالد البرمكي ص : 203 وما بعدها .

أَنْ لَا يَحَاوِل أَحَدُهُمَا خَلْع صَاحِبِهِ أَوْ الْغَدْر بِهِ ، وَعَمَّ ذَلِكَ عَلَى عَمَالِهِ⁽⁹⁰⁾ وَكَانَ يَخْشَى غَدْر الْأَمِينِ بِأَخِيهِ الْمَأْمُونِ ، وَقَدْ أَفْصَحَ عَنْ مَخَافِهِ تِلْكَ عِنْدَمَا عَاتَبَتْهُ زَوْجَتُهُ أُمُّ جَعْفَرٍ فِي أَمْرِ ابْنِهِ ، مَدْعِيَةً أَنَّهُ أَعْرَى الْأَمِينِ عَنِ الْعِدَدِ وَالْقَوَادِ ، وَصِيرَ ذَلِكَ إِلَى أَخِيهِ دُونَهُ ، فَأَجَابَهَا : « . . . إِنِّي وَلَيْتَ ابْنُكَ السَّلَامَ ، وَعَبَدَ اللَّهَ الْحَرْبَ ، وَصَاحِبَ الْحَرْبِ أَحْجَجَ إِلَى الرِّجَالِ مِنَ الْمَسَالِمِ ، وَمَعَ هَذَا ، فَإِنَّا نَتَخَوَّفُ ابْنُكَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ ، وَلَا نَتَخَوَّفُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى ابْنِكَ إِنْ بُرِّيعَ »⁽⁹¹⁾ وَظَهَرَتْ مَخَافُهُ كَذَلِكَ فِي الْعَهْدِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى الْأَمِينِ فِي مَكَّةَ ، فَكَانَ نَتِيجَةُ ذَلِكَ الْخَوْفِ ، أَنْ جَعَلَ الْمَأْمُونُ مُسْتَقْلَلاً عَنْ أَخِيهِ اسْتِقْلَالاً تَاماً ، لَيْسَ لِلْأَمِينِ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ سُلْطَانٌ يَبْدُ وَلَا لِسَانٌ⁽⁹²⁾ .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الرَّشِيدَ كَانَ يَمِيلُ إِلَى الْمَأْمُونِ ، وَيَرَاهُ الْأَصْلَحَ وَالْأَنْسَبَ لِلْخِلَافَةِ ، لَكِنَّ زَوْجَتَهُ زَيْبَةَ أُمَ الْأَمِينِ وَأَخْوَالَهُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ، عَرَفُوا كَيْفَ يُوَثِّرُونَ عَلَى الرَّشِيدِ ، فَجَعَلُوهُ يَقْدُمُ الْأَمِينُ فِي وِلَايَةِ الْعَهْدِ عَلَى أَخِيهِ ، وَقَدْ أَفْضَى الرَّشِيدُ بِمَا يَخَالِجُهُ لِيَحْيِيَ ابْنَ خَالِدِ ابْنِ بَرْمَكٍ ، فَقَالَ لَهُ : « . . . وَقَدْ عَنَيْتُ بِتَصْحِيحِ هَذَا الْعَهْدِ ، وَتَصْيِيرِهِ إِلَى مَنْ أَرْضَى سَيْرَتَهُ ، وَأَحْمَدَ طَرِيقَتَهُ ، وَأَثَقَ بِحَسَنِ سِيَاسَتِهِ ، وَأَمَّنْ ضَعْفَهُ وَوَهْنَهُ ، وَهُوَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَبَنُو هَاشِمٍ مَائِلُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ بِأَهْوَائِهِمْ ، وَفِيهِ مَا فِيهِ مِنَ الْإِنْقِيَادِ لِهَوَاهُ ، وَالتَّصَرُّفِ مَعَ طَوَيْتِهِ ، وَالتَّبْذِيرِ لِمَا حَوَتْهُ يَدُهُ ، وَمُشَارَكَةِ النِّسَاءِ وَالْإِمَاءِ فِي رَأْيِهِ ، وَعَبَدَ اللَّهَ الْمَرْضِيَّ الطَّرِيقَةَ ، الْأَصِيلَ الرَّأْيَ ، الْمَوْثُوقَ بِهِ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ فَإِنَّ مِلْتِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ أَسْخَطْتَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَإِنْ أَفْرَدْتَ مُحَمَّدَ بِالْأَمْرِ ، لَمْ أَمْنِ تَخْلِيْطَهُ عَلَى الرَّعْيَةِ »⁽⁹³⁾ .

(90) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 73 وما بعدها .

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 364 .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 173 .

(91) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 363 .

(92) ينظر مضمون العهدين في الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 73 .

(93) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 363 .

فاستقر رأيه بعد خلوته ببيحيى ابن خالد ، أن يجعلَ للأمين ثم للمأمون من بعده ، وذلك لظنه أنه يبيّعه لولديه قد تفادى غضب آل عباس ، واطمأن في ذات الوقت ، بأن الخلافة صائرة إلى ثقتة عبد الله .

ولكنّ الأمور جرت على غير ما أُمل ، فبدأت عقارب الحسد والغيرة تنهش قلب الأمين من أخيه المأمون ، مما جعل المأمون خائفاً على مصيره ، حذراً من الإنفراد مع الأمين في بغداد . فلما أراد الرشيد المسير إلى خراسان لمحاربة رافع ابن الليث ، استخلف الأمين على بغداد ، وأمر المأمون بالمقام بها ، فقال الفضل ابن سهل للمأمون : « لست تدري ما يحدث بالرشيد ، وخراسان ولايتك ، ومحمد الأمين المقدم عليك ، وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك ، وهو ابن زبيدة ، وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها ردء له ، فاطلب إلى أمير المؤمنين : أن تسير معه ، فطلب إليه ذلك ، فأجابه بعد امتناع »⁽⁹⁴⁾ فخرج مع الرشيد حتى جرجان ، ثم فارق الرشيد إلى مرو ، ومعه من قواد أبيه : « عبد الله ابن مالك ويحيى ابن معاذ ، وأسد ابن يزيد ، والعباس ابن جعفر ابن محمد ابن الأشعث ، والسندي الحرشي ، ونعيم ابن حازم »⁽⁹⁵⁾ .

وأما الأمين ، فقد أكلته نار الغيرة والحسد ، لَمَّا علم أن أباه قد جدد العهد للمأمون ، وأشهد من معه على ذلك ، وأقرّ له بجميع ما معه من الأموال والعدة والجند ، فأرسل بكر ابن المعتمر ، وأرسل معه الكتب ، وأوصاه بكنمها حتى وفاة الرشيد ، وبعد وفاته فُتِحَت الكتب وكان منها كتاب إلى أخيه صالح ، يأمره فيه بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه ، وأن يتصرف برأي الفضل ابن الربيع⁽⁹⁶⁾ .

فلما قرأت الكتب ، تشاور ابن الربيع والقواد في اللّحاق بالأمين ، فقال الفضل ابن الربيع : « لا أدعُ ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره . وأمر

(94) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 207 .

(95) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 212 .

(96) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 124 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 222-223 .

الناس بالرحيل ، فرحلوا محبة لإلههم ووطنهم ، وتركوا العهود التي كانت أُخِذَتْ عليهم للمأمون» (97) .

جمع المأمون قواد أبيه ، واستشارهم ، فأشاروا عليه أن يلحقهم بألفي فارس جريدة خيل ، فيردهم ، فحذره الفضل ابن سهل ، وأشار عليه أن يرسل لهم رسولاً ، يذكّرهم العهود والمواثيق . لكنّ الفضل ابن الربيع تنصل ، وحاول من معه الفتك بالرسول ، وشتّموا المأمون . فلما عاد الرسول ، قال الفضل ابن سهل للمأمون : « أعداء قد استرحت منهم ، ولكن أفهم عني ما أقول لك إنّ هذه الدولة لم تكن قط أعزّ منها أيام أبي جعفر ، فخرج عليه المقنع وهو يدّعي الربوبية ، وقال بعضهم طلب بدم أبي مسلم ، فتضعض العسكر بخروجه بخراسان ، فكفاه الله المؤونة ، ثم خرج بعده يوسف البرم ، وهو عند بعض المسلمين كافر ، فكفى الله المؤونة ، ثم خرج استاذ سيس يدعو إلى الكفر ، فسار المهدي من الري إلى نيسابور ، فكفى الله المؤونة ، ولكن... أخبرني كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع ؟ قال : رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً (قال :) وكيف بك وأنت نازل في أخوالك ، وبيعتك في أعناقهم ، كيف يكون اضطراب أهل بغداد . إصبر ، وأنا أضمن لك الخلافة » (98) .

المهم أنّ هذه الحادثة جعلت المأمون حذراً ، يراقب أفعال أخيه ، ويرتاب به ، ولا يطمئن إلى تصرفه ، كما أنّها كانت الدافع المباشر الذي حرك الفضل ابن الربيع وحفزه على تحريض الأمين ، وإغرائه بأخيه ، خوفاً من انتقام المأمون منه عقاباً لفعلته بتسيير الأموال والجنود إلى بغداد بعد وفاة الرشيد ، فقال للأمين : « ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعد الله والقاسم أخويك ، فإنّ البيعة كانت لك متقدمة قبلهما ، وإنّما أُذْخِلَ فيها بعدك واحداً بعد واحد ، وأدخل في ذلك من رأيه معه علي ابن عيسى ابن ماهان ، والسندي وغيرهما ممن بحضرته ، فأزال

(97) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 122 .

(98) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 124-128 .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 222-224 .

محمداً عن رأيه ، فأول ما بدأ به محمد عن رأي الفضل ابن الربيع ، فيما دبر من ذلك أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم ابن الرشيد ⁽⁹⁹⁾ .

فلما علم المأمون بما فعله الأمين ، علم أنه يدبر في خلعه ، فقطع عنه البريد ، وأسقط اسمه من الطرز ، وكان رافع ابن الليث قد استأمن للمأمون ، فأمنه ، فالتحق به ⁽¹⁰⁰⁾ .

وتربص المأمون يرقب أخاه ، وما يصدر عنه من أفعال في حين كان الأمين يدبر في خلعه أخيه مع أعوانه وأركان دولته في بغداد . ويستشيرهم ، فكان مما قاله عبد الله ابن خازم « أنشدك الله يا أمير المؤمنين ، أن تكون أول الخلفاء نكث عهده ، ونقض ميثاقه ، ورد رأي الخليفة قبله » ⁽¹⁰¹⁾ .

وقال خزيمة ابن خازم : « يا أمير المؤمنين ، لم ينصحك من كذبك ، ولم يغشك من صدقك ، لا تجرى القواد على الخلع ، فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد ، فينكثوا عهدك وبيعتك ، فإن الغادر مخذول ، والنكاث مغلول . فأقبل الأمين على علي ابن عيسى ابن ماهان ، فتبسم وقال : لكن شيخ الدعوة ، ونائب هذه الدولة لا يخالف على إمامه ، ولا يوهن طاعته . ثم رفعه إلى موضع لم يرفعه إليه قبلها ، لأنه كان هو والفضل ابن الربيع يعينانه على الخلع ، ولج الأمين في خلعه المأمون ، حتى أنه قال يوماً للفضل ابن الربيع : يا فضل ! حياة مع عبد الله ؟ لا بد من خلعه ، والفضل يعده » ⁽¹⁰²⁾ .

وأشار عليه كاتبه اسماعيل ابن صبيح بعدم خلعه ونكث عهده ، فلمّا رأى إصراره على الخلع ، أشار عليه بالكتابة إليه ، يأمره بالقدوم ، فإن قدم ، فعل به

(99) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 130 . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج : 6

ص : 227 وما بعدها . ابن الطفطقي ، الفخري في الأدب السلطانية ص : 213

(100) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 130 .

(101) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 228 وما بعدها .

(102) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 228 وما بعدها .

ما يريد⁽¹⁰³⁾ وأما يحيى ابن سليم فإنه قال : « يا أمير المؤمنين ! كيف تفعل ذلك مع ما قد أكد الرشيد من بَيْعَتِهِ ، وأخذ الشرائط في الكتاب الذي كتبه ؟ فقال الأمين : إن رأي الرشيد كان فلتة شبهها عليه جعفر ابن يحيى »⁽¹⁰⁴⁾ .

كتب الأمين لأخيه ، يدعوهُ للقدوم عليه ، فأبى وجرت بينهما مكاتبات طويلة ، حاول كل منهما قتل صاحبه عن رأيه . ولكن بطانة كل منهما كانت تشحذ همة صاحبه في المضي بما خطط له ورسمه ، فما كان من الأمين إلا أن قطع الخطبة لأخيه ، وأمر بالدعوة لابنه موسى ، وسماه الناطق بالحق ، وولاه خراسان ، وجهز علي ابن عيسى ابن ماهان بجيش كبير ، ووجهه إلى خراسان ، وأمره أن لا يؤجل المأمون إلا ثلاثاً .

التقى ابن ماهان بقائد المأمون طاهر ابن الحسين ودارت رحى معركة كان النصر فيها لطاهر ، فوجه الأمين عبد الرحمن الأنباوي بجيش آخر من الأبناء ، لكنه لقي مصير ابن ماهان ، وتوالت انتصارات طاهر حتى حاصر بغداد مع هرثمة ابن أعين وعبد الله ابن مالك ، وقُتِلَ الأمينُ ، وتمت البيعةُ للمأمون⁽¹⁰⁵⁾ .

وسنحاول الآن تلمس الصراع الشعوبي والنزاع العربي الفارسي في هذه الفترة بين الأخوين ، إضافة إلى عهد المأمون لعلي الرضا بولاية العهد من بعده ! ونتساءل : هل الصراع بين الأمين والمأمون صراع بين العرب والفرس ؟ كما زعمت زاهية قدورة¹⁰⁶ ، أم كان تنافساً على السلطة بين الأخوين ، حطب فيه جماعة من المستفيدين ، ودفع الشعب بأكمله ضريبة هذا التنافس ؟ هل أعرضت الشعوبية عن الأمين ، وانخرطت تقاتل في صفوف المأمون ؟ والبيعةُ لعلي

(103) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 392 وما بعدها .

(104) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 229 وما بعدها .

(105) ينظر الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 394 وما بعدها . المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3

ص : 397 وما بعدها . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 222 وما بعدها . ابن

الطقطقي ، الفخري في الأداب السلطانية ، ص : 213 وما بعدها .

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، في أخبار من ذهب ، ج : 1 ص : 342 وما بعدها .

الرضا ، هل كانت استداراً لعطف الخراسانيين الفرس ، أم محاولة لغمد السيوف الشيعية في كل من العراق وشبه الجزيرة العربية ؟

لقد رأت زاهية قدورة ، أنَّ الأمين قد أحاطت به بطانة من العرب أو ممن يميل إليهم كالفضل ابن الربيع ، وعلي ابن عيسى ابن ماهان وبكر ابن المعتمر والسندي ابن شاهك ، في حين أنَّ المأمون قد انحاز إلى المعسكر الفارسي ، وأحاط نفسه ببطانة شعوبية على رأسها الفضل ابن سهل وهرثمة ابن أعين ، وطاهر ابن الحسين وابنه عبد الله ، وأنَّ الفتنة بين الأخوين تمثل فيها النزاع الشعبي والصراع العربي الفارسي أصدق تمثيل⁽¹⁰⁷⁾.

فهل كان الفضل ابن الربيع عربياً أو يميل إلى العرب ؟ أم أنه كان يميل إلى السلطة ويماليء السلطان الأقوى ؟ إنَّ لم تكن وشايته بالبرامكة دليلاً على ميله للسلطة وحبه للإستئثار بها ، فبقوله بعد وفاة الرشيد لدليل كافٍ على ميوله وأهوائه ، فقد قال بعد موت الرشيد « لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره »⁽¹⁰⁸⁾ .

فانحيازه لجانب الأمين لم يكن بدافع الغيرة على العرب بقدر ما كان حرصاً على استمراره بالسلطة وخوفاً من غضب الأمين . وقدورة نفسها تقول عنه « وكانت تدفع الفضل ابن الربيع دوافع شخصية »⁽¹⁰⁹⁾ . وأمّا علي ابن عيسى ابن ماهان ، فقد كان يطمع بولاية خراسان ، ويظهر منه أنه على استعداد لفعل أي شيء للوصول إلى غايته ، وربما كان يطمع بالإستقلال بها عن الدولة ، وقد ارتاب به الرشيد أكثر من مرة⁽¹¹⁰⁾ .

أمّا القوة العسكرية التي كانت تقاتل عن الأمين فلم تكن من العرب فقط .

(156) زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها السياسي والإجتماعي ، ص : 222 .

(107) زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها السياسي والإجتماعي ، ص : 222 .

(108) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 223 .

(109) زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها السياسي والإجتماعي ، ص : 227 .

(110) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 100 .

وإنما كان عمادها الأبناء وجل هؤلاء كان من الأعاجم⁽¹¹¹⁾ .

وعلى الأمين ثار السفيناني ، وما أظنه ثار بالعجم أو استنصر بهم⁽¹¹²⁾ أضف إلى ذلك ظهور النزعة الشعبية في جند الأمين ظهوراً واضحاً وتورطها في معارك ضد العرب ، لَمَّا حاول عبد الملك ابن صالح أن يجعل من عرب الشام وفلسطين كتلة في وجه المأمون ، فافتعل أبجد الأبناء عراقاً مع بعض الزوا قيل بسبب دابة ، وجرت الحرب بين العرب والأبناء وقد تزعم الأبناء وقتشد الحسين ابن علي ابن عيسى ابن ماهان ، وقد ارتاب بنوايا الأمين ، فعاد بجنده إلى بغداد وحرصهم على الوثوب بالخليفة وخلعه ، فخلعه وسجنه وباع للمأمون⁽¹¹³⁾ .

وأبونواس الشاعر الشعبي المشهور لازم بغداد ومدح الأمين .

أما المأمون ، وإن اتخذ من مرو عاصمة اضطرارية له ، فإنَّ جلَّ أصحابه من العرب كانوا ، وليس من العجم ، وإنَّ غلب عليه الفضل ابن سهل وكان مقدماً عنده ، فلشدة إخلاصه له ، وحسن تأتبه للأمور ، أضف إلى ذلك أنَّ قواده من العرب قد امتنعوا في البداية عن المساعدة على تأجيج العداوة بين الأخوين ، لا لميلهم للأمين ولكن لظنهم أنَّ الأمور قد تسوَّى بين الأخوين بالتالي هي أحسن .

والفضل إنَّ حرص الخراسانيين على القتال في صف المأمون بقوله : « ابن اختنا وابن عم رسول الله »⁽¹¹⁴⁾ فقد تقرب من العرب وحاول عطفهم على المأمون ، والمأمون لم يستوزره ، إلَّا بعد أنَّ رفض قواده من العرب أنَّ يكون أحدهم بهذا الموضع منه⁽¹¹⁵⁾ .

(111) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 154 .

(112) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 155 .

(113) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 161 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 257 وما بعدها .

(114) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 225 .

(115) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 224 وما بعدها .

والمأمون لم يصل إلى الخلافة ولا حازها لولا عناية الفضل ابن سهل فقد شُغِبَ الجند على المأمون بعد توجيهه طاهر ابن الحسين لقتال علي ابن عيسى ابن ماهان ، فهم بالهرب ، فمنعه الفضل من ذلك وما زال يترقب بالجند ، حتى جاءت البشائر بانتصار طاهر⁽¹¹⁶⁾ .

وبعد ، هل كان هرثمة ابن أعين شعوبياً ؟ وهو من العرب ورجالاتها المعدودين ، وكذلك عبد الله ابن مالك ، وشبيب ابن حميد ابن قحطبة وعبد الرحمن ابن عبد الملك ، هل كل هؤلاء فقدوا الحس بعروبتهم ، وتجنّدوا لخدمة الشعوبية ؟

كان الفضل ابن سهل شعوبياً وكذلك كان أخوه ما في ذلك شك ، لكنّه مع ذلك كان شديد الإخلاص للمأمون وذلك لسببين :

أولاً : طمعه بالسلطة ، فإزاحة المأمون عن طريق الخلافة ، يعني القضاء على مستقبله السياسي .

ثانياً : إنّ انتصار المأمون يؤمن له السير بمخططة الشعوبية قدماً إلى الأمام . وهو في سبيل ذلك اغتال هرثمة ابن أعين ، لأنّه حاول تحذير المأمون من خططه الشعوبية⁽¹¹⁷⁾ وأبعد طاهر ابن الحسين لأنّه يقضي على آماله بتزعّم المعسكر الشعبي⁽¹¹⁸⁾ .

فالصراع بين الأخوين لم يكن إذن صراعاً بين العرب والفرس ، ولم يأخذ طابعاً عنصرياً حاداً ، كما يحاول تفسيره بعض المحدثين⁽¹¹⁹⁾ وإنّ تداخلت فيه النزعات العربية والفارسية ، فقد تداخلت فيه نزعات أخرى ، كأطماع القادة الشخصية ، سواء أكانوا عرباً أو من الفرس ، أضف إلى ذلك عوامل اقتصادية غذّت الصراع وساعدت في حسمه لصالح المأمون . والنزعة الشعوبية وُجِدَتْ في

(116) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 2 ص : 351.

(117) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 236 وما بعدها .

(118) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 226.

(119) زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 222.

معسكر الأمين ، كما وُجِدَتْ في معسكر أخيه . ولعل ما حصل في جند عبد الملك ابن صالح كاف لتصوير الحس الشعوبي لدى الأبناء ، وهم عظم العسكر في جند الأمين .

وذلك أنَّ الأمين كان قد أطلق عبد المالك ابن صالح من سجن الرشيد لما تولى الخلافة ، فاعتبر عبد الملك إطلاقه مُنَّةً من الأمين عليه ، وأراد مكافأته عليها ، فاقترح على الأمين أن يوليه الشام ، ليصنع له من عربها جنداً ينصرونه في نضاله ضد أخيه ، فؤلاه الشام والجزيرة ، وقواه بالمال والجند ، فكتب عبد الملك عرب الشام بالقدوم عليه ، فقدموا ، واجتمع له منهم الكثير ، لكنَّ الأبناء ، وهم عامة من قدم مع عبد الملك من بغداد ، شعروا بملامح خطة سياسية يدبرها عبد الملك ، فافتعلوا نزاعاً مع عرب الشام ، بسبب دابة كانت مع بعض الزواquil ، فادَّعى أحد الأبناء ملكيتها ، وهاجت عصبيتهم ضد العرب خاصة بعد قول عبد الملك - وقد علم نبأ المعركة الأولى ، وكان مريضاً مدنفاً - : « واذلاه ، تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها »⁽¹²⁰⁾ فاستؤنفت المعركة من جديد ، فتشتت الأعراب ، وعاد الحسين ابن علي ابن ماهان بجنده إلى بغداد ، وقد اضطغن على الأمين واعتقد أنه يدبر للخلاص من الأبناء ، فاستقبلته بغداد بحفاوة بالغة شارك فيها عامة القواد والرؤساء والأشراف ، وأرسل الخليفة بطلبه ، فأبى ، وقال : ما أنا بملء ولا مغن ولا مضحك ولا مسامر . فلما أصبح جمع الأبناء إليه ، وكلمهم ، فقال : « يا معشر الأبناء ، إنَّ خلافة الله لا تتجاوز بالبطر ، ونعمه لا تستصحب بالتجبر والتكبر ، وإنَّ محمداً يريد أن يوتغ أديانكم ، وينكث بِيَعْتَكُمْ ، ويفرق جمعكم ، وينقل عزكم إلى غيركم ، وهو صاحب الزواquil بالأمس ، وبالله إنَّ طالت به المدة ، وراجع من أمره قوة ، ليرجعن وبأل ذلك عليكم ، وليعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم ، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم »⁽¹²¹⁾ .

(120) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 161 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 258-259 .

(121) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 163-165 . =

وثار بالأمين فخلعه وسجنه ، وأخذ البيعة للمأمون ، فطالب الجند بأرزاقهم ، فلم يُعْطَوْا ، فشغبوا عليه ، واغتتم محمد ابن أبي خالد ذلك - وهو من شيوخ الأبناء ، وقد نفس على الحسين بن علي زعامته - فحرض الجند عليه ، وساعده في ذلك أسد الحربي وآخرون ، فقاتلوا الحسين وأسرّوه ، وكسروا قيود الأمين ، وأجلسوه على كرسي الخلافة ، وجاؤا بالحسين أسيراً ، فلامه الأمين ، ثم عفا عنه ، وقلده ما وراء بابه ، لكنه حاول الهرب ، فُقْتِلَ ، واختفى الفضل ابن الربيع !⁽¹²²⁾ .

وإذا كان عجباً أن يُؤْتَى بالحسين أسيراً للأمين وقد تأكد عداؤه فيطلقه ، ويقلده أموره ، فأعجب من ذلك هرب الحسين ومحاولته الوصول إلى معسكر طاهر واختفاء الفضل ابن الربيع في الوقت نفسه ، ولعلّ مؤامرة قد تآمر بها الرجلان ، فلما قُتِلَ حسين ، خاف الفضل من كشف أمره ، فاختفى لذلك .

أما في معسكر المأمون ، فقد قويت الشعوبية واشتد أمرها وذلك لأسباب منها :

— أن قادة العرب وعلى رأسهم عبد الله ابن مالك ، قد أفسحوا الطريق أمام الفضل ابن سهل ، لتدبير شؤون المأمون عندما أحجموا في البداية عن التدخل بين الخليفة وأخيه ، وقالوا : « هذا أمر لا يحلّ . . . من الذي يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه »⁽¹²³⁾

— نجاح الفضل ابن سهل بقيادة الحزب المأموني ، وتأليفه أبناء العرب حوله ، فكان يقول « للتمييز : نقيمك مقام موسى ابن كعب ، وللربيعي مقام أبي داود خالد ابن ابراهيم ، ولليمانني نقيمك مقام قحطبة ومالك ابن الهيثم »⁽¹²⁴⁾

= ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 259 .

(122) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 163-165 .

(123) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 128 .

(124) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 129 .

وتقرب للخراسانيين بأن حط عنهم ربع الخراج ، وضرب على وتر العصية الفارسية ، فذكرهم بنسب المأمون من جهة أمه ، وكان إذا خاطبهم دعاه « ابن اختنا وابن عم رسول الله » (125) .

— نجاح طاهر ابن الحسين القائد الخراساني المشهور بقيادة الجبهة العسكرية .

هذه الأسباب قوّت الروح المعنوية لدى الشعبية ، فنشطت تعمل على تحقيق أهدافها بالسيطرة على الدولة ، وتحويلها شيئاً فشيئاً إلى سلطة فارسية يتزعمها الفضل ابن سهل وأخوه الحسن . فحجب الفضل المأمون ، ومنع عنه من الأخبار إلا ما يراه مناسباً ، وغالباً ما كان يفسر له الحوادث تفسيرات مناقضة لحقيقتها⁽¹²⁶⁾ وقد تناهت هذه الحقيقة إلى العراق وبلاد العرب وتحدث الناس بها ، فكانت سبباً لعدد من الثورات كثورة ابن طباطبا في الكوفة وثورة الحربية في بغداد⁽¹²⁷⁾ .

وكان عبد الله ابن مالك من سادة العرب ومقدميهم عند المأمون فكان الفضل يقع فيه ويدس عليه ويغير على سمعته فيشوّهها في المحافل العامة⁽¹²⁸⁾ ولما حاول هرثمة ابن أعين خرق الطوق المضروب على المأمون وتبصيره بخطورة السياسة التي يتتبعها الفضل وأخوه الحسن ، قام الفضل بتشويه صورته عند المأمون ، ونسب إليه من الأمور كلّ أمر مستفطع ومكروه ، فلما وصل هرثمة إلى المأمون لم يسمع منه وأمر به إلى السجن ، فدبر له الفضل من اغتاله⁽¹²⁹⁾ .

أمّا شعبية طاهر ابن الحسين وآله ، فقد ظهرت بشكليها السياسي والأدبي .

(125) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 225.

(126) أنظر رأى عبد العزيز الدوري في الفضل ابن سهل : الجذور التاريخية للشعبية ، ص : 39.

(127) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 227.

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 26 وما بعدها .

(128) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 1 ص : 369.

(129) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج : 10 ص : 236.

سياسياً : احتال طاهر بشتى الحيل ، حتى ولى حراسان ، فلمّا اشتدت شوكته فيها ، قطع خطبة المأمون تمهيداً للتمرد والعصيان لو أسعفه عمره⁽¹³⁰⁾ ، لكنه استطاع مع ذلك أن يثبّت سلطته ، فتعاقب عليها أبناؤه بعده ، وارتبطوا إسمياً بالخلافة ، ساعدتهم على ذلك طموحهم وانتشار الوعي الفارسي⁽¹³¹⁾ .

وأدبياً : بتغني طاهر وآله بقتلهم الخليفة ، فكان طاهر يقول : « قتل خليفة وسقت الخلافة »⁽¹³²⁾ ، وكان ينشد :

« قتل الخليفة في داره وأنهب بالسيف أمواله
ويهدد العرب بشدة فتكه كقوله :

ملكك الناس قسراً واقتداراً وقتلت الجبابرة الكباراً
ووجهت الخلافة نحو مرو إلى المأمون تبدر ابتداراً
وسوف أدين قيس الشام ضرباً يطير من رؤوسهم الشرار⁽¹³³⁾ »

وربما هدد المأمون في بعض شعره ، وافتخر بأن لا سلطة للمأمون عليه ، كقوله :

« غضبت على الدنيا فأنهبت ما حوت وأعتبتها مني بإحدى المتالفِ
قتلت أمير المؤمنين وإنما بقيت عناءً بعده للخلائفِ
وأصبحت في داري مقيماً كما ترى كأني فيها من ملوك الطوائفِ
وقد بقيت في أم رأسي فتكة فإمّا لرشد أو لرأي مخالف⁽¹³⁴⁾ »

(130) مصدر نفسه ، ج : 10 ص : 256-257-265.

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 62-63.

(131) عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص : 41.

(132) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج : 10 ص : 257.

(133) الطبري ، تاريخ الأمم ، ج : 10 ص : 209.

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 354.

(134) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 2 ص : 57.

وافتحخر ابنه عبد الله كذلك بقتل الأمين⁽¹³⁵⁾ ورد عليهما كثير من الشعراء العرب ، ولنا إلى ذلك عودة عند الكلام عن الشعبية والبعد الأدبي .

عهد المأمون لعلي ابن موسى الرضا

لقد أعطى المؤرخون محاولة المأمون في نقل الخلافة إلى علي ابن موسى الرضا أهمية خاصة إذ اعتبروها محاولة قام بها الفضل بن سهل تمهيداً لنقل السلطة من العرب إلى الفرس ، ولتحويل الدولة العربية إلى ملك كسروي يسيطر عليه المجوس . هذه الاتهامات نفسها كملت للفضل بن سهل على مسمع ومرأى من المأمون ، فقد واجهه نعيم بن خازم : « إِنَّكَ إِنَّمَا تَرِيدُ أَنْ تُزِيلَ الْمَلِكَ عَنْ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى وَلَدِ عَلِيٍّ ، ثُمَّ تَحْتَالُ عَلَيْهِمْ ، فَتَصِيرَ الْمَلِكُ كَسْرَوِيًّا ، وَلَوْلَا أَنَّكَ أُرَدْتَ ذَلِكَ ، لَمَا عَدَلْتَ عَنْ لِبْسَةِ عَلِيٍّ وَوَلَدِهِ وَهِيَ الْبِيَاضُ إِلَى الْخَضِرَةِ وَهِيَ لِبَاسُ كَسْرِيٍّ وَالْمَجُوسِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَأْمُونِ ، فَقَالَ : اللَّهُ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا يَخْدَعُنِكَ عَنْ دِينِكَ وَمَلِكِكَ »⁽¹³⁶⁾ .

لكنَّ المأمون لم يتراجع عن خطته ، ومضى في تنفيذها ، وقد عزت أكثر المصادر القديمة سبب ذلك إلى شعور المأمون مع أبناء عمه ، وما لحقهم من أذى في مختلف العهود ، إضافةً إلى ذلك أنه لم يرَ في ولد العباس وولد علي « في وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من علي ابن موسى الرضا »⁽¹³⁷⁾ فأراد أن يكافئ علياً ، ويرد جميله ، لأنه - أعني علياً - لَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ ، وَلِيَ عَبْدَ اللَّهِ

(135) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 57-59.

(136) الجهشباوي ، الوزراء والكتاب ، القاهرة 1938 ص : 313.

(137) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 243.

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 28.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 326.

ابن الطقطقي ، الفخري في الأداب السلطانية ، ص : 217.

ابن عباس البصرة ، وعبيد الله ابن عباس اليمن ، وقثم بن عباس البحرين ،
« وما ترك منهم أحداً إلاّ ولاه »⁽¹³⁸⁾ .

هذا ما روته العديد من المصادر التاريخية الموثقة عن سبب العهد لعلي ابن
موسى الرضا ، إضافة لميل المأمون إلى التشيع ، وإظهاره العطف عليهم حتى
بعد وفاة الرضا والعودة إلى السواد .

فهل كان المأمون مؤمناً بما يقول ويظهر ، وهذا الإيمان هو السبب في
استدعائه علي الرضا وأخذ البيعة له بولاية العهد ؟ أم إنّ هذا الشعور والإيمان
الديني كان غلافاً لخطة سياسية تضمن وقوف الشيعة إلى جانبه ؟

لقد مال الدوري إلى القول بأنّ المأمون أراد من وراء البيعة كسباً سياسياً ،
ووافقته زاهية قدورة على ذلك⁽¹³⁹⁾ وفي محاوراة المأمون لعلي بن موسى تأكيد
على هذا الأمر ، فقد سأل المأمون علياً : « بمّ تدعون هذا الأمر ، قال : بقرابة
علي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقرابة فاطمة منه . فقال له
المأمون : إنّ لم يكن ها هنا إلاّ القرابة ، فقد خَلَفَ رسول الله (ص) من أهل
بيته ، من كان أقرب إليه من علي ، أو من في مثل قعدده ، وإنّ كان بقرابة فاطمة
منه ، فإنّ الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلي في هذا الأمر حق
وهما حيان ، فإذا كان الأمر كذلك فإنّ علياً قد ابتزهما حقهما ، وهما صحيحان ،
واستولى على ما لا يجب له ، فما أجابه علي ابن موسى بشيء »⁽¹⁴⁰⁾ .

فالمأمون لم يكن يؤمن بحق علي وأبنائه في الخلافة ، وموقفه الإيجابي من
علي ابن موسى لا يمكن تفسيره بأكثر من صفقة سياسية أراد من خلالها المأمون
لا تحييد طرف في المعركة فحسب ، وإنّما كسبه إلى جانبه ، وهو شيعة آل علي ،
وذلك أنّ المأمون رأى في ثورات الشيعة المتتالية خطراً يهدد سلطانه ، ويبيث

(138) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 334 .

(139) زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها . ص : 298-299 .

(140) ابن عبد ربه ، المقد الفريد ، ج : 2 ص : 198 .

الإضطراب في أرجاء مملكته ، فأراد بصنيعه ذلك ، أن يخمد الثورة الشيعية في وجهه ، وأن يوجه سيوفها إلى نصرته والقضاء على جيوب المقاومة له في بغداد والعراق . فقد سبقت بيعته للرضا ثورات شيعية في كل من الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن⁽¹⁴¹⁾ وكان سبب هذه الثورة المتشعبة « تحدث الناس بالعراق - بينهم - أن الفضل بن سهل قد غلب المأمون ، وأنه قد أنزله قصرًا حجب فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يبرم الأمور على هواه ، ويستبد بالرأي دونه ، فغضب لذلك بالعراق من كان بها من بني هاشم ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل »⁽¹⁴²⁾ .

فالفضل بن سهل لم يكن شيعياً ولا ثقة عند الشيعة ومن أجل تسلطه قامت ثورتهم ، وإن يكن وافق المأمون على خطته ، فأحسبه أراد من ذلك أن يقول الناس ببغداد : هذا من عمل الفضل بن سهل ، فتتحول الشيعة من معارضة له إلى مؤيدة ومعاوضة ، فوقف إلى جانب المأمون وحسن له الرأي في أمر البيعة .

نجح المأمون في تنفيذ خطته ، وتحولت شيعة الكوفة إلى مناصرته ، واندفعوا يقاتلون في صفوفه أهل بغداد ، وقام بأمرهم العباس ابن موسى وأخو أبي السرايا⁽¹⁴³⁾ .

لكن الفضل بن سهل لم ينجح في التقرب منهم ، ولم تنطل مواقفهم على علي الرضا ، الذي أدرك نواياه وما يعمل له من حجب المأمون ، ومنع الأخبار عنه ، وحكم الأمبراطورية الإسلامية نيابة عنه ، فدخل على المأمون وصارحه بنوايا الفضل وصنيعه ، وتمويهه عليه ، وأخبره أن أهل بغداد قد صيروا عمه إبراهيم بن المهدي خليفة ، وأنهم ينقمون عليه مكان الفضل والحسن ابني سهل منه ، ومكان بيعته لعلي الرضا بولاية العهد ، وأن وجوه أهل العسكر يعلمون ذلك ،

(141) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 27-26 .

(142) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 227 .

(143) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 246 .

فاستدعاهم المأمون ، وسألهم ، فما اجترؤوا على إخباره بشيء حتى أمَّتهم من الفضل بن سهل ، فأبانوا له حقيقة الأمر ، وما صنع ، ويصنع ابن سهل ، فأمر بالمسير إلى بغداد ! ولما علم ابن سهل بما جرى ، تعتتهم ، فضرب بعضهم ، وحبس بعضاً ، ونسف لحى البعض الآخر ، ممَّا اضطر علي الرضا لمعاودة المأمون وتبصيره ، بما آل إليه أمر الفضل ، وتذكيره بأمانه لهم ، فأجابه المأمون : « أنه يداري ما هو فيه »⁽¹⁴⁴⁾ .

فابن سهل قد أحكم السيطرة على خراسان ، فالأمر فيها له لا للمأمون ولا لأحد من قواده ، وسلطة علي الرضا لا تعدو الجراءة الأدبية التي دفعته لتبصير المأمون بخط ابن سهل الشعبية ، ومغبة الركون إليه . فكيف تكون بيعة المأمون للرضا بهدف التقرب من أهل خراسان وهي خاضعة للفضل ومركز قوته⁽¹⁴⁵⁾ .

وإذا كان خلفاء بني العباس قبل المأمون قد ساروا على نهج للنظرية التي تقول : « إذا كان الوزير يساوي الملك ، في المال والهيبة والطاعة من الناس فليصرعه الملك ، وإن لم يفعل ، فليعلم أنه المصروع »⁽¹⁴⁶⁾ فإنَّ المأمون قد طبق النظرية بعينها ، ولكن بحنكة أكثر ودهاء أشد ، فإنه لم يبطش بمن أراد التخلص منهم جهرة ، ولكنه استعمل أساليب أنفع وأنجح من ذلك ، فدبر خطة لاغتيال الفضل بن سهل ، ثم قتل قتلته ، وأرسل رؤوسهم إلى أخيه الحسن بن سهل⁽¹⁴⁷⁾ ومن بعده تخلص من علي الرضا عن طريق السم ، وأرسل إلى بني العباس : أنكم ، إنْ نقمتم مكان علي ابن موسى مني ، فقد مات ، فردوا عليه بأغلظ جواب واستمروا بمعاندته⁽¹⁴⁸⁾ ، وكانوا قد ثاروا عليه قبل بيعته للرضا ، وحاربوا

(144) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 249 وما بعدها .

(145) أنظر زاهية قدورة ، الشعبية وأثرها . . ص : 299 وما بعدها . وقد زعمت أن المأمون بايع للرضا طلباً لكسب أهل خراسان وتأييدهم له .

(146) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 45 .

(147) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 250 .

(148) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 251 ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 28

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 6 .

نائبه الحسن ابن سهل حتى أخرجه من بغداد⁽¹⁴⁹⁾ ، تابع المأمون سيره الى بغداد ، فلَمَّا قرب منها اختفى عمه ابن شكلة ، فدخل بغداد وشعاره الخضرة ، ثم عاد الى السواد بعد أن كلمته زينب بنت سليمان ابن علي في ذلك⁽¹⁵⁰⁾ وكان نتيجة الصراع على السلطة في عهده ، أنه وإن لم يكن في جوهره صراعاً بين العرب والفرس ، فقد تداخلت فيه خيوط العصبية العرقية ، وانفسح المجال للشعبوية ، فنشطت في معسكر الأمين كما نشطت في معسكر المأمون على حد سواء . وكان انتصارُ المأمون على أيدي فارسية خُراسانية إرهاباً آخر للشعبوية ، فنشطت في عهد المأمون بحرية لم تيسر لها في العهود السابقة . وأصبح للشعبوية رموز علنية في السلطة تجاهر بآرائها ، لا تخشى بطش الخليفة ولا تخاف سلطانه ، وإنما تذكره دائماً بما لها من أياد عليه بقتل أخيه وسوق الخلافة إليه . ولما فشل الفضل ابن سهل في مخططة الشعوبية ، تحرك بابك الخرمي ، ورأى الظروف مؤاتيةً ، فعمل لاجتثاث المسلمين وسحقهم جهده⁽¹⁵¹⁾ وكان قتلُ الأمين أوّل تعدي على حرمة الخلافة العباسية ، وكان أول خليفة يقتل على أيدي مواليه ، ولم يعد المأمون وخلفاؤه من بعده ، ينظرون الى مواليهم وقوادهم ، نظرة المنصور أو الرشيد ، وإنما كإخوان لهم ، يوجبون لهم على أنفسهم الشكر ، وقد شكر المأمون عبد الله ابن طاهر ، ومدحه بقوله :

«أخي أنت ومولاي ومن أشكر نعماه
فما أحببت من أمر فإنَّ الدهر أهواه
وما تكره من شيء فإنني لست أرضاه
لك الله على ذاك لك الله لك الله»⁽¹⁵²⁾

(149) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 238 وما بعدها .

(150) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 334 .

(151) راجع ما كتب عن البابكية في هذه الرسالة .

(152) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 276 .

وأكثر من ذلك ، فقد كتب إليه المعتصم ، يفدّيه ، وكان عليلاً :

« أعزز عليّ بأن أراك عليلاً أو أن يكون بك السقام نزيلاً
فوددت أني مالك لسلامتي فأعيرها لك بكرة وأصيلاً
فتكون تبقي سالمًا بسلامتي وأكون مما قد عراك بديلاً
هذا أخ لك يشتكي وكذا الخليل إذا أحب خليلاً »⁽¹⁵³⁾

ولكنّ هذا لا يعني استسلام الجبهة العربية ، فحاول عبد الملك بن صالح الإستعانة بعرب الشام ، وتشكيل جبهة منهم للوقوف بوجه الشعوبية وأطماعها لكنّ القدر لم يفسح له في ذلك ، فتوفي قبل أن يستكمل ما كان بدأه . وانتشرت الثورات في العراق وبلاد العرب على ابني سهل بالرغم من مقتل الأمين ، وقد شارك فيها السنة والشيعة على السواء و« اشتعلت الثورة في العراق والجزيرة العربية حول الراية الشيعية ، ما دام الخليفة العباسي يسير في دائرة فارسية »⁽¹⁵⁴⁾ ودفع الفضل بن سهل ثمن سياسته التي انتهج . ولمّا تطاول طاهر بن الحسين وجاهر بالعصيان سرعان ما جاءه العقاب الأليم .

كما كان للجانب الإقتصادي دور في صراع الأخوين ، فخراسان استوثقت للمأمون لمّا حط ريع الخراج عنها ، وكثيراً ما كان الجند ، يشغبون في هذا الجانب أو ذاك طمعاً في المال ، وينحازون من معسكر إلى نقيضه⁽¹⁵⁵⁾ وقد أدرك المأمون تأثير الإقتصاد والمال على الشعب في ولائه لهذا الحاكم أو ذاك ، فقال للفضل بن سهل : « قد كان لأخي رأي لو عمل به لظفر . فقال الفضل : ما هوى أمير المؤمنين ؟ قال : لو كتب إلى أهل خراسان وطبرستان والري وديباوند أنّه قد وهب لهم الخراج لسنة ، لم نخل نحن من إحدى خصلتين : إمّا ردّدنا فعله ، ولم نلتفت إليه ، فعصانا أهل هذه البلدان ، وفسدت نيّاتهم ، فانقطعوا عن معاونتنا . وإمّا قبلناه ، وأمضيّناه ، فلا نجد ما نعطي منه من معنا ، وتفرق

(153) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 253.

(154) عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص : 40

(155) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 172 وما بعدها .

جندنا ، ووهى أمرنا ، فقال الفضل : الحمد لله الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه (156) .

وانكشفت الرؤية أمام بصر الأمين ، فعلم بعد فوات الأوان أنّ الكُلَّ به طامع من معه ومن عليه ، فقال : « وددت أنّ الله قتل الفريقين جميعاً ، فما منهم إلا عدو : من معي ومن علي ، أمّا هؤلاء فيريدون مالي ، وأمّا أولئك فيريدون نفسي ، وقال :

تفرقوا	ودعوني	يا معشر الأعوان
فكلكم	ذو وجوه	كثيرة الألوان
وما أرى	غير أفك	وترهات الأماني
ولست أملك	شيئاً	فسائلوا إخواني
فالويل	فيما دهاني	من نازل البستان

يعني طاهر بن الحسين (157) » .

إضافة إلى ذلك فقد ظهرت فئة من الشعب تدعو الناس إلى التفرق عن المتقاتلين ، ولا ترى في ذلك القتال منفعة إلا للمغامرين أصحاب الأطماع وكان لسان حالهم يقول :

إذا ما العيش ساعدنا فلسنا نبالي بعدُ من كان الإماماً (158)

خلافة المعتصم وبدا النفوذ التركي :

تُوَفِّي المأمون ، قُبُوعَ لأخيه أبي إسحاق محمد المعتصم بالخلافة من بعده ، وكان المعتصم قد ضاق ذرعاً بالشعبوية ومحاولتها في التسلل إلى السلطة مرة بعد أخرى ، حتى قويت واشتد أمرها في زمن المأمون .

(156) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 1 ص : 87 .

(157) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 418 .

وكان الصراع بين الأمين والمأمون ، قد استنفد العصبية العربية ، وأفقدوها زخمها ، مما حمل المعتصم أن يَكِلَ أمرَ سلامته الشخصية إلى فرقة من الموالي بعضها من البربر وغالبيتها من الأتراك ، وقد أقبل هؤلاء من بلاد ما وراء النهر ، بعضهم عن طريق النخاسة والبعض الآخر على سبيل الجزية يؤديها الأمراء الوطنيون إلى خزانة الدولة⁽¹⁵⁹⁾ .

لم يلبث هؤلاء الترك أن كثروا لدى المعتصم خاصة بعد توليه الخلافة ، وكانوا حفاة عجماً ، يركبون الدواب ، ويتراكمون في شوارع بغداد وأسواقها ، فتأذت منهم العامة ، وربما ثار الناس ببعضهم ، فقتلوه أو جرحوه . فشكت ذلك الأتراك إلى المعتصم ، فعزم على الخروج بهم من بغداد⁽¹⁶⁰⁾ وقد تَخَوَّفَ من ثورة البغداديين عليه وعلى أتراكه ، خاصة ، وأنه كان يتخوف الحربية من الأبناء ، ويخشى وثوبهم عليه وعلى أتراكه ،⁽¹⁶¹⁾ فخرج من بغداد يرتاد موضعاً لعسكره ، فأعجبه موقع سامراء وجودة مناخه فبنى له قصراً في الوزيرية ، وأقطع القطائع للأتراك ، وجاورهم بالفراغة والأشروسية وغيرهم .

وكان جنده يتألف من عناصر متعددة منهم الأتراك الذين خصهم بزي مميز عن سائر جنده ، ومنهم المغاربة وهؤلاء عرب وبربر ، ومنهم الخراسانيون من الفراغة والأشروسية⁽¹⁶²⁾ .

وبصنيعه هذا ، مهّد للأتراك السبيل للتحكم بمصير الدولة والخلافة بعد وقت قصير ، وقد أحس ابن سعد بخطر هؤلاء الأتراك المستقبلي على العرب ،

(158) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 84 وما بعدها .

(159) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 155 .

بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص : 208 .

(160) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 309 وما بعدها .

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 53 وما بعدها .

الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 3 ص : 346 .

(161) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 450 وما بعدها .

(162) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 53 وما بعدها .

فروى حديثاً مفاده أَنَّ الترك سِيرَدُونُ العرب في يوم من الأيام إلى بواديهم⁽¹⁶³⁾ .

ازداد عدد الأتراك في جند المعتصم بسرعة حتى بلغوا بضعة عشر ألفاً⁽¹⁶⁴⁾ وصار لهم من القوة والنفوذ ما خشيه المعتصم نفسه ، فندم على اصطناعهم وحرار في أمرهم⁽¹⁶⁵⁾ وقد هجاه دِعْبِلُ الخزاعي ، وشَنَّعَ عليه اصطناع الأتراك واستبداد الفضل ابن مروان بأمر الخلافة ، فقال :

« ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيار إذا عُذُّوا وثامنهم كلبُ
وإني لأعلي كلبهم عنك رفقة لأنك ذو ذنب وليس له ذنبُ
لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وفضل ابن مروان يثلم ثلثة يظل لها الإسلام ليس له شعبُ »⁽¹⁶⁶⁾

وكان الفضل ابن مروان ابن ماسرخس ، قد اتصل بالمعتصم قبل الخلافة ، فصيره المعتصم وزيراً ، فصار صاحب الخلافة ، وصارت الدواوين كلها تحت يده ، فاكتر الأموال ، ومنع الخليفة منها ، واعتل عليه بالعلل ، وصارت له دالة على الخليفة ، فكان يعترض عليه في رد بعض أموره ، وكثر الناقمون عليه ، فهدسوا أحد المضحكين ، وهو المعروف بالهفتي ، فقال للمعتصم : « إنَّما لك من الخلافة الإسم ، والله ما يجاوز أمرك أذنك ، وإنَّما الخليفة الفضل بن مروان الذي يأمر ، فينفذ أمره من ساعته »⁽¹⁶⁷⁾ فحقق المعتصم على وزيره الفضل ، وحد من صلاحياته ، لكنَّه لم يجرؤ على عزله ومصادرة أمواله إلَّا بعد خروجه من بغداد إلى القاطول⁽¹⁶⁸⁾ وكان جملة ما أُخِذَ منه من الأموال مليون دينار نقداً وبقيمته أثاثاً وآنية . وهذا المصير تنبأ له به أحد الشعراء ، فقال :

(163) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص : 209 .

(164) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 3 ص : 346 .

(165) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 11 ص : 9-8 .

(166) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 312 .

(167) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 312 .

(168) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 313 وما بعدها .

« تفرغت يا فضل ابن مروان فاعتبر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم أبادتهم الأقياد والحبس والقتل
وإنك قد أصبحت في الناس ظالماً ستودي كما أودى الثلاثة من قبل⁽¹⁶⁸⁾ »

وثبت في وزارة المعتصم محمد ابن عبد الملك الزيات ، فكان الغالب على أمره هو والقاضي أحمد ابن أبي دؤاد الذي مثل الجناح العربي في دولة المعتصم ، وعرف كيف يستحوذ على قلب الخليفة ، حتى قال بعض معاصريه : « ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد ، وكان (المعتصم) يُسأل عن الشيء اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دؤاد ، فيكلمه في أهله وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد⁽¹⁷⁰⁾ . وكان المعتصم « لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه⁽¹⁷¹⁾ » .

هذا النفوذ الذي تمتع به ابن أبي دؤاد وظّفه بعناية لخدمة المصالح العربية ، فكان المدافع الناجح عن رجالاتها وقضاياها ، وكان المعتصم يرتاح لهذا الدور ، ويقدره لابن أبي دؤاد⁽¹⁷²⁾ وقد ظهر تعصبه للعرب والعروبة في أجلى صوره ، لما دخل على الأفشين ، وقد همّ الأخير بالفتك بأبي دلف القاسم ابن عيسى العجلي ، وكان الأفشين ، يحسده للعربية والشجاعة ، فحاول بكل ما أوتيهِ من قوة منع الأفشين من قتله . فلما فشل في استئلال الضغينة من قلب الأفشين ،

(169) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 221.

(170) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 83.

(171) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 84.

(172) كان المعتصم مع ندمائيه ، وقد عزم على الإصطباح ، إذ بصر بغلام أحمد ابن أبي دؤاد ، فقال : « هذا غلام ابن أبي دؤاد يتعرف خبرنا والساعة يأتي ، فيقول : فلان الهاشمي وفلان القرشي وفلان الأنصاري وفلان العربي ، فيعطلنا بحوائجه عما عزمنا عليه ، وأنا أشهدكم إنني لا أقضي اليوم له حاجة » ولما حضر ابن أبي دؤاد انبسط له المعتصم ، وقضى له جميع حوائجه ، ولما تركهم فرضه المعتصم بكلام حسن .

انظر المسمودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 97 وما بعدها .

وقف ، فقال له : إنّه رسول المعتصم إليه ، يأمره أن لا يحدث بالقاسم حدثاً ،
وأشهد العدول على تأديته الرسالة ، وقام من فوره ، فدخل على المعتصم وأعلمه
بصنيعه ، فاستحسن الخليفة ذلك وأقرّه عليه⁽¹⁷³⁾ .

وأتهم خالد ابن يزيد ابن مزيد الشيباني باحتجان الأموال ، وغضب عليه
المعتصم ، فشفع له ابن أبي دؤاد ، وخرج والخلة تخفق على رأسه ، والناس
يتوقعون الإيقاع به ، فصاح به رجل : « الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب ،
فقال : مه ، سيد العرب - والله - ابن أبي دؤاد »⁽¹⁷⁴⁾ .

لكن موقف المعتصم من ابن دؤاد كان موقفاً شخصياً ، لم يؤثر على
السياسة العامة للسلطة ، ولئن تراجع النفوذ الفارسي في عهده ، فإنّ الموقف
العربي لم يتدعم بهذا التراجع . والحقيقة أنّ النفوذين العربي والفارسي ، قد
تراجعا ليفسحا الطريق أمام نفوذ جديد هو النفوذ التركي . فأصبح النزاع ثلاثياً بعد
أنّ كان ثنائياً ، واشتد أواره ، فالخرمية بقيادة بابك واصلت نضالها ضد العرب
ودينهم ، حتى إذا وُقِّ الأفشين بالقضاء عليها وأسر زعيمها بابك ، تكشف مؤامرة
بقيادة العباس ابن المأمون وبتحريض من القائد العربي عجيف ابن عنبسة هدفها
التخلص من المعتصم وسائر قواده من الأتراك⁽¹⁷⁵⁾ وثارَت الخرمية من جديد
بقيادة مازيار وبتحريض من الأفشين نفسه⁽¹⁷⁶⁾ مما زاد في نفوذ الأتراك وسيطرتهم
على الدولة .

ولما توفي المعتصم وتولى ابنه الواثق الخلافة ، لم يلبث أن توج أشناس

(173) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 82

(174) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 2 ص : 60 .

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 87 .

(175) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 344 وما بعدها .

(176) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 510 ، راجع ما كتب عن الخرمية ومحكمة الأفشين
فيما سبق من الرسالة .

وشاحين بالجواهر⁽¹⁷⁷⁾ فازداد نفوذ الأتراك وتدعمت مواقعهم في السلطة ، وتصرف محمد ابن عبد الملك الزيات في شؤون الخلافة حتى أنه صار يولي الولايات ، ويعقد الألوية⁽¹⁷⁸⁾ وهو أول من فعل ذلك في دار الخلافة وكان ذلك قبل من عمل الخلفاء . واهتزت في أيام الوثائق هية الدولة ، لا سيما في شبه الجزيرة العربية ، وتمردت بعض القبائل ، وقطعت الطرق في الحجاز . لكن بغا الكبير - وهو أحد القواد الأتراك - استطاع تدويخها والقضاء على عناصر الفتنة⁽¹⁷⁹⁾ .

وكان يقاسم الأتراك نفوذهم الفرس ممثلين بعبد الله ابن طاهر الذي كان يتولى مسؤوليات الحرب والشرطة إضافة إلى ولاية السواد وخراسان والري وطبرستان وما يتصل بها وكرمان ، وكانت هذه الإمارة لأبيه من قبل ، فلما توفي ولي الوثائق ابنه طاهر ابن عبد الله مكانه⁽¹⁸⁰⁾ .

النفوذ التركي :

وبوفاة الوثائق ، فقدت الخلافة هيبتها ، واستولى الأتراك على مقدراتها ، وصار الخلفاء العوبة في أيديهم ، يولون من شاؤوا فإذا ملوه ، أو أحسوا منه تغيراً خلصوه وقتلوه ، أو سملوا عينيه ، وباعوا من توسموا فيه الضعف والوهن ، وأول ضحية للأتراك كان المتوكل ، ويعود السبب في توليه الخلافة إلى زعماء الأتراك أنفسهم ، فبعد وفاة الوثائق جيء بابنه محمد ليبايعوه ، فأبى وصيف التركي ، وقال : « أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة » وكان غلاماً صغيراً فتذاكروا فيمن يولوه ، فاستقر رأيهم على المتوكل ، فجاء به بغا الشرايبي ، فبايعه قاضي القضاء أحمد ابن أبي إدوآد ، وسائر قواد الترك⁽¹⁸¹⁾ .

(177) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 9 .

(178) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 18 .

(179) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 12 (من هذه القبائل : بنو سليم وبنو هلال ، وبنو نمير)

(180) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 13 .

(181) م . ن . ج : 11 ص : 26 .

حاول المتوكل أن يرضي أصحاب الحديث ، فألغى القول بخلق القرآن ، وتشدد في أمر النصارى ، وعُفِّ بالشيعية (182) وقتك بمحمد ابن عبد الملك الزيات الذى وزر للمعتصم والوائق ، وصادر ابن أبي دؤاد (183) واصتدم بالأتراك ، وكان أول اصطدامه بإيتاخ الذى كان قد رفعه المعتصم ومن بعده الواائق حتى ضم إليه أعمالاً كثيرة ، وأوكل إليه أمر التخلص ممن اراد الخليفة قتلهم مثل محمد ابن عبد الملك الزيات وأولاد المأمون من سندس وصالح ابن عجيف ، وقد تولى المتوكل وإيتاخ يشغل مناصب هامة في الدولة ، ويتمتع بنفوذ عريض ، فقد كان إليه أمر الجيش والبريد والحجابة ودار الخلافة ، فعربد عليه المتوكل - وكان في حالة سكر - فهُمَّ إيتاخ بقتله ، فلَمَّا أفاق المتوكل من سكره ، حُدِّثَ بما كان منه ، فاعتذر لإيتاخ ، وبدأ يعد العدة للتخلص منه ، فدرس له من حسن في عينه الحج ، فاستأذن في ذلك ، فأذن له ، وفي طريق العودة ، أُشِيرَ إليه ، ليمر في بغداد ، فيجلس لبني هاشم ، ويعطيهم جوائزهم ، وهناك قُبِضَ عليه وأودِعَ السجن حتى مات (184) .

وضاق المتوكل ذرعاً بالأتراك ، فعزم على الرحيل الى دمشق ، فقال يزيد ابن محمد المهلبى يحذره من كيد الأتراك وانقلاب العراقيين عليه :

« أظن الشام تشمت بالعراق إذا عزم الأمير على انطلاق
فإن تدع العراق وساكنيها فقد تبلى المليحة بالطلاق » (185)

وصل الخليفة الى دمشق ، وأظهر عزمه على المقام بها ونقل دواوين الملك إليها ، وأمر بالبناء ، فاستاءت الأتراك ، وشغب عليه الجند ، وطالبوا بأرزاقهم (186) مما أضطر المتوكل للعدول عن رأيه ، والعودة إلى مقره في سامراء ، وكان الأتراك

(182) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 44 .

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 82 .

(183) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 88 — 96 .

(184) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 33 — 34 .

(185) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 114 .

(186) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 55 .

قد حاولوا التخلص منه في الشام فمنعهم منه بغا الكبير ، فأعملوا الحيلة بالتفريق بين الرجلين ، فأوهموا المتوكل أن بغا يريد الفتك به ، وأوهموا بغا أن جماعة من الأتراك ستحاول قتل الخليفة . فلم يَرِ المتوكل إلا الإنتظار حتى الميعاد المضروب ، وأما بغا ، فأقبل بعسكر يحرس الخليفة . والخليفة لا يشك بأنه مقتول ، حتى طلع الصباح ، وبغا يتحرّسه ، والأمر عند المتوكل خلاف ذلك ، فاستوحش من بغا ، فلما أراد العودة الى العراق ، استخلفه على الشام⁽¹⁸⁷⁾.

وفي سامراء وجد الأتراك فرصتهم للتآمر على المتوكل الذي جعل ولاية عهده لثلاثة من بنيهِ : المنتصر والمعتز والمؤيد⁽¹⁸⁸⁾ ، وما لبث التنافس أن ظهر بين المنتصر والمعتز ، ومال المتوكل لولده المعتز بتأثير من عبيد الله ابن يحيى ابن خاقان والفتح ابن خاقان ، في حين مال الأتراك الى المنتصر ، ووجدوا فيه ضالتهم ووسيلة تغطية لما عزموا الإقدام عليه ، فاغتالوا المتوكل في مجلس سمره ، وقتلوا معه الفتح ابن خاقان ، وبايعوا المنتصر بالخلافة ، وأجبروا إخوته على البيعة له . وادعوا أن الفتح قَتَلَ المتوكل ، فُقُتِلَ به⁽¹⁸⁹⁾ .

لم تطل أيامُ المنتصر في الخلافة أكثر من ستة أشهر . وكان الأتراك قد ألحوا عليه بخلع أخويه من ولاية العهد مخافة أن يصل أحدهم الى الخلافة ، فينتقم لأبيه⁽¹⁹⁰⁾ .

رضخ المنتصر لإرادة الأتراك ، فخلع أخويه من ولاية العهد ، لكنه أظهر الندم على ما صنع بأبيه ، وعزم على تفريق الأتراك والحد من نفوذهم ، فأخرج وصيفاً الى طرسوس بحجة الغزو ، وأظهر بغضه لبغا الصغير ، ونيته في قتل الأتراك ، وظهر ذلك منه ، فعالجه الأتراك ، فرشوا طبيبه ابن طيفور بثلاثين ألف دينار ، فقصده بريشة مسمومة ، وقيل إن السُّم دُسَّ له في كثرى⁽¹⁹¹⁾ .

(187) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 115 — 117 .

(188) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 38 .

(189) مصدر نفسه . ج : 62-66 .

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 117 — 121 .

(190) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 75 وما بعدها .

توفي المنتصر ، واجتمع الموالي « وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير ، وأتامش ومن معهم ، فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسية ، وكان الذي يستحلفهم علي ابن الحسين ابن عبد الأعلى الإسكافي كاتب بغا الكبير ، على أن يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وذلك بتدبير أحمد ابن الخصيب فحلف القوم ، وتشاوروا بينهم ، وكرهوا أن يتولى الخلافة أحد من ولد المتوكل لقتلهم أباه وخوفهم أن يفتالهم من يتولى الخلافة منهم ، فأجمع أحمد ابن الخصيب ومن حضر من الموالي على أحمد ابن محمد ابن المعتصم⁽¹⁹²⁾ ، وجرى أثناء ذلك محاولة لرد المعتز إلى الخلافة لكن المحاولة فشلت ، وتغلب الأتراك وأمضوا البيعة للمستعين⁽¹⁹³⁾ وأصبح الأمر لهم ، والمستعين لا أمر له بينهم ، فزج نفسه بالصراع الدائر بين أمراء الأتراك ، محاولاً بذلك استرداد بعض السلطة التي كانت لأسلافه ، وكان الخلاف قد استحكم بين باغر - وهو أحد قتلة المتوكل - وبغا بسبب حماية الأخير لواحد من أعداء باغر ، فأراد المستعين تأمير باغر ، ليتقرب إليه ، فاتفق بغا مع وصيف على التخلص من باغر الذي حاول الفتك بالخليفة إضافة إلى بغا ووصيف ، ولما قُتل باغر هاجت الأتراك ، فلاذ المستعين وبغا ووصيف إلى بغداد هرباً من هياج الأتراك⁽¹⁹⁴⁾ فنزل دار محمد ابن عبد الله ابن طاهر ، وكان الأمر والتدبير لوصيف وبغا ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

« خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قال له كما يقول البيضا »⁽¹⁹⁵⁾

خشي الأتراك والفراغنة وغيرهم من أصحاب النفوذ بسامراء من صنع

(191) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 134 .

ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج : 20 ص : 118 .

(192) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 82 .

(193) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 82 وما بعدها .

(194) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 94 وما بعدها .

(195) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 145 .

المستعين ، وايقنوا بزوال عزهم ، إذا استقر الخليفة في بغداد ، فأرسلوا له من يعتذر عنهم ويعترف بذنوبهم ، لكنَّ المستعين لم يجبههم إلى طلبهم ، ورفض العودة إلى سامراء ، فرجع الرسل ، وأخبروا أصحابهم ما كان من المستعين .

أُطْلِقَ المعتز من سجنه ، وبإيعاز الأتراك بالخلافة ، فصار للناس خليفة في بغداد وآخر في سامراء ، وهاجم الأتراك بغداد ، وظهروا على أهلها ، فكاتب محمد ابن عبد الله ابن طاهر المعتز وجنح إليه ، ومال الى الصلح على خلع المستعين ، بعد أن ظهر من بغا ووصيف ومن معهما تعصباً للأتراك ⁽¹⁹⁶⁾ فشارت العامة في بغداد مؤيدةً للمستعين وناصره له ، لكنَّ محمد ابن عبد الله عرف كيف يهدئ الناس ، وأمضى ما سبق الاتفاق عليه ، فخلع المستعين نفسه من الخلافة شريطة الأمان له ولأهله وولده ⁽¹⁹⁷⁾ ، فقال بعض الشعراء :

« خَلَعَ الخِلافةَ أَحْمَدُ ابنَ مُحَمَّدٍ وَسَيَقْتُلُ التَّالِي لَه أَوْ يُخْلَعُ
ويزول ملك بني أبيه ولا يُرى أَحَدٌ تملك منهم يستمتعُ
إيهاباً بني العباس إنَّ سبيلكم في قتل أعبدكم طريق مهيع
رَقَعْتُمْ دَنِيَاكُمْ فَتَمَزَقَتْ بكم الحِياةُ تَمَزَقاً لَا يُرْقَعُ » ⁽¹⁹⁸⁾

ولم يلبث المستعين بعد خلعهِ قليلاً حتى قُتِلَ ، وكان متلافياً للأموال سيء التصرف بها حتى قيل أنَّ والدته صنعت له بساطاً من الذهب والجوهر بقيمة مليون وثلاثين ألف دينار ، وأرسلت له ليراه ، فكسل عن ذلك وأنهيه أصحابه ، فأرسلت إليه لقد أنفقت عليه كذا وكذا ، وكنت أشتهي أن تراه ، فأمر لها بالقيمة نفسها لتصنع مثله ، ففعلت ، ومضى إليه ، فرآه ، وفعل به كفعله الأول ⁽¹⁹⁹⁾ ، ولو أنفق هذه الأموال وغيرها في اصطناع الناس لتجنب المصير القاتم الذي صار إليه .

(196) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 97 وما بعدها .

(197) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 97 وما بعدها .

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 162 — 163 .

(198) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 138 .

(199) الاتليدي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ج : 1 ص : 164 .

ارتقى المعتز سدة الخلافة بسيف قتله ابيه ، فقال بعضهم يصف تسلط الأتراك وضعف الخلفاء :

« لله در عصابة تركية ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد ابن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسماً وإمامنا فيه شبيه الضيف »⁽²⁰⁰⁾

حاول المعتز الاستئثار بالسلطة لنفسه ، فخلع أخاه المؤيد من ولاية العهد ، وزج به في السجن ، ودبر قتله بعد أن تناهت له الأخبار بعزم الأتراك على إنقاذه⁽²⁰¹⁾ ومدَّ بصره نحو الأتراك ، فحاول ضربهم بعضهم ببعض ، وكان بغا الصغير يحرضه على العودة الى بغداد ، فيأبى عليه المعتز ، فلمَّا حصلت منافرة بين بغا وبايكباك ، اغتتم المعتز غفلةً من بغا ، ومضى الى بايكباك ، ثم وقع بغا بين يديه ، فقتله⁽²⁰²⁾ .

« وكان المعتز في حياة بغا ، لا يلتذ بالنوم ، ولا يخلع سلاحه ، لا في ليل ولا في نهار ، خوفاً من بغا ، وقال : لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي ، وكان يقول : إنِّي أخاف أن ينزل عليّ بغا من السماء أو يخرج عليّ من الأرض »⁽²⁰³⁾ .

فلمَّا رأى الأتراك إقدام المعتز عليهم ، وإعماله الحيلة في إفنائهم ، وتقديم المغاربة والفراغة عليهم ، ساروا إليه بأجمعهم ، وطالبوه بالأموال ، وقرعوه بذنوبه ، وكان الأتراك قد أرسلوا إليه يطلبون منه خمسين ألف دينار على أن يقتلوا صالح ابن وصيف ، ويستوى له الأمر فأرسل إلى أمه ، يعلمها اضطرابهم عليه ، وأنه خائف على نفسه منهم ، فأنكرت أن يكون لديها مال ، فوجدت في خزانة لها بعد قتل ولدها ما يقارب الثلاثة ملايين من الدنانير ، وبُيع بعده بالخلافة محمد

(200) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 169 .

(201) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 176 .

(202) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 156 .

(203) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 177 .

ابن الواثق ، وُسْمِي المهتدي بالله ⁽²⁰⁴⁾ فصحت بالمعتز تلك الطرفة التي أطلقها أحد الظرفاء في بداية عهده ، لَمَّا أُحْضِرَ المنجمون ليروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ، فقال : « أنا أَعْرِفُ من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ قال : مَهْمَا أَرَادَ الأتراك ، فلم يبقَ في المجلس إِلَّا من ضحك » ⁽²⁰⁵⁾.

حاول المهتدي أَنْ يتجنب مصير أسلافه ، من الخلفاء ، فأظهر الورع والزهد ، واقتصد بالنفقات ، وسار بسيرة عمر ابن عبد العزيز ، فلم تشفع له سيرته عند الأتراك ، فجعلوا مصيرَهُ كمصير أسلافه ، وكان صراعه مع الأتراك باكراً ، فبعد قتل المعتز اتجه موسى ابن بغا نحو سامراء ، وكان خارجها مطالباً بدم المعتز والكتاب وأموالهم ، وأموال قبيحة أُمُّ المعتز ، فَلَمَّا وصل موسى الى قرب سامراء ، اختفى صالح ابن وصيف ، فدخل موسى سامراء ، وأخذ العهود على المهتدي أَنْ لا يغدر به ، وظفر بصالح ابن وصيف ، فقتله ⁽²⁰⁶⁾.

وصادف خروج مساور الشاري ، واشتداد شوكته ، فأرسل المهتدي لحربه موسى ابن بغا وبايكباك ، وعمل على الإيقاع بين الرجلين ، فأرسل لكل منهما بقتل صاحبه ، انكشفت خطة المهتدي ، فرجع القائدان الى سامراء ، ونشبت الحرب بين بايكباك والمهتدي ، فَقُتِلَ بايكباك ، واجتمع الأتراك على المهتدي ، فقتلوه ، وقد بلغ بهم الحقد عليه مبلغاً حتى شرب بعضهم من دمه ⁽²⁰⁷⁾.

ونتيجة للفوضى السياسية في دار الخلافة ، وتنازع الأتراك على السلطة

(204) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 160 وما بعدها .

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 178 .

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 130 .

(205) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص : 243 .

(206) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 191 وما بعدها .

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 184 — 185 .

(207) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 202 وما بعدها .

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 185 وما بعدها .

والنفوذ فيها ، وجرأتهم على الخلفاء ، وتفاسم الأزمات الاقتصادية ، تجرأ حكام الولايات ، فاستقلوا بولاياتهم عن الدولة المركزية ، وأسسوا دويلات عدة في شرق البلاد وغربها لا تربطها بالحكومة المركزية إلا علاقة رمزية واهية ، وقامت ثورة الزنج بالقرب من البصرة كنتيجة مباشرة لضعف الدولة وسوء الحالة الاقتصادية والظلم الاجتماعي ، واشتد خطرُها . وفشا أمر القرامطة ، وانتشر أمرهم ، وتحركوا بحرية شبه تامة بعيدين عن رقابة الدولة ، وآمنين من بطشها .

ولما اعتلى المعتمد على الله سدة الخلافة ، كانت ثورة الزنج قد نفاسمت ، فخف شغب الأتراك عليه ، لاشتغالهم بهذا الخطر الداهم ، وفشلهم في إخماده ، فتولى الموفق أخو الخليفة الجيش ، وقام بحرب صاحب الزنج ، وقاد مع ولده أبي العباس الحملات الموفقة حتى استطاع بالنهاية استئصال ثورته والقضاء عليها⁽²⁰⁸⁾

وكان للمعتمد من الخلافة الاسم ولأخيه الأمر والتدبير ، وقد يحتاج الى القليل من المال فلا يحصل عليه ، فقال :

« أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه
إليه تُحمَلُ الأموال طراً ويمنع بعض ما يُجَبَى إليه »⁽²⁰⁹⁾

فحاول التخلص من قبضة أخيه ، فكاتب ابن طولون ، واتفق معه على الالتحاق به ، لكنّ الموفق فطنَ للأمر ، وأرسل ، فرد أخاه إلى سامراء وحجر عليه ، وكان الموفق قد حاول عزل ابن طولون عن مصر ، فأبى ، ودعا الخليفة الى تحرير نفسه من اخيه ، ولَمَّا جيلَ بين الخليفة وابن طولون ، قطع ابن طولون الخطبة بولاية العهد للموفق ، فأمر الموفق بلعنه على المنابر⁽²¹⁰⁾.

(208) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 245 وما بعدها .

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 199 وما بعدها .

(209) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 174 .

(210) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص : 222 وما بعدها .

وسرعان ما توفي ابن طولون وخلفه ابنه خمارويه ، فأرسل الموفق ابنه أبا العباس لقتاله ، لكنّه انهزم عنه في معركة الطواحين ، وعاد أدراجَه الى العراق⁽²¹¹⁾ .

وكان على الموفق أن يجابه خطراً آخر ، فقد تغلب يعقوب ابن الليث الصفار على خراسان وطبرستان ، وقَوِيَ أمرُهُ ، فاعترف به الموفق لكنّ يعقوب أبى إلاّ الانسیر نحو بغداد ، فواقعه الموفق ، وهزمه ، فعاد يعقوب الى خراسان⁽²¹²⁾ وكان بين ابن الليث وصاحب الزنج هدنة ، فلا يتعرض أحد للآخر⁽²¹³⁾ .

ولما توفي المعتمد على الله ، بويع ابن أخيه بالخلافة ، وتسمى المعتمد بالله ، فهادن خمارويه ابن أحمد ابن طولون ، وتزوج ابنته ، وخلف يعقوب الصفار أخوه عمرو ، فاعترف إسمياً بسلطة الخلافة ، وسكنت الحروب ، واستعادت الخلافة شيئاً من هيبتها ، لكنّ الأتراك ما لبثوا أن عادوا ، واستبدوا بالأمور زمن المقتدر ، وعظم أمر القرامطة وعاثوا في البلاد وأفسدوا ، فحاول ابن المعتز أن يعيد أمجاد الخلافة ، وساعده في ذلك محمد ابن داود الجراح وأحمد ابن يعقوب القاضي والحسين ابن حمدان ، ولعب الأمير العربي ابن حمدان دوراً هاماً في ذلك ، واتفقوا على قتل المقتدر ووزيره والأمير فاتك ، فقتل حسين ابن حمدان الوزير وفاتك ونجا المقتدر ، وتحصن ، وعاد الأتراك ، ففضوا على حركة ابن المعتز في مهدها وقتلوه⁽²¹⁴⁾ وكان عبد الله ابن المعتز من أفاضل الأدباء ، والأتراك لا يولون إلا من توسموا فيه الجهل والغباء ، فقد طلب المكتفي من وزيره كتباً يلهو بها ، ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك ، وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة ، فحصلوا شيئاً من كتب التاريخ ،

(211) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 210 .

(212) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 236 وما بعدها .

ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 145 .

(213) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 245 .

(214) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 221 .

وفيهما شيء مما جرى في الأيام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة الحيل في استخراج الأموال . فلما رآه الوزير قال لنوابه : والله إنكم أشد الناس عداوة لي ، أنا قلت لكم حصلوا له كتباً يلهو بها ، ويشغل عني وعن غيري فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء ، ويوجد الطريق الى استخراج المال ، ويعرفه خراب البلاد من عمارتها . ردوها ، وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه ، وأشعار تطربه » (215) .

وكان الوزير بعد موت المكتفي قد عزم على مبايعة ابن المعتز ، فخلا به بعض الكتاب ، فقال له : « أيهذا الوزير ، هذا الرأي الذي قد رأيته في مبايعة ابن المعتز ليس بصواب . قال الوزير : كيف ذلك ؟ قال : أي حاجة لك أن تجلس على سرير الخلافة من يعرف الذراع والميزان والأسعار ، ويفهم الأمور ، ويعرف القبيح من الحسن ، ويعرف دارك وبستانك وصنيعتك ؟ الرأي أن تجلس صبيّاً صغيراً ، فيكون اسم الخلافة له ، وَمَعْنَاهَا لَكَ ، فتربيه الى أن يكبر فإذا كبر عرف لك حق التربية ، وتكون أنت قد قضيت أوطارك من صغره » (216) .

ولعل أوضح صورة للخلافة ، وما تردت فيه ، في ذلك العهد ما جاء على لسان الرازي ، وهو أحد خلفاء ذلك الزمن المنكود بالأتراك ، ، قال : « كآني بالناس يقولون : أرضي هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركي ، حتى يتحكم في المال ، ويتفرد بالتدبير ؟ ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد قبلي ، وأدخلني قوم فيه بغير شهوتي ، فسُلِّمْتُ الى ساجية وحجرية ، يتسحبون علي ، ويجلسون في اليوم مرات ، ويقصدوني ليلاً ، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه ، وأن يكون له بيت مال ، وكنت أتوقى الذماء في تركي الحيلة عليهم ، الى أن كفاني الله أمرهم ، ثم دبر الأمر ابن رائق ، فدبره أشد تسحّباً في باب المال منهم ، وانفرد بشربه ولهوه . ولو بلغه وبلغ من قبله أن على فرسخ منهم فرساناً قد أخذوا الأموال ، واجتاحوا الناس ، فقبل لهم ، اخرجوا اليهم فرسخاً ، لطلبوا المال ،

(215) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص : 7

(216) مصدر نفسه . ص : 7 — 8 .

وطالبوا بالإستحقاق ، وربما أخذوه ، ولم يبرحوا ، ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية ، بل على أسبائي ، وأمر فيه بأمر فلا يمثل ، ولا ينفذ ، ولا يستعمل ، وأكثر ما فيه أن يسألني فيه كلب من كلابهم ، فلا أملك رده ، وإن رددته ، غضبوا وتجمعوا ، وتكلموا» (217).

وهذا بجكم التركي يقصر ، وكأن الراضي عبد من عبيده ، فإذا قُدِّم له طعام أو شراب ، وُضِعَ بين يدي الراضي ، فيأكل منه ثم يُوضَعُ بين يديه « وكان (الراضي) يستغفیه من هذا ، فلا يعفیه » (218) . فلا بدعة إن رَقَرَ الراضي مثل هذه الزفرات .

وفي أيام المتقي حاول العرب استعادة ما فقدوه من مجد ونفوذ ، وكانت سلطة الدولة المركزية قد ضعفت وتلاشت ، حتى صارت الخلافة تدفع الجزية للقرامطة بغية تأمين سلامة الحجاج (219) ، وكثرت المنافسة بين الأتراك والديالمة ، واستولت الديالمة على بغداد بقيادة البريدي ، وارتحل الخليفة وأعوانه الى سامراء (220) والتحق به الحسين ابن سعيد ابن حمدان (221) ، وناصر الحمدانيون الخليفة ، فاشتدت المنافسة بين الحسن ابن عبد الله ابن حمدان وابن رائق ، ففتك الحسن ابن عبد الله الحمداني ، بابن رائق ، وأشاع في بغداد نبأ الفتك به ، ونبأ آخر مفاده أن السلطان زاد الفارس عشرة دنانير ، وزاد الراجل ديناراً ، فطالب الديالم من ابي الحسين البريدي تلك الزيادة ، وحاول توزون - أحد قواد الأتراك - أن ينتك بالبريدي ، لكنه فشل في ذلك ، فالتحق بالخليفة ، وحرضه على البريدي ، ووصف له انتقاض أمره (222) .

(217) ابو بكر الصولي ، اخبار الراضي والمتقي ، ص : 41 — 42.

(218) مصدر نفسه . ص : 42 .

(219) مصدر نفسه . ص : 205 .

(220) مصدر نفسه . ص : 222 وما بعدها .

(221) مصدر نفسه . ص : 224 .

(222) مصدر نفسه . ص : 226 — 227 .

انتقض أمرُ البريدي ، فانسحب من بغداد ، ودخلها الحسن ابن عبد الله ، ومعه الأموال لعمارتها وإصلاح ضياع السواد ، فضج الناس بالدعاء وضربت مائة قبة ، ودخل الخليفة بغداد بعد غيبة دامت ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، فخلع علي الحسن ابن عبد الله وطوق وسور بسوارين ، وسُمِّي ناصر الدولة وخلع على أخيه الحسين ابن عبد الله ولقب بسيف الدولة ⁽²²³⁾ .

وحاول ناصر الدولة إصلاح الحكم ، فاشتد على الذعَار لعيشهم وفسادهم فأطمأن الناس ، وصكَّ النقود ومنع الصيارفة من التلاعب بها . وحاول الاقتصاد بنفقات الدولة ، فأسقط أرزاق المرتزقة من المولدين ⁽²²⁴⁾ وضيق على الخليفة في نفقاته ⁽²²⁵⁾ .

لم يرق ذلك الخليفة وأتراكه ، فبدأت المؤامرات تحاك على الحمدانيين ، وأُشيع في العامة أنَّ ناصر الدولة قد ضَيَّق على الخليفة في نفقاته ، وأنَّه السبب في فرض الضرائب ، وكُشِفَ الأمر عن محاولة للتخلص منه ⁽²²⁶⁾ .

وكان سيف الدولة يحارب البريديين في واسط ، فبدأ الأتراك يتململون ، ويتوانون عن القتال . وكان ناصر الدولة قد أطلق أرزاقاً للناس ، فقبضها الخليفة ، واحتجتها لنفسه . فعلم ناصر الدولة بذلك ، وتناهت الأنباء إليه بتمرد الأتراك على أخيه سيف الدولة ، ونهبهم متاعه . فغضب ، وعزم على ترك بغداد ، لكنَّ الناس ضججوا من ذلك ، واجتمعوا ، وسألوه ألاَّ يترك بغداد ، فوعدهم بذلك ⁽²²⁷⁾ .

اشتدت الوحشة بين ناصر الدولة والمتقي بسبب المال ، وحاول المتقي الغدر به فرحل عن بغداد ، ودخلها توزون التركي ⁽²²⁸⁾ .

(223) أبو بكر الصولي ، أخبار الرازي والمتقي ، ص : 227 — 228.

(224) مصدر نفسه . ص : 231.

(225) مصدر نفسه . ص : 235.

(226) مصدر نفسه . ص : 236.

(227) مصدر نفسه . ص : 239.

(228) مصدر نفسه . ص : 241 وما بعدها .

أحسن المتقي بالخطأ الفادح الذي ارتكبه بحق ناصر الدولة ، خصوصاً بعد أن تحكم فيه الأتراك ، فكاتب ناصر الدولة ، وأبدى رغبة بالمصير إليه ، فأرسل ناصر الدولة ابن عمه الحسين ابن أبي العلاء الى ظاهر بغداد ، فخرج إليه الخليفة . وكان قد خاف من الأتراك على حياته ⁽²²⁹⁾ .

لم يلبث الصراع أن نشب بين الأتراك والحمدانيين بسبب إجارتهم الخليفة ، وتولي سيف الدولة قيادة المعركة ضد الأتراك ، فواقعه توزون ، وأنزل الهزيمة به بسبب غدر الأعراب من بني نمر وقشير بسيف الدولة ، فتكاتب توزون وناصر الدولة على الصلح ، لكن المتقي أبى ذلك ، فاستؤنفت الحرب من جديد ، فاحتل توزون الموصل ، وسُعي بالصلح بين ناصر الدولة وتوزون فارتحل الخليفة إلى الرقة وكاتب ابن طغج الأخشيدي ⁽²³⁰⁾ .

تم الصلح بين الأتراك والحمدانيين ، ذلك أن توزون أحسن بخطر ابن بويه ، وكان قد نزل واسط وجمع الضرائب والخراج ، وأظهر أنه متجه الى بغداد بأمر من الخليفة ⁽²³¹⁾ .

اتجه ابن بويه الى بغداد ، فواقعه توزون وهزمه ⁽²³²⁾ عندها يؤس المتقي من الظفر بتوزون فكاتبه على العودة الى بغداد وشرط شروطاً فقبلها توزون وأشهد الشهود على نفسه ، فلما أقبل الخليفة الى بغداد قبض عليه توزون فخلعه وسمل عينيه وبايع ابن المكتفي بالخلافة ⁽²³³⁾ وسُمي المستكفي بالله ، وفي أيامه غلب بنو بويه والديلم على بغداد وانتهى عهد الأتراك ⁽²³⁴⁾ .

(229) ابو بكر الصولي ، اخبار الرازي والمتقي ، ص : 246 وما بعدها .

(230) مصدر نفسه . ص : 250 — 257 .

(231) مصدر نفسه . ص : 258 .

(232) مصدر نفسه . ص : 262 وما بعدها .

(233) مصدر نفسه . ص : 267 وما بعدها .

(234) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 356 وما بعدها .

الباب الرابع الشعبية والبعد الأدبي

تمهيد : الأثر الشعبي في التجديد الأدبي

الفصل الأول : الشعبية الأدبية في الشعر واتجاهاتها .

الفصل الثاني : الشعبية ومظاهرها في الشعر

الفصل الثالث : الحركة الأدبية المناوئة للشعبية

وأساليبها في التصدي للشعبيين .

تمهيد

الشعوبية والأدب

الشعوبية وأثرها في التجديد :

قامت الدعوة العباسية بحركة انقلابية في الدولة العربية ، فلم يكن من نتائجها استبدال الأسرة الحاكمة فحسب ، وإنما أحدثت انقلاباً يكاد أن يكون شاملاً في كُلِّ شيء ، فنُقِلَ مركزُ الحكم من الشام الى العراق ، وشارك الفرس فيه مشاركة فعّالة ، واستحالت أساليبه ونظمه وتقاليده ، وتغيرت ، وظهر الأثر الفارسي فيه جلياً واضحاً للعيان .

وكما أثر الفرس في الحكم عن طريق مشاركتهم فيه ، فقد أثروا في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والعمران ، وشاركوا في الحياة العلمية والأدبية والدينية ، فنهض فيهم شعراء وكتاب وعلماء ومترجمون ، وأسهموا إسهاماً فعّالاً في بناء الحضارة العباسية وفي إغناء الثقافة العربية والأدب العربي ، تدفعهم إلى ذلك دوافع ونوازع مختلفة : سياسية واجتماعية وحضارية ، فأدخلوا الكثير من النظم والتقاليد الفارسية في الحكم والسياسة . وعمدوا الى عاداتهم وتقاليدهم وأزيائهم وأذواقهم في مآكلهم ومشاربهم ، فأحيوها ، وعملوا على نشرها وتعميمها . كما عمدوا إلى تراثهم ، فعرضوا كنوزه عن طريق ترجمة هذه الكنوز واستلهاها .

نهض عبد الله ابن المقفع ، فترجم كتباً عديدة من آداب الفرس وسير ملوكهم وكان بليغاً كاتباً شاعراً مضطلعاً باللسانين العربي والفارسي ، معجباً

بحضارة الفرس وآدابهم ، فترجم كتاب خدا ينامة في السير وكتاب آيين نامة في الأصغر ، وكتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك وكتاب التاج في سيرة أنوشروان ، وكتاب الأدب الكبير والأدب الصغير واليتمية في الرسائل ⁽¹⁾ ، كما ترجم كتباً في الطب والمنطق كانت قد تُرجمت قديماً إلى الفارسية ⁽²⁾ . واقتدى بآبن المقفع كثيرون ممن حذقوا اللسانين العربي والفارسي أمثال آل نوبخت ⁽³⁾ وسهل ابن هارون ⁽⁴⁾ وسلم صاحب بيت الحكمة ⁽⁵⁾ وغيرهم كثير ⁽⁶⁾ فترجموا التراث الفارسي في الأدب والسير والتاريخ والعلوم ، وأتقن كثير من العلماء والأدباء اللغتين العربية والفارسية ⁽⁷⁾ وامتزج العرب بالفرس سواء في بغداد أو حواضر الأمصار ، وتأثروا بكثير من العادات وأساليب الحياة الفارسية ، وقد هيا لهذا الأمتزاج أسباب منها :

— نزول القبائل العربية في البلدان المفتوحة وامتزاجها بشعوبها في السكن وعن طريق المصاهرة وتسرى الإماماء .

— نظام الولاء الذي شرّعه الإسلام ، وجعله يتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم .

— دخول أكثر الشعوب في البلدان المفتوحة الإسلام وامتزاجهم بأهله من العرب .

— إقبال الناس على تعلّم اللغة العربية لأنها لغة الدين ولغة الدولة الرسمية ،

(1) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 172 .

(2) مصدر نفسه . ص : 337 .

(3) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 251 .

(4) مصدر نفسه . ص : 174 .

(5) مصدر نفسه . ص : 174 .

(6) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 55 (وفيه إشارة إلى كتب للزنادقة التي ترجمت ككتب ماني وديسان ومرقيون وغيرهم من أعلام الزنادقة ، وفيه أيضاً وصف لهذه الكتب ووصف ما كان الزنادقة يبالغون فيه من اختيار أنواع الورق الجيدة والحبر الأسود اللامع وإجادة الخط) .

(7) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 1 ص : 193 ، وفيه : أنَّ موسى الأسواري « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرَى بأيّ لسان هو آيين » .

فلم يمضِ قرن على الفتوح العسكرية ، حتى أخذت اللغة العربية تسود أرجاء العالم الإسلامي ، فقد أقبل عليها حتى من تمسك بدين آبائه ، فهُجِرَتْ لغاتُ الفُرسِ والنبطِ والسريانِ والأقباطِ والبربر ، وأقبلت هذه الشعوب على اللغة العربية تعترف من معينها ، وتعبر فيها عن نفسها .⁽⁸⁾

لم تكن الحضارةُ الفارسيةُ وأدائها ومعارفها الرافدُ الوحيدُ للحضارةِ العربيَّةِ العباسيَّةِ ، فقد شاركتها حضارات أخرى لا تقلُّ شأنًا عنها بل قد تزيد كالحضارة الهندية واليونانية . كل هذه الحضارات امتزجت وتزاوجت مع الحضارة العربية الإسلامية ، فكان لهذا الإمتزاج والتزاوج ثمرة عظيمة زاهية هي الحضارة العباسية .

فقد تُرْجِمَتِ الكتبُ الهنديةُ إلى العربية في الأدب والفلسفة والطب ، والنجوم⁽⁹⁾ . وكان أثرُ اليونانِ عظيماً بما نُقِلَ عنهم من علوم في الطب والهندسة والرياضيات والطبيعة والجغرافية والفلك والفلسفة والمنطق ، وتعهد الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة حركة الترجمة تلك وأُنشِئت المراصدُ الفلكيَّةُ ، وأُسِّسَ الرشيدُ بيتَ الحكمة⁽¹⁰⁾ ، وأقام الحفظةَ عليها ، وقد بلغت حركة الترجمة أوجها في زمن المأمون الذي أهتم اهتماماً عظيماً بالعلوم الفلسفية والعقلية ، وبعث البعث إلى بلاد الروم للبحث عن الكتب وحملها وترجمتها ، كما قام بعض سراة القوم بجهد مشكور في هذا المجال كالبرامكة وآل نوبخت وآل موسى ابن شاكر⁽¹¹⁾ .

فأصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والعلم ، ولغة الدين والدولة ، واتسعت

(8) شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الاول ، ص : 89 — 90 .

(9) تُرْجِمَ كثيرٌ من الكتب الأدبية الهندية منها : كليلة ودمنة وسندباد الكبير وسندباد الصغير وكتاب البد ، وكتاب أدب الهند والصين ، وكتاب هابل في الحكمة وكتاب قصة هبوط آدم ، وغيرها ، وقد سرد ابن النديم أسماء الكتب الهندية في الطب والنجوم وأسماء العلماء الذين وصلت كتبهم الى العرب : انظر الفهرست ، ص : 378 — 424 — 425 .

(10) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 5 (وفيه إشارة ان بيت الحكمة اسس زمن الرشيد) .

(11) ابن النديم ، الفهرست ، الفن الثامن من المقالة السادسة ، ص : 329 وما بعدها . (وفيه حكاية عن حلم رآه المأمون فكان دافعه لإرسال المترجمين الى الروم في طلب الكتب) .

ثقافة العصر ، وتنوع معارفه ، وأقبل العلماء والأدباء والدارسون ينكبون على تحصيل هذه المعارف وفهمها واستلهاها ، « وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثيراً في المحيط العربي لهذا العصر ، فقد دخل جمهور الفرس في الإسلام ، واقتبس العرب كثيراً من صور حياتهم . . . وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم . . . ويحكون عنهم أقاصيصهم عن رستم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكائهم .

وكانت المجوسية لا تزال حيّة بمعابد نيرانها ، ونحلها المختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية ، وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من ثنوية وإيمان بأنّ للعالم إلهين : إلهاً للنور وإلهاً للظلمة ⁽¹²⁾ ، فآثرت هذه الديانات وخاصة المزدكية على الأخلاق والتحلل الخلقي - وأسهمت بنشر المجون والزندقة والنزعات الإباحية .

هيات هذه البيئة للشعراء والأدباء رقياً عقلياً بعيداً ساعداً فيه كثرة الكتب المترجمة عن الهند والفرس واليونان ، كما ساعد في إنمائه كثرة المحاورات والمناظرات بين أصحاب الفرق الإسلامية أو بينهم وبين أصحاب الملل الأخرى ، فكان الشعراء يشهدون هذه المناظرات وقد يشاركون فيها ويسألون عن غوامضها ، وقد حض بشار على طلب المعرفة وسؤال أهلها عن غوامضها ، فقال :

« شفاء العمى طول السؤال وإنما دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلاً عما عناك فإنما دُعيت أخا عقل لتبحث بالعقل » ⁽¹³⁾

وكان كثير من الشعراء والأدباء من أصول غير عربية ، يحملون ثقافتهم الأصلية ، فكان حريّاً أن يتحول الأدب العربي ، ويتطور وتظهر فيه أنواع أدبية جديدة لولا ظروف عديدة وقفت حائلاً دون بلوغ هذه الغاية منها :

— الباعث الديني الذي دفع العلماء إلى دراسة القرآن الكريم وفهمه وتفسيره ،

(12) شوقي صيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الاول ، ص : 95.

(13) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 2 ص : 132 ، ديوان بشار ، تحقيق بدر الدين العلوي - دار

الثقافة - بيروت 1981 ص : 190 — 191.

فَعَكَفُوا عَلَى الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ يَسْتَعِينُونَ بِهَذَا التَّرَاثِ الشَّعْرِيِّ لِقَهْمِ
لُغَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ لِأَنَّ « لِلْعَرَبِ أَمْثَالَ وَاشْتِقَاقَاتٍ وَأَبْنِيَّةَ وَمَوَاضِعَ
كَلَامٍ ، يَدُلُّ عِنْدَهُمْ عَلَى مَعَانِيهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ ، وَلِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ مَوَاضِعَ أُخَرَ وَلِهَا
حِينَئِذٍ دَلَالَاتٌ أُخَرَ ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا جَهْلٌ تَأْوِيلُ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ وَالشَّاهِدِ ،
وَالْمَثَلِ ، فَإِذَا نَظَرَ فِي الْكَلَامِ وَفِي ضُرُوبِ مِنَ الْعِلْمِ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ هَذَا
الشَّانِ هَلْكَ وَأَهْلُكَ » (14) .

— الْبَاعِثُ السِّيَاسِيُّ : فَقَدْ أَظْهَرَ الْخُلَفَاءُ مَحَافِظَةً شَدِيدَةً عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَدَفَعُوا
الْعُلَمَاءَ إِلَى دِرَاسَتِهَا وَالتَّعَمُّقِ فِيهَا ، وَرَوَايَةَ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ أَنْسَابٍ وَأَخْبَارٍ
وَأَيَّامٍ وَأَشْعَارٍ وَقُرْبَوِ أَصْحَابِهَا ، وَأَسْنَدُوا إِلَيْهِمُ الْوُظَائِفَ الْكَبِيرَةَ فِي الدَّوْلَةِ ،
فَسَرَى فِي الْقَصْرِ جَوْ مَحَافِظَ كَانَ عَلَى الشُّعْرَاءِ وَالْوَاظِفِينَ أَحْتَدَاؤُهُ (15) .

— وَلَوْعُ النَّاسِ بِالْقَدِيمِ ، وَحَرَصَ الْعَرَبُ عَلَى تَرَاثِهِمْ وَإِبْرَازِهِ بِصُورَةٍ لَا تَقِلُّ نِضَارَةً
عَنْ تَرَاثِ الْفَرَسِ لِهَذَا قَدِمُوا الْأَدَبَ الْجَاهِلِيَّ عَلَى كُلِّ أَدَبٍ ، وَقَدِمُوا رِجَالَ
الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ عَلَى الْإِسْلَامِيِّينَ ، فَالْجَاحِظُ يَحْكِي عَنْ تَقْدِيمِ حَاتِمٍ فِي الْكُرَمِ
سَبَباً وَجِيهاً وَهُوَ كَوْنُهُ جَاهِلِيّاً ، يَقُولُ : « وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ فِيهَا مَفْضُلاً إِلَى تَقْدِيرِ
الرَّأْيِ لَكَانَ يَنْبَغِي لِغَالِبِ ابْنِ صَعْصَعَةَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالْجُودِ دُونَ
هَرَمٍ وَحَاتِمٍ . فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ غَالِباً كَانَ إِسْلَامِيّاً وَكَانَ حَاتِمٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،
وَالنَّاسُ بِمَآثِرِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَشَدَّ كَلْفاً فَقَدْ صَدَقَتْ (16) .

— إِضْطِلَاعُ أَهْلِ اللُّغَةِ بِنَقْدِ الشَّعْرِ ، وَهَؤُلَاءِ مَحَافِظُونَ يَفْضُلُونَ الْقَدِيمَ عَلَى
الْمُحَدَّثِ لِلْأَسْبَابِ الْآتِفَةِ الذِّكْرِ وَلِأَنَّ فِيهِ شَوَاهِدَهُمُ النُّحْوِيَّةَ وَاللُّغَوِيَّةَ ، وَكَانَتْ
مَجَالِسُ الْخُلَفَاءِ حَافِلَةً بِهِمْ مِثْلُ الْأَصْمَعِيِّ وَأَبِي عِيْبَةَ وَالْكَسَائِيِّ وَغَيْرِهِمْ .
فَكَانَ الشُّعْرَاءُ يَجْهَدُونَ لِنَيْلِ اسْتِحْسَانِهِمْ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ رِضَى الْخَلِيفَةِ أَوْ الْأَمِيرِ
« وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ لِللُّغَوِيِّينَ سِدْنَةُ الشَّعْرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَحِرَاسُهُ ، فَمَنْ نَوَّهُوا بِهِ

(14) الْجَاحِظُ ، الْحَيَوَانُ ، ج : 1 ص : 153 — 154 .

(15) ضَيْفٌ ، تَارِيخُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، الْعَصْرُ الْعَبَّاسِيُّ الْأَوَّلُ ، ص : 139 .

(16) الْجَاحِظُ ، الْحَيَوَانُ ، ج : 2 ص : 108 .

طار اسمه ، ومن لوحوا في وجهه حمل وغدا نسياً منسياً»⁽¹⁷⁾ وصار الشعراء يعرضون قصائدهم على أهل اللغة ، فما استحسنوه منها أظهروه ، وما استقبحوه ستروه ، وأدرك أهل اللغة أهميتهم بالنسبة للشعر والشعراء وأنهم صيارفة الشعر وجهابذته⁽¹⁸⁾ .

— « قوة الآداب العربية القديمة وشدة سلطانها على النفوس وقدرتها على المقاومة »⁽¹⁹⁾ واعتبر طه حسين أن عدم اطلاع الأجيال الجديدة على آداب الأمم الأخرى ، كان من الأسباب الوكيدة في عدم اتخاذ النتاج الأدبي وجهة أكثر استحالة وأعظم أثراً وأكثر إنتاجاً⁽²⁰⁾

على أن عدم إطلاع الأجيال الجديدة على آداب الأمم الأخرى أمر مشكوك فيه بل إن ما نرجّحه هو اطلاعهم على كثير من تلك الآداب ، ومن يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم يَرّ كثيراً من أدب الفرس والهنود قد وضع تحت أبصار العباسيين ، ليقلدوه ويحتذوه . فقد حاول سهل ابن هارون حكاية كليلة ودمنة ، فألف كتاب ثعلة وعفرا كما ألف كتاب النمر والثعلب⁽²¹⁾ وحاول محمد ابن عبدوس الجهشيارى وضع مؤلف على غرار هزار أفسانه الفارسي ، أراد أن يجمع فيه « ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته ، لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلو بنفسه ، وكان فاضلاً ، فاجتمع له من ذلك أربعماية ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ثم عاجلته المنية »⁽²²⁾ وقد عرف العرب كتاب الخطابة

(17) ضيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الاول ، ص : 139 .

(18):8 ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 17 ص : 16 .

(19) طه حسين ، حديث الاربعاء ، دار المعارف بمصر ط 9 — 1974 . ج : 2 ص : 22

(20) مرجع نفسه . ج : 2 ص : 22 .

(21) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 174 .

(22) مصدر نفسه ، ص : 423 .

لأرسطو ونقله أكثر من مترجم كما فسّره الفارابي أبو نصر ، كما عرفوا كتاب الشعر واختصره الكندي⁽²⁷⁾ .

ويتحدث الجاحظ وكأنّه عرف الشعر عند الأمم الأخرى واستمع إليه ، فما وجد له مزية تدنيه من الشعر العربي ، فقال : « والدليل على أنّ العرب أنطق ، وأنّ لغتها أوسع وأنّ لفظها أدلّ ، وأنّ أقسام تأليف كلامها أكثر والأمثال التي ضربت أجود وأسير .

والدليل على أنّ البديهة مقصورة عليها ، وأنّ الإرتجال والإقتضاب خاص فيها : ما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الفرس والروم شعراً ؟ وكيف صار النسيب في أشعارهم والذي أدخلوه في غنائهم ، وفي الحانهم ، إنّما يقال على السنة نسائهم ، وهذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير ، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة ، على الأشعار الموزونة »⁽¹⁴⁾ .

فقد عرف العرب آداب الأمم الأخرى أو اطلعوا على نماذج منها على الأقل واقتبسوا معانيها لكنهم احتفظوا بأساليبهم في التعبير الشعري عنها وظلت نظرتهم إلى شعرهم القديم نظرة إعجاب شديد وظل الشعر الجاهلي الغاية التي يصبر إليها الشعراء ، وقد لاحظ ذلك أحمد أمين فقال : « إنّ نفوذ العرب في أدبهم - وخاصة في شعرهم - كان أقوى من أي نفوذ آخر ، فقد ظل الشعر حافظاً لأوزانه الجاهلية ، وتقاليده إلى عصرنا ، ولم تستطع أمة بنفوذها مهما عظم أن تحوّل . وكل ما قلناه من أثر فارسي ، فإنّما كان في بعض العناصر التي تصب في القالب - لا في القالب نفسه .

وأبونواس يحاول أن يخرج على الجاهليين ، ويقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

(23) مصدر نفسه ، ص : 349 — 350 .

(24) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 1 ص : 200 .

ولكنه - مع هذا - لا يستطيع أن يتحرر من قيوده ، ولو فعل لَمَّا قُرِئَ ولا سُمِعَ » (25) .

إذاً فقد كان « تأثير الأدب الجاهلي في الأدب الإسلامي شديداً قوياً ، وجعل الإسلاميين يحتذون حذوه ، ولا يخرجون كثيراً عن قيوده ، فلئن كانت ثقافات الأمم الأجنبية في العلوم واضحة الأثر ، فأثرها في الأدب خفيف ، ولو كان شديداً قوياً لأدخلوا على بحور الشعر الجاهلي بحوراً فارسية أو يونانية ولتحرروا أحياناً من القافية ، ولأدخلوا ضرب الشعر القصصي أو التمثيلي ولأرسوا طريقة جديدة لنهج القصيدة ، فلم يتقيدوا ببيكاء أطلال ولا وقوف على ديار ولهجروا الغزل الطويل ، يدخلون به على مدح الممدوح ، ولفعلوا كثيراً من أمثال ذلك ، ولحدثت ثورة في الشعر والأدب ، فنقلته نقلة جديدة كما حدث في العلوم » (26) .

وظهرت الشعويّة في هذا العصر سافرةً ، فقد أحس الفرس بقوتهم وبما قدّموه من خدمات للأسرة الحاكمة ، فعبّروا عن مشاعرهم المكبوتة في أيام الأمويين ، وجأهروا بعصبيتهم العرقية ، فقالوا بتفضيل الفرس على العرب وجحدوا فضل العرب على غيرهم من الأمم ، وظهرت هذه النزعة فيما أنتجوه من الأدب ، وظهرت الزندقة ، ونفشت خاصة بين المثقفين والكتاب والشعراء ، وتأثروا بما فيها من دعوة للتهتك والتهالك على اللذة والإباحية والمجون ، وتغاضى السلطان في كل ما لا يهدد السلطة القائمة . فعبّروا عن عواطفهم وأهوائهم بحرية تامة دون رقيب من دين أو أخلاق أو سلطان ، « ففكر الناس كما أحبوا ، وعاشوا كما أحبوا . . . أصبحت العواطف حرة ، فأصبحت الألسنة حرة ونشأ من حرية العواطف تنافس في اللذة . . . ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه . . . أصبحت تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقيّد بقديم ، وإذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهراً دون أن يستخفي من الشرطة فما له لا يصف

(25) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 377 — 378 .

(26) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 378 .

الخمر كما يحب ، دون أن يخشى سطوة الأصمعي⁽²⁷⁾ .

الأثر الشعبي في التجديد الشعري :

وكان بشارُ ابن برد في طليعة الشعراء المجددين ، وقد أكثر من الإباحية والتصريح في شعره ، حتى ضُجَّت العامةُ منه ، فتدخل المهدي لوضع حدٍّ لعبثه وفجوره ، ولكنه على الرغم من شعوبيته ، وزندقته وحقده الشديد على العرب والإسلام ، فإنه على الصعيد الأدبي ، لم يقطع صلته بالشعر القديم ، وكان المديحُ أهمَّ غرضٍ يصلُّه بتراث العرب الأدبي ، فحافظ في هذا المجال محافظة شديدة على السنن الموروثة « سواء من حيث جزالة الصياغة ورسائنها ومتانتها ، أو من حيث المنهج الذي سار عليه القدماء »⁽²⁸⁾ .

ولعلَّ هذا ما دفع شوقي ضيف إلى القول « وعجيب حقاً أن يستطيل بشارُ على العرب وعلى دينهم الحنيف ، وأن يقهره شعرهم ، ويملك عليه ذات نفسه ، ويسخره ليكون أداةً من أدوات ازدهاره ، وبرهاناً بيناً على قوة شخصيته ، تلك الشخصية التي يظل فيها الماضي الفني ماثلاً ، مهما سقط على أصحابه من اختلافات في الزمان والمكان ، ومهما وقع عليهم من مؤثرات حضارية وثقافية ، ومهما ألحدوا في العروبة والدين »⁽²⁹⁾ .

وأما الذي تصدى لتقاليد العرب الأدبية في الشعر ، وحاول هدمها ، فهو أبو نواس ، وكانت شعوبيته شاملةً ، حقد على العرب ، وحاول النيل من كلِّ ما يمت إليهم بصلة ، هتف بهم في صحوه وسكره ، في جدّه ولهوه ، وتوسل الدعوة للتجديد في الشعر وتقاليده سبيلاً للنيل من العرب ، وشتهم والسخرية منهم ، كقوله :

(27) طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج : 2 ص : 36 — 37.

(28) شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الاول ، ص : 208.

(29) مصدر نفسه . ص : 208.

«عَاجُ الشَّقِيِّ عَلَى دَارٍ يُسَائِلُهَا وَعَجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَارَةِ الْبَلَدِ⁽³⁰⁾
 لَا يُرْفِيءُ اللَّهُ عَيْنِي مِنْ بَكِي حَجْرًا وَلَا شَفَى وَجَدَ مَنْ يَصُبُّ إِلَى وَتَدِ⁽³¹⁾
 قَالُوا ذَكَرْتَ دِيَارَ الْحَيِّ مِنْ أَسَدٍ لَا دَرَّ دَرَكٌ قُلْ لِي مَنْ بَنُو أَسَدِ⁽³²⁾
 وَمَنْ تَمِيمٍ وَمَنْ قَيْسٍ وَإِخْوَتُهُمْ لَيْسَ الْأَعَارِبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
 دَعَا عَدَمْتُكَ وَأَشْرَبَهَا مُعْتَقَةً صَفْرَاءُ تُعْنِقُ⁽³³⁾ بَيْنَ الْمَاءِ وَالزَّبَدِ⁽³⁴⁾»

وهو إذا لم يشتم العرب ، قابل بين صحرائهم القاحلة وحيوانها ونبيتها ،
 وبين الحاضرة وورودها ، ودعاك لترك الصحراء وأطلالها ، وما فيها من حيوان
 ونبات ، والإقبال على الحياة المدنية ، وما فيها من بساتين وكروم وحانات تقدم
 أجود أنواع الخمور بين الأس والرجس :

«أَبْخَلُ عَلَى الدَّارِ بِتَكْلِيمٍ فَمَا لَدَيْهَا رَجَعُ تَسْلِيمٍ⁽³⁵⁾
 وَالْعَنُ غَرَابَ الْبَيْنِ بَغْضًا لَهُ فَإِنَّهُ دَاعِيَةُ الشُّومِ⁽³⁶⁾
 وَعَجَّ إِلَى النُّرْجَسِ عَنْ عَوْسَجٍ⁽³⁷⁾ وَالْأَسِ عَنْ شَيْخٍ وَقَيْصُومٍ⁽³⁸⁾»

وتارة يخاطب باكي الأطلال ، ويتعجب من بكائه ، كيف يبكي أطلالاً قد
 عفت وتغيرت ، وتبدلت ملامحها ، وهجرها أصحابها ، ويتساءل ما الفائدة من
 هذا البكاء ، بل ما الحكمة فيه :

(30) عاج : أقام ووقف وعطف رأس البعير بالزمام . الشقي : يقصد به الذي يقف بالطلول ويسائلها وقد
 أطلق عليه هذا اللفظ سخريه واستهزاء

(31) رقا الدمع : جف وسكن . وجد : حزن . يصبو : يحن .

(32) أسد : أحد بطون العرب من مضر . لا دردرك : لازها عملك .

(33) تعنق : تسرع وتحرك . والعنق نوع من سير الابل والدواب ، يشير بذلك الى حركة الخمر في الكأس
 حين يصب عليها الماء فيكون لها زبد عالق بها فهي تتحرك حركة مشاهدة بين الماء والزبد .

(24) ابونواس ، الديوان ، ص : 46 — 47.

(35) رجع تسليم : رد سلام

(36) البين الفراق وإضاعة الغراب له تشاؤماً بنعيه الذي يعتقدون أنه نذير أذى وهلاك والشوم الشؤم

(37) عج : مل . النرجس : زهر معروف . العوسج : شجر مسائك

(38) ابونواس ، الديوان ، ص : 155.

« أبا باكي الأطلالِ غَيْرَهَا الْبَلَى بَكَيْتَ بَعِينَ لَا يَجِفُّ لَهَا غَرْبُ⁽³⁹⁾
أَتْنَعْتُ دَاراً قَدْ عَفَتْ وَتَغَيَّرَتْ⁽⁴⁰⁾ فَإِنِّي لَمَّا سَأَلْتُ مِنْ نَعْتِهَا حَرْبُ⁽⁴¹⁾

وتارة أخرى ، يجد نفسه مضطراً لوصف الأطلال والدمن ، لينفق شعره في دور الخلفاء ، ولربما طُلب ذلك منه ، فيشعر بالمصيبة قد حلت به أو حل هو فيها ، فيتأمل من ذلك ، ويصرح بتبرمه من هذا الصنيع ، ولجونه إلى مثله اضطراراً كقوله :

« أَعِرْ شِعْرَكَ الْأَطْلَالَ وَالْدَّمْنَ الْقَفْرَا فَقَدْ طَالَ مَا أَزْرَى بِهِ نَعْتُكَ الْخُمْرَا⁽⁴²⁾
دَعَانِي إِلَى نَعْتِ الطُّلُولِ مُسَلِّطُ تَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَجْوزَ لَهُ أَمْرَا⁽⁴³⁾
فَسَمِعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً⁽⁴⁴⁾ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ جَشْمَتَنِي مَرْكَبًا وَعُورَا⁽⁴⁵⁾

وهو يحتج بأن الصحاري ونعتها ، والأطلال ووصفها ، ليست من بيئته ، فكيف يصف ما لا يراه ، داعياً الشعراء لوصف الكرم والخمرة لأنها من بيئتهم ، ويتساءل كيف يذهل الشعراء عن وصف الخمرة وهي ماثلة أمامهم ، لا بل يعيون منها عباً ، ويهيئون بوصف صحارى لم يروها ، وأطلال لم يسمعوها ، وإنما هو التقليد الأعمى لمن مضى ، ومن يحاول التقليد لم يسلم من الوهم والخذل :

« صِفَةُ الطُّلُولِ بِبَلَاغَةِ الْقَدَمِ فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لَابْنَةِ الْكَرْمِ⁽⁴⁶⁾
فَعَلَامَ تَذْهَلُ عَنْ مُشْعَشَعَةٍ وَتَهَيِّمُ فِي طَلَلٍ وَفِي رَسْمِ
تَصِفُ الطُّلُولَ عَلَى السَّمَاعِ بِهَا أَفْذُوا الْعِيَانِ كَأَنْتَ فِي الْعِلْمِ

(39) الغرب : الدمع أو مسيله

(40) عفت : امحت معالمها ، سالت : صالحت ، نعتها : وصفها .

(41) مصدر نفسه . ص : 10

(42) الأطلال : جمع طلل وهو الشاخص من آثار الدار ، الدمن : جمع دمنة وهي آثار الدار ، أزرى به : عابه

(43) مسلط : قاهر متغلب . تضيق ذراعي : تضعف طاقته ، أجوز له أمراً : اعرض عنه .

(44) تسمع وطاعة وفي رواية بالنصب ، وكلاهما جائز ولكل تخريج . جشمتني : كلفتنى .

(45) مصدر نفسه . ص : 21

(46) القدم : الصبي عند الكلام في رخاوة وقلة فهم .

وإذا وَصَفْتَ الشيءَ مُتَّبِعاً لم تَخُلْ من زَلَلٍ ومن وَهْمٍ» (47)

وَقَفَ أبو نواس بقوة مع التجديد ، تدفعه شعويّة صارخة ، أسهمت في تكوينها عواملٌ عديدة ، لسنا الآن معنيين بالكشف عنها ، إنما نريد القول أنّ دعوته للتجديد لم تكن منزّهة الغايات ، فالتزامه بهذه القضية نابع من شعوبيّته ، ولكن هل وَفَّقَ أبو نواس في تجديده ، هل استطاع استبدال العروض الخيلية ؟ هل ابتكر ألواناً من الشعر لم تكن معروفة عند العرب ؟ إنّ ذلك لم يحصل . صحيح تطورت الخمريّة على يديه ، وأصبحت قصيدة متكاملة ، فلم يعد للبيت الشعري استقلاله بها ، وإنما أصبحت القصيدة كلاً متكاملاً . وصحيح أنّه خلَقَ في طردياته لكنّه لم يكن السابق للقول في هذا المجال أو ذاك .

ألح الشاعر على المقدمة الطليّة في القصيدة العربية ، حتى غدت هاجساً كبيراً يورّقه في صحوه وسكره ، فما جديده في هذا المضمار ؟ إنّهُ بالرغم من دعوته المتكررة لتجاوزها ، لم يستطع ذلك ، فذكّر الصحراء ، ووصفها سلباً وإيجاباً ، ولم يكتفِ بوصف الأطلال مقدّمة لقصائده في المديح ، وإنما تعدّاها إلى الهجاء والغزل والخمريات ، فبدلاً من القول : إنّ الوقوف على الأطلال من شأنه يقول : « فما الوقوف على الأطلال من شأنه » وبدل الأمر بالبكاء عليها ، يأمر بعدم البكاء ، وهو على الرغم من ذلك يسكر ، وتأخذه نشوة الخمرة ، فيتزنع تشابيه من الصحراء التي طالما نعاها ، وسخر من أهلها ، وتعجب ممن يطالبه بوصفها ، فإذا هو يعقر دنان الخمر بدل البعير ، وإذا الجنادب والديبى والظليم تنزو ، وتقفز من كأسه :

« حَتَّى إِذَا عُقِرَتْ سَالَتْ سُلَالُهَا فِي قَعْرِ مَعْصَرَةٍ كَالْعِنْدَمِ الْقَانِي (48)
تَنْزَوُ جَنَادِبُهَا فِي وَجْهِ شَارِبِهَا مِثْلَ الدَّبْيِ هَاجَهُ طَشٌّ بَقِيْعَانِ (49)

(47) أبو نواس ، الديوان ، ص : 57 — 58.

(48) عقرت : يريد عسرق . سلالتها : السلالة ما أنسل من شيء يريد عصارتها . العندم القاني : الدم الأحمر .

(49) تنزو : تب ، الجنادب : الجراد الديبى : أصغر الجراد ، الطش : المطر الضعيف : القيعان : مفردھا قاع : الأرض السهلة وقد انفرجت عنها الجبال والأكام .

حَتَّى إِذَا اضْطُّفَّتِ الْأَقْدَاحُ وَانْتَضَ حَتَّ بِيضُ الْقَوَارِيرِ مِنْ أَعْيَانِ كَيَوَانِ
خَلَّنَا الظِّلِيمَ بَعِيرًا عِنْدَ نَهْضَتِنَا (50) وَالتَّلَّ مَبْطَحًا فِي قَدْ نَهْلَانِ (51)

وَقَدْ يَقِفُ عَلَى الْأَطْلَالِ ، وَيُخَاطِبُهَا فَتَثِيرُ حَنِينَهُ وَشَوْقَهُ ، وَلَكِنْ لَا
لِسَكَانِهَا ، وَإِنَّمَا لِمَا تَحْبِبُهُ مِنْ دَنَانِ الْخَمْرَةِ وَاللَّذَّةِ :

« لِمَنْ طَلَّلَ عَارِيَ الْمَحَلِّ دَفِينُ عَفَا آيَهُ إِلَّا خَوَا لِدُجُونِ (52)
كَمَا اقْتَرَنْتَ عِنْدَ الْمَيْبِتِ حَمَائِمُ غَرِيْبَاتُ مُمْسَى مَا لَهْنُ وَكُونُ (53)
دِيَارِ الَّتِي أَمَّا جَنَى رَشَفَاتِهَا فَيَحْلُو ، وَأَمَّا سَهْهَا فَيَلِينُ (54) »

أَوْ يَخْضَعُ لَتَقَالِيدِ الْقَصِيدَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَيَقِفُ عَلَى الطَّلَلِ ، وَيَأْمُرُ بِالْوَقُوفِ
عَلَيْهِ ، وَيَنْعَتُهُ ، وَيَعْتَرِفُ بِخُضُوعِهِ :

أَرْبَعُ عَلَى الطَّلَلِ الَّذِي انْتَسَفَتْ مِنْهُ الْمَعَالِمُ أَنْجُمَ النُّحُسِ
لَعِبَتْ بِهِ رِيحُ يَمَانِيَّةٍ وَحَوَاصِبُ تَرْكَنُهُ كَالطَّرْسِ (55)
فَلَيْتُنْ عَفَا وَعَقَفَتْ مَعَالِمُهُ فَلَقَدْ خَضَعْتُ وَكُنْتُ ذَا نَفْسِ (56)

وَأَبُو نَوَاسٍ ، وَإِنْ لَمْ يَتَخَلَّ عَنْ الْمَقْدَمَةِ الطَّلَلِيَّةِ فِي خَمْرِيَّاتِهِ أَوْ مَدْحَاتِهِ ،
فَمَا اسْتَطَاعَ التَّخَلِّيَ عَنْهَا فِي هِجَائِهِ ، فَقَدْ وَصَفَهَا وَصْفًا سَلْبِيًّا فِي هِجَائِهِ لِعَدْنَانَ
وَمُضَرَ :

« لَيْسَتْ بِدَارٍ عَفَتْ وَغَيْرَهَا ضَرَبَانٍ مِنْ قَطْرِهَا وَحَاصِبِهَا (57) »

(50) الظليم : ذكر النعام ، نهلان : اسم جبل .

(51) أبو نواس ، الديوان ، ص : 113 .

(52) دفين : بعيد عن العيون ، عفا : درس : آية : علاماته ، الخوالد الأثافي وهي الحجارة التي تنصب
لتوضع عليها القدر ، جون : سود .

(53) اقترنت : اجتمعت ، وكون : جمع وكن وهو العش .

(54) أبو نواس الديوان ص 68 .

(55) الحواصب : الرياح التي تحصب الوجوه بما تحمل من حصى وتراب .

(56) أبو نواس الديوان ص 215 .

(57) القطر : المطر ، الحاصب : الريح تحمل التراب أو هو ما تنثر من دقاق الثلج والبرد .

ولا لَأَيُّ الطَّلُولِ أَنْدَبُهَا لِلرَّيْحِ وَالرُّقْشِ⁽⁵⁸⁾ مِنْ قَرَانِيهَا⁽⁵⁹⁾

وهو إلى ذلك ، يقف على أطلال حانة ، ويحبس صحبه بها ، لا للنحيب والبكاء ، وإنما للقصف واللهو والمجون :

« وَدَارِ نَدَامَى عَطَلُوهَا وَأَدْلَجُوا⁽⁶⁰⁾ بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارُسُ⁽⁶¹⁾ »

فالأطلال كما نرى ، تلاحقه كاللّعة ، كلما أراد ابتعاداً عنها زادت التصاقاً به ، ولولجاً في أعماقه ، وهو رغم ذلك يقول :

« مَا بَيْنَ رِبْعٍ وَلَا رَسْمٍ وَلَا طُلُلٍ أَقْوَى وَبَيْنِي فِي حَكْمِ الْهَوَى عَمَلٌ⁽⁶²⁾ »

ويعلّل ذلك بأنّه ما قطع الصحراء على ناقة أو جمل ، ولا شتا فيها ثم أدركه الصيف ، فارتحل عنها وخلّفت في نفسه ذكرى ، ولا شدّ بها طنباً لخيمته ، فجاور الضب والورل . فالصحراء غريبة عنه ، لا يعرف منها سهلاً ولا جبلاً ، وهو لا يعرف إلا الحواضر والبساتين ، والحدائق الغناء ، ولا ينعت إلا « قصراً منيعاً عليه النخل مشتمل⁽⁶³⁾ »

حقاً أن أبا نواس « كان يريد أن يتخذ - ويتخذ الناس معه - في الشعر مذهباً جديداً وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة ، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها الحياة ، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء ، لأنّ هذه الطريقة التي كانت تلائم القدماء ، وما ألفوا من ضروب العيش . فإذا تغيرت ضروب العيش هذه ، وجب أن يتغيّر الشعر الذي يتغنّى بها ، فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها ، أن يصف الخيام والأطلال ، أو يتغنّى بالإبل

(58) الرقش : جمع رقشاء وهي المنقطة الجلد ، القرانب : جمع قرنب وهو اليربوع .

(59) أبو نواس ، الديوان ، ص : 506 .

(60) كان أبو نواس قد أخذ بعض صحبه ومر على المدائن مقر الأكاسرة فرأى بعض حاناتهم ، ولم يكن قد بقي فيها غير أطلال فكتب هذه القطعة .

(61) أبو نواس الديوان ص 37 .

(62) مصدر نفسه . ص : 698 .

(63) مصدر نفسه . ص : 698 .

والشَاءَ ، وإنما يجب عليه أَنْ يَصِفَ القصورَ والرياضَ ، ويتغنَّى الخمرَ والقيانَ ، فإنَّ فعلَ غيرِ ذلك ، فهو كاذبٌ متكلفٌ ⁽⁶⁴⁾ ولكنَّ أبا نواسٍ لم يستطعِ الوصولَ إلى كلِّ ما يريد من ذلك ، فَظَلَّ شَبَّحَ الصحراءَ مخيماً على روحه ، يحاول طرده ، ولكنَّه لم يستطع ، وأبو نواسٍ ، وإنَّ حاولَ الخروجَ على الجاهليين ، فَمَا تحرَّرَ من قيودهم « ولو فعل لما قُرِئَ ولا سُمِعَ » ⁽⁶⁵⁾ .

الأثر الشعوبي في التجديد النثري :

أما في النثر ، فقد كان عبد الله ابن المقفع ، من أوائلِ الكتَّابِ الأدباء الذين ذلَّلوا وعورة النثر ومهدوه ، وسهَّلوا طُرُقَه لمن جاء بعدهم ، وكان نهايةً في الفصاحة والبلاغة ، مثقفاً ثقيفاً واسعاً ، فصيحَ اللسان بالعربية والفارسية ، فأكَبَّ على التراثِ الفارسي ، ينقل كنوزَهُ إلى العربية فنَقَلَ كَلِيلَةَ ودمنة كما نقل كتباً عديدةً أخرى - كنا قد أشرنا إليها - في السَّيَرِ والأدب والأخلاق والطب والحكمة ⁽⁶⁶⁾ وقد بلغ من إتقانه في صَبِّ تلك المعاني الأجنبية في القوالب العربية ، أن التبس أمرُ ترجمته على الكثيرين وظنَّوا أنَّ بعض ما ترجمه من إنشائه وتصنيفه ⁽⁶⁷⁾ .

فأعجَبَ بلغاءُ عصره ببيانه ، وأسلوبه إعجاباً شديداً ، فوضعوه على رأسِ البلغاء العشرة الأول ، وعدَّوا له كتابين في الكتب التي أجمعوا على بلاغتها وجودتها ، وهما : كَلِيلَةُ ودمنة واليَتِيْمَةُ ⁽⁶⁸⁾ وكان الناشئون من الكتَّاب يتدارسون كتبه ، ليحذِّقوا أسلوبه المبتكر ، ويعترفوا من بلاغته وثقافته ⁽⁶⁹⁾ ولعلَّ كتاباً في

(64) طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج : 2 ص : 90 .

(65) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 378 .

(66) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 172 ، 337 .

(67) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص : 86 .

(68) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 182 — 183 .

(69) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، ص : 42 . (ذم اخلاق الكاتب)

العربية ، لم يبلغ من العناية والشهرة ما بلغه كتاب كليله ودمنة ، فقد نُقِلَ مراراً إلى الشعر ، كما تُرجم إلى معظم لغات العالم ، وما زال حتى عصرنا يحظى باهتمام وعناية الدارسين⁽⁷⁰⁾ .

وعلى الرغم من أن شعوبية ابن المقفع خفية لا تكاد تصرح عن نفسها إلا في مواضع نادرة فقد اعتبره الشعوبيون رمزاً من رموزهم فنسبوا إليه أقوالاً وحكمات كثيرة ، وتعصب عليه كثيرون ممن يميل إلى العرب ، فاتهموه وبالغوا باتهامه ، ووضعوا الكتب في الرد على ما نسب إليه من زندقة .

ومهما يكن من أمر ، فابن المقفع اعتبر مدرسة في النثر العربي ، اقتدى به كثير من البلغاء واحتذوه ، ومن أبرزهم في هذا المجال سهل ابن هارون صاحب خزانة الحكمة لعهد المأمون ، فألف كتاب ثعلة وغفرا على مثال كليله ودمنة ، كما صنف كتاب الهذلية والمخزومي ، وكتاب الواثق والعذراء ، وكتاب النمر والثعلب ، إضافة إلى كتب في القضاء والحكمة والملك والسياسة ، وكان شعوبياً شديداً العصبيّة على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل في البخل⁽⁷¹⁾ ولكن الزمن عدا على آثاره فمحاهها ، وأُخْلِقَ رسومها إلا رسائل صغيرة ، وبعض الأقوال الماثلة في ثنايا الكتب ، تنبئ عن بلاغته ومهارته في الكتابة والتجسير ، كما عثر عبد القادر المهيري على مخطوط النمر والثعلب ، فنشر مقتطفات منه في حولية الجامعة التونسية⁽⁷²⁾ وهذا الكتاب عبارة عن قصة تدور على ثلاث شخصيات هي : الثعلب الحكيم والذئب الغادر المتمرد ، والنمر الطاغوي المستبد ، وتسلسل حوادث القصة تسلسلاً دقيقاً ، فالثعلب ، كان يسكن في حجريه بواد منذ زمن ، ويمرّ عليه ثعلب آخر ، فيشير عليه بتغيير حجره خوفاً من السيل ومفاجأته ، ولكن زوجته ترفض الانتقال وتأبى التحول ، ويأتي السيل فيدهمه ، ويحمله وحيداً إلى جزيرة ظنّها ، لأول وهلة ، خالية من كل ما يدب أو يسعى ، فبييت فيها ليلته

(70) محمد نائل المرصفي ، مقدمة كليله ودمنة (طبعة المؤسسة المتحدة للكتاب - بيروت 1980

(71) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 174 .

(72) عبد القادر المهيري ، حولية الجامعة التونسية ، العدد الاول ، سنة 1964 .

طاوياً ، وتشاء الصدف أن يلتقي بالذئب ، وسرعان ما يتعارفان ويتآلفان ، فيخبره الذئب بحال الجزيرة وكثرة ظبائها ، وبقر الوحش فيها ، واستبداد النمر الذي يملكها ، ويسيطر على مقدراتها فينصحه الثعلب بإتيان النمر ، وإظهار الخضوع والمودة له ، واستنصاحه ، وبذل مساعدته ، فيتولى الذئب للنمر إحدى الولايات ، وينتقل مع الثعلب إليها ، وما أن يطمئن في ولايته ، ويثبت دعائم حكمه ، حتى يخلع الطاعة ، ويجاهر بالعصيان ، فتشرب الحرب ، وتدور الدوائر على الذئب ، فَيَقْتُلُ وَيُؤَسِّرُ وزيره الثعلب ، ويكاد يلقاه المصير نفسه ، لولا ما توسم فيه النمر من العقل والحكمة ، فبرّد له حياته ، ويسأله أسئلة متنوعة ، فيجيبه الثعلب عنها . والفصّة على ما أظن تتحدث بالرمز عن علاقة طاهر ابن الحسين بالمأمون ، وامتناعه منه في خراسان مع بعض التعديلات التي تبعد التهمة ، وتنقذ من التهلكة .

وأما رسالة سهل في البخل ، فقد وجهها إلى محمد ابن زياد وإلى بني عمه من آل زياد وكانوا يذمون بُخله ، فابتدأها بالدعاء لهم ، ثم تمثّل بكلام للأحنف ابن قيس متخلصاً بذلك إلى غايته المرجوة من رسالته ، وهي هدايتهم ، وتقويمهم وإصلاح فسّادهم ، معتذراً لنفسه عن الخطأ بالقول : « ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم ، فما أخطأنا حسن النية فيما بيننا وبينكم ، ثم قد تعلمون إنّا ما أوصيناكم إلّا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشهّرنا به في الآفاق دونكم »⁽⁷³⁾ وبعد أن بسط عذره ، تناول ما عابوه عليه عيباً عيباً ، يدفع الحجة بالحجة ، والبيّنة بالبيّنة ، متمثلاً بالدين ، وأحاديث الرسول والصحابة والعلماء والعقل والمنطق .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ شعوبيّته وعصبيّته على العرب ، كانت الدافع لإنشاء هذه الرسالة ، وذلك أنّ العرب كانت تعتبر الكرم من أهم الفضائل العربية ، فأراد أن يهدم هذه الفضيلة ، ويبني بدلاً عنها فضيلة للبخل وأهله ، يظهر من خلالها تخليط العرب وتضييعهم ، وقلة حزمهم بتبديد ثرواتهم .

(73) الجاحظ ، البخل ، ص : 21

ورسالة سهل ابن هارون ، كانت من الأسباب الرئيسية التي دفعت أبا العاص ابن عبد الوهاب الثقفي ، لتصنيف رسالته التي نقض فيها ما أبرمه سهل ، فذم البخل وأهله ، وامتدح الكرم ودعا إليه ، سالكاً في ذلك كل مسلك .

فاستهل رسالته بذكر العلامات التي تنبئ أن صاحبها قد أبطن البخل ، وعزم عليه ، فمن هذه العلامات : الجلوس إلى الأصمعي ، والإعجاب بسهل ابن هارون ، واسترجاع كلام ابن غزوان ، والظعن على مُوَيْس ابن عمران ، والإختلاط بابن مشارك ، والإختلاف إلى ابن التوأم ، والإكثار من ذكر المال وإصلاحه ، والقيام عليه وجمعه وتثميده ، وما ذلك إلا « دليل على خبيء سوء ، وشاهد على عيب ودبر ، بعد أن كنت تستثقل ذكرهم ، وتستشنع فعلهم ، وتتعجب من مذهبهم ، وتسرف في ذمهم ، وليس يلهج بذكر الجمع إلا من قد عزم على الجمع ، ولا يأس بالخلاء إلا المتوحش من الأسخياء »⁽⁷⁴⁾ ثم يلوم ابن عمه في تحفظه كلام سهل ابن هارون . . . وابن غزوان في المنع والجمع ، وينتقل إلى ذم البخل وأهله ، ومدح الكرم وأهله مُرَغِباً فيه ترغيباً عقلياً ودينياً ، ثم ذم هذا القريب الذي اقتدى بسنة الموالى ، ونسي صفات قومه العرب ، فقال :

« ولقد سرى إليك عرق ، ولقد دخل أعراقك خور ، ولقد عمل فيها قاذح ، ولقد غالها غول ، وما هذا المذهب من أخلاق صميم ثقيف ، ولا من شيم أعرقت فيها قريش ، ولقد عرض لك إقراف ، ولقد أفسدتك هجنة »⁽⁷⁵⁾

فالكرم فضيلة عربية اختصت بها العرب ، ومجدها الأمم ، وأشاد فيها الدين ، فالله كريم ويحب الكريم ، ويمقت البخل وأهله ، والنبي قد فاق بكرمه كل كريم . ثم أشاد أبو العاص بإجماع العرب على تمجيد الكرم وذم البخل ، حتى كَفَرَ بالخلاء ، وأخرجهم من الدين ، ثم ذكر حال الكريم في نفسه ، والبخل في نفسه معدداً أصناف الخلاء ، محتجاً على سخفهم بالحديث والسنة والعقل والمنطق والمأثور من كلام الشعراء والحكماء .

(74) الجاحظ ، الخلاء ، ص : 220 .

(75) مصدر نفسه . ص : 223 — 224 .

وما كادت رسالة أبي العاص تشهر ، حتى انبرى لها شعوبي آخر ، ناقضاً ما أبرمته ، هادماً ما بنته ، في رسالة طويلة وجّه بها إلى الثقيفي في غير رد على أبي العاص ، مصرحاً بشعوبيته ، وكأنه ما كره الكرم إلا لأنه من خصال العرب⁽⁷⁶⁾ فالأعرابي بزعمه « شر من الحاضر ، سائل جبار ، وثابة ملاق ، إن مدح كذب ، وإن هجا كذب ، وإن أيس كذب ، وإن طمع كذب ، لا يقربه إلا نطف وأحمق ، ولا يعطيه إلا من يحبه ، ولا يحبه إلا من هو في طباعه »⁽⁷⁷⁾ فكره ابن التوأم للكرم مقرون بكرمه لأهله ودعائه ، وأظنه قد وقف هذا الموقف لاضطغائه على العرب وكرمه لهم وحقده عليهم .

وإذا تجاوزنا هذه الرسائل ، لاحظنا نمطاً آخر من التأليف ، وهو تدييج الكتب في مثالب الأمم وفضائلها ، فظهرت مؤلفات عديدة في مثالب العرب وقبائلها ، وفي فضائل الأمم الأخرى ، وخاصة الفرس ، فكانت سبباً لظهور مؤلفات تنقضها ، وترد على ادعاءاتها ، كما ظهرت المؤلفات التي تنصّر للشعبية وتؤيدها أو ترد عليها وتسفه عقول أصحابها .

(76) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 236 .

(77) مصدر نفسه . ص : 255 — 256 .

الفصل الأول

الشعبوية الأدبية في الشعر .

إتجاهاتها أصحابها

الحسن ابن هانيء

- مجوانه

- هجاء العرب والسخرية منهم

المظاهر الشعبية في الشعر :

ظهرت الشعبية في الشعر باكراً ، فافتتحها أحد شعراء العصر الأموي - كما مر معنا - وهو اسماعيل ابن يسار النسائي ، الذي افتخر بقومه وأمجدهم ، وعبر العرب في جاهليتهم بعباداتهم وطريقة عيشهم⁽¹⁾

لكن الظروف السياسية والإجتماعية ، لم تكن تسمح لهذه النزعة بالإتساع والشمول ، والتحول إلى تيار له أنصاره ومؤيدوه ، وكان على هؤلاء انتظار دولة بني العباس ، حيث تمتع الفرس بنفوذ كبير ، شعروا بالقوة والتفوق ، فعبروا عن مشاعرهم بحرية تامة دون خشية من سلطان أو وازع من دين ، وفرق كبير بين هشام ابن عبد الملك وموقفه من اسماعيل بن يسار ، والسفاح الذي روى على مسامعه يزيد الرقاشي خبراً مفتعلاً ، ثلب فيه قبائل العرب ، ولم يستثن حتى بني هاشم ، ومع إحساس السفاح بأن الخبر موضوع ومفتعل ، فإنه لم يغضب ، وإنما أبدى استحساناً لما سمع ، فقال « لئن كنت عملت هذا الخبر ، ونظمت فيمن ذكرت هذه الأشعار ، فلقد أحسنت ، وأنت سيد الكاذبين ، وإن كان الخبر صدقاً ، وكنت فيما ذكرته محققاً ، فإن هذه الجارية العامرية ، لمن أحضر الناس جواباً ، وأبصرهم بمطالب الناس »⁽²⁾ .

(1) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 4 ص : 120 .

(2) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 285 وما بعدها .

للجنيلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 197 وما بعدها .

وبشار ابن برد يدخل على المهدي ، وقد عرف كثرة فخره ، واعتداده بنفسه وقومه ، ومفاخرته العرب بمثل قوله :

« هل من رسول مخبر عني جميع العرب »⁽³⁾

فيسأله : فيمن يعتدّ ، فيقول : « أمّا اللسان والزّيّ فعربيان ، وأمّا الأصل فعجمي ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

ونبت قوماً بهم جنة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهداً ليعرفني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بني عامر فروعي وأصلي قریش العجم »⁽⁴⁾

فلا يغضب المهدي ، ولكنه يسأله عن أصله في العجم ، فيجيبه بشار بفخر شديد « من أكثرها في الفرسان ، وأشدّها على الأقران أهل طَخَارِسْتَان »⁽⁵⁾ وبشار هذا الذي طال ما افتخر بمواليه أيام بني أمية ، نراه يتبرأ من الولاء في هذا العصر ، فيقول :

« أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال ومن قریش المعشر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر »⁽⁶⁾

فكأنّي به ، وقد شعر بأنّه حصل على حريته المسلوبة في زمن الأمويين ، وأنّ الولاء ميسمّ ما زال يذكرّه بعبوديته ، فأراد التحرر من هذا الميسم ، والتفّلت من هذا الولاء ، يظهر ذلك من خلال الحوار الذي دار بينه وبين رجل من بني زيد ، إذ قال له : « يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الإلتفاء مِنّا ، وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم ، وترك الولاء ، وأنت غير زاكي الفرع ، ولا معروف الأصل ، فقال بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ، ولفرعي أركى

(3) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 20 .

(4) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 3 ص : 20 .

(5) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 21 .

(6) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 21 .

من عمل الأبرار ، وما في الأرض كلب يؤدّ أن نسبك له بنسبه ، ولو شئت أن أجعل جواب كلامك كلاماً ، لفعلت» (7) .

وبشار لم يترك ولاءه فحسب ، وإنما اعتزى إلى أشراف الفرس ، وجعل نسبه يضارع نسب كسرى ، فقال في أرجوزته :

« كل امرئ رهن بما يؤدى ورب ذي تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل بُردٍ انكب جافٍ عن سبيل القصد » (8)

وتحول إلى داعية في قومه يُرغِبُهُم بالعودة إلى أصولهم ، والشعور بشخصيتهم القومية وكيانهم ، كمقدمة لعمل أكبر وأخطر ، أما حقه على العرب ، وشعوره بالنسبة لهم ونظام الولاء الذي استنوه ، فظاهر بقوله : « ما في الأرض كلب يؤدّ أن نسبك بنسبة » فحقه على العرب كبير ، يغلي في صدره ويتأجج في كيانه ، ينتظر الفرصة المناسبة لينفث سموماً في وجوههم . لأنهم الأمة التي حطمت عرش الأكاسرة ، وسبّت ذراريهم ، وغنمت تيجان ملوكهم ، وجعلت بشاراً وغيره عبيداً لهم ، ثم منّت عليهم ، فأعتقتهم وجعلتهم من الموالي . وحقد بشار هذا كان الدافع لزندقته وتقديمه النار على الطين ، فالنار معبودة قومه المجوس ، والإسلام دين أولئك الذين هزموه وقومه ، ونسخوا حضارتهم ودينهم .

ومن شعراء الشعوبية إسحاق ابن حسان الخريمي ، وأصله من خراسان من أبناء الصغد ، لكنّه لم يسرف في عصبيته ، وكان يتأله ويتدين⁽⁹⁾ ويميل إلى أهل التسوية ، وما يدعو إليه الإسلام من مساواة بين المسلمين ، ومع هذا ، نراه ، يفتخر بقومه ، ويفاخر العرب ، كقوله :

(7) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 51 .

(8) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 38 .

(9) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 6 ص : 326 . ابو الفرج الاصفهاني ،

الاغاني ، ج : 5 ص : 170 وفيه رواية تدل على فسقه وفجوره وتحلله الاخلاقي .

« إني امرؤ من سُراة الصغد البسني عرق الأعاجم جلدأ طَيِّبَ الخَبَرِ »⁽¹⁰⁾

لكنه سرعان ما يعزف عن الفخر ، ويرى في العقل والدين رادعاً له عن ذلك ، فيقول :

« أبا لصغد بأس إذ تعيرني جمل سفاهاً ومن أخلاق جارتني الجهلُ
فإن تفخري يا جمل أو تتجملني فلا فخر إلا فوقه الدين والعقلُ
أرى الناس شرعاً في الحياة ولا يرى لقبر على قبر علاء ولا فضلُ
وما ضرني إن لم تلذني يحابرُ ولم تشمل جرم علي ولا عكلُ »⁽¹¹⁾

فالفخر جهل وسفَه ، وأهل المفاخر جاهلون . لأن الفخر لا يستسيغه عقل ولا دين ، فالناس في الحياة سواء يفتنون بنفس الغذاء ويشربون الماء ، ويتنفسون الهواء ، علة ولادتهم واحدة ، وعلة موتهم واحدة ، ولا تفاضل في القبور . فإذا كانت هذه حقيقة الموت والحياة ، فأَيُّ ضرر في أن لا يكون عربياً ، وأَيُّ منفعة في كونه من العرب ؟

وأما شعوبية علي ابن الخليل ، فشعوبية ساخرة تستهين بالعرب ونمط معيشتهم ، تسخر من خشونتهم وجفائهم ، وبعدهم عن الحضارة وأسبابها ، وهي شعوبية لا يجاهر فيها ، وإنما يتوسل لها بوسائل خاصة ، كهجائه لأحد أصدقائه من الدهاقين ، وقد ادعى نسباً في العرب ، فغيره بذلك مظهراً سخفه ، لأنه فور ادعائه بالعرب تجافى عن أكل الأسماك ، وتشهى أكل الضباب تشبهاً بالأعراب ، ولم يرغب إلا رائحة الشيخ والقيصوم وزهد في أنواع الورود والرياحين :

« يشم الشيخ والقيصوم م كي يستوجب النسباً
وقد أبصرته دهرأ طويلاً يشتهي الأدبا
فصار تشبهاً بالقو م جلفاً جافياً جشبا »⁽¹²⁾

(10) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج : 2 ص : 731 .

(11) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 735 .

(12) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 13 ص : 18

وهو يمضي على هذا النحو في شعبية مبطنة ظاهرها هجاء لذلك الدعي ، وباطنها سخرية من العرب ، وطرائق معيشتها ، فهو لا يريد من الموالي ادعاء أنساب لهم في العرب ، لأن في ذلك الابتعاداً عن الحضارة ومباهجها ، وارتقاء في البدائية والجهل والخشونة والحقارة ، فابن الخليل لولا شعوبيته ، وما يضممر للعرب من حقد وبغض ، لكان هجا الأدعياء من دون أن يهجو العرب ، ويسخر منهم ، كما فعل أبو العتاهية عندما هجا والبة ابن الحباب واتهمه ، أنه من أدعياء العرب :

« أوالب أنت في العرب كمثل الشيص في الرطب »⁽¹³⁾

فأبو العتاهية اتهم والبة بأنه دعي وهجاه بذلك وغيره ، لكنه لم يسخر من العرب ولا تنقصهم .

واتخذت الشعوبية الضب رمزاً لهوان العرب ، وتَوَحَّشهم في الصحارى كقول التميمي يقابل بين أرض العرب المجدبة والموحشة إلا من الضباب وبين بلاد الفرس الغنية بكرومها وبساتينها :

لِكَسْرَى كَانَ أَعْقَلَ مِنْ تَمِيمٍ	لِيَالِي فَرَّ مِنْ أَرْضِ الضَّبَابِ
فَأَنْزَلَ أَهْلَهُ بِبِلَادِ رَيْفٍ	وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارِ عَذَابِ
وَصَارَ بَنُو بَنِيهِ بِهَا مَلُوكاً	وَصَرْنَا نَحْنُ أَمْثَالُ الْكَلَابِ
فَلَا رَحِمَ إِلَهِ صَدَى تَمِيمٍ	فَقَدْ أَرَى بَنَانِي فِي كُلِّ بَابِ ⁽¹⁴⁾

فلو صحت هذه الأبيات لأحد العرب لَأَمْكَنَّا القول بأن الشعوبية نجحت إلى حد ما في إضعاف الروح المعنوية لدى العرب ، لكن كثرة الوضع والإنتحال في هذا العصر تجعلنا نشك في نسبة هذه الأبيات لأحد التميميين ، فإن فيها نفساً شعوبياً واضحاً .

(13) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 13 ص : 489 .

(14) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 256 ، ج : 6 ص : 101 .

وكقول أبي نواس يهجو بني تميم :

« إذا ما تميمي أتاك مفاخراً فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب
تفاخر أبناء الملوك سفاهة وبولك يجري فوق ساقك والكعب»⁽¹⁵⁾
والشعوبية إذا عدلت عن هجاء العرب ، افتخرت بالفرس وغيرهم من الشعوب
كقول أبي نخيلة :

«هم وسط يرضى الإله بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم»⁽¹⁶⁾
يجعلون ذلك من قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾⁽¹⁷⁾.

وإذا جهرت الشعوبية بأهدافها ، تبين أنها تدعو لدخول العرب وحصرهم في
الصحراء ، كما كانوا في الجاهلية ، كدعوة أبي عطاء السندي لبني هاشم والعرب
أجمعين :

« بني هاشم عودوا إلى نخلاتكم فقد قام سعر التمر صاعاً بدرهم
فإن قلتم رهط النبي وقومه فإن النصارى رهط عيسى ابن مريم »⁽¹⁸⁾

ونمضي إلى عصر المأمون ، وقد أكد الفرس من جديد غلبتهم على
السلطان ، بمناصرتهم للمأمون وقتلهم أخاه ، فازدادت النعرة الشعوبية حدة
ووضوحاً في غاياتها وأهدافها بإزالة السلطان العربي وتدميره ، وبرزت تلك النعرة
في أسيرة الفضل ابن سهل ثم في أسيرة طاهر ابن الحسين قائد المأمون الذي
افتتح بغداد وقتل الأمين ، فاعتبر طاهر أن انتصاره كان انتصاراً للفرس وثأراً من
العرب ، فاحتال حتى تولى خراسان ، ومن هناك واصل تبجحه وادعاءاته كقوله :

(15) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 102.

(16) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 497.

(17) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية رقم : 143.

(18) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج : 2 ص : 654.

« غَضِبْتُ عَلَى الدُّنْيَا فَانْهَيْتُ مَا حَوَتْ وَأَعْتَبْتُهَا مِنِّي بِإِحْدَى الْمَتَالِفِ
 قَتَلْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّمَا بَقَيْتُ عَنَاءَ بَعْدِهِ لِلْخُلَائِفِ
 وَأَصْبَحْتُ فِي دَارِي مَقِيمًا كَمَا تَرَى كَأَنِّي فِيهَا مِنْ مَلُوكِ الطَّوَائِفِ
 وَقَدْ بَقِيتُ فِي أُمِّ رَأْسِي فَتَكَّةٌ فَإِنَّمَا لِرَشِيدٍ أَوْ لِرَأْيٍ مُخَالَفِ » (19)

فهو كما ترى شديد الاعتداد بقتله للأمين ، وبقوته وعجز الخليفة عنه ،
 يشبه نفسه بملوك الطوائف الفرس ، فهو لا يعترف بسultan لأحد ، ولا يكفي
 بهذا القدر من الصلف والغرور ، فينذر ويهدد ويتوعد ، دون أن ينسى قتله
 للأمين ، وتنصبيه للمأمون كملك جديد :

« قَتَلْتُ الْخَلِيفَةَ فِي دَارِهِ وَأَنْهَيْتُ بِالسَّيْفِ أُمُومَالَهُ

وَقَالَ أَيْضًا :

مَلَكْتُ النَّاسَ قَسْرًا وَاقْتِدَارًا وَقَتَلْتُ الْجَبَابِرَةَ الْكِبَارَا
 وَوَجَّهْتُ الْخِلَافَةَ نَحْوَ مَرُو إِلَى الْمَأْمُونِ تَبْتَدِرُ ابْتِدَارَا
 وَسَوْفَ أُدِينُ قَيْسَ الشَّامِ ضَرْبًا يَطِيرُ مِنْ رُؤُوسِهِمُ الشَّرَارُ » (20)

وكما تغنى طاهر بانتصاره ، فقد تغنى ابنه عبد الله بهذا الانتصار ، وإفتخر
 بأبائه وسابقتهم بخدمة الأسرة العباسية ، وأسرف بافتخاره بأبيه وشجاعته في
 معاركه مُذَكِّرًا بقتله لملك العرب وخليفتهم ، ، كقوله :

« وَأَبِي مِنْ لَا كِفَاءَ لَهُ مِنْ يَسَامِي مَجْدِهِ قَوْلُوا
 صَاحِبَ الرَّأْيِ الَّذِي حَصَلَتْ رَأْيُهُ الْقَوْمِ الْمُحَاصِلُ
 حَلَّ مِنْهُمْ بِالذَّرَى شَرْفًا دُونَهُ عَزَّ وَتَبَجَّلُ

وعن بطشه بالأمين وتحريقه بغداد بجنوده الخراسانيين ، يقول :

أَبْطَنَ الْمَخْلُوعُ كَلْكَلَهُ وَحَوَالِيهِ الْمَغَاوِيلُ

(19) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 2 ، ص : 57.

(20) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج 10 : ص 209 ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،

ج : اص : 354.

غال عنه ملكه غولُ	فتوى والترب مضجعه
ضاق عنه العرض والطولُ	قاد جيشاً نحو قاتله
كليوث ضمها غيلُ	من خراسان مصممهم
لا معازيل ولا ميلُ	وهبوا لله أنفسهم
ونداه الدهر مبدولُ	ملك تجتاح سطوته
وهو مرهوب ومأمولُ	قطعت عنه تمانمه
ودم يجنيه مطلولُ» ⁽²¹⁾	وتره يسعى إليه به

وافتحز علان الشعبي بهذا الانتصار الذي اعتبره انتصاراً للفرس جميعاً ورد اعتبار لهم بعد هزائمهم في القادسية ونهاوند ، فقال في مدح الطاهريين في معرض رده على محمد ابن يزيد الأموي :

لعزاليه الأهاليلُ	« وأبو العباس غاديه
وله بالجود تهطيلُ	تمطر العقيان راحته
زانه تاج وإكليلُ	رستمي في ذرى شرف
كرم عدّ وتبجيلُ	وعليه من جلالته
في قرار النجم مأهولُ	إنّ لي فخراً مباءته
هم لما حازوا مباذيلُ	ورجالاً شربهم عذق
غرر زهر مقاويلُ» ⁽²²⁾	كسرويات أبوتنا

وأخذ الشعراء الشعبيون يحرضون زعماء الفرس على العمل لانتزاع السلطان من العرب ، كقول أبي يزيد (وهو من أهل الري) لعبد الله ابن طاهر :

في شاذّ مهَرٍ ودَغ غمدان لليمن	« إشرب هنياً عليك التاج مرتفقاً
من هوزة ابن علي وابن ذي يزن » ⁽²³⁾	فأنت أولى بتاج الملك تلبسه

(21)التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 1 ص : 341.

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 57 — 59.

(22) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج : 12 ص : 194 وما بعدها .

(23)المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج : 1 ص : 248.

ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 1 ص : 225.

وأدى ضعف الدولة المركزيّة بعد عهد المعتصم بالشعبوية إلى البوح بما يخالج صدور أصحابها من أمل بسحق العرب ، وهدم عزهم وإحياء الأمجاد الفارسية القديمة ، أمجاد كسرى ورستم وبَزُر جَمَهَر وإِسْقَنْدِيَار وغيرهم من ملوك العجم ورجالاتهم ، كتلك الصبيحة التي أطلقها إبراهيم ابن ممشاد المتوكلي وقد آنس القدرة في يعقوب ابن الليث الصفار ، وتوسم فيه البطل الفارسي الذي يدرك ثارات الفرس ، ويعيد أمجادهم فكتب إلى الخليفة المعتمد :

« أنا ابن الأكارم من نسل جم	وحائز إرث ملوك العجم
ومحي الذي باد من عزهم	وعفى عليه طوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة	فمن نام عن حقهم لم أنم
معي علم الكائنات الذي	به أرتجي أن أسود الأمم
فقل لبني هاشم أجمعين	هلموا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرمما	ح طعناً وضرباً بسيف خذم
وأولاكم الملك أبأؤنا	فما إن وفيتم بشكر النعم
فإنّي سأعلو سرير الملوك	بحد الحسام وحرف القلم» ⁽²⁴⁾

والمتوكلي كما هو واضح يفخر بأصله وأجداده العجم وملوكهم ، ويعتبر نفسه الوريث الشرعي لأمجادهم ، والجدير بإحياء تلك الأمجاد العريقة ، لهذا فهو طالب لأوتارهم ، وثاراتهم غير نائم عن هذا الطلب ، وإن نام غيره من أبناء قومه ، كما منّ الهاشميين بأنّ آباءهم الذين رفعوهم إلى الحكم والسلطان ، فلم يكونوا جديرين به ، فعليهم العودة إذن إلى الصحراء والإنكفاء فيها ، رعاة غنم وإبل ، وأكلة ضباب ويرايع ، وإلا فالسيف والقلم بينه وبينهم .

وكان مهيار ابن برزیه الكاتب الديلمي شعبياً شديداً الإعتداد والفخر بأصله الفارسي ، أسلم على يد الشريف الرضي⁽²⁵⁾ لكن وصفه للنار وتعظيمها يُظهر ميله إلى دينه القديم ، فالعناصر المجوسية في صفته للنار واضحة في قصيدته التي

(24) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج : 2 ص : 16 — 19 .

(25) ترجم له ابن خلكان في وفيات الاعيان ، ج : 5 ص : 359 .

مدح فيها فخر الملك ليلة السدف ، وهو عيد من أعياد الفرس يكثرون فيه من إشعال النيران وإيقاد الشموع :

« ومرهفات على حد الظلام لها حذبته ترهق الهندية الخدم
إذا وقفن صفوفاً للذبحى ثبتت أقدامهن لها ، والهام تنهزم
إن أضرمت فهي تاج أو خبت ظهرت أقراطها الحمر أو أصداغها الفحم
نعمى على العجم خصتهم كرامتها لا بل تساهم فيها العرب والعجم
قوم يرون القرى بالنار يكسيهم فخراً وقوم يرون النار ربهم »⁽²⁶⁾

غير أن مهيار يمزج شعوبيته وفخره بقومه وملوكهم بفخره بدينه الجديد ، فهو قد أحرز المجد من طرفه : سؤدد الفرس ودين العرب :

« قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبي كسرى على إيوانه أين في الناس أب مثل أبي
سورة الملك القدامى وعلى شرف الإسلام لي والأدب
قد قبست المجد من خير أب وقبست الدين من خير نبي
وضممت الفخر من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب »⁽²⁷⁾

وكان يحيى ابن علي المنجم شعوبياً ، يتعصب للعجم ويثلب العرب ، ويهجو العباسيين ، ويلوذ بالطلالين ، وبلغت عصبية للعجم حداً دفعه لهجاء الرسول الكريم والطعن عليه ، وكان ابن المعتز يرد عليه ويسفّه أقواله ، فلما بويع ابن المعتز بالخلافة دخل عليه يحيى ليبياعه ، فقال له : « يا كلب ، ألت الهاجي سيدنا محمد (ص) ، والفاخر بعجمك على أهله ، والله لأطعمن الطير لحملك . . . ثم قال : كلاب غدتهم نعمتنا ، وأشادت بذكرهم خدمتنا ، سعوا بالباطل علينا ، وجحدوا إحساننا ، وهجوا نبينا عليه السلام حتى إذا أظلمهم

(26) المجاني الحديثة ، ج : 3 ص : 200 — 201.

(27) مرجع نفسه . ج : 3 ص : 204.

العذاب ، وأسلمتهم الحراب ، تحصنوا بالرفض ، ومدحوا أهلنا ، وأخص الناس بنا ، لتصرهم علينا طائفة مِنَّا ، ولتألفوا قلوباً نفرت عنهم ، ولم يعلم الجاهل الكافر ، إننا وبني عمنا من آل أبي طالب ، لو افترقنا في كل شيء تجتمع الناس عليه ، ما افترقنا في أنَّ الثالب لسيدنا محمد (ص) كافر ، والفاخر عليه فاجر ، وإنَّا جميعاً نرى قتله ، ونستحل دمه » (28) .

فالشعوبيون أصبحوا فئة مكشوفة لا تستطيع التخفي أو الإندساس لا بالشيعة ولا بغيرهم من الفرق الإسلامية .

والشعبوية لم تكن حكراً على المتعصبين للفرس ، فقد شاركهم فيها فئات من أمم أخرى ، فالهنود يشعرون بالعصبية للهند والأتراك يتعصبون لعنصرهم والسوريون لسورية والأنباط للنبطية . فقد كان ديك الجن - وهو سوري من أهل مؤتة - شعوبياً شديداً العصبية على العرب يقول بقول الشعوية ويحذو حذوها : « ما للعرب علينا فضل جمعتنا وإياهم ولادة ابراهيم (ص) وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منا رجلاً قُتِلَ به ، ولم نجد الله عز وجل فضّلهم علينا إذ جمعنا الدين » (29) .

وكان أبو الأصلع الهندي يتعصب للهند ، ويفضلها ويفخر بها وإنتاجها ، ويقول :

لقد يعذلني صحبي	وما ذلك بالأمثل
وفي مدحتي الهند	وسهم الهند في المقتل
وفيه الساج والعاج	وفيه الفيل والدغفل
وإنَّ التوتيا فيه	كمثل الجبل الأطول
وفيه الدار صيني	وفيه ينبت الفلفل» (30)

(28) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 4 ص : 110 — 111 .

(29) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 12 ص : 142 .

(30) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ص : 171 .

وقال الشارزنجي يمدح الفيل بالطرب وبالحكاية ، وقبوله التعلم :

« ما أبغض الخضر فيلاً منذ كان ولا
وكيف يبغض شيئاً فيه معتبر
والفيل أقبل شيء لو تلقته
ولو تتزوج فينا واحد فرأى
يبغضي ويركع تعظيماً لهيته
وليس يعدله النشوان في الطرب »⁽³¹⁾

لم يقف الشعراء المتعصبون للعرب ، موقف اللامبالاة من هجمات الشعوبية في الأدب ، وإنما هاجموها ، وهتكوا أسرارها ، وفضحوا أصحابها ، وافتخروا بالعرب ، وعددوا مناقبها ، فرد صفوان الأنصاري على بشار عندما فضل النار على الأرض وطعن على الصحابة فقال :

« فيا بن حليف الشؤم والؤم والعمى
أنهجا أبا بكر ، وتخلع بعده
كأنك غضبان على الدين كله
توائب أقماراً وأنت مشوّه
وأبعد خلق الله من طرق الرشيد
علياً ، وتعزو كل ذاك إلى برد
وطالب ذحل لا بيت على حقد
وأقرب خلق الله من نسب القرء »⁽³²⁾

وكان أبو عيسى ابن الرشيد ، يهجو طاهر ابن الحسين ، ويفخر عليه وعلى

قومه :

« إنّي امرؤ من بني العباس قد علموا
منّا نبي الهدى والله فضله
منّا الشهيد بطن الجسر قد علموا
واذكر علياً ولا تنس الشبيه له
فكيف أجعل كلباً نابحاً أترى
من طاهر وحسين جذاً أصلهما
عم النبي الذي يُسقى به المطر
ما في الأنام له عدل ولا خطر
وجعفر وعلي الخير إن ذكروا
محمداً فيه قد شدت له المدر
قد شأنه عور الأفعال والعور
لولا الإمام وأمر جرّه القدر »⁽³³⁾

(31) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ص : 204 .

(32) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 55 — 56 .

(33) الصولي ، اشعار اولاد الخلفاء ، ص : 89 .

ورد محمد ابن يزيد الأموي على طاهر وابنه عبد الله وفخر عليهما ، كقوله
في طاهر :

« عَتَيْتَ عَلَى الدُّنْيَا فَلَا كُنْتُ رَاضِياً
فَمَنْ أَنْتَ أَوْ مَا أَنْتَ يَا فَقْعَ قَرْقِرٍ
فَنَحْنُ بِأَيْدِينَا هَرْقَنَا دِمَاءَنَا
سَتَعْلَمُ مَا تَجْنِي عَلَيْكَ وَمَا جَنَّتْ
وَأَجَابَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنَ طَاهِرٍ بِقَوْلِهِ :

« قَاتِلِ الْمَخْلُوعَ مَقْتُولُ
قَدْ يَخُونُ الرَّمْحَ عَامِلُهُ
وَيُنَالُ الْوَتَرَ طَالِبُهُ
يَا ابْنَ بَنَاتِ النَّارِ مَوْقِدَهَا
مَنْ حَسِينٌ مِنْ أَبَوَيْهِ وَمَنْ
إِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ
وَدَمُ الْقَاتِلِ مَطْلُولُ
وَسِنَانُ الرَّمْحِ مَصْقُولُ
بَعْدَمَا تَسْلُو الْمُشَاكِيلُ
مَا لِحَاذِيهِ سِرَاوِيلُ
مُصْعَبٌ غَالَتِهِمْ غَوْلُ
حِينَ تَصْطُكُ الْأَقَاوِيلُ »⁽³⁴⁾

ولما استبد الأتراك بحكم الدولة ، وتلاعبوا بالخلفاء ومصير الخلافة ،
تعالَت صرخات الشعراء تستنكر أفاعيلهم ، وتدعو العرب عموماً وبني العباس
خصوصاً للتضامن ، ونبذ الحقد والطمع حتى لا يجد الأتراك فرصتهم في قتل
الخلفاء والتلاعب بمصير الدولة ، كقول ابن المعتز :

« يَا آلَ عَبَّاسٍ لَعَأُ مِنْ عَشْرَةٍ
شَدُّوا أَكْفَكُمْ عَلَى مِيرَاثِكُمْ
لَا تَرْكُنْ إِلَى الْبَغَاةِ الْحَسِدِ
فَاللَّهُ أَعْطَاكُمْ خِلَافَةَ أَحْمَدَ »⁽³⁵⁾

وكقوله يوبخهم ، ويصور للمحالة المزرية التي وصلوا إليها :

(34) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 2 ص : 57 .

(35) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 57 — 59 .

التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 1 ص : 341 — 354 .

(36) الصولي ، اشعار اولاد الخلفاء ، ص : 157 .

« نصحت بني رحمي كلهم نصيحة بر بأنسابها
دعوا الأسد تفرس ثم اشبعوا بما ترك الأسد في غابها »⁽³⁷⁾

فإذا عادَ للخلافة بعضُ رونقها ، كما حصل في أيام المعتمد وأخيه ، انبرى
يمدحه ويمجد انتصاراته :

« يا رامياً لم يخط لي مقتلاً خذ من فؤادي سهمك الأولاً
أنت مشاع القلب بين الورى فيا رخيص الوصل بماذا الغلا
ألا ترى ملك بني هاشم عاد عزيزاً بعدما ذُللاً
يا طالباً للملك كن مثله تستوجب الملك وإلاً فلا »⁽³⁸⁾

ويصور ضربه على يد الأتراك وخشيتهم منه بقوله :

« فرقت أيديهم المال كرهاً ولقد كانوا عليها شحاحا
خاط أفواههم وقديماً مزقوها ضحكا ومزاحا
ووعوا شكوى إليه وكانوا ملأوا دور الملوك نباحا »⁽³⁹⁾

وعندما تفككت الدولة إلى إمارات ، كل إمارة يحكمها أمير مملوك أو أمير
فارسي ، تألم العرب ، وتألم الشعراء ، ونفثوا زفرااتهم التي ضاعت سدى في
زحمة التاريخ ، كقول المتنبي وقد مر بشعب بوان :

« ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان »⁽⁴⁰⁾

أمّا إذا مدح بعض العرب فيشعر ببعض الرّاحة ويُلفِتُ نظر الممدوح بطريقة
أو بأخرى إلى ما آلت إليه حال العرب علّه يجد بعض الدّواء لتلك الحال فإذا
مدح عبد الله ابن يحيى البحتري مدحه بصفة عزيزة على قلبه إذ يكفي هذا

(37) مصدر نفسه . ص : 147 .

(38) الصولي ، اشعر اولاد الخلفاء ، ص : 130 .

(39) مصدر نفسه . ص : 124 .

(40) المتنبي ، الديوان ، شرح البرقوقي (دار الكاتب العربي) بيروت ط 2 - سنة 1938 ، ج : 4

ص : 348 .

الممدوح أن يكون عربياً حتى يفخر به ويفتخر الممدوح بنفسه . فهو سيّد من
أسياد العرب ، فلماذا لا يحاول توحيدهم من جديد :

« كَفَى بَأْنُكَ مِنْ قَحْطَانٍ لِي شَرَفٌ وَإِنْ فَخَرْتَ فَكُلٌّ مِنْ مَوَالِيكَ »⁽⁴¹⁾
وَإِذَا مَدَحَ أَبَا عُبَادَةَ الْبَحْتَرِي أَحَا عَبْدَ اللَّهِ رَكَزَ عَلَى صِفَةِ الْمَجْدِ ، فَالْمَجْدُ
عَرَبِيٌّ جَنْباً وَشَمَالاً قَيْساً وَيَمْنًا فَلَمْ لَا يَأْتَلِفُ زَعَمَاءُ الْعَرَبِ لِيَحْيُوا هَذَا الْمَجْدَ
مَجْدَداً :

« قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْمَجْدَ فِي مُضِيرٍ حَتَّى تَبَخَّرَ فَهُوَ الْيَوْمَ مِنْ أَدَدٍ »⁽⁴²⁾
قَوْمٌ إِذَا أَمْطَرَتْ مَوْتاً سَيُوفُهُمْ حَسِبْتُهَا سَجَباً جَادَتْ عَلَى بِلَدِهِ »⁽⁴³⁾
حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ بِسِيفِ الدَّوْلَةِ الْحَمْدَانِي ، هَدَأَتْ نَفْسَهُ وَاطْمَأَنَّ فِي رَحَابِ
هَذَا الْأَمِيرِ ، لَا لِأَنَّهُ قَدَّمَهُ عَلَى سَائِرِ الشُّعْرَاءِ ، وَأَغْرَقَهُ بِالْهَدَايَا وَالْأَعْطِيَا
فَحَسِبَ . بَلْ لِأَنَّهُ رَمَزَ لِلْعَرَبِ وَصُورَةَ حَيَّةٍ نَاطِقَةٍ لِأَمْجَادِهِمْ ، فَمَضَى مَعَ سِيفِ
الدَّوْلَةِ يُشَارِكُهُ فِي غُرَوَاتِهِ وَيَسْجُلُ انتصاراته لِأَنَّهَا انتصارات للعرب جميعاً .
فَلَنَسْتَمِعَ إِلَيْهِ مَادِحاً لِهَذَا الْأَمِيرِ فِي اللَّقَاءِ الْأَوَّلِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ، وَقَدْ عَادَ سِيفُ
الدَّوْلَةِ مِنْ إِحْدَى غَزَوَاتِهِ الْمُظْفَرَةِ فِي بِلَادِ الرُّومِ⁽⁴⁴⁾ :

« وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّيْبَةِ كُلِّهِ حَيَّا بَارِقٍ فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِمُهُ
عَلَيْهَا رِيَاضٌ لَمْ تَحْكُمَا سَحَابَةً وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تُغْنِ حَمَائِمُهُ
وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مَوْجِهِ مِنَ الدَّرِّ سِمَاطٌ لَمْ يُثَقِّبْهُ نَاطِمُهُ
تَرَى حَيَّوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحاً بِهِ يَحَارِبُ ضِدَّ ضِدِّهِ وَيَسَالِمُهُ »

(41) ناصيف اليازجي ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب دار صادر بيروت دون تاريخ ج :
إص : 174 يقول : يكفيك أنك في مقام شريف من هذه القبيلة وأنك إن أردت أن تفتخر فكل
العرب من عبيدك .

(42) يقول : قد كنت أحسب المجد مضرباً حتى نقله الممدوح إلى بني بحتري فهو اليوم بحتري أددي .

(43) ناصيف اليازجي ، العرف الطيب ج : 1 ص : 180

(44) م . ن . ج : 2 ص : 5 وما بعدها .

إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ كَأَنَّهُ تَجُولُ مَذَاكِيبُهُ وَتَدَايُ ضَرَاغِمُهُ⁽⁴⁵⁾
 وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي التَّاجِ ذِلَّةٌ لَأَبْلَجَ لَا تِيْجَانَ إِلَّا عَمَائِمُهُ⁽⁴⁶⁾
 تَقَبَّلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطَهُ وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُؤُهُ وَبِرَاجِمُهُ⁽⁴⁷⁾

فقد استغلَّ المتنبي صورةً على خيمة سيف الدولة ، ليفخر بالعمّة العربية التي ذلّت لها تيجان الأعاجم ، وكيف لا تصبح عمّة سيف الدولة رمزاً للعزة العربية وأمجادها ، وقد أمل العرب فيه الآمال الكبار ، فآلهمهم الطموح والسود :

«رَفَعَتْ بِكَ الْعَرَبُ الْعِمَادَ وَصَيَّرَتْ قِمَمَ الْمُلُوكِ مَوَاقِدَ النَّيرانِ»⁽⁴⁸⁾

أما وقد توفي يَمَاكُ أحد فتیان سيف الدولة وقواده ، وأظهر الأمير عليه حزناً وأسفاً كبيرين فقد حزن المتنبي عليه لأنّه حبيب أميره ، لكنّه وجد العزاء سريعاً ، فما يَمَاكُ إلا أحدُ الغلمان الأتراك ، وفي رجال العرب وأبطالها عنه وعن غيره غنى ، فلم لا يستعِضُ الأميرُ بهم وقد استعبدهم ببطولته ونجدته وإحسانه ، فوضعوا فيه آمالهم وشدّو إليه ركائبهم :

«وَأَنِّي وَإِنْ كَانَ الدَّفِينُ حَبِيبَهُ حَبِيبٌ إِلَى قَلْبِي حَبِيبٌ حَبِيبِي
 لَأَبْقَى يَمَاكُ فِي حَشَائِي صَبَابَةً إِلَى كُلِّ تُرْكِي النِّجَارِ جَلِيبِ
 وَإِنَّ الَّذِي أَمْسَتْ نِزَارُ عَبِيدُهُ غَنِيٌّ عَنِ اسْتِعْبَادِهِ لَغَرِيبِ»⁽⁴⁹⁾

وإذا ابتهج المتنبي بانتصارات العرب ممثلة بسيف الدولة ونضاله الروم ، فقد أن من الألم حين تقاعس رجال سيف الدولة وكلّوا عن قتال الروم ، وطرحوا أنفسهم بين القتلى خوفاً من الموت ، وتخلّص سيف الدولة نفسه من الهول

(45) المذاكي: الخيل المسنّة ، ودای الصيد خنله ، الضراغم الأسود ، يقول : إذا ضربت الريح تلك الثياب ماحت وتحركت صورها ، فكان الخيل التي عليها تجول ، والأسود تختل الظباء لتصيدها .

(46) الأبلج : المشرق والنقي ما بين الحاجبين ، وكان قد صوّر في هذه الفازة ملك الروم ساجداً لسيف الدولة وهو ما أراده بالذلة ووصف سيف الدولة بأنه لا تاج له لأنه عربي وتيجان العرب عمائمها .

(47) البراجم : أصابع اليد ، يقول : إذا لقيه الملوك قبلوا بساطه ، ولم يبلغوا ان يقبلوا كُؤه أو يده .

(48) المتنبي ، الديوان شرح البرقوقي ج : 4 ص : 317.

(49) ناصيف اليازجي : العرف الطيب ، ج : 2 ص : 105 وما بعدها .

بالبطولة الرائعة التي أظهرها وقلة من رجاله ، فاخترقوا صفوف الروم ، وعادوا إلى بلادهم ، وقد أصيبوا بِخَيِّةٍ أَمَلٍ مَرِيْرَةٍ . لَكِنَّ الْمُتَنَبِّيَ اسْتَشَفَّ التَّارِيخَ ، فَالْحَرْبُ سَجَالٌ ، فَإِنْ هُرِّمَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ فِي مَعْرَكَةٍ ، فَقَدْ انْتَصَرَ فِي مِثَالِ الْمَعَارِكِ قَبْلَهَا وَسَيَنْتَصِرُ فِي مِثَالِ الْمَعَارِكِ بَعْدَهَا وَحَتَّى الْهَزِيمَةُ فَقَدْ كَانَ لَهَا حَسَنَةٌ عَظِيمَةٌ إِذْ مَيَّزَتْ بَيْنَ الْغَنَّةِ وَالسَّمِينِ مِنَ الرِّجَالِ :

« قُلْ لِلدُّمُسْتَقِ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُنَّمِ
وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَامًا فِي دِمَائِكُمْ
ضَعْفَى تَعَفَّى الْأَيَادِي عَنْ مِثَالِهِمْ
لَا تَحْسَبُوا مِنْ أَسْرَتُمْ كَانَ ذَارِمَقِ
فَكُلَّ غَزْوٍ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ذَا فَلَهُ
خَانُوا الْأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا
كَأَنَّ قَتْلَكُمْ إِيَّاهُمْ فَجَعُوا
مِنَ الْأَعَادِي وَإِنْ هَمُّوا بِهِمْ نَزَعُوا
فَلَيْسَ بِأَكْلٍ إِلَّا الْمَيْتَةُ الضُّبْعُ
وَكُلَّ غَازٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ التَّبْعُ

وقال مخاطباً سيف الدولة :

الذَّهْرُ مُعْتَذِرٌ وَالسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ وَأَرْضُهُمْ لَكَ مُصْطَافٌ وَمُرْتَبِعٌ (50)

وإذا ظهرت عصبية المتنبّي للإسلام في حديثه عن الروم ، فقد ظهرت عصبية للعروبة في مناسبات عديدة ، فقد جرى في أحد مجالس سيف الدولة حديث عن العرب والأكراد وأيّهم أفضل وأنجد ، فقال وقد سأله سيف الدولة رأيه :

« أَنْ كُنْتَ عَنْ خَيْرِ الْأَنَامِ سَائِلًا
مَنْ كُنْتَ فِيهِمْ يَا هُمَامَ وَإِلَّا
وَالْعَادِلِينَ فِي النَّدَى الْعَوَازِلَا
فَخَيْرُهُمْ أَكْثَرُهُمْ فَضَائِلَا
الطَّاعِنِينَ فِي الْوَعَى أَوَائِلَا (51)
قَدْ فَضَلُوا بِفَضْلِكَ الْقَبَائِلَا (52)

فكما هو بين من النصّ فالمتنبّي لا يفضل العرب على الأكراد فحسب ، وإنما يفضلهم على جميع الأمم والأجناس خاصة في الشجاعة والكرم .

(50) م . ن . ج . 2 : ص 93 وما بعدها .

(51) وائل : أبو قبيلة الممدوح وقد منعه من الصرف لأنه جعله اسماً للقبيلة .

(52) ناصيف اليازجي ، العرف الطيّب ج : 2 ص : 149 .

أما إذا شجر الخلاف بين العرب أنفسهم ، فإننا نجد المتنبي يهْدِي من هذا الخلاف ويَبْصُر الجميع بمَغْبَةِ ما يقدمون عليه داعياً الجميع للوحدة والاتلاف ، فمنهم من هزم ومنتصرهم غير منتصر ؛ لأنَّ الهزيمة أو الانتصار من نصيبهم جميعاً خاصةً وأنَّ سيف الدولة مدرك لهذه الحال ، شاعر بها إذ اُمتنعَ عَنِ استرقاق ما وقع بيده من أسرى كِلاب :

وَفَقَاتِلَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَفَرَّوْا نَدَى كَفَيْكَ وَالنَّسَبُ الْقَرَابُ⁽⁵³⁾
وَحِفْظُكَ فِيهِمْ سَلَفِي مَعِدِ وَأَنْتَهُمُ الْعَشَائِرُ وَالصَّحَابُ⁽⁵⁴⁾
تُكَفِّفُ عَنْهُمْ صُمَّ الْعَوَالِي وَقَدْ شَرِقَتْ بِظُعْنِهِمُ الشُّعَابُ⁽⁵⁵⁾
فَعُذْنٌ كَمَا أَخَذْنَ مُكْرَمَاتِ عَلَيَّهِنَّ الْقَلَائِدُ وَالْمَلَابُ⁽⁵⁶⁾
يُثْبِنُكَ بِالَّذِي أَوْلَيْتَ شُكْرًا وَأَيْنَ مِنَ الَّذِي تُؤَلِّي الثَّوَابُ⁽⁵⁷⁾
وَلَيْسَ مَصِيرُهُنَّ إِلَيْكَ شَيْنًا وَلَا فِي صَوْنِهِنَّ لَدَيْكَ عَابُ⁽⁵⁸⁾
وَلَا فِي فَقْدِهِنَّ بَنِي كِلَابِ إِذَا أَبْصَرْنَ غُرَّتَكَ اغْتِرَابُ⁽⁵⁹⁾
وَكَيْفَ يَتِمَّ بِأُسْكَ فِي أَنْاسٍ تُصِيبُهُمْ فَيُؤْلَمُكَ الْمُصَابُ⁽⁶⁰⁾

(53) الحريم ما يحمله الرجل ويقاال عنه وهو هنا كناية عن النساء . وقوله وفروا حال أي وقد فروا فحذف قد ، والندي : الجود ، القرباب : بمعنى القريب . أي فروا أمامك وتركوا حريمهم في يدك فأحسنت إليه بجدودك . وصته عن السبي لما بينك وبين القبيلة من قرب النسب فكان جودك والنسب الذي بينك وبينهم قائمين مقام المقاتل عن حريمهم الكافل بحفظه وصيانيته .

(54) أي حفظك للقربة التي بينك وبينهم من جانب ربيعة ومضر ، والبيت تفسير وتقرير للنسب المذكور في البيت السابق .

(55) تكفكف : تكف مرة بعد أخرى . والصم : الصلاب . والعوالي صدور الرماح . وشرقت أي غصت . والظعن : النساء في الهودج ، الواحدة ظعينة مثل سفينة وسفن . والشعاب جمع شعب بالكسر وهو الطريق في الجبل .

(56) الملاب : ضرب من الطيب .

(57) أثابه : كافاه . وأوليت : انعمت .

(58) الشين : العيب .

(59) غررتك : وجهك .

(60) يقول : لا يتم بأسك فيهم لأنك متى أصبتهم بمكره تألمت لمصابهم فكففت عنهم .

تَرَفَّقُوا أَيُّهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابٌ» (61)

وكيف يَصْنَعُ سيف الدولة غير ذلك وعزه عزهم ، وهم رجاله وأبطاله وعدته عند الشدائد إذا دعاهم للوغى لبوا النداء ، وكم ضربوا تحت لوائه وبين يديه الأعداء ضربات مميتة (62)

وَأَنَّهُمْ عَيْبُكَ حَيْثُ كَانُوا إِذَا تَدْعُو لِحَادِثَةٍ أَجَابُوا (63)
وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَلَيْسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا (64)
وَأَنَّ يَكُ سَيْفَ دَوْلَةٍ غَيْرِ قَيْسٍ فَمِنْهُ جُلُودٌ قَيْسٍ وَالثِّيَابُ (65)
وَتَحْتَ لَوَائِهِ ضَرَبُوا الْأَعَادِي وَذَلَّ لَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الصُّعَابُ (66)

وبنو كلاب وإن هزموا أمام سيف الدولة ، فلبطولته أولاً ، ولأنهم لا ييغون أكل لحومهم بأيديهم ، فهم الأبطال المجربون في المعارك ، يحامون عن حريمهم ويذبون عن شرفهم (67) :

« وَلَوْ غَيْرُ الْأَمِيرِ غَزَا كِلَاباً نَسَاهُ عَنْ شُمُوسِهِمْ ضَبَابٌ (68)
وَلَأَقَى دُونَ ثِيَابِهِمْ طِعَاناً يُبْلَاقِي عِنْدَهُ الذَّنْبُ الْغُرَابُ » (69)

(61) يقول ترفق بهم وإن جنوا فإن الجاني إذا عومل بالرفق لان ورجع عن جنائته ، فكان الرفق به بمنزلة العتاب ، انظر العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب صفحة 197 وما بعدها من الجزء الثاني .

(62) اليازجي العرف الطيب ج : 2 ص : 199 وما بعدها .

(63) يريد : أنهم عبيدك في أي مكان نزلوا وهم لا يتركوك للشدائد وإنما يهبون لنصرتك إذا دعت الحاجة .

(64) يقال : أخطأ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره وخطئ . إذا تعمد الخطأ ، والشاعر يعتذر عن بني كلاب فهم مخطئون بمعصيتهم لك وعادة الناس أن تذب وتوب ومن أذنب ثم تاب فقد غفر ذنبه .

(65) أي إن لم يكن من عشيرتهم فهم أبناء جلدته ونعمه .

(66) أي بانتسابهم إلى خدمته تمكنوا من اعدائهم وانقاد لهم من العرب ما لا ينقاد لأحد .

(67) اليازجي ، العرف الطيب ج : 2 ص : 200

(68) يريد أنهم قوم أعزة لو غزاهم غير سيف الدولة لما ظفر بهم . وكفى عن النساء بالشموس وعن غبار الحرب بالضباب

(69) الثاني : جمع ثاية ، وهي مأوى الإبل والغنم حول البيت . أي كان يلاقي قبل وصوله إليها حرباً أكثر فيها القتلى، ويجتمع عليهم الذئب والغراب طلباً للقتل .

وَحَيْلًا تَغْتَذِي رِيحَ الْمَوَامِي وَيَكْفِيهَا مِنَ الْمَاءِ السَّرَابُ» (70)

فالمتنبّي يرى في هذه المعارك الجانيّة مؤامرة هدفها العرب ، ليتشرذموا أكثر ، وتأكّل الأحقاد قلوبهم كما تأكّل النّار الهشيم ، فيضعف بأسهم ، وينبو حدّهم :

«بِرَأْيٍ مَنِ انْقَادَتْ عُقَيْلٌ إِلَى الرَّدَى وَإِشْمَاتٍ مَخْلُوقٍ وَاسْخَاطٍ خَالِقٍ» (71)

ليس هذا فحسب ، وإنّما الهدف إلهاء سيف الدّولة عن قتال الرّوم ومقارعتهم ، فلو استراح الأمير من هذه المعارك الجانيّة ، لاستطاع التفرّغ لقتال الرّوم والذبّ عن الثغور (72) :

«فَمَا حَرَمُوا بِالرَّكْضِ خَيْلَكَ رَاحَةً وَلَكِنْ كَفَّاهَا الْبِرَّ قَطَعَ الشَّوَاهِقِ» (73)

ولا شغلوا صمّ القنا بقلوبهم عن الرّكز لئلاّ يفتكهم عن قلوب الدّماشق (74)

والقبائل إذا شغبت على سيف الدّولة ، فلاخذة الشّديد لها ، وهي التي لم تتعوّد الذّل والخنوع فهي تدنو منه عطفاً ومحبةً لئلاّ تتوسّم فيه من آمال ، وتنفّر من أسلوبه في التعامل معهم (75) .

«وَفَيْكَ إِذَا جَنَى الْجَانِي أَنَاةً تُظَنُّ كَرَامَةً وَهِيَ اخْتِقَارُ» (76)

(70) الموامي : جمع مومة وهي الفلاة والسراب الذي تراه نصف النهار كأنه ماء .

(71) اليازجي العرف الطيّب ج : 2 ص : 217

(72) م.ن. ج : 2 ص : 221

(73) كفيه الشيء : أغته عن كلفته . الشوايق الجبال الشاهقة : يقول : لم يحرموا خيلك شيئاً من الراحة بما كلفوها من الركض في لحاقهم بل الأمر على الخلاف لأنك لو لم تقصدهم بها لقصدت الروم ، فكان قطع السهول خلف هؤلاء أيسر من قطع الجبال في بلاد الروم .

(74) الصم : الصلاب . والقنا الرماح ، وركز الرمح : غرزه في الأرض والدماشق : جمع دُمسَق : اسم لقاقد الروم

(75) اليازجي ، العرف الطيّب ج : 2 ص : 222-224.

(76) الأناسة الرفق والحلم . أي إذا جنى الجاني رفقت به ولم تسرع في عقوبته ، فيظن ذلك لكرامة له عليك وإنما هو احتقار له عن المكافأة .

وَأَخَذَ لِلْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي بِضْطٍ لَمْ تَعَوِّدَهُ نِزَارُ⁽⁷⁷⁾
تَشْمُمُهُ شَمِيمَ الْوُخْشِ إِنْسَاءً وَتُنْكِرُهُ فِعْرُوها نِضَارُ⁽⁷⁸⁾
وما انقادت لغيرك في زمان فَتَدْرِي ما الْمَفَادَةُ وَالصَّغَارُ⁽⁷⁹⁾

فهو كما نرى يفخر بالعرب الذين لم يعرفوا الخنوع والخضوع والذلة ويدعو
سيف الدولة ليحسن معاملتهم ، فإنه إن لم يثق عليهم ، فَمَنْ يتعهدهم
ويصونهم ؟ فهم قومه وأهله وعشيرته وحققهم عليه في الرعاية والإنصاف⁽⁸⁰⁾

«ولو لم يَثِقِ لم تَعِشِ الْبَقَايا وفي الماضي لِمَنْ بقي اعتبارُ⁽⁸¹⁾
إذا لم يُرْعَ سَيِّدُهُمْ عَلَيْهِمْ فَمَنْ يُرْعِي عَلَيْهِمْ أَوْ يَغَارُ⁽⁸²⁾
تَفَرَّقُهُمْ وَإِيَّاهِ السَّجَايا وَيَجْمَعُهُمْ وَإِيَّاهِ النَّجَارُ⁽⁸³⁾
لَهُمْ حَقٌّ بِشْرِكِكَ فِي نِزَارٍ وَأَذْنَى الشَّرِكِ فِي أَجْلِ جَوَارِ⁽⁸⁴⁾

وبالرغم من العداوة القائمة والخلاف المستعرب بين سيف الدولة والقبائل
الأخرى ، فالمصير واحد ، لأنهم أمة واحدة ، فأبناؤهم سيكونون جنوداً
للعرب⁽⁸⁵⁾ :

«لَعَلَّ بَنِيهِمْ لِبْنِيكَ جُنْدٌ فَأَوَّلُ قُرْحِ الْخَيْلِ الْمِهَارُ»⁽⁸⁶⁾

وبعبارة موجزة فإن المتنبي عاش هاجس العروبة ودعا لأرب صدعها ولم

(77) الحواضر : جمع حاضرة ، البوادي : جمع بادية . نزار : أبو العرب . أي أنت تأخذ أهل الحضر
والبدو بضبط في السياسة لم تَعَوِّدَهُ العرب .

(78) تشممه : تشممه وهو الشم في مهلة . شميم مصدر شم .

(79) الصغار : الذل .

(80) البازجي ، العرف الطيب ج : 2 ص : 229

(81) أبقى عليه : تركه فلم يقتله .

(82) أرعى عليه : أبقى عليه .

(83) السجاياء : الطبايع والأخلاق ، النجار : الأصل .

(84) الشرك : مصدر شركه ونزار : جد العرب .

(85) البازجي ، العرف الطيب ج : 2 ص : 233 .

(86) القرح : جمع قارج وهو الذي استكمل سنه ، والمهار : جمع مهر وهو ولد الفرس .

شعنها لتقوى على مجابهة خصومها . لكنّ دعوته لم تلقَ أذنًا صاغيةً ، ولم تستطع وقف حالة التردّي والفوضى القائمة⁽⁸⁷⁾ .

وكما عاب العجم طعام الأعراب ، فقد عاب شعراء الأعراب طعام العجم وفضلوا عليها أطعمتهم ، كقول أبي الهندي :

« أكلت الضباب فما عفتها وإنّي لأشهى قديم الغنم
فأما البهط وحيثانكم فما زلت فيها كثير السقم
وقد نلت منها كما نلت فلم أر فيها كضرب هرم
ويمكن الضباب طعام العرب ولا تشتهي نفوس العجم »⁽⁸⁸⁾

وقال غيره يصف الضب ، ويفضله على نتاج الأعاجم :

« شديد اصفرار الكشيتين كأنما تطلى بورس بطنه وشواكله
فذلك أشهى عندنا من نتاجكم لحى الله شاريه وقبح آكله »⁽⁸⁹⁾

وعلى العموم ، فإنّ الروح الفارسية قد نمت في هذا العصر على حساب العرب ومعنوياتهم . فبعد أن كان الشاعر يمدح أمراء الدولة غير العرب ، فيصفهم بالجوّد وينعتهم بالكرم والشجاعة ، وإذا عدد أباءهم ، لم يوغل أبعد ممن كانت لهم سابقة في خدمة الدولة ، أصبح الشعراء العرب يمدحون أمراء الفرس بذكر بيوتاتهم الأعجمية وينسبونهم إلى كسرى والمرازمة ، كمديح البحتري لمحمد ابن عبد الله ابن طاهر :

« محمد يا ابن عبد الله لولا نذاك لغاض معروف الكرام
لكم بيت الأعاجم حيثُ بُنِيَ ومفتخر المرازمة العظام »⁽⁹⁰⁾

وشتان بين ما قاله ابن جبلة العكوك لأبي دلف فكان سبباً لغضب المأمون

(87) سيكون لنا عود لدراسة المتنبي وميله للعرب دراسة وافية في الكتاب الثاني من الشعبية والأدب .

(88) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 3 ، ص : 210-211 .

(89) مصدر نفسه . ج : 3 ، ص : 212 .

(90) البغدادي ، تاريخ بغداد ج : 5 ، ص : 419 .

وفتكه به ، وقول البحري في محمد ابن عبد الله :

« تداركني الإحسان منك ومَسَنِي على حاجة ذاك الجدى والتطوُّلُ
ودافعت عني حين لا الفتحُ يُتَغْنَى لدفع الذي أخشى ولا المتوكلُ »⁽⁹¹⁾

الحسن ابن هانيء :

إِنَّ خَيْرَ مَنْ يَمَثُلُ النَزْعَةَ الشَّعْبِيَّةَ فِي الشَّعْرِ هُوَ الْحَسَنُ ابْنُ هَانِيءٍ ، أَبُو نَوَاسٍ ، لِأَنَّهُ يَعْطِيْنَا مِنْ جِهَةِ صُورَةِ حَيَّةٍ عَنِ الْحَيَاةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِكُلِّ تَعْقِيدَاتِهَا ، وَبِكُلِّ مَا زَخَرَتْ بِهِ مِنْ أَلْوَانِ ثَقَافِيَّةٍ ، وَلِأَنَّهُ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى آمَنَ بِالشَّعْبِيَّةِ كَمَبْدَأٍ وَكَمَنْطَلَقٍ لِنَهْجِهِ فِي الْحَيَاةِ .

ولقد أسهم في تكوين شخصيته عوامل عدة أهمها : نشأته في بيئة ماجنة مستهترة بعيداً عن رعاية الأب الذي أفتقده منذ طفولته ، وبعيداً عن حنان الأم التي أنسقت وراء لذتها ورَغَبَاتِهَا المَاجِنَةِ ، فحولت منزلها إلى حانة يرتادها طلاب اللذة وهواة المجون ، فنشأ الحسن في هذا الجو البعيد عن الطهارة ومكارم الأخلاق ، وسرعان ما تزوجت والدته أحد رواد منزلها وأسلمت ابنها إلى أحد العطارين ليعمل في دكانه ، فسرى في نفس الفتى شعور بالغربة ، وشاءت له الحياة بقاء والبة ابن الحباب الأسدي الشاعر الماجن ، الذي أعجب بجمال الفتى وصباه ، وتوسم فيه النباهة والذكاء ، فعرض عليه صحبتته قائلاً : « إِنِّي أَرَى فِيكَ مَخَايِلَ ، أَرَى لَكَ أَنَّ لَا تَضِيْعُهَا ، وَتَسْتَقُولُ الشَّعْرَ ، فَاصْحَبْنِي أَخْرُجْكَ »⁽⁹²⁾ .

لاقت هذه الدعوى هوى في نفس الفتى الناشئ الذي كان معجباً بوالبة يروى له شيئاً من شعره ، ويزمغ الرحلة إليه والأخذ عنه ، فرافقه ، وتخرج عليه

(91) مصدر نفسه . ج : 5 ص : 421.

(92) ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج : 2 ص : 95.

في قول الشعر ، ومن بحره اغترف⁽⁹³⁾ ولكنّ أبا نواس لم يأخذ عن والبة شعره فحسب ، وإنما أخذ مسلكه في الحياة أيضاً .

وتألّم أبو نواس كثيراً بنسبه المدخول وغير الواضح في مجتمع يمجّد النسب ، ويرى فيه فضيلة تحدّد مكانة الفرد الإجتماعية ، أضف إلى ذلك سلوك والدته المريب ، وما يولّده في نفسه من شعور بالضعة والعار .

يفع أبو نواس ، واختلف إلى حلقات القراء والمحدثين والفقهاء ، وتعرف على أوامر الدين وقيمه وحدوده ، وشهد مناظرات المعتزلة وغيرهم من علماء الكلام وأصحاب المذاهب والملل ، فتولد في نفسه شك بالدين وجدواه ، عزّزه رغبته بتحطيم العادات والقيم الإجتماعية التي تحقره وتظلمه وتفرض عليه قيودها .

وأخيراً كان فشله في إقامة علاقة حب متكافئة مع جنان جارية المثقفين⁽⁹⁴⁾ .

هذه العوامل أسهمت في تكوين شخصية أبي نواس ، ودفعته إلى الثورة على المجتمع بكل قيمه ومثله ، لكنه أحس بضعبه وعدم قدرته فالتجأ إلى الخمرة يفني فيها حياته ، ويفجّر من خلالها ثورته على الدين ، وعلى الأخلاق ، على العرب ، وعاداتهم وتقاليدهم وأنسابهم .

فشعوبية أبي نواس تختلف في مسلكها عن شعوبية غيره من الشعراء ، فهي لم تكن شعوبية صدامية عنصرية كشعوبية بشار أو مهيار أو غيره من الشعراء ، وإنما هي شعوبية نفسية تريد هدم كل القوانين التي تكبله أو تحدّ من طموحه ، هي شعوبية الثورة على القديم لا لأنه قديم فحسب وإنما لأنه عربي أيضاً .

فكيف ظهرت الشعوبية في أدب أبي نواس ؟

لقد ظهرت الشعوبية في أدب أبي نواس بصورها المختلفة ، فتحلّل أخلاقياً ، ودعا للتحلل الخلقي ، وسخر من الدين ، وهوّن من شأن العرب

(93) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 16 ص : 151،150،148 .

(94) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 18 ص : 2 وما بعدها .

وهجاءهم ، فدخل مدخلاً ما دخله غيره من الشعوبيين ، إذ تعصب للقيسية فهجا القحطانية وثلبها ، ثم تعصب لليمن وانتسب اليهم ، وهجا القبائل العربية وسلبها مفاخرها . ودعا للتجديد في الأدب وفي نمط الحياة ، فسخر من تقاليد العرب الأدبية والاجتماعية ، وفاخر بالحضارة الفارسية ، وجعل لها صورة جميلة ، ودعا الناس لانتمائها والتمثل بها ، وهو في شعوبيته ومجونه وفسوقه واعٍ لما يصنع قاصدٌ إليه . لم يدفعه طيش ولا قاذته صدفة .

سجون أبي نواس :

أُنْقِلَ وَعَيَّ الحسن بمركبات نقص كثيرة آلمته وأهمته وعجز عقله عن إيجاد حلول لها ، فهرب إلى الغيبة يتنسم فيها حريته ، ويجد فيها راحته من قيود كبلته ، ونَغَصَّت حياته . إذ وجد في الخمرة واحةً جميلةً في صحراء حياته المثقلة بالهموم . فالمجتمع يقدِّس النسب ولا نسب له ، والمجتمع يقدِّس الفضيلة ، وأية فضيلة لرجل نما في حانة تديرها والدته ؟

وعندما طلب الحب ، جُبه ، وصدَّ صدأً عنيماً ، فتشكك بقيم المجتمع ، بل حقد عليها ، وتمنَّى لو استطاع تحطيمها ، ليقيم مكانها قيماً جديدة ، قيم أساسها جهد الإنسان وعمله وعلمه وما يقدمه للمجتمع والحياة ، فارتد إلى الخمرة يعبُّها ويعطيها حياته وفنه ، وتهالك على اللذة بكلِّ ألوانها ، يَطْلُبُها وَيَحَرِّضُ الناس على طلبها ، متأثراً بذلك شرعة مزدك التي تحث على طلب اللذات ، والانمكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط ، وترك الاستبداد بعضهم على بعض⁽⁹⁵⁾ ، فالمزدكية تلائم نشأته ، وتلائم سيرته في الحياة ، وتتآلف مع ظروفه .

أنا لا أزعم أنَّ أبا نواس اعتنق المزدكية اعتناق دين وعقيدة ، لكنّه متأثر فيها ، سائر بسلوكها على كل حال ، فهو يطلب اللذة ، لا يسوّف نفسه بوعود لن

(95) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 479.

تتحقق ، يطلب اللذة فلا يأتي ما يلام عليه ، كما أنه لا يلوم أحداً من صحبه
ورفقاء لذته وخمرته فهو رؤوف بهم رحيم عليهم ، يقول :

« يفضّلني على الفتيان أني أبيتُ فلا ألامُ ، ولا أليمُ
فلستُ أسوّفُ اللذاتِ نفسي مياومةً كما دُفِعَ الغريمُ
ولا بمدافعٍ بالكأسِ حتّى يهيجني على الطربِ النديمُ »⁽⁹⁶⁾

يطلب أبو نواس اللذة مجسدة بالخمرة في كل وقت في الصباح والظهيرة
والمساء كما يطلبها في الليل ، فنراه منتقلاً من حانة إلى أخرى ومن دير إلى
بستان يدعو الناس إليها في زهو وشوق ولذة ، وكأنّ لذته لن تكتمل إلا إذا شاركه
العالم كله في قصفه وشربه ومجونه :

« دع لباكيها الدياراً وأنفٍ بالخمير الخمارا
وأشربنّها من كميتٍ⁽⁹⁷⁾ تدعُ الليلَ نهارا
من يديّ ساقٍ ظريفٍ كسيّ الحُسنِ شعّارا
ومغنٍ كلما شدّ تَ تغنّى وأشارا »⁽⁹⁸⁾

وقد يمزج دعوته إلى الراح والمجونِ بتهوينٍ للدين ، وتشكيك فيه ، وإغراء
بالتمتع بالشباب والأيام قبل أن تذهب إلى غير رجعة :

« جرّيتُ مع الصبا طليقَ الجموحِ وهانَ عليّ ماثورُ القبيحِ⁽⁹⁹⁾
وجذتُ الذّ عاريةً الليالي قرانَ النّغمِ بالوترِ الفصيحِ⁽¹⁰⁰⁾
تمتّع من شبابٍ ليس يبقى وصلّ بعزّى الغبوقِ عزّى الصّبحِ⁽¹⁰¹⁾
ألم ترني أبحثُ الراحَ عرضي وعضّ مراشفِ الظبي المليحِ

(96) أبو نواس ، الديوان ، ص : 55.

(97) الكميت : الخمر فيها سواد وحمرة

(98) أبو نواس ، الديوان ، ص : 65.

(99) طليق : ككتف ، ذو حدة ، الجموح من جمع الفرس جموحاً إذا غلب فارسه . . / .

(100) عارية الليالي : ما تعيره مما يتداوله الناس ، القران : الاقتران

(101) الغبوق : شرب الخمر ليلاً .

لأنِّي عالمٌ أن سوف تُتَأَى مسافةً بين جُثماني وروحي» (102)

لقد هانت عنده كُلُّ القيم ، لا يزجره قبيح لقبحه ، ولا يُردُّ عن فضل لإحسانه ، غايته كل ما يمتع ويلذ ، ولم لا ؟ وأيام الشباب ذاهبة لا تعود ، وهو بعد يدعو للإلتزام به في إقباله على مسراته ولذاته ، لأنَّه عالم أن لا حياة بعد هذه الحياة ، فهو ما فتى يصرخ باللذة ، ويدعو إليها مجاهراً بالمعصية ، حاثاً عليها كقوله :

« بادِرْ صَبُوحَكَ ، وانعمَ أيها الرجلُ واعصِ الذين بجَهْلٍ في الهوى عَذَلُوا (103)
واخلَعْ عَذَارَكَ ، أَصْحَكَ كُلَّ ذِي طَرْبٍ واعِدْ بنفسك فيهم أينما عدَلُوا (104)
نالَ السرور وخَفَضَ العيشَ في دَعَةٍ (105) وفاز بالطيباتِ الماجنُ الهَزَلُ (106) »

وأصحابه في لذته ، وندماؤه في خمرته ، محبوبون متحضرون ، لا يعربدون ، ولا يظهرون نفجاً ، يتواصى كل منهم بصاحبه ، يبرّه ، ويعتني به أشدَّ عناية :

« سَقِيّاً لمجلسِ فتيانٍ أنادمُهُمْ ما في أديمِهِمْ وَهْيٌ ولا خَلَلٌ (107)
هذا لذلك ، كما هذا وذاك لهذا فالشمل منتظمٌ والجبلُ متَّصِلٌ (108) »

وهو لا يرضى الإعتدالَ في طَلَبِ اللذة والإقبالِ عليها ، فيُوصِي بِتَرْكِ النِّسَّاكِ والإقبالِ على الموبيقات والإيغالِ فيها إيغالاً :

« لا تَصْحَبَنَّ أَخَا نَسِكٍ وَإِنْ نَسَكَا وَإِنْ فَتَكَتَ ، فَكُنْ حَرَباً لِمَنْ فَتَكَ » (109)

(102) أبو نواس الديوان . ص : 71 .

(103) بادر : أسرع .

(104) العذار : ما سال على خط الفرس ، وهو يَكْنِي بخلع العذار عن الاندفاع في اللذة .

(105) خفض العيش : لينه ودعته ونعمته ؛ والبيت منظور فيه إلى قول بشار : من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج وسلم الخاسر : من راقب الناس مات غمّاً وفاز باللذة الجسور

(106) أبو نواس ، الديوان ، ص : 84 .

(107) الأديم : الجلد ، الوهي : الشق ، الخلل : منفرج ما بين الشئين .

(108) أبو نواس الديوان . ص : 84 .

(109) مصدر نفسه . ص : 89 .

ويلتفت إلى عدّاله ، إلى من يلومه في شرب الخمر والتهالك عليها ،
فيجيبه جواباً مفحماً ، يتركه بعده لا يدري ما يقول :

« آيها العاتبُ في الخمر رِمتي صِرْتُ سفيها
كنت عندي بسوى هـ ذا من النصحِ شبيها
لو أطعنا ذا عتاب لأطعنا اللهَ فيها
إنني عند ملامِ الـ ناس فيها أشتَهِيها »⁽¹¹⁰⁾

وأيّ مقال يقال لمن يصرح بمعصية الله عامداً غير محتشم ولا مرتدع ،
يجهر بالعصيان ويكابر بالبهتان ، يلتذ بالكأس وإن حمل أوزارها ، بل وإن أوردته
الجحيم :

« الرّاحُ شيءٌ عجيبٌ أنتَ شارِبُها فاشربْ وإن حَمَلْتَكَ الرّاحُ أوزاراً »⁽¹¹¹⁾
يا من يلومُ على حمراء صافيةٍ صِرَ في الجنانِ ودَغِني أسكن النّاراً »⁽¹¹²⁾

وتارة أجرى يدعو إلى الفسق والفجور ، معتمداً على عفو الله وغفرانه :

« غَادِ المُدَامَ ، وإن كانت محرّمةً فللْكَبَايِرِ عند اللهِ غُفْرَانُ »⁽¹¹²⁾

وهو في هذه القصيدة يصور مجونه وفجوره بجرأة وصراحة مؤذية ، ينبو عنها
الذوق الحضري المذهب :

« يا ليلة طلعت بالسعد أنجمها فبات يفتك بالسكران سكران
بتنا ندينُ لإبليسٍ بطاعته حتّى نعى الليلَ بالناقوسِ رُهبانُ »⁽¹¹³⁾

وقد يستيقظ أبو نواس فجراً مع صياح الديكة أو أذان الفجر ، لكنّه لا لصلاة
يفيق ، ولا لعبادة ينشط ، فنهوضه للقصف والعريضة ، ودعوته للفجور والمعصية ،

(110) مصدر نفسه . ص : 95 .

(111) أوزاراً : آثاماً .

(112) أبو نواس الديوان . ص : 111 .

(112) أبو نواس ، الديوان ، ص : 126 .

(113) مصدر نفسه . ص : 127 .

يستيقظ والشيطان على لسانه يهتف :

« يا أحمد المُرتجى في كُلِّ نائبةٍ قُمْ سَيِّدِي نعصرِ جَبَّارَ السموات »⁽¹¹⁴⁾

ولعل قصيدته التي تصور حواراً مع فقيه عالم يستفتيه بأمور الدين ونواهيهِ ،
خير دليل على تماجنه وظرفه وسخريته من الدين ورجاله وشعائره ، فهو يسأل هذا
الفقيه عن النبيذ والخمر والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والفقيه في كل
هذه المسائل يجيب جواب الفقيه العالم لا بأمور الدين ولكن بالفسق والمجون ،
والحوار بين الإثنين يجري على هذا النمط :

« قلت : المناسكُ إنْ حَجَجْتُ فقال لي : هذا الفضولُ وغايةُ الإِدبارِ
لا تَأْتِيَنَّ بِلادَ مَكَّةَ مُحَرِّمًا وَلَوْ أَنَّ مَكَّةَ عِنْدَ بابِ الدارِ
قلت الطُّغاةُ ؟ فقال لي : لا تغزُهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَرَّبُوا مِنَ الأنبارِ
سَالِمُهُمْ واقتصُرْ من أولادِهِمْ إنْ كُنْتَ ذا حَنٍّ على الكُفَّارِ »⁽¹¹⁵⁾

ثم يختم هذا الفقيه فتواه بنصيحة طريفة وهي أَنَّ القمارَ زينةُ الخصال .
وهو إنْ وَصَلَ إلى الشك في البعث والقيامة ، كقوله :

« يا ناظرًا الدِّينَ ما الأمرُ لا قَدَرٌ صَحَّ ولا جَبَرُ
ما صَحَّ عِنْدِي من جميع الذي يُذَكِّرُ إِلَّا الموتُ والقَبْرُ »⁽¹¹⁶⁾

فقد صرح باعتناقه مذهب الدهرية وإنكار النشور من القبور ، فقال :

« بَاحَ لِسَانِي بِمُضْمِرِ السَّرِّ وَذاك أَنِّي أَقولُ بِالدهرِ
وليس بعد المماتِ مَرْتَجِعُ وَلَئِنَّا الموتُ بِيضَةُ العَقْرِ »⁽¹¹⁷⁾

والحقيقة أَنَّ مَنْ يبحث عن كُفر أبي نواس وزندقته يجده ماثلاً في شعره
ومن يبحث عن إيمانه وتوبته يجدهما أيضاً ، فماذا نرجحُ صدقَهُ في التوبة أم

(114) مصدر نفسه . ص : 174 .

(115) مصدر نفسه . ص : 200-201 .

(116) مصدر نفسه ، ص : 218 .

(117) مصدر نفسه . ص : 218 .

صدقه في الزندقة ؟ ورب قائل إنَّ أبا نواس لم يكن زنديقاً أصلاً يتجلى ذلك حتى في خمرياته ، فهو مؤمن بالتوحيد ، مؤمن بالإسلام ، وما يظهر على لسانه إنما هو تماجن وظرف ، وليس كفراً يبدو ذلك من خلال حديثه عن العفو والمغفر كقوله مخاطباً النظام :

« لا تحظر العفو إن كنتَ أمراً حرجاً⁽¹¹⁸⁾ فإنَّ حظركه بالدين إزراء⁽¹¹⁹⁾ »
أما شعوره بالندم والذنب فبادٍ بقوله :

« فبتنا يرانا الله شرَّ عصابةٍ نُجَرُّ أذبال الفسوق ولا فخر⁽¹²⁰⁾ »
وقوله وقد ذُكِرَ تحريم الخمر وما أعدَّ الله لشاربها من عقاب في الدنيا والآخرة :

« بَكَيْتُ وما أبكى على دَمْنٍ قَفَرٍ وما بي من عشق فابكي من الهَجَرِ
ولكن حديثُ جاءنا عن نبينا فذاك الذي أجرى دموعي على النَّحْرِ
بتحريمِ شرب الخمر والنَّهْيُ جاءنا فلمَّا نهى عنها بكيت على الخمرِ
فاشربُها صرفاً وأعلم أنني أعزُّرُ فيها⁽¹²¹⁾ بالثمانين في ظهري⁽¹²²⁾ »

فالشعور بالخطيئة والذنب والحرَج دافعه إلى الكأس ليسلو عن أذان المؤذن إذ إنَّ الأذان يمثلُ الحقيقةَ والكأس تمثُلُ الغيوبة التي عشقها ، ووجد فيها فردوسه ، لكن الواقع ما زال يؤثر فيه وينازعه ، ولولا أثر الأذان في نفسه وخلجات ضميره ما أراد تلك الكأس :

« عَاطِنِي كَأْسَ سَلْوَةٍ عَنْ آذَانِ الْمُؤَذِّنِ⁽¹²³⁾ »

(118) لا تحظر العفو : لا تمنعه . حرجاً : ضيقاً ، حظركه : حظرك إياه . / .

(119) أبو نواس الديوان . ص : 7 .

(120) مصدر نفسه . ص : 28 .

(121) أعزَّر فيها : أضرب والثمانين : حد شارب الخمر .

(122) أبو نواس الديوان . ص : 36 .

(123) أبو نواس ، الديوان ، ص : 33 .

وأما زهده ، فصادر عن نفس أثقلتها الآثام والمعاصي ، فالتجأت إلى عفو
الله وغفرانه ، تشد في رحابه الرحمة والمغفرة والهدوء والطمأنينة :

« تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي ، فَلَمَّا قَرَرْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
فَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ تَجُودُ وَتَعْفُو مِنِّي وَتَكْرُمًا
وَلَوْلَاكَ لَمْ يُغْفَى بِإِبْلِيسَ عَابِدٌ وَكَيْفَ وَقَدْ أَغْوَى صَفِيْكَ آدَمًا » (124)

بل انظر الى هذا الصوت المنبعث من ضمير أبي نواس ، يدعوه لحسن
الظن بربه والتوبة وعدم القنوط من رحمة الله :

« يَا نَوَاسِي تَوَقَّرْ وَتَبَعَّرْ وَتَصَبَّرْ
إِنْ يَكُنْ سَاءَكَ دَهْرٌ إِنْ مَا سَرَّكَ أَكْثَرُ
يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ عَفْ وَاللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ
أَعْظَمُ الْأَشْيَاءِ فِي أَصْغَرِ عَفْوِ اللَّهِ يَصْغُرُ
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا قَضَى إِلَهُ وَقَدَّرُ
لَيْسَ لِلْمَخْلُوقِ تَدْبِيرُ بَلِ اللَّهُ الْمُدْبِرُ » (125)

غير أنا لنا أن نسأله هل صوت الأذان جعله يشعر بالخطيئة فعلاً ؟ أنا لا
أظن ذلك إذ فما باله وقد شعر بالخطيئة يمعن فيها فيقول :

« اسْقِنِي الْخَمْرَ جَهْرَةً وَالْطَّنِي وَأُزْنِي » (126)

وهو في ذلك يتحدّى الدين ، ويتعمد الشراب والإقدام على الموبقات في
الوقت الذي يتنادى فيه المؤمنون للعبادة ، فهو يتعبد كما يتعبد المؤمنون ، ولكن
في هيكل خمرته ومجونه ، أما توبته فما رأيك فيها بعد أن تسمعه يقول :

« غُرِرْتُ بِتَوْبَتِي وَلَجَجْتُ فِيهَا فَشَقِي الْيَوْمَ ثَوْبُكَ لَا أَنْتَبُ » (127)

(24) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 7 ص : 447.

(125) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 446-447.

(126) أبو نواس ، الديوان ، ص : 33.

(127) أبو نواس ، الديوان ، ص : 12.

وكيف يتوب وقد جعل الخمرة ربّه ، فسبحها وحملها ، وجعل لها الأسماء
الحسني :

« أَتْنِ عَلَى الْخَمْرِ بآلَائِهَا⁽¹²⁸⁾ وَسَمِّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا⁽¹²⁹⁾ »

ثم هو متلائم مع الحرام متباعد عن الحلال :

« يلائمني الحرام إذا اجتمعنا وأجفو عن ملاءمة الحلال »⁽¹³⁰⁾

هذا إذا كان حلال وحرام برأيه ، إذ إنه لا يؤمن بوجود الحلال والحرام ،
فالدين بكتبه ، بنواحيه ، بشعائره ، حديث خرافي لا يسيغه منطق ، فكيف يترك
ملاذّه كرمى لعين الدين ؟ :

« إِنَّ غَيْرِي مَنْ قَلَاها لِرَجَاءٍ أَوْ مَخَافَةٍ

هَاتِهَا جَهْرًا وَدَعْنِي مِنْ أَحَادِيثِ خَرَاْفَةٍ »⁽¹³¹⁾

وأي زندقة أخطر من زندقته وأبعد أثراً في اجتذاب الفتيان والشباب إلى
طريق الفساد والانحراف الخلقي ، وهو يقرّر نظريته في العفو التي تصحّ أن تكون
مبحثاً كلامياً يبرّر فيه الخطيئة ، ويحضّ عليها :

« لِمَ ، وَعَفُوَالله مَبْذُورٌ لِّغَدَا عِنْدَ الصَّرَاطِ

خُلِقَ الْغُفْرَانُ إِلَّا لَامِرِي فِي النَّاسِ خَاطِي »⁽¹³²⁾

فأبو نواس لم يُظهر زندقته علمية يجاهر أو يجادل فيها ، لم يدافع عن مانويّه
أو مزدكية أو مجوسية ، ولو أعلن رأيه بصراحته المعهودة لهان الأمر وانكشف ولما
استطاع استدراج أحد إليها . إنّما هو يظهريها بمظهر الظرف ، والتماجن كجوابه
لأبي العتاهية وقد لاه وعذله :

(128) أتن : أمر من الثناء . الآلاء : النعم .

(129) أبو نواس الديوان . ص : 13 .

(130) مصدر نفسه . ص : 63 .

(131) مصدر نفسه . ص : 96 .

(132) مصدر نفسه . ص : 181 .

« أَتُرَانِي يَا عَتَاهِي تَارِكاً تِلْكَ الْمَلَاهِي
أَتُرَانِي مَفْسُداً بِالنَّسْكِ عِنْدَ الْقَوْمِ جَاهِي ⁽¹³³⁾ »

فما يظهره من المجون هو برأيه ظرف يحببه عند الخاصة ، ويفتح الطريق أمامه لمعيشة هائلة ، وعندما يُلْحَفُ عليه اللاثمون باللوم يقول :

« لَنْ تَرْجِعَ النَّفْسُ عَنْ غَيْهَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لَهَا زَاجِرٌ ⁽¹³⁴⁾ »

وما أبعد نفسه عن العودة عن الضلال والغواية ، لقد منعه الأمين من شرب العقار وهدده وتوعده ، لَمَّا اسْتَغْلَ المأمون وأنصاره سيرة أبي نواس في الطعن على الأمين ، فأحسَّ أبو نواس ، وكأنه حُرِمَ العيشَ ولدائذَه ، لأنَّه أمسك عن الخمر قهراً ، فاكْتَفَى بمنادمة الشاربين ، يتنسم رائحتها ، ويتمتع بمنظرها ويتحرَّق لشربها والفناء فيها :

« كُبِرُ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشَمَّ النَّسِيمَا
فَكَأَنِّي وَمَا أَزِيئُ مِنْهَا قَعْدِي يُزَيِّنُ التَّحَكِيمَا
كُلٌّ عَنْ حَمَلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ بَ فَأَوْصِي الْمَطِيقَ أَلَّا يُقِيمَا ⁽¹³⁵⁾ »

ثم يشربها على الرغم من تهديد الأمين ووعيده ، لأنها حياته ، وهل يطيق الإنسان انقطاعاً عن الحياة ؟ يشربها ، ويلتذُّ بالمجاهرة في أنه يشربها ، لأنَّ الله عالم بشربه وبما يأتيه من فعال ، فَلَمْ يَتَكْتُمْ إِذْن . والجهرُ عنده مسألة لها أهميتها ، لأنها تمثل الثورة والتحدِّي ، ورفض القمع بكُلِّ أشكاله الدينية والأخلاقية والاجتماعية .

« لَا تَسْقِنِي إِنْ كُنْتَ بِي عَالِماً هَاتِ الَّتِي تَعْرِفُ وَجَدِي بِهَا
إِلَّا الَّتِي أَضْمَرْتُ فِي صَدْرِي وَأَكُنْ بِمَا شِئْتَ عَنِ الْخَمْرِ
يَا حَبْذا الْجَهْرُ بِأَمْرِ الصَّبَا مَا كُنْتَ مِنْ رَبِّكَ فِي سِتْرٍ ⁽¹³⁶⁾ »

(133) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 7 ص : 446

(134) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 446

(135) أبو نواس ، الديوان ، ص : 29

(136) مصدر نفسه . ص : 82 ، طه حسين ، حديث الأربعة ، ج : 2 ص : 98.

فَالْجَهْرُ يُؤَلَّدُ لَذَّةً فِي نَفْسِهِ ، لَذَّةُ التَّحْدِي لِقَوَاعِدِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَجْتَمَعِ
بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ قِيمٍ وَمِثْلٍ :

« أَلَا فَاسَّقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَنَّ الْجَهْرُ
فَعِشُّ الْفَتَى فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ فَإِنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَصَرَ الدَّهْرُ
وَمَا الْغُبْنُ إِلَّا أَنْ تَرَانِي صَاحِبًا وَلَا الْغَنَمُ إِلَّا أَنْ يَتَعَنِّي السَّكْرُ
فَبُحْ بِاسْمٍ مِنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِرٌّ
وَلَا خَيْرَ فِي فَتْكِ بَغِيرٍ مَجَانَةٍ وَلَا فِي مَجُونٍ لَيْسَ يَتَّبِعُهُ كُفْرٌ» (137)

فَلَذَّتْهُ إِذَنْ تَقُومُ عَلَى أَسْسٍ أَرْبَعَةٌ تَتَكَامَلُ فِيهَا بَيْنَهَا : فَتْكِ وَمَجُونٍ وَكُفْرٍ
وَجَهْرٍ . نَعَمْ سَيَقْلَعُ أَبُو نَوَاسٍ عَنْ مَجُونِهِ وَعَرَبِدَتِهِ وَكُفْرِهِ وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تَفْنَى لَذَاتُ
الدُّنْيَا :

« وَقَائِلٍ هَلْ تُرِيدُ الْحَجَّ قُلْتُ لَهُ نَعَمْ إِذَا فَنَيْتُ لَذَاتُ بَغْدَادِ (138)
وَهَبْكَ مِنْ قَصْفِ بَغْدَادٍ تَخْلُصُنِي (139) كَيْفَ التَّخْلُصُ لِي مِنْ طَيْرِنَا بَادٍ (140)

إِمَّا بَعْدَ أَنْ حَجَّ طَمَعًا فِي لِقَاءِ جَنَّانٍ جَارِيَةِ الثَّقَفِيِّينَ ، وَأَشْبَعَ عَنْهُ أَنَّهُ
تَنَسَّكَ ، فَقَدْ نَفَى ذَلِكَ ، وَتَبَرَّمَ بِتِلْكَ الْإِشَاعَةِ ، فَقَالَ

« قَالُوا تَنَسَّكَ بَعْدَ الْحَجِّ قُلْتُ لَهُمْ أَرْجُو الْإِلَهِ وَأَخْشَى طَيْرِنَا بَادَا
أَخْشَى قُضَيْبَ كَرَمٍ أَنْ يُنَازِعَنِي رَأْسَ الْقَطَارِ وَإِنْ أَسْرَعَتْ إِغْدَاذَا (141)
مَا أَبْعَدُ النَّسْكَ عَنْ قَلْبٍ تَقَسَّمَهُ قُطْرُبْلُ فُقْرَى بَنَى فِكِلَوَادَا
فَإِنْ سَلِمْتُ وَمَا قَلْبِي عَلَى ثِقَةٍ مِنْ السَّلَامَةِ لَمْ أَسْلَمْ بِبَغْدَادَا (142)

(137) أبو نواس ، الديوان ، ص : 28 ، طه حسين ، حديث الأربعماء ، ج : 2 ص : 98

(138) بغداد : بغداد :

(139) قصف بغداد : لهوها . طيزنا باذ : موضع بين القادسية والكوفة مشهورة بكرمها وحاناتها .

(140) أبو نواس ، الديوان ، ص : 167 .

(141) إغذاذا : إسراعاً .

(142) أبو نواس الديوان . ص : 26 . طه حسين ، حديث الأربعماء : ج 2 ص : 98-99 .

أما المقطوعات المنسوبة إليه في الزهد ، فهي إن صَحَّت ، تكون رغبة من الشاعر في إبراز شاعريته الفنية في أغراض الشعر المختلفة ، زد على ذلك أنَّ السلطة في أيامه تبحث عن الزنادقة وتمتحنهم ، وتقتل من تثبت الزندقة عليه ، وهي تهمة كانت تلتصق بالناس بالحق حيناً وبالباطل أحياناً ، وإذا أُشيعَ عن أبي العتاهية أنه زنديق لا لسبب إلا لِكثَرَةِ ذكره الموت دون البعث والنشور⁽¹⁴³⁾ فكيف ينجو منها أبو نواس وهو الداعي إلى كُلِّ ما حَرَّمَ اللَّهُ . ونهت عنه الأخلاق والقيم الإسلامية ، إن لم يضمنْ بعضُ القصائد أبياتاً تظهر حسن ظنه بربه واتكاله على عفوه ومغفرته كحكايته مع الرشيد وقد دخل عليه ، فبادره قائلاً : « أنت القائل :

عُتِّقْتُ فِي الدِّنِّ حَتَّى هِيَ فِي رِقَّةٍ دِينِي

أحسبك زنديقاً ! قال : يا أمير المؤمنين ، قد قلت ما يشهد لي بخلاف ذلك ، قال : وما هو ؟ قال : قلت :

أَيَّ حَدٍّ بَلَغَ الْمَارِجُ	أَيَّةَ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ
وَنَاصِحٍ لَوْ قُبِلَ النَّاصِحُ	لِلَّهِ دَرَّ الشَّيْبُ مِنْ وَاعِظٍ
وَرُخٍّ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائِحُ	فَاعْذُ فَمَا فِي الْحَقِّ أَغْلُوطَةُ
سَيَقَتْ إِلَيْهِ الْمَتَجَرُّ الرَّابِحُ	مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي
إِلَّا أَمْرُو مِيزَانُهُ رَاجِحُ	لَا يَجْتَلِي الْحَوْرَاءُ مِنْ خَدْرِهَا
مَهْرُوهِنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ	فَاسْمُ بَعِينِكَ إِلَى نِسْوَةٍ

فقال الفضل : يا سيدي ، إنه ليؤمن بالبعث ويحملة المجنون على ذكر ما لا

يعتقد⁽¹⁴⁴⁾ .

وتتكرر القصة في عهد الأمين الذي ينادمه ويشركه في مجونه وقصفه وفتكه ، ثم يتهمه بالزندقة ، ويواجهه بالتهمة ، فيقول أبو نواس : وكيف وأنا القائل :

(143) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 3 ، ص : 142 .

(144) البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص : 234 .

« أَصَلِّي صَلَاةَ الْخَمْسِ فِي حِينِ وَقْتُهَا وَأَشْهَدُ بِالتَّوْحِيدِ لِلَّهِ خَاضِعاً
وَأَحْسَنَ غَسَلاً إِنْ رَكِبْتَ جَنَابَةً وَإِنْ جَاءَنِي الْمَسْكِينُ لَمْ أَكُ مَانِعاً
وَإِنِّي وَإِنْ حَانَتْ مِنَ الْكَأْسِ دَعْوَةٌ إِلَى بَيْعَةِ السَّاقِي أَجِبْتُ مَسَارِعاً
وَأَشْرِبُهَا صَرْفاً عَلَى لَحْمِ مَاعِزٍ وَجَدِي كَثِيرُ الشَّحْمِ أَصْبَحَ رَاضِعاً
وَأَجْعَلُ تَخْلِيطَ الرُّوَافِضِ كُلَّهُمْ لَفَقَّةً⁽¹⁴⁵⁾ بِخَيْشُوعٍ فِي النَّارِ طَابِعاً⁽¹⁴⁶⁾ »

فَإِنْ اِخْتَجَّ مُحْتَجٌّ بِمَا صَدَرَ عَنْ أَبِي نَوَاسٍ فِي الْحَجِّ ، كَتَلْتَكَ التَّلْبِيَةَ الرَّائِعَةَ
الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الْإِيمَانِ ، وَصَفَاءِ النَّفْسِ ، فَأَزْعَمَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ نَتِيجَةً لِإِيمَانِ
طَارِيءٍ ظَلَّلَ قَلْبَ الشَّاعِرِ ، وَقَدْ أَخَذَتْهُ هَيْبَةُ الْمَوْقِفِ وَالْحَجِيجِ يَلْبُونَ اللَّهَ بِمَوْقِفِ
وَاحِدٍ وَزِيٍّ وَاحِدٍ ، لَا فَضْلَ فِيهِ لِشَرِيفٍ عَلَى مَشْرُوفٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى وَخُلُوصِ النِّيَّةِ
لِلَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ ، فَذَهَلَ فِيهِ أَبُو نَوَاسٍ عَنْ وَاقِعِهِ الشَّخْصِيِّ كَذَهُولِهِ فِي غَيْبِيَةِ النُّشُوءِ
وَالسُّكْرِ ، فَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ هَذَا الشَّعْرُ الصَّافِي .

وَأَخِيرًا لَا يَسْعُنَا إِلَّا أَنْ نَتَابَعَ طَهَ حَسِينَ فِي حُكْمِهِ بِأَنَّ أَبَا نَوَاسٍ قَدْ تَجَاوَزَ
حُدُودَ الْإِسْلَامِ ، وَازْدَرَى أَصُولَهُ وَقَوَاعِدَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ الطَّوِيلَةِ⁽¹⁴⁷⁾ ، وَهُوَ فِي
تَجَاوُزِهِ وَازْدِرَائِهِ ، لَمْ يَكُنْ مَقْلُوداً ، وَلَا طَائِشاً ، وَإِنَّمَا مَتَعَمِّداً وَمُتَحَدِّداً . وَإِذَا صَحَّ
التَّعْبِيرُ ، فَهُوَ ثَائِرٌ عَلَى مُجْتَمَعِهِ يُوَدُّ لَوْ اسْتَطَاعَ هَذِمَهُ وَنَسَخَ كُلَّ الْقِيمِ فِيهِ . لِذَا فَهُوَ
مَا بَرَحَ يَدْعُو لِتَرْكِ الْجَدِّ وَالرِّصَانَةِ وَالْوَقَارِ ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّذَّةِ وَالْإِنْغِمَاسِ فِيهَا
كَقَوْلِهِ :

« إِذَا عَبَّ أَبُو الْهَيْجَا ءِ لِلْهَيْجَاءِ فُرْسَانَا
وَسَارَتْ رَايَةُ الْمَوْتِ أَمَامَ الشَّيْخِ إِعْلَانَا
وَشَبَّتْ حَرْبُهَا وَاشْتَدَّ عَلَتْ تُلْهَبُ نِيرَانَا
جَعَلْنَا الْقَوْسَ إِيْدِينَا وَنَبَّلَ الْقَوْسَ سَوْسَانَا

(145) الفقهية : حلقة الدُّبُرِ لافتحاها عند الحاجة . بخيشوع : أحد أطباء الخلفاء .

(146) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 7 ص : 440 .

(147) طه حسين ، حديث الأربعاء ، ج : 2 ص : 138 .

وقدّمنا مكان النّب لـ والمِطرَد رِيحانا⁽¹⁴⁸⁾
فهذه الحربُ لا حرب بَغَمِ الناسِ عدوانا
بها نقتلهم ثم بها ننشرُ قتلانا⁽¹⁴⁹⁾»

والناظرُ في هذه الأبيات يخالُ أبا نواس قد آثر السلامَ على الحربِ ، وإنّما هو يؤثّرُ اللهوَ على الجدِّ ، أكان هذا الجدُّ حرباً أو غير حرب : فقال :

« دُعْ عنك ما جدّوا به ، وَتَبَطِّلْ . وإذا مَرَرْتَ بِرَبْعٍ قَصَفٍ فانزِلِ⁽¹⁵⁰⁾
لا تَرْكَبَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ حَسِيْسَهَا واعمد إذا قَارَفَتْهَا لِلْأَنْبِلِ⁽¹⁵¹⁾ »

بل انظر الى تحريض العرب على شرب الخمرة والإقبال عليها :

« لا تُمَكِّنِّي مِنَ الْعَرِيْدِ يَشْرِبُنِي ولا اللَّثِيْمَ الَّذِي أَنْ شَمَنِي قَطْبًا⁽¹⁵²⁾
ولا المَجُوسَ ، فَإِنَّ النَّارَ رَبُّهُمْ ولا اليهودِ ولا مَنْ يَعْبُدُ الصُّلْبَا
ولا السُّفَالِ الَّذِي لا يَسْتَفِيْق ولا غِرَّ الشَّبَابِ ولا مَنْ يَجْهَلُ الْأَدْبَا
ولا الْأَرَاذِلَ ، إِلَّا مَنْ يُوَقِّرُنِي مِنَ السُّقَاةِ وَلَكِنْ أَسْقِنِي الْعَرَبَا⁽¹⁵³⁾ »

هجا، العرب والسخرية منهم :

بَثَّ أبو نواس خلال مجنونه ومعاقرته للخمرة الواناً من شتم العرب
والسخرية بهم وبعاداتهم وتقاليدهم ، وبأصناف مآكلهم ، ومشاربهم ، وقُلَّ
بحياتهم وما أنتجت هذه الحياة من قيم وآداب . واتخذ السخرية من تقاليد العرب
الأدبية لا سيما في الشعر وسيلةً للسخرية من العرب وشتيمهم ، كما توسلها في
دعوته لترك حياة الجدِّ والإقبال على حياة اللهو واللذة والمجون فقال :

(148) المطرد : الرمح القصير .

(149) أبو نواس ، الديوان ، ص : 198 .

(150) تبطل : أمر من التبطل وهو تداول الباطل أو الركون إلى البطالة .

(151) أبو نواس ، الديوان ، ص : 199

(152) العرييد : الذي يؤذي نديمه إذا سكر ، قطب : عبس .

(153) أبو نواس الديوان . ص : 91-92 .

« قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمِ دَرْسٍ وَاقِفًا مَا ضَرُّ لَوْ كَانَ جُلُوسٌ
اتْرَكَ الرَّبْعَ وَسَلَّمَى جَانِبًا وَاصْطَبَحَ كَرخِيَّةً مِثْلَ الْقَبْسِ » (154)

والبكاء على الأطلال اتخذ مدلولاً رمزياً في شعره ، فالطلل عنده ، يمثل العربَ بأنسابهم وحياتهم ، كما يمثل دينهم وقيمهم في الحياة . إذ لم يعد مجرد تقليد أدبي لا يروق أبا نواس ولا يتلاءم مع ذوقه ومفهومه للأدب ، فحسب ، إنما يمثل نمطَ الحياة العربية التي كَرهَهَا وَحَقَّدَ عَلَيْهَا ، ودعا لنَبذِهَا وَتَرْكِهَا والإقبال على الحضارة بما فيها من لذات ومتع ورفاهية . دعا لنَبذِ العادات والتقاليد العربية والتخلي بأخلاق الفرس وعاداتهم الإجتماعية . وإذا كانت الحياة تَغَيَّرَتْ ، وتطورت ، وأصبحت الحياة في بغداد والكوفة والبصرة وغيرها من الحواضر هي غير الحياة في مَكَّة والمدينة والطائف وصحارى بلاد العرب وفَيَافِيهَا ، فَلَمَّاذَا لَا تَتَطَوَّرُ تَقَالِيدُهُمْ وَلَغَتُهُمُ الْآدَبِيَّةُ ؟ فَأَيُّ مَعْنَى فِي أَنْ يَبْكِي الشاعِرُ فِي بَغْدَادَ طَلَّالًا لَمْ يَرَهُ ، أَوْ يَصِفُ بِيَدَاءٍ لَمْ تَطَّأَهَا قَدَمَاهُ . وما له يَذْهَلُ عَنْ وَصْفِ الْقُصُورِ وَالْبَسَاتِينِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَظَاهِرِ الْمُخْتَلِفَةِ لِحَيَاةِ يَعِيشُهَا ، وَيتَسَمَّ هَوَاءَهَا ، وَيتَبَع سَنَةَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ، فَيَجْتَرُّ صَوْرًا بَاهِتَةً مِنْ ذَاكِرَتِهِ عَنِ الصَّحْرَاءِ وَأَطْلَالِهَا وَحَيَوَانِهَا تَارِكًا الطَّبِيعَةَ ، وَمَا فِيهَا مِنْ جَمَالٍ يَهْتَفُّ مِنْ حَوْلِهِ :

« صِفَةُ الطَّلُولِ بِلَاغَةُ الْقَدَمِ فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لَابِنَةِ الْكَرْمِ
فَعَلَامَ تَذْهَلُ عَنْ مُشْعَشَعَةٍ وَتَهَيِّمُ فِي طَلَلٍ وَفِي رَسْمِ
تَصِفُ الطَّلُولَ عَلَى السَّمَاعِ بِهَا أَفْذُو الْعِيَانِ كَانَتْ فِي الْعِلْمِ
وَإِذَا وَصَفْتَ الشَّيْءَ مُتْبِعًا لَمْ تَخْلُ مِنْ زَلَلٍ وَمِنْ وَهْمٍ » (155)

فالشعرُ عنده تجربةٌ وشعورٌ صادقٌ ، ينبعثُ من أعماقِهِ ، وهو هائمٌ بالحضارةِ لَا يُحَرِّكُهُ طَلَلٌ وَلَا يَشْجِيهِ ، وَلَا تَرْبِطُهُ بِهِ عَاطِفَةٌ ، نَشَأَ نَشَأَةً حَضَرِيَّةً ، فَلَمْ يَكَابِذْ الصَّحْرَاءَ وَالسَّفَرَ فِي مَفَازَاتِهَا ، وَلَا عَاشَ فِي رُبُوعِهَا ، فَتَرَكَهَا مَبْرُورٌ عَنْدهُ وَعِنْدَ

(154) ابونواس الديوان ص : 134

(155) ابونواس ، الديوان ، ص : 58-57.

غيره من الشعراء ، فكيف يترك القصورَ وبساتينَ النخيلِ وكرومَ العنبِ والرياضَ ، ليصفَ مفازةً لم يقطعها وخيمةً لم يسكنها وحيواناً لم يعاينه ؟ :

« مَالِي بَدَارِ خَلْتُ مِنْ أَهْلِهَا شُغْلُ وَلَا شَجَانِي لَهَا شَخْصٌ وَلَا طَلُّ
وَلَا رِسُومٌ وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ لِأَهْلِ مِنْهَا وَلِلْجِرَانِ مُتَقَلُّ
وَلَا قَطَعْتُ عَلَى حَرْفٍ مُذْكَرَةٍ فِي مَرْفَقَيْهَا إِذَا اسْتَعْرَضْتُهَا قَتْلُ (156)
بِيدَاءٍ مُقْفِرَةٍ يَوْمًا فَأَنْعَتُهَا وَلَا سَرَى بِي فَأَخِيكِي بِهَا جَمَلُ (157)
وَلَا شَتَوْتُ بِهَا عَامًا فَأَذْرَكْنِي فِيهَا الْمَصِيفُ فَلِي عَنْ ذَاكَ مُرْتَحِلُ
وَلَا شَذَذْتُ بِهَا مِنْ خِيْمَةِ طَبَا جَارِي بِهَا الضُّبُّ وَالْحَرْبَاءُ وَالْوَرَلُ (158)
لَا أَنْعَتُ الرُّوْضَ إِلَّا مَا رَأَيْتُ بِهِ قَصْرًا مَنِيفًا عَلَيْهِ النَّخْلُ مُشْتَمِلُ (159)

فهو غريبٌ عن الصحراءِ غربته عن أهلها :

« لَا الْحَزْنَ مِنِّي بَرَأَى الْعَيْنَ أَعْرِفُهُ وَلَيْسَ يَعْرِفُنِي سَهْلٌ وَلَا جَبَلُ (160)
مَالِي وَعَوَسُجُهَا بِالْقَاعِ جَانِبُهَا أَفْعَى يَقَابِلُهَا مِنْ حَجَرِهِ وَرَلُ (161)

فالخمارة أولى بالوصف من رسومِ الصحراءِ وَمَشَقَّةُ السَّيْرِ فِي فُلُوتِهَا :

« أَحْسَنُ مِنْ مَنْزِلٍ بِذِي قَارٍ مَنْزِلُ خُمَارَةٍ بِالْأَنْبَارِ (162)
وَشُمُّ رِيْحَانَةٍ وَنَرْجِسَةٍ أَحْسَنُ مِنْ أَيْتُنٍ بِأَكْوَارِ (163)
وَعِشْرَةٌ لِلْقِيَانِ فِي دَعَا مَعَ رَشَاءٍ عَاقِدٍ لَزْنَارِ

(156) الحرف : الناقة الضامرة . الفتل : اندماج في مرفق الفاقة

(157) قوله بيدا معمول لقطعت في البيت السابق

(158) الطنب : الحبل الذي تشد به الخيمة . الورل : دابة كالضب أو العظيم من أشكال الوزغ ، طويل الذنب صغير الرأس .

(159) أبو نواس الديوان . ص : 698 وما بعدها .

(160) الحزن : ما غلظ من الأرض .

(161) أبو نواس ، الديوان ، ص : 698 وما بعدها .

(162) ذوقار : ماء لبكر قريب من الكوفة . الأنبار : واد بالعراق

(163) الأكوار : مفردها كور وهو الرجل وأدواته

أَلَذُّ مِنْ مَهْمِهِ أَكْثَرُ بِهِ وَمِنْ سَرَابٍ أَجُوبُ غَرَّارٍ⁽¹⁶⁴⁾
وَنَقَرُ عُودٍ إِذَا تُرْجِعُهُ بِنَانُ رَوْدِ الشَّبَابِ مِعْطَارٍ⁽¹⁶⁵⁾
أَحْسَنُ عِنْدِي مِنْ أُمِّ نَاجِيَةٍ وَأُمِّ عَمْرٍو وَأُمِّ عَمَّارٍ⁽¹⁶⁶⁾

قد يتبادر إلى الذهن أن أبا نواس ، إنما يدعو للإقلاع عن البداوة والحنين إلى الصحراء ، والإقبال على الحضارة العباسية وما فيها من جمالات ومباهج ولذائذ ، وهي دعوة للحياة داخل العصر لا خارجه ، للتجديد في الأدب ونمط الحياة ومن المغالاة أن تنعته بالشعوبية⁽¹⁶⁷⁾ .

غير أن الدراسة الهادئة والعميقة لديوانه تظهر غير هذا . فكرهه للعرب وحقده عليهم ، وازدراؤه لقيمهم وسخريته من بلادهم قائم إزاء إكباره للفرس وإعجابه بحضارتهم يظهر ذلك من خلال وصفه لمواضع الكروم ، ومعاصر الخمور ، يقول :

« مَسَارِحُهَا الْغَرْبِيُّ مِنْ نَهْرِ صَرَصَرٍ فَقَطْرُ بُلٍّ ، فَالْصَالِحِيَّةُ فَالْعَقْرُ
تُرَاثُ أَنْوَشِرَوَانٍ كَسَرَى وَلَمْ تَكُنْ مَوَارِيثُ مَا أَبَقَتْ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
قَصَرْتُ بِهَا لَيْلِي وَلَيْلَ ابْنِ حُرَّةٍ لَهُ حَسَبُ زَاكِ وَلَيْسَ لَهُ وَفَرٌ »⁽¹⁶⁸⁾

ففي هذه الأبيات تعريضٌ بِحَضَارَةِ الْعَرَبِ الصَّحْرَاوِيَّةِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ الْإِسْتِقْرَارَ وَالزَّرَاعَةَ وَالْعِمْرَانَ ، ومقابلتها بِالْحَضَارَةِ الْفَارِسِيَّةِ الرَّاقِيَةِ ، ومثلها قصيدته التي مطلعها :

« يَا سَاحِرَ الطَّرْفِ أَنْتَ الدَّهْرُ وَسَنَانُ سِرِّ الْقُلُوبِ لَدَى عَيْنَيْكَ إِعْلَانُ »

(164) المهمة : الفقر ، أكد به : أشقى وأتعب ، السراب : ما يراه المسافر في الصحراء عند الظهيرة كأنه ماء وليس بماء

(165) رود الشباب : لينة ، معطار : طيب الرائحة .

(166) أبو نواس الديوان . ص : 160 .

(167) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص : 226 .

(168) أبو نواس ، الديوان ، ص : 102 .

فهو وإن بدأها بالغزل ، وتَجَنَّبَ السخريةَ من بكاء الأطلالِ والوقوفِ عليها ، فلم يتجنبَ شتمَ العربِ والفخرَ عليهم بحضارة الفرس وجمال بلادهم . فقال في تعتيق الخمرة وصونها :

« فصانها في مَعَارِ الأرضِ فاخْتَلَفَتْ على الدِّفينةِ أزمانٌ وأزمانٌ⁽¹⁶⁹⁾
 ببلدةٍ لم تَصِلْ كَلْبٌ بها طُنْباً إلى خِباءٍ ولا عِيسٌ وذُيَّانٌ⁽¹⁷⁰⁾
 ليستَ لِدُهلٍ ولا شِيانِها وطناً لكنَّها لِنِبي الأحرارِ أوطانٌ⁽¹⁷¹⁾
 أرضُ تَبْنِي بها كِسرى دَساكِرُهُ فما بها من بَنِي اللَّحْناءِ إنسانٌ⁽¹⁷²⁾
 وما بها من هشيمِ العربِ عرفجَةٌ ولا بها من غذاءِ العربِ خُطبانٌ⁽¹⁷³⁾
 لكن بها جُلنارٌ قد تَفَرَّعُهُ آسٌ وكَلَّلُهُ وَرْدٌ وسوسانٌ
 فإن تَنَسَّمَ من أرواحها نَسْماً يوماً تَنَسَّمَ بالخيشومِ رِيحانٌ⁽¹⁷⁴⁾ »

وفخره قائمٌ على أساسِ أَنَّ الخمرةَ شرابُ القومِ المتحضرينَ من الأكاسرة ، فتجويدها وتعتيقها بعيدٌ عن بلاد العرب التي لا تنبتُ إلا العرفج والحنظل ، فالخمرة فارسية الموطن تُنسَبُ إلى بلاد الجلنار والآس والورد والسوسن ، بلاد بني الأحرار من العجم ، وهو هنا يقرر إحدى مقالات الشعوبية التي تقول إنَّ العجم ينتسبون إلى إسحاق ابن إبراهيم وهو ابن سارة الحرّة في حين أنَّ إسماعيل أبَّ العرب من هاجر الأمّة ، فهم أبناء الحرّة والعرب أبناء اللحناء . وبغضه للعرب دفعه لبغض بلادهم بنباتها وحيوانها ، برمولها وكثبانها :

« سَقِيّاً لِغَيْرِ العلياءِ والسُنْدِ وغيرِ أطلالٍ مَيٍّ بالجردِ⁽¹⁷⁵⁾ »

(169) المغار : المغارة ، فاختلفت : خمرت .

(170) كلب وعيس وذبيان قبائل عربية ، الطنب : جبل طويل يشد به الخباء والخباء الخيمة

(171) بني الأحرار : الفرس

(172) في الديوان الرعناء وقد آثرت رواية ابن قتيبة وابن عبد ربه .

(173) الهشيم : كل كلاً وشجر يابس ، عرفجة : شجرة تنبت في البادية ، الخطبان حبات الحنظل .

(174) أبونواس ، الديوان ، ص : 127 .

(175) العلياء : العالية وهي صفة لمحدوف . السند : ما قالك من الجبل فوق السفح . مي : اسم علم امرأة عربية ، الجرد : الأرض الفضاء لا نبات فيها . وكل ما ذكره من مظاهر البادية .

ويا صَيِّبَ السحابِ إِنْ كُنْتَ قَدْ
لا تَسْقِيَنَّ بِلَدَهُ إِذَا عُدَّتِ الـ
إِنْ أَتَحَرَّزُ مِنَ الْغَرَابِ بِهَا
بِحَيْثُ لَا تَجْلُبُ الْفِجَاجُ إِلَى
أَحْسَنُ عِنْدِي مِنَ انْكِبَابِكَ بِالـ
وَقُوفُ رِيحَانَةٍ عَلَى أُذُنِ
فَذَاكَ أَشْهَى مِنَ الْبُكَاءِ عَلَى الـ
جُدَّتِ اللَّوَى مَرَّةً فَلَا تُعَدِّ (176)
بِلْدَانُ كَانَتْ زِيَادَةَ الْكِبْدِ
يَكُنْ مَقَرِّي مِنْهُ إِلَى الصُّرْدِ (177)
أَذْنِيكَ إِلَّا تَصَايْحُ النَّقْدِ (871)
فَهَرِ مُلْحَاً بِهِ عَلَى وَتَدِ (179)
وَسِيرُ كَأْسٍ إِلَى فَمٍ يَبْدِ
رَبِّعِ وَأُنْمِ فِي الرُّوحِ وَالْجَسَدِ (180)

وهو في هذه القصيدة يُعَارِضُ النابغة في داليتها :

يا دارَ مَيَّةَ بالعِلياءِ فَالسَّنْدِ أَقَوْتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ

محاولاً تبرير كرهه لتلك البلاد التي تزيد الكبد هيجاناً ، طيرها غرابٌ
وصرد ، فإن تحرّز من الغراب ، فلا حرز له من الصرد ، وإذا كان مذهبه في
الحياة اللذة وطلبها والإقبال عليها ، فما له وللعرب وبلادهم . فأرضهم جذباء
وعيشهم قاسٍ ، وهم جفاةٌ ، ما عرفوا لهواً ، ولا تمتعوا بمباهج الحياة ، صيدهم
الذئاب والضبع والضباب واليرابيع وشرائهم حليب النوق والماعز :

« بِلَادُ نَبْتِهَا عُشْرٌ وَطَلْحُ وَأَكْثَرُ صَيْدِهَا ضَبْعٌ وَذَيْبُ (181)
ولا تأخذ من الأعراب لهواً ولا عيشاً فعيثهم جديبٌ
دَعِ الْأَبْانَ يَشْرِبُهَا رَجَالٌ رَفِيقُ الْعَيْشِ يَبْنِيهِمْ غَرِيبُ (182)

فَلْيَتَيَمَّمْ إِذَنْ نَحْوَ بِلَادِ كِسْرَى فَالْحَضَارَةُ فِيهَا مَائِلَةٌ وَمَبَاهِجُ الْحَيَاةِ بَارِزَةٌ تَدْعُوهُ
لِعَبِّ كُؤُوسِ اللَّذَّةِ وَالْمَجُونِ فِي مَجَالَسٍ مَفْرُوشَةٍ بِالْوَرْدِ وَالْيَاسَمِينِ :

(176) صيب السحاب : المطر ، اللوى : مسترق الرمل .

(177) أغرز : أتوقى ، الصرد : طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير

(178) الفجاج : مفرد ، فج وهو الطريق بين جبلين ، النقد : جنس من الغنم يبيع الشكل

(179) الفهر : الحجر .

(180) أبو نواس ، الديوان ، ص : 52 .

(181) الطلح : شجر عظام ترعاه الإبل ، عشر : شجر جيد القدح من اشجار البادية .

(182) أبو نواس الديوان . ص : 11-12 .

« فاطِبُ مِنْهُ صَافِيَةٌ شَمُولُ يَطُوفُ بِكَاسِهَا سَاقِ أَدِيبُ
فَهَذَا الْعَيْشُ لَا عَيْشُ الْبَوَادِي وَهَذَا الْعَيْشُ لَا اللَّيْنُ الْحَلِيبُ
فَأَيْنَ الْبَدُو مِنْ إِيْوَانِ كِسْرَى وَأَيْنَ مِنَ الْمِيَادِينِ الزُّرُوبُ (183)

فهو إن دعا للحضارة وفضلها ، فلأنها برأيه نتاج فارسي ، وهو إن ثَلَبَ الصحراء وأهلها والعيش فيها فلأنها مَسْكَنُ الْعَرَبِ وأصلهم ومادتهم . فصورة الحضارة الماجنة فارسية في شعره ، مفضلة لفارسياتها على الحضارة العربية :

« مُعَاقِرَةُ الْمُدَامِ بِوَجْهِ ظَنِّي حَوَى فِي الْحُسْنِ غَايَاتِ الرَّهَانِ (184)
إِذَا مَا أَفْتَرْتُ قُلْتُ رَفِيفٌ بَرْقٍ وَأَمَا اهْتَزُّ قُلْتُ قَضِيبٌ بَانَ (185)
أَلَدُّ إِلَيَّ مِنْ عَيْشٍ بِوَادٍ مَعَ الْأَعْرَابِ مَجْدُوبِ الْمَكَانِ (186)
قُصَارَى عَيْشِهِمْ أَكُلُ لِصَبٍّ وَشَرَبٌ مِنْ حَفِيرٍ فِي شِنَانٍ (187)

فالْعِرَاقُ بحضارته القديمة والحديثة تراثُ أَجْدَادِهِ الْأَوَائِلِ مِنَ الْفَرَسِ بزعمه لا فضل للعرب في حضارته أو رقيه :

« مَسَارِحُهَا الْمَدَارُ فَبَطْنُ جَوْحَى إِلَى شَطِّ الْأُبْلَةِ فَالْفُرَاتِ
تُرَائًا عَنْ أَوَائِلِ أَوْلِينَا بَنِي الْأَحْرَارِ أَهْلُ الْمَكْرَمَاتِ (188)

وإذا كان الظلل في شعره يرمزُ للعربِ وبدائيتهم ، فالخمارة ترمزُ إلى الحضارة الفارسية ومباهجها :

« عَاجَ الشَّقِيِّ عَلَى دَارِ يُسَائِلُهَا وَعُجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَارَةِ الْبَلَدِ
لَا يُرْقِيءُ اللَّهُ عَيْنِي مِنْ بَكِي حَجَرًا وَلَا شَفَى وَجَدَ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتَدٍ (189)

(183) أبونواس ، الديوان ، ص : 12-11.

(184) معاقرة المدام : ملازمتها . الرهان : السبق .

(185) افتر : ابتسم ، رفيف برق : تلالؤه ولمعانه . قضيب بان : غصن بان .

(186) الشنان : مفردها الشن القرية الصغيرة البالية .

(187) أبونواس الديوان . ص : 103.

(188) مصدر نفسه . ص : 209.

(189) مصدر نفسه ص : 47-46.

فَحَقْدُهُ عَلَى الْعَرَبِ بَادٍ فِي الْفَاطِظِ وَصِيَاغَتِهِ وَتَسْخِطُهُ وَدَعَوَاتِهِ عَلَى الْعَرَبِ ،
فَالْعَرَبِيُّ شَقِيئٌ بِأَثَرِ يَعْجُجُ عَلَى الرُّسُومِ يُسَائِلُهَا ، وَيَفْنِي أَيَّامَهُ وَلِحَظَاتِ حَيَاتِهِ فِي
الْيَكَاةِ عَلَيْهَا وَخَطَابِهَا بِالرَّغْمِ مِنْ عِلْمِهِ بِأَنَّهَا صَمَاءٌ لَا تَسْمَعُ وَخَرَسَاءٌ لَا تَنْطِقُ .
وَأَمَّا أَبُو نَوَاسٍ وَأَمْثَالُهُ مِنَ الشُّعْبِيِّينَ ، فَإِنَّهُمْ يَعْجُجُونَ عَلَى الْخَمَارَةِ يَعْثُونَ خَمَرَهَا
فِي طَاسَاتٍ مِنَ التَّبَرِ مُنْطَقَاتٍ بِالتَّصَاوِيرِ وَالتَّمَاثِيلِ الَّتِي تَنْطِقُ بِالْحَضَارَةِ الْفَارْسِيَّةِ ،
وَتَدُلُّ عَلَى رَقِيَّتِهَا وَرَوْنِقِهَا :

« تَزَوَّجَ الْخَمْرَ مِنَ الْمَاءِ فِي طَاسَاتٍ يَبِرُ ، خَمَرُهَا يَفْهَقُ ⁽¹⁸³⁾
مُنْطَقَاتٍ بِتَّصَاوِيرَ وَلَا تَسْمَعُ لِلدَّاعِي وَلَا تَنْطِقُ ⁽¹⁸⁴⁾
عَلَى تَمَائِيلِ بَنِي بَابِكِ مُحْتَفَرٌ مَا بَيْنَهُمْ خَنْدَقُ ⁽¹⁸⁵⁾
كَأَنَّهُمْ وَالْخَمْرُ مِنْ فَوْقِهِمْ كَتَائِبٌ فِي لُجَّةٍ تَغْرَقُ
فَالنَّعْتُ ذَا لَا نَعْتُ دَارٍ خَلَّتْ يَهِيْمُ فِي أَطْلَالِهَا أَحْمَقُ ⁽¹⁸⁶⁾ »

وَإِذَا كَانَ لَا بَدَّ مِنَ الْأَطْلَالِ فَلَتَكُنْ أَطْلَالُ حَانَةِ تَجَدُّدٍ مَا انْدَرَسَ مِنَ الذَّوْقِ
الْفَارْسِيِّ الرَّفِيعِ الذَّوْقِ الْحَضَرِيِّ ، رَمَزَ الرِّفَافِيَّةِ وَاللِّينِ وَالرَّقَّةِ ، فَقَصَدَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ
صَحْبِهِ الْمَدَائِنِ مَقَرَّ الْأَكَاسِرَةِ ، فَرَأَى بَعْضَ حَانَاتِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ بَقِيَ مِنْهَا غَيْرُ
أَطْلَالٍ ، فَكَتَبَ هَذِهِ الْقِطْعَةَ الَّتِي تُمَثِّلُ بِهَا الْجَاخِظَ ، فَقَالَ : إِنَّهَا مِمَّا لَا تُتَاجَ إِلَّا
لِلْقَلِيلِ مِنَ الشُّعْرَاءِ ⁽¹⁸⁷⁾ :

« وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا ، وَأَذْلَجُوا بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٍ وَدَارَسَ ⁽¹⁸⁸⁾
مَسَاجِبُ مِنْ جَرِّ الزُّقَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْغَاثُ رَيْحَانِ جَنَى وَيَابَسَ ⁽¹⁸⁹⁾ »

(183)- يريد بتزويج الخمر من الماء مزجها به . يفهق : يمتلئ حتى يفيض .

(184) منطقات : منطق ألبسه ، يصف الطاسات بأنها منطقة بالرسوم

(185) بني بابك موطنهم خرمه كسكرة وهي قرية بفارس منهم بابك الخرمي خرج أيام المعتصم وقتل .

(186) أبو نواس ، الديوان ، ص : 157 .

(187) أبو نواس ، الديوان ص : 37 .

(188) أدلجوا : ساروا من أول الليل ، دارس : من درس عفا وتغير .

(189) صاحب بدل من أثر في البيت السابق ، الزقاق : جمع زق وعاء للخمر إضغاث ريحان : جمع

ضغث : وهو القبضة .

حبست بها صحيي فجددت عهدهم
ولم أدر من هم ؟ غير ما شهدت به
أقمنأ بها يوماً ، ويوماً وثالثاً
تُدارُ علينا الراح في عسجدية
قرارتها كسرى وفي جنباتها
فللخمر ما زرت عليه جيوبها
وإني على أمثال تلك لحابس
بشرقيّ ساباط الديار البساس⁽¹⁹⁰⁾
ويوماً له يوم الترحل خامس
حبتهأ بألوان التصاوير فارس⁽¹⁹¹⁾
مهأ تدريها بالقسيّ الفوارس⁽¹⁹²⁾
وللماء ما دارت عليه القلانس⁽¹⁹³⁾

وحوارُ أبي نواس مع الخُمَار اليهودي حكايةُ حاله ، والخُمَار ينطق بلسانه :

« فقلنا له ما الإسمُ قالَ سَمَوَالُ
وما شَرَفْتَنِي كُنْيَةً عَرَبِيَّةً
ولكنَّها خَفْتُ وَقَلْتُ حَرُوفُهَا
فقلنا له عَجَباً بظرفِ لسانه :
على أَنِّي أَكُنِّي بِعَمْرٍو ولا عَمْرَأَ
ولا أَكْسَبْتَنِي لا ثَنَاءً ولا فخرأَ
وليست كأخرى إِنَّمَا خُلِقْتُ وَقُرَأَ
أَجَدْتُ أبا عمرو فَجَوَّدَ لنا الخمرأَ »⁽¹⁹⁴⁾

أما قصيدته التي مطلعها :

« دَعِ الرَّسْمَ الَّذِي ذَنَرَأَ يُقَاسِي الرِّيحَ المَطَرَأَ »⁽¹⁹⁵⁾

فتصورُ جوانبَ عديدةً من شعوبيته ومجونه ، وفيها دعوتُهُ لتركِ تقاليد العرب
الأدبية ، واستبدالها بتقاليد مستوحاة من الحياة المتحضرة والمطبوعة بطابع
الفرس ، وفيها سخرية من بلاد العرب ونبتها وحيوانها وحضارتها وتمجيد للبلاد
الفارسية وحضارتها ، وفيها تشكيك ، بما أثّر من صور جميلة من حياة البادية ،
وتكذيب للرواة . كما دعا فيها لإهمال الصحراء بقيمها ومثلها في اللهو والحب

(190) ساباط : مدينة فارسية قريبة من المدائن . البساس : المقفرة

(191) في عسجدية : في كؤوس عسجدية والمسجد الذهب .

(192) يصف الصور التي على جوانب الكأس . المها : البقر الوحشي

(193) الخمر إلى مواضع الجيوب من تلك الصور . والماء حتى القلانس والقلانس جمع قلنسوة غطاء الرأس الشائع في ذلك الحين .

(194) أبو نواس الديوان . ص : 61.

(195) مصدر نفسه . ص : 557 وما بعدها .

والحياة والإقبال على الحياة الجديدة بمباهجها ومفاتيحها المادية التي لو أذكرَها .
رجالُ الجاهلية ومن ماتَ فيها من العشقِ ، لأقبلوا على الحياة الجديدة يُعبُونَ من
لذائِذِها :

« أَمَا وَاللَّهِ لَا أَشْرَأُ حَلَفْتُ بِهِ وَلَا بَطَرًا
لَوْ أَنَّ مَرْقَشًا حَيٌّ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ ذَكَرًا
كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَنَ مِنْ أَزْرَارِهِ قَمَرًا » (196)

أما سخريته من لغة البدو وحياتهم في أيامه ، وثقلهم على طبعه فبادٍ في
هجائه لأبي خالد النميري :

« يَا رَاكِبًا أَقْبَلَ مِنْ تَهْمِدٍ كَيْفَ تَرَكْتَ الْإِبِلَ وَالشَّاءَ (197)
وَكَيْفَ خَلَفْتَ لَدَى قَعْنَبٍ حَيْثُ تَرَى التَّنُومَ وَالْأَاءَ (198)
جَاءَ مِنَ الْبَدْوِ أَبُو خَالِدٍ وَلَمْ يَزُلْ بِالمَصْرِ تَنَاءً (199)
يَعْرِفُ لِلنَّارِ أَبُو خَالِدٍ سَوَى اسْمِهَا فِي النَّاسِ أَسْمَاءَ
إِذَا دَعَا الصَّاحِبَ يَهْيَابَهُ وَيتَبَعَ الْيَهْيَاءَ يَهْيَاءَ (200)
لَوْ كُنْتُ مِنْ فَاكِهَةٍ تُشْتَهَى لِطِيْبِهَا كُنْتُ الْغُبَيْرَاءَ » (201)

ولكن لماذا كُرهَ العربُ ، وَحَقَّدَ عليهم ، وَعَمَّمَ حَقْدَهُ على رِمالِ
صحرائِهِمْ ؟ أَلْفَارِسِيَّتِهِ ؟ أم أَنَّ هناك أسباباً أخرى اختَلَطَتْ في نفسه ، وَتَزَاوَجَتْ ،
فأولدت الكُرهَ والحَقْدَ والضعيفَةَ ؟

الحقيقةُ أَنَّ أبا نواس كان فارسياً ، ونسبته للفرس إنْ أَبْهَمَتْ على بعض
الرواة ، فنسبته للعرب ، ما كانت لتنبهم عليه ، وهو إنْ لم يكن من أشرفِ

(196) أبو نواس ، الديوان ، ص : 559.

(197) تهمد : موضع في الجزيرة العربية .

(198) القعنَب : الأسد أو الثعلب الذكر ، التَّوْم : شجر ذو ثمر ، الأء ثمر شجر

(199) تناء : مقيم .

(200) يهْيَابُهُ : يناديه بهيا .

(201) أبو نواس الديوان . ص : 568.

الفرس وأبناء ملوكها ، فكثير من الشعوبيين كانوا مثله ، وأبناء الملوك والدهاقين أقلية ضئيلة إذا قيسَت بسواد العجم ، ولعلَّ فقره لنسب عريض في العجم هو الذي دفعه للإدعاء تارةً للنزارية وتارةً أخرى لليمنية غير أنَّ شعوراً بالخساسة والضعف ما زال يتأبّه كلما سمع إنساناً ينتسب إلى آباءه وأجداده ، فيخالجه شكٌ في نفسه وشعور بالذلِّ والإهانة . فهو يَظعنُ على العربِ ، ويحتقرُ أنسابهم ، ويثلبهم ، لعلّه يتساوى بهم ، والخمرة خير دواء لدائه وشعوره :

« رَفَعْتُ لَهُ النَّدَاءَ بِقُمْ فَخُذْهَا وَقَدْ أَخَذَتْ مَطَالِعُهَا النُّجُومُ
بِفِدْيَةٍ تُذَالُ النَّفْسُ فِيهَا وَتُمْتَهُنُ الْخُزُولَةُ وَالْعُمُومُ » (202)

فبالخمرة ، ونشوتها ، تتساوى الرجال ، وتنفقُ الأنسابُ أصلاتها ، وهي أنسابٌ ، وإنْ ادَّعَاهَا هَيْئَةً عَلَيْهِ ، لا قيمة لها :

« مجاورُ قومٍ ليس بيني وبينهم أواصرُ إلا دَعْوَةٌ وَظَنُونُ » (203)

وهو إنْ فَضَّلَ الفُرسَ وأحبَّهم ، وأحبَّ أعيادهم ، فلاقبالهم على اللذائذ ، ولخصالهم التي حمَّدها فهم لطفاء ، متحضرون ، لا يفخرون على جلسهم ، ولا ييذخون على نديمهم ، مسالمون لا يعرفون عريضة ، فهم بعكس العرب تماماً (204) .

« نَادَمْتُهُمْ أَرْتَاضُ فِي آدَابِهِمْ وَلِفَارِسِ الْأَحْرَارِ أَنْفُسُ أَنْفُسٍ وَإِذَا أَنَادُمُ عَصْبَةً عَرَبِيَّةً وَعَدْتُ إِلَى قَيْسٍ وَعَدْتُ قَوْسَهَا وَبَنُو الْأَعَاجِمِ لَا أَحَازِدُ مِنْهُمْ لَا يَيَذْخُونَ عَلَى النَّدِيمِ إِذَا انْتَشَوْا	فَالْفُرسُ عَادِي سَكْرِهِمْ مُحْسُومُ وَفَخَارُهُمْ فِي عِشْرَةٍ مَعْدُومُ بَرَزْتُ إِلَى ذِكْرِ الْفَخَارِ تَمِيمُ سُيِّتَ تَمِيمٌ وَجَمْعُهُمْ مَهْزُومُ شَرًّا فَمَنْطِقُ شَرِبِهِمْ مَذْمُومُ وَلَهُمْ إِذَا الْعُرْبُ اعْتَدَتْ تَسْلِيمُ
--	--

(202) أبونواس ، الديوان ، ص : 55.

(203) مصدر نفسه . ص : 546.

وجميعهم لي حين أقعدُ بينهم بتذللٍ وتهيبٍ موسومٌ» (205)

فجلوسه بين الفرس إذن يشعره بالراحة ، لشعوره بالمساواة ، فليترك العربَ والحالة هذه إلى دعوة تهونُ عليه ، وما لهم يفخرون عليه ، ولا يروونه نداً لهم ، ونساؤهم يواصلن النبط :

«جاءني عنه كلامٌ رآذني فيه قنوطاً
واضياعاه أمثلي يرتجي منه خليطاً
قلتُ لا أقربُ إلّا آل عمرو أو لقيطاً
كم رأينا عربياً ت يواصلن نبيطاً» (206)

فما همّة من أنسابهم ، وقد شاركهم فيها النبط ، فانتسابه إلى الخمرة والعنب أشرف :

«قطرُبلُ مَرَبِعي ولي يقرى الـ كَرخٍ مَصيفُ وأمي العنبُ
تُرَضِّعني دَرها وتلحفني بظلّها والهجير يلتهبُ» (207)

فما الأنسابُ إلا صروحُ خرافيةٍ لا قيمةَ لها ، وعبُ الخمرور والأقدام على المجون همّة الوحيد :

«اسقني يا ابن اذهما واتخذني لك ابن ما
إسقنيها سُلاقَةً سَبَقْتُ خَلقَ آدماء» (208)

وهو في ذلك لا يقبلُ لومةَ لائم ، ولا نصيحةَ ناصحٍ ، فالحياةُ بقيمها ومثلها لا تستحقُّ منه دمعَةً ، فدموعُهُ على ما فات من لذّةٍ أولى :

«دعني من الناسِ ومن لومهم وأحسُ ابنة الكرمِ مع الحاسي
وأبكي على ما فات منها ولا تبك على رُبْعٍ بأوطاسٍ

(205) أبونواس ، الديوان ، ص : 193-194.

(206) مصدر نفسه ، ص : 327.

(207) مصدر نفسه . ص : 4.

(208) مصدر نفسه ص : 80.

لا خَيْرَ في اللذاتِ ما لم يكن صاحبُها منكشفَ الرأسِ» (209)

فهو لا ينفكُ يصيحُ ويصرخُ بوجهِ المجتمعِ والناسِ مجاهراً بمعاصيه وانغماسه في اللذة والفجورِ مازجاً ذلك بالسخرية من العربِ وشتمهم وازدراء قِيَمِهِمْ .

وإذا كانت هذه أبعاد شعوبيته في لهوه وسكره ومجونه ، فكيف ظهرت شعوبيته في جده وصحوته ؟

إن أبا نواس يبدو في جده وصُحُوتِهِ أَقلَّ صراحة منه في مجونه وسكره ، فقد حاولَ الإدِّعاءَ في العربِ ، وإيجادَ نَسَبٍ له فيهم ، فَتَنَزَّرَ وادَّعى للفرزدق ، لكنَّ اصطدامه بالحكم ابنِ قنبر المازني ، دَفَعَهُ لِلانكِفاءِ عن هذا الادِّعاء (210) فادَّعى لليمن وحاولَ إيجادَ نَسَبٍ له في مذحجٍ ، لكنه فُشِلَ أيضاً ، فالتجأ إلى ابنِ الكلبي علَّه يصنِّعُ له نسباً يدَّعيه ، فقال :

« أبا منذرٍ ما بالُ أنسابِ مذحجٍ مرجمةٌ دوني وأنتَ صديقي
فلما تَأْتِي يَأْتِيكَ ثَنائي ومذحجي وإن تَأَبَّ لم يَسُدُّ عليَّ طريقي » (211)

لكن أنسابِ مذحجٍ ظَلَّتْ مغلقةً دونَه ، فادَّعى لحاء وحكم ، فزجره يزيدُ ابن منصور الحميري - خال المهدي - وقال له : أنت رجلٌ خوزي ، فمالك ولحاء وحكم ، فادَّعى أَنه من مواليهم ، فتركوه ، وقال بعضهم : دَعُوهُ يُكَابِدُ عَنَّا النزارية (212) فانطلقَ بحجةِ هذا الولاء يهجو العَدَنائِيَّةَ ، ويثلبُها ، ويريشُ سهامَ هجائِهِ لِقَبَائِلِهَا ، لا يراعي في ذلك إلا ولا ذمَّةً ، فلم يستثنِ قريشَ ، ولم يردِّعه مكانُ الرسولِ منها ، فَهَجَّاهَا بقوله :

« أَحِبِّ قُرَيْشاً لِحَبِّ أَحْمَدِهَا واعرف لها الجَزَلَ من مَوَاهِبِهَا

(209) أبو نواس الديوان . ص : 106 .

(210) مصدر نفسه ، ص : 522 (هامش) .

(211) مصدر نفسه . ص : 602 .

(212) مصدر نفسه . ص : 522 (هامش) .

إِنَّ قُرَيْشًا إِذَا هِيَ انْتَسَبَتْ كَانَ لَهَا الشُّطْرُ مِنْ مَنَاسِبِهَا
إِنْ فَاحَرْتُنَا فَلَا اقْتِحَارَ لَهَا إِلَّا التَّجَارَاتُ مِنْ مَكَايِبِهَا» (213)

وهجا تميم وطعن بفخرها بقوس حاجب ابن زرارة ، فقال :

«أَوَّلُ مَجْدٍ لَهَا وَآخِرُهُ إِنَّ ذِكْرَ الْمَجْدِ قَوْسُ حَاجِبِهَا
وَيْشَ فُخْرِ الْكَرِيمِ مِنْ قَصَبِ الْ شَوْحِطِ ، صَفْرَاءُ فِي مَعَالِيهَا» (214)

كما هجا قيس عيلان وبكر ابن وائل وأسد وتغلب وثقيف وخندف ورقاش وغيرها من القبائل العربيّة ، ممّا اضطرّ الرشيد للقبض عليه ، وسجنه مدة طويلة بسبب ما أظهر من حقّد وكره للعرب (215) .

وكان يثلب العرب ، ويعيرها بأخبارها وأيامها معتمداً على ما يرويه أبو عبيدة معمر ابن المثنى ، وبما تزوده من نقائض جرير والفرزدق .

ولم يقصر أبو نواس هجاءه على النزارية ، ولا كان ولاؤه لليمن رادعاً له عن هجائها ، فجا من سبق أن افتخر بهم ، فقال في هجائه لهاشم ابن خديج :

وَتَحْتَدُّ حَتَّى يَخَافَ الْجَلِيسُ شَذَاكَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِدَّةِ (216)
وَتَخْتُمُ ذَاكَ بِفُخْرِ عَلَيْهِ بِكِندَةِ فَاسْلَحْ عَلَى كِنْدِهِ
فَإِنَّ خُدَيْجاً لَهُ هَجْرَةٌ وَلَكِنِهَا زَمَنَ الرُّدَّةِ
وَمَا كَانَ إِيمَانُكُمْ بِالرُّسُولِ سِوَى قَتْلِكُمْ صَهْرَهُ بَعْدَهُ» (217)

وقال يهجو كندة ويعيرها :

«إِنْ تَقْتُلُوا ابْنَ أَبِي بَكْرٍ فَقَدْ قَتَلْتُمْ حُجْرًا بِدَارَةِ مَلْحُوبٍ بَنُو أُسْدٍ» (218)

(213) أبو نواس الديوان . ص : 508.

(214) مصدر نفسه . ص : 509.

(215) مصدر نفسه . ص : 506 (هامش)

(216) الشذا : الأذى

(217) أبو نواس ، الديوان ، ص : 550-551.

(218) دارة ملحوب في بلاد بني أسد

وَطَرَدُوَكُمْ إِلَى الْأَحْبَالِ مِنْ آجِبٍ طَرَدَ النِّعَامُ إِذَا مَا تَاهَ فِي الْبَلَدِ
وقد أَصَابَ شَرَاخِيلًا أَبُو حَنْشٍ يَوْمَ الْكَلَابِ فَمَا دَافَعْتُمْ بِيدِ⁽²¹⁹⁾
وَكُلَّ كِنْدِيَّةٍ قَالَتْ لَجَارَتِهَا وَالْدَمْعُ يَنْهَلُ مِنْ مِثْنَى وَمِنْ وَحْدِ
الْهَى أَمْرًا الْقَيْسَ تَشْيِبُ بِغَايَةِ عَنْ ثَارِهِ وَصَفَاتِ النَّوْزِ وَالْوَتْدِ⁽²²⁰⁾

وها هو لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْقَطَانِيَةِ وَالْعَدْنَانِيَةِ ، فيجمعهم في هجائه للْبَصْرَةِ ،
ويسخر منهم جميعاً ، فيقول :

« وَجَاوَزْتُ قَوْمًا لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ أَوْاصِرُ إِلَّا دَعْوَةٌ وَظُنُونُ⁽²²¹⁾
إِذَا مَا دَعَا بِاسْمِي الْعَرِيفُ أَجَبْتُهُ إِلَى دَعْوَةٍ مِمَّا عَلَيَّ تَهُونُ
لَأَزِدَ عَمَانَ بِالْمَهْلَبِ نَزْوَةً إِذَا افْتَخَرَ الْأَقْوَامُ ثُمَّ تَلِينُ
وَبُكْرُ تَرَى أَنَّ النَّبْوَةَ أُنْزِلَتْ عَلَى مَسْمَعٍ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ جَنِينُ⁽²²²⁾
وَقَالَتْ تَيْمِيمٌ لَا تَرَى أَنَّ وَاحِدًا كَأَحْنَفِنَا حَتَّى الْمَمَاتِ يَكُونُ⁽²²³⁾
فَمَا لَمْتُ قَيْسًا بَعْدَهَا فِي قُتَيْبَةٍ⁽²²⁴⁾ وَفَخِرَ بِهِ إِنَّ الْفَخَارَ قُنُونُ⁽²²⁵⁾

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ أَبَا نَوَاسٍ أَهَمَّ شَاعِرٍ اعْتَنَى الشَّعْوَِيَّةَ وَحَامَى عَنْهَا وَكَأَيْدِ الْعَرَبِ
وَجَحَدَهُمْ فَضْلَهُمْ ، وَتَنَقَّصَهُمْ وَجَحَدَ مَآثِرَهُمْ . فَعَابَ آدَابَ الْعَرَبِ وَسَخَّرَ
بِأَسْمَائِهِمْ فِي حِوَارِهِ مَعَ الْخَمَارِ الْيَهُودِي ، وَعَابَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ كَثْرَةَ الْمَفْرَدَاتِ
وَذَلِكَ فِي هِجَائِهِ لِأَبِي خَالِدٍ ، وَتَعَمَّدَ إِدْخَالَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ ، الْفَارْسِيَّةِ فِي شِعْرِهِ

(219) شَرَاخِيلُ ابْنُ الْحَارِثِ ابْنُ عَمْرِو آكِلِ الْعُرَارِ الْكَنْدِيِّ ، وَكَانَ قَدْ اخْتَلَفَ مَعَ أَخِيهِ عَلَى الْمَلِكِ فَتَوَاعَدَا
عَلَى النِّزَالِ وَكَانَ شَرَاخِيلُ وَأَخُوهُ قَدْ جَعَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا مِائَةَ نَاقَةٍ لِمَنْ يَأْتِي لِأَحَدِهِمَا بِرَأْسِ الْآخَرِ ،
فَقَتَلَ أَبُو حَنْشٍ شَرَاخِيلَ

(220) أَبُو نَوَاسٍ الدِّيَوَانُ . ص : 551-552.

(221) الْأَوَاصِرُ : جَمْعُ آصِرَةٍ وَهِيَ الرِّحْمُ وَالْقِرَابَةُ

(222) مَسْمَعٌ : مِنْ أَشْرَافِ بَكْرٍ

(223) الْأَحْنَفُ ابْنُ قَيْسٍ وَيُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْحِلْمِ

(224) قُتَيْبَةُ ابْنِ مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِي .

(225) أَبُو نَوَاسٍ ، الدِّيَوَانُ ، ص : 546 . مَعَ بَعْضِ الْإِخْتِلَافِ وَقَدْ أَثَرَتْ رَوَايَةُ ابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ . الْمَقْدُ

الْفَرِيدِ ، ج : 3 ، ص : 321.

وهـ كأنها دعوةٌ غيرُ صريحةٍ أو غير مقصودةٍ للخروجِ عن لغةِ العربِ⁽²²⁶⁾ واستَهَانَ بالدينِ والأخلاقِ والقيَمِ العامّةِ للمجتمعِ الإسلامي ، وإذا كان في زُهْدِ أبي العتاهية عنصرٌ مانويّ ، فإنّ في إباحيةِ أبي نواس عنصرٌ مزدكي كبير الوضوح . ونزعتهُ الشعوبيةُ تختلفُ عن نزعةِ الشعوبيةِ عندَ غيره من الشعراء ، فأسبابُها كما سبقَ أنْ أشرنا متعددة ، وهو ملتزمٌ فيها بأدبه وسلوكه في الحياة .

(226) أحمد عبد المجيد غزالي ، مقدمة ديوان أبي نواس ، ص : ث .

الفصل الثاني

الشعوبية ومظاهرها في النثر

**الكتاب الشعوبيون ، والمضمون الشعوبي في كتاباتهم :
دعوى الشعوبية .**

الشعوبية ومظاهرها في النثر

الكتاب الشعبويون ، والمضمون الشعبوي في كتاباتهم :

لقد عبّر الشعبويون بالشعر عن عواطفهم وأحاسيسهم نحو العرب ، فافتخروا بأنسابهم وأمجادهم الفارسية ، ونددوا بالعرب ، وهجوهم ، وثلبوا قبائلهم ، وسخروا منهم ، ودعّوا إلى محقّهم ، وإحياء المجد الفارسي ، وإعادة السلطنة والملك إليهم ، لكنها تبقى صوراً عاطفية مبغثرة يقدّمها الشعراء ، بينما نهض كتاب الشعبوية يُعالجون الموضوع بشمولٍ أوسع وأعمق .. فكيف ظهرت الشعبوية في النثر ؟

تفشّت الشعبوية بين كتاب الأعاجم وعلمائهم ، فانطلقوا يقطعون على العرب في تاريخهم وقيمهم وأنسابهم ، يدفعهم شعورٌ مليءٌ بالحقْد والضغينة ، وقد صوّر الجاحظُ هذا الحقْد فقال : « واعلم أنك لم ترَ قوماً أشقى من هؤلاء الشعبوية ، ولا أعذى على دينه ، ولا أشدَّ استهلاكاً لمرضه ، ولا أطول نصباً⁽¹⁾ ، ولا أقلَّ غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طولُ جثوم الحسدِ على أكبادهم ، وتوقّد نازُ الشنآن في قلوبهم ، وغلبانُ تلك المراحل⁽²⁾ الفائرة وتسعُرُ تلك النيران المضطربة⁽³⁾ »⁽⁴⁾ فالشعبوية إذن مدفوعة بكرهٍ وحقْدٍ بغضٍ ، تحاولُ النيلَ من العرب بالحقِّ وبالباطلِ « فإنّها بفرط الحسدِ ، ونغلِ الصدر⁽⁵⁾ .

(1) النصب : العياء .

(2) الشنآن : البغض مع عداوة وسوء خلق .

(3) المراحل : جمع مرجل ، وهو بيت النار أو حيث يوقد .

(4) الجاحظ ، البيان والنبين ، ج 3 ص : 405 وما بعدها .

(5) نغل الصدر : فساد النية والطوية .

تدفع العرب عن كل فضيلة ، وتُلجئُ بها كل رذيلة ، وتغلو ، وتسرف في الذم ، وتبتهت بالكذب ، وتكابرُ العيان ، وتكادُ تكفر ، ثم يمنعها خوفُ السيف ، وتغضُّ من النبي⁽⁶⁾ (ص) ، إذا ذُكر بالشجاء⁽⁷⁾ ، وتطرف منه على القذى⁽⁸⁾ ، وتبعد من النبي (ص) ، بقدر بعدها عن قرب واضطفى⁽⁹⁾ .

أما نقشي هذه النزعة بين جمهور الكتاب فراجع إلى أصولهم العرقية ، ومنابيتهم الثقافية فإن « الناسيء فيهم إذا وطىء مقعد الرئاسة ، وتورك مشورة الخلافة⁽¹⁰⁾ . . . وصارت الدواة أمامه ، وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزر جمهور أمثاله ، ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصير كتاب مزدك معدن عليه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ، (ظن) أنه الفاروق الأكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم بالتأويل ، ومعاذ ابن جبل في العلم بالحلال والحرام ، وعلي ابن أبي طالب في الجراءة على القضاء والأحكام . . . فيكون أول بدو الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، فإن استرجح أحد أصحاب الرسول (ص) قتل عند ذكرهم شدقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه⁽¹¹⁾ ، وإن ذكر شريح جرحه ، وإن نعت الحسن استثقله . . . ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة أردشير بابكان وتدمير أنوشروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان⁽¹²⁾ »

فهؤلاء الكتاب شعوبيون بحكم أصولهم العرقية ، وبحكم مواردِهم الثقافية

(6) وتغض من النبي : تضع من قدره ، تنتقص

(7) الشجا : الهم والحزن

(8) تطرف منه على القذى : تصاف عيونها بشيء يؤذيها ، طرف عينه : أصابها شيء فدمعت والقذى ما يقع في العين من تبن أو رمل .

(9) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 344 .

(10) تورك مشورة الخلافة : قدر عليها وصار من رجالها .

(11) الكشح : ما بين السرة وسط الظهر .

(12) الجاحظ ، ثلاث رسائل (ذم أخلاق الكتاب) ص : 42-43 .

التي وردوها ، وآدابهم التي تأدَّبوها ، فدخلتهم « الأئمة لأدابهم ، والغضاضة لأقدارهم ، من لؤم مغارسهم ، وخبث عناصرهم . فمنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم ، واعتزى⁽¹³⁾ إلى ملوكهم وأساورتهم ، ودخل في باب فسيح لا حجاب عليه ، ونسب واسع لا مدافع عنه . ومنهم من أقام على خُصَاسَةِ ينافح⁽¹⁴⁾ عن لؤمه ، ويدعي الشرف للعجم كلها ليكون من ذوي الشرف ، ويظهر بغض العرب ينتقصها ، ويستفرغ مجهوده في مشاتبها ، وإظهار مثاليها ، وتخريف الكلم في مناقبها ، وبلسانها نطق ، وبهيمها أنف ، وآدابها تسليح ، فإن هو عرف خيراً ستره ، وإن ظهر حقره ، وإن احتمل التأويلات صرّفه إلى أقبحها وإن سمع سوءاً نشره ، وإن لم يسمعه نقر⁽¹⁵⁾ عنه وإن لم يجده ، تخرّصه ، فهو كما قال القائل :

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ يُخْفُوهُ وَإِنْ عِلِمُوا شَرًّا أُذِيعَ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا بُهِتُوا⁽¹⁷⁾

ابن المقفع والشعوبية :

وكان هؤلاء الشعوبيون فئات عديدة فيهم العالم باللغة والنحو ، والعالم بالأنساب وأخبار القبائل والراوية للشعر والأديب والكتّاب والمؤرخ والمترجم ، فانطلق كلٌ بميدانه يعمل في الكيد للعرب وتراثهم ، ومن أوائل هؤلاء ابن المقفع⁽¹⁸⁾ الذي شبَّ على دين المجوس ، وتثقف بالثقافة الفارسية ثقيفاً واسعاً ،

(13) اعتزى : انتسب

(14) ينافح : يدافع .

(15) نقر عن الشيء : بحث عنه

(16) تخرص : كذب وافترى

(17) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 345-346.

(18) أنظر ترجمة ابن المقفع في أنساب الأشراف للبلاذري ، وقد نشرها محمد نجم في مجلة الأبحاث -

بيروت 1963 . الجهشيارى ، الوزراء والكتّاب ، ص : 109 ، ابن النديم ، الفهرست ، ص : 172 ،

البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة ، ص : 123 ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج :

12 ص : 151 ، عبد اللطيف حمزة (ابن المقفع) . أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : اص :

فلَمَّا أَسْلَمَ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِهِ ، بَقِيَ فِيهِ بَعْضُ الْحَنِينِ إِلَى دِينِهِ الْقَدِيمِ ، فَظَهَرَتْ فِيهِ
 عِلَامَاتُ الزُّنْدَقَةِ وَوَسَمَتُهُ بِمِثْلِهَا ، إِلَّا أَنَّنَا نَظُنُّ أَنَّ لِلْسِّيَاسَةِ فِي هَذِهِ التُّهْمَةِ دَوْرًا
 كَبِيرًا ، فَابْنُ الْمُقَفَّعِ ، لَمْ يُجَبَّرْ عَلَى اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا سَبَقَ إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ ،
 وَلَقَدْ أَهْضَى مَعْظَمَ حَيَاتِهِ الْقَصِيرَةَ نَسِيبًا عَلَى الْمَجُوسِيَّةِ ، وَاعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ لَمَّا أَرَادَ
 لَهُ اللَّهُ ذَلِكَ ، وَقَدْ تَجَاوَزَ الثَّلَاثِينَ ، وَكُلُّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ تَمَثُّلُهُ
 بَيْتِ الْأَحْوَصِ ، وَقَدْ مَرَّ بَيْتٌ مِنْ بِيُوتِ النَّارِ ، فَقَالَ :

« يَا دَارَ عَاتِكَةِ الَّذِي أَعْتَزَلْتُ حَذَرَ الْعِدَى وَبِكَ الْفَوَازُ مُوَكَّلٌ » (19)

أَوْ قَوْلِ الْمَهْدِيِّ : « لَمْ أَجِدْ كِتَابَ زُنْدَقَةٍ قَطُّ إِلَّا وَأَصْلُهُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ » (20)
 فَأَظْنُهَا تُهُمًا أَصَبَتْ بِهِ بَعْدَ أَنْ قَضَى ضَحِيَّةً لِلصَّرَاحِ بَيْنَ الْمَنْصُورِ وَأَعْمَامِهِ (21) .

وَقَدْ اتَّهَمَهُ جَمَاعَةٌ بِالزُّنْدَقَةِ مِنْهُمْ الْجَاخِظُ (22) وَالْبَيْرُونِيُّ (23) الَّذِي اتَّهَمَهُ
 بِتَرْوِيجِ الْمَنَائِيَةِ غَيْرَ أَنَّ أَحْمَدَ أَمِينَ قَدْ نَفَى تَهْمَةَ الزُّنْدَقَةِ عَنْهُ وَشَكَّ فِي كِتَابِ
 الْقَاسِمِ ابْنِ طِبَاطَبَا وَرَجَّحَ أَنَّهُ مَنْحُولٌ فِي مَضْمُونِهِ وَنَسَبِهِ مُعْلَلًا ذَلِكَ تَعْلِيلًا
 مَقْبُولًا . إِذَا انْتَقَدَ الْكِتَابُ مِنْ حَيْثُ الْأَسْلُوبُ وَأَظْهَرَ أَنَّ أَسْلُوبَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ فِي
 الْكُتُبِ الْبَاقِيَةِ لَهُ ، يَخْتَلِفُ عَنْ أَسْلُوبِهِ فِيمَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلٍ بِالزُّنْدَقَةِ ، وَكَذَلِكَ
 أَسْلُوبُ الرَّدِّ عَلَيْهِ يَخْتَلِفُ عَنْ أَسَالِيبِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهَجْرِيِّ الَّذِي عَاشَ فِيهِ
 الْقَاسِمُ ابْنُ طِبَاطَبَا . وَابْنُ النَّدِيمِ الَّذِي تَرَجَّمَ لِابْنِ الْمُقَفَّعِ وَالْقَاسِمِ ابْنِ طِبَاطَبَا ،
 فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ كِتَابٍ فِي الزُّنْدَقَةِ لِابْنِ الْمُقَفَّعِ وَلَا اسْمَ كِتَابٍ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ
 لِلْقَاسِمِ ، وَرَجَّحَ أَنَّ الْكِتَابَ مَوْضُوعٌ فِي عَصْرِ مُتَأَخِّرٍ عَنِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ لِلْهَجْرَةِ .
 وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ فَشَا السَّجْعُ . أَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ مَا أُثِرَ عَنْ تَمَسُّكِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ
 بِالذِّنِّ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ زَمَّرَ عَلَى مَائِدَةِ عَيْسَى ابْنِ عَلِيٍّ وَقَدْ عَزَمَ عَلَى الْإِسْلَامِ ،
 فَلَمَّا غُوتَبَ ، قَالَ : كَرِهْتُ أَنْ أَبَيَّتَ عَلَى غَيْرِ دِينٍ ، وَمَا أُثِرَ عَنْهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِدِينِ

(19) أَحْمَدُ أَمِينَ ، ضَحَى الْإِسْلَامِ ، ج : ١ ص : 223 .

(20) ابْنُ خُلِكَانَ ، وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ، ج : 2 ص : 151 .

(21) ابْنُ النَّدِيمِ ، الْفَهْرَسْتُ ، ص : 172 .

(22) ابْنُ خُلِكَانَ ، وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ، ج : 2 ص : 151 .

(23) الْبَيْرُونِيُّ ، تَحْقِيقُ مَا لِلْهِنْدِ ، ص : 220 .

مؤمن بالله وبالشواب والعقاب من غير تفصيل ، وما ورد في كتاب القاسم يدل على أن المؤلف الزنديق دهري لا يؤمن بالاديان جميعاً⁽²⁴⁾ .

أما شعوبيته فهي خفية لا تكاد تبين ، وهي إن تجلّت باتجاهه نحو الثقافة الفارسية ، يترجم كنوزها في الآداب والتاريخ والسير ، فلعله رأى في ذلك عملاً جليلاً يؤديه للعربية ، وذلك لخلوها من هذا النوع من الآداب .

أنا لا أزعم تجرده عن الهوى ، وتبرؤه من الميل للفرس ، فهم قومه على كل حال ، وإحساسه بالانتماء إليهم ، ظلّ قوياً ، فهو لم ينشأ على الإسلام ، فيهدى الإسلام من اندفاعه في التعصب للفرس أو الميل على العرب ، وإذا صح ما يروى من صنيع الحجاج بأبيه⁽²⁵⁾ ، يكون قد عاين بالتجربة تسلط العرب وقهرهم واستبدادهم ، فحرى به إذن أن يحقد على العرب عامة والأمويين خاصة ، ويتمنى زوال سلطانهم .

لكنه بعد انتصار الثورة العباسية ، أيقن أن عصراً من القهر والإضطهاد قد ولّى ، وبدأ عصر جديد ، عصر انتصفت فيه العجم ، ونالت حقوقها أو كادت ، فشهّر إسلامه ، ونصب نفسه منظرًا للدولة الجديدة ، داعياً للأخذ والإقتباس عن النظم الفارسية ، وقد بسط تلك النظم بما ترجم من كتب الفرس ، وبما ألف مستلهمًا التراث الفارسي ، غير أن بعض المحدثين ، قد بالغ في تعصبه على ابن المقفع ، فاعتبره رأساً من رؤوس الشعوبية وأصلاً من أصولها⁽²⁶⁾ معتمداً في ذلك على نصوصٍ تحتلُّ تأويلاتٍ متباينة ، وقد تكون قد وُضعت ونُسبت للرجل في عصور متأخرة عن عصره ، فمن غير المستبعد أن ترى الشعوبية في ابن المقفع علماً كبيراً تفاخر به العرب ، فتضع على لسانه تلك الأحاديث التي تغمز من قناة العرب بشكلٍ خفي .

(24) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : 1 ص : 225 وما بعدها .

(25) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 172 . ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج : 2 ، ص : 151 وما بعدها .

(يروى أن الحجاج ضرب والد ابن المقفع حتى تقفعت بده)

(26) عبد اللطيف حمزة ، ابن المقفع ، مصر ، 1937 ص : 83 .

لقد أيقن ابن المقفع أن لا رجعة الى الوراء ، فالإسلام يقوى يوماً بعد يوم ، ودولته وسلطانه ما زالت تمتد وتوسع ، واللغة العربية قد مكن لها في البلدان المفتوحة ، ولم تعد اللغة الرسمية فحسب ، وإنما لغة الثقافة أيضاً ، فخشي على التراث الفارسي من الضياع والإندثار ، وعمل على ترجمة عيونه الى العربية محاولاً تكييف تراث أجداده مع الإسلام ، يظهر ذلك في رسالة الصحابة⁽²⁷⁾ التي دعا فيها الى تنظيم الدولة على أسس سليمة ، وهو في هذه الرسالة بعيد كل البعد عن الشعوية ، ولئن استوصى خيراً بالجنود من أهل خراسان ، فقد وضع الأسس العلمية التي تبعد الجيش عن السلطة ، ونصح بإنشاء قسم للمخابرات حرصاً على سلامة الدولة وقمعاً للفتن⁽²⁸⁾ . كما دعا الى تنظيم القضاء بشكل يقضي على الفوضى القضائية القائمة⁽²⁹⁾ ، ودعا السلطان الى اختيار بطانته على أسس النسب والحسب والكفاية ، ورأى أنه من غير الجائز أن يدخل الموالي عليه ، ويحبب عن أهل بيته ، وعن المهاجرين والأنصار وأشرف العرب ووجوههم ، ودعا للرفق بأهل الكوفة والبصرة والعراق عامة ، وهؤلاء من العرب بمعظمهم ، كما دعاه الى الرفق بأهل الشام واصطناعهم ، ونبذ الكره والحقدهم عليهم ، وإن كانوا أنصاراً للأمويين وجندهم المخلصين . وبلتفت الى أهل الجزيرة العربية ، فيهدئ من غضب المنصور عليهم ، فهم المهاجرون والأنصار والمجاورون لحرم رسول الله وبيت الله الحرام ، وبلاذهم فقيرة ، فإن لم يرسل إليهم الأموال ، فالأولى أن يبقى فضل أموالهم فيهم .

وهولما سأل جماعة من العرب عن عقل الأمم ، فأجابه بعضهم ، فقال : الهند ، وقال آخر : الصين ، وقال غيره الروم ، لم يرض ، فقالوا : الفرس ، ظناً منهم أنه يريد قومه ، أجابهم بجواب العاقل الذي لا يؤثر الهوى ، بأنه وإن فاتته نصيبه من النسب ، لم يفته نصيبه من المعرفة ، وحكم للعرب ،

(27) ابن المقفع ، الآثار الكاملة ، مكتبة الحياة ، بيروت 1978 ، رسالة الصحابة ص : 345

(28) مصدر نفسه . ص : 347-348.

(29) مصدر نفسه . ص : 353 وما بعدها .

وَعَلَّلَ حُكْمَهُ بِأَنَّهُمْ حَكَمُوا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ مِثْلَ لِهَمْ ، وَأَنَّ الْفَصَاحَةَ وَالْبَلَاجَةَ فِيهِمْ ،
وَأَنَّ الرِّسُولَ وَالِدِينَ فِيهِمْ ، فَحَكَمَهُمْ نَسْخَ حَكْمٍ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَدِينَهُمْ نَسْخَ أَدْيَانٍ
مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَالنَّاسِخَ أَفْضَلَ مِنَ الْمَنْسُوخِ « فَمَنْ وَضَعَ حَقَّهُمْ خَسَرَ ، وَمَنْ أَنْكَرَ
فَضْلَهُمْ خُصِمَ » (30) .

قَدْ يَكُونُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ تَزَيَّدَ فِي أَخْبَارِ الْفَرَسِ ، وَوَضَعَ عَلَى لِسَانِهِمْ حَكْمًا
وَأَدْبًا ، وَبَالِغٌ فِي مَآثِرِهِمْ بَعْضَ الْمِبَالِغَةِ صَادِرًا فِي ذَلِكَ عَنْ مِيلٍ لِقَوْمِهِ ، وَعَنْ
رَغْبَةٍ فِي إِظْهَارِهِمْ كَأَمَةِ عَظِيمَةٍ لَا تَقِلُّ شَأْنًا عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ ، لَكِنَّ ذَلِكَ مِيلٌ
طَبِيعِيٌّ مَرَكَّبٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَنَمُوُّ ابْنِ الْمُقَفَّعِ وَاسْتِهْلَاكُهُ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ
شَافِعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَمِنْ الْعَصْفِ اعْتِبَارُ هَذَا الْمَقْدَارِ شَعَوِيَّةٍ . أَمَّا مَا ظَهَرَ مِنْ
مَلَاحِظٍ شَعَوِيَّةٍ فِي مُقَدِّمَةِ كَلِيلَةِ وَدْمَنَةِ ، فَقَدْ أَثْبَتَ أَحْمَدُ أَمِينُ بَأَنَّ وَاضِعَ تِلْكَ
الْمُقَدِّمَةِ غَيْرُ ابْنِ الْمُقَفَّعِ ، وَهُوَ عَلِيُّ ابْنُ الشَّاهِ وَهُوَ مَشْهُورٌ بِشَعَوِيَّتِهِ (31) ، فَلَا
عَجَبَ إِذَا كَانَ فِي تِلْكَ الْمُقَدِّمَةِ تَحْرِيطٌ لِلْفَرَسِ بِالْإِنْقِضَاظِ عَلَى الْعَرَبِ ،
وَإِحْيَاءُ دَوْلَةِ الْعَجَمِ ، فَقَدْ تَكَلَّفَ كَاتِبُ الْمُقَدِّمَةِ الْبَحْثَ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي دَفَعَ
بِيَدِهَا عَلَى تَأْلِيفِ كِتَابِهِ ، فَرَعَمَ أَنَّ دَبْشَلِيمَ ، إِنَّمَا صَارَ مُلْكًا لِلْهِنْدُودِ بَعْدَ رَحِيلِ
الْإِسْكَندَرِ مِنَ الْهِنْدِ ، وَتَمْلِيكُهُ رَجُلًا فِيهَا ، فَعَزَلَتْهُ الْهِنْدُ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مُلُوكِهَا ،
وَلَمْ تَمْلِكْهُ عَنْ رِضَى مِنْهَا ، وَقَالَ يَحْرَضُ الْفَرَسَ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ بِالْهِنْدُودِ : « فَلَمَّا
بَعْدَ ذَوِ الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْهِنْدِ بِجِيُوشِهِ ، تَغَيَّرَتِ الْهِنْدُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّجُلِ
الَّذِي خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَالُوا : لَا يَصْلُحُ لِلسِّيَاسَةِ ، وَلَا تَرْضَى الْخَاصَّةُ وَالْعَامَةُ أَنَّ
يُمْلَكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ ، وَلَا مِنْ أَهْلِ بِيُوتِهِمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَسْتَذِلُّهُمْ ،
وَيَسْتَقْلِبُهُمْ ، وَاجْتَمَعُوا يَمْلِكُونَهُمْ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ » (32) .

وَأَمَّا بَابُ بَرْزَوِيهِ الَّذِي أَتَتْهُمُ الْبِيرُونِيُّ بِوَضْعِهِ لِلتَّرْوِيجِ لِلْمَانَوِيَّةِ (33) ، فَقَدْ

(30) ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ ، الْعَقْدُ الْفَرِيدُ ، ج ٣ : ص 246-247.

(31) أَحْمَدُ أَمِينُ ، ضَحَى الْإِسْلَامِ ، ج ١ : ص 217.

(32) ابْنُ الْمُقَفَّعِ ، كَلِيلَةُ وَدْمَنَةِ ، ص 29.

(33) الْبِيرُونِيُّ ، تَحْقِيقُ مَا لِلْهِنْدِ ، ص 123.

ثبت أنه من أصول الكتاب ولا دور لابن المقفع فيه إلا الحكاية والترجمة⁽³⁴⁾ أما ميل ابن المقفع لقومه ، فيظهر في باب الناسك والضيف ، إذ إن من الثابت حتى الآن ، أن هذا الباب من وضعه ، وقد حاول فيه أن يدفع أبناء قومه للتمسك بلغتهم حتى لا يُمحى أثرها ، ويدرس لفظها⁽³⁵⁾ .

وبعد ، فطبعي أن لا يظهر من ابن المقفع سوى هذا الميل الخفي إلى قومه ، وجهه في إبراز ثقافتهم وعظمتهم ، فالشعوبية كحركة أدبية ترمي إلى مقاومة روح السيادة العربية ، لم تبلور تماماً في زمن ابن المقفع ، وما زالت تتلَمَسُ طريقها للظهور والسفور .

شعوبية أبي عبيدة :

وتجلت عند رواية علامة باللغة والأنساب وأيام العرب ، وهو أبو عبيدة معمر ابن المثنى وكان غزير العلوم « لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه ، قدم بغداد أيام هارون الرشيد »⁽³⁶⁾ .

من مؤلفاته كتاب المثالب الذي طعن فيه على العرب كما طعن على بعض أسباب الرسول وقد أحصى له ابن النديم مئة وخمسة كتب وزعها على القرآن والقبائل والمغازي والفتوح والموالي والفرس والحيوان والشعر والشعراء واللمصوص⁽³⁷⁾

وكان يميل إلى ثلب الناس حاقداً على العرب « يرميهم بما يسيء الناس ذكره ولا يحسن وصفه »⁽³⁸⁾ .

(34) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص : 521 .

(35) ابن المقفع ، كلیلة ودمنة ، ص : 271 وما بعدها .

(36) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 13 ص : 252 .

(37) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 79 .

(38) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 36 .

وكانت الموالى تتعصب له فكان أبو نواس يفضلُه ، ويأخذ عنه ويعابشه ،
فكتب على اسطوانة المسجد حيث يجلس أبو عبيدة :

« صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى لَوْطٍ وَشِيعَتِهِ أبا عبيدة قُلْ بِاللَّهِ آمِينَ
فَأَنْتَ عِنْدِي بِلا شَكِّ بَقِيَّتُهُمْ مِنْذُ اخْتَلَمْتَ وَجَاوَزْتَ الشَّمَانِيَا » (39)

وكان إذا سُئِلَ عنه وعن الأصمعي قال : « لو أمكنوهُ لروى لهم أخبار
الأولين والآخرين ، أما الأصمعي فلبيل في قفص ، يطربُّهم بنغماتِه » (40) وكان
اسحاق الموصلي يتعصَّبُ له ، ويقدمه على الأصمعي ، من ذلك قوله للفضل ابن
الربيع :

« عَلَيْكَ أبا عبيدة فاصطنعه فَإِنَّ الْعِلْمَ عِنْدَ أَبِي عبيدة
وَقَدَّمَهُ وَأَثَرُهُ عَلَيْنَا وَدَعَّ عَنْكَ الْفَرِيدَ ابْنَ الْفَرِيدَةِ » (41)
ويظهر أنه كان ممقوتاً لكثرة تعرضه للناس ، فلما مات ، لم يتبع جنازَتُهُ
أحدٌ ، وعنه قال أبان اللّاحقي « يقدحُ بالأنسابِ ولا نسب له » (42) .

ولعل تعصبه على العرب وحقده عليهم هو الذي دفعه لشرح نقائص جرير
والفرزدق إمعاناً في ثلب العرب وتنقّصها . وكان يسلك في ذلك طرْقاً ملتويةً .
فكان يتعب قلبه ، وينصب فكره في جعل « الحسنه سيئة والمنقبة مثلبة ، ويحتاج
لإخراج الباطل في صورة الحق » (43) .

وقد ذكر ابن قتيبة مثلاً على طعن أبي عبيدة في مناقب العرب ، فقال :
« يقصد من المناقب لمثل قوس حاجب ، ويضحك منها ، ويزرى بها ، ويذهب

(39) البيهقي ، المحاسن والمساويء ، ص : 602 .

(40) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 2 ص : 130 .

(41) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 13 ص : 255 .

(42) الصولي ، أخبار الشعراء المحدثين ، ص : 36 .

(43) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 346 .

في ذلك الى خسارة العود وقلة ثمنه ، وهذا لو كان على مذاهب التجار . . .
لرجع العيب على الأخذ لا على الدافع ، (44) .

شعوية علان الوراق :

وكان علان الوراق شعوبياً شديداً العصبية على العرب ، شاعراً أديباً ،
علامة بالأنساب والمثالب ، نقض قصيدة محمد ابن يزيد الأموي لما هجا
الطاهريين (45) وكان مقرباً للبرامكة منقطعاً إليهم ، يعمل في بيت الحكمة لعهد
الرشد والمأمون ، فألف كتاب الميدان في المثالب ، يحتوي على جميع مثالب
العرب ، ابتداءً ببني هاشم قبيلة بعد قبيلة على الترتيب الى قبائل اليمن على
ترتيب ابن الكلبي (46) .

من أعلام الشعوية :

ومن أعلام الشعوية سهل ابن هارون الدستيمساني ، وكان ملتحقاً بخدمة
المأمون وصاحب خزانة الحكمة « وكان حكيماً فصيحاً شاعراً . . . شعوبي
المذهب شديد العصبية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة ، ورسائل في
البخل (47) أراد فيها التنقص من فضيلة الكرم للعريية . ومنهم محمد ابن الليث
الخطيب ، وكان من كتاب يحيى ابن خالد ، وله ولاء في بني أمية ، وأخباره
متناقضة منها أنه كان على الزنادقة ، ومنها أنه رد على الزنادقة ، وله كتاب في
ذلك ، وأنه كان فيه ميل على العجم ، وأن البرامكة كانت تبغضه لذلك (48) »

(44) مصدر نفسه . ص : 346-347.

(45) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 12 ص : 193 وما بعدها .

(46) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 153-154.

(47) مصدر نفسه . ص : 174 ، ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 11 ص : 266 وما بعدها .

(48) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 175.

ومنهم علي ابن عبيدة الريحاني أحد البلغاء والفصحاء وله اختصاص بالمأمون ، ويسلك في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الحكمة ، وكان يُرمَى بالزندقة ، وقد أحصى له ابن النديم نحو خمسة وخمسين كتاباً أكثرها في أخبار العجم⁽⁴⁹⁾. ومنهم سعيد ابن حميد ابن البختكان ، وكان يدعي أنه من أولاد الملوك وله كتاب انتصاف العجم من العرب ، ويعرف بالتسوية⁽⁵⁰⁾ اتهم بالزندقة وسُجنَ عليها ثم ثبتت براءته ، فخلى سبيله⁽⁵¹⁾ ، وهو إن ثبتت براءته من الزندقة ، فشعوبيته ثابتة قد أُلّف فيها .

ومنهم الهيثم ابن عدى ، وكان يدعى في ثعل⁽⁵²⁾ وهو عالم بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب وله مؤلفات عدة في مثالب العرب ، وكان يطعن في نسبه ، هجاه دُعِبِلُ الخزاعي فقال :

« سألت أبي وكان أبي عليمًا بأخبارِ الحواضرِ والبوادي
فقلتُ له أهَيْثُمُ من عدِيٍّ فقال كأحمد ابنِ أبي دؤادِ
فإن يكُ هَيْثُمُ منهم صحيحاً فأحمد غير شكٍ من إبادِ »⁽⁵³⁾

ومنهم أبو عبد الله الجهمي « وكان اديباً راويةً شاعراً مفتناً ، ويذكر النسب والمثالب ، ويتناول جلّة الناس ، ثلب نفرأ من صحابة الرسول ، منهم ابن عباس ، وله كتاب في المثالب ، لكن ابن النديم يضطرب في أخباره ، فيذكر أن له كتاب الابتصار في الردّ على الشعويّة⁽⁵⁴⁾ فكيف يكون شعوبياً يؤلف في المثالب العربية ، ثم يؤلف الكتب في الردّ على الشعويّة ؟

(49) مصدر نفسه . ص : 173 .

(50) مصدر نفسه . ص : 179 .

(51) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 17 ص : 2

(52) ثعل : إحدى قاجل العرب .

(53) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 145 .

(54) مصدر نفسه . ص : 162 .

ومنهم الملقب بباح بما في الفؤاد باحا . وله كتاب التوشيح والترشيح في بعض التسوية بين الشعوبية ⁽⁵⁵⁾ .

ومنهم محمّد ابنُ علي الأصبهاني وله كتاب مثالب ثقيف وسائر العرب ⁽⁵⁶⁾

ومنهم أحمد ابنُ محمّد الجيهاني ، وقد حكى عنه التوحيدي مذهبه في ذمّ العرب والنيل منهم ، وردّ عليه ⁽⁵⁷⁾ .

ومنهم ابو الريحان البيروني وقد ضمّن كتابيه تحقيق ما للهند والأثار الباقية بعض آرائه الشعوبية .

ومنهم حمزة ابن الحسن الأصفهاني وله كتاب أصفهان وأخبارها ⁽⁵⁸⁾ .

ومنهم أبو الحسن عليّ ابنُ حمزة ابن عمارة الذي ألف كتاباً سماه قلاند الشرف ، فشحنه بأخبار الفرس في السير والأبيات ، نبذ بينهما جملاً من أخبار أصفهان وكان أهل أصفهان يتعصبون له ⁽⁵⁹⁾ .

ليس من غایتنا سردُ أسماء الشعوبيين ومن تعصّب للعجم وطعن على العرب ، فجُلُّ مؤلفاتهم في هذا الموضوع ضاعت وامحى أثرها غير فلذاتٍ متناثرة في بطون الكتب ، أوردها من أراد الردّ عليها ، وتسفيه عقول أصحابها ، ولا يغربُ عن أذهاننا أنّ الشعوبية تهمةٌ لطخت سمعة العديد من الكتاب بالباطل أحياناً ، شأنها في ذلك شأن تهمة الزندقة ، فكثير ما يُنسبُ لأحد الكتاب كتاب في مثالب العرب كتاب آخر في الردّ على الشعوبية ، وهي تهمة لم يسلم منها حتى الجاحظ مع طول باعه في الردّ على الشعوبية والزندقة وتفنيد مزاعمهما ، فقد اتهمه

(55) مصدر نفسه . ص : 196 .

(56) مصدر نفسه . ص : 196 .

(57) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ج : 1 ص : 79 وما بعدها .

(58) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 199 .

(59) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 13 ص : 203 وما بعدها .

المسعودي بالشعبوية⁽⁶¹⁾ كما اتهمه ابن خلكان بالزندقة⁽⁶²⁾.

وإنما غايَتنا إظهارُ أَنَّ الشعبِيَّةَ استمرت قوِيَّةً نشطَةً عدة قرون وأنَّها حركةٌ بلغت من الخطورة والأهمية حتَّى انبرى لها عدَّةٌ من جَلَّةِ الأدباء والمفكرين للردِّ عليها وتفنيدِ مزاعمها ودحض آرائها . فما هو المضمون الفكري للدعوى الشعبوية ؟

دَعَاوى الشعبوية :

انطلقت الشعبويةُ في دَعَاها من المبدأ الإسلامي القائل بالمساواة المطلقة بين المسلمين في الحقوق والواجبات دون تفریق أو تمييز ، واعتمدتْ على قوله عزَّ وجلَّ : (يا أَيُّها الناسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)⁽⁶³⁾ . وقوله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَاصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ)⁽⁶⁴⁾ ، واحتجَّتْ بحديثِ الرسولِ في خطبةِ الوداع : « أَيُّها الناسُ ، إِنَّ اللهَ قد أَذْهَبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهليَّةِ ، وتفاخَرها بالآباءِ ، ليس لعربي على عجمي فضل إلَّا بالتقوى ، كلکم لآدم ، وآدم من تراب . وقوله : المؤمنون إخوةٌ تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدُّ على مَنْ سواهم »⁽⁶⁵⁾ فانطلقت تدعو للمساواة بين المسلمين وحجتها « إِنَّ الناسَ کلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد »⁽⁶⁶⁾ .

(60) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 2 ص : 53.

(61) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 177.

(62) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 2 ص : 151.

(63) القرآن الكريم ، سورة الحجرات ، الآية رقم : 13.

(64) مصدر نفسه . سورة الحجرات ، الآية رقم : 10.

(65) الجاحظ ، البيان والنبين ، ج : 2 ص : 229.

ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 322-323.

(66) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 317.

لكن هذه الدعوة ، بالرغم من عدالتها والتفاف جمهور كبير من المؤمنين حولها ما كان لها أن تَقَفَ عند هذا الحد من المطالبة بالمساواة ، لأسباب منها :
 أن مطلقها ، لم يقفوا بطموحاتهم وطروحاتهم عندها ، إذ لم تكن إلا دعوة
 مرحلية في مخطط شامل يهدف الى هزُّ الذات العربية وزعزعتها وهزيمتها وتغليب
 الذات الأخرى عليها ، وخاصة الذات الفارسية . وأن العرب ما زالوا يشكّلون
 أرستقراطية إسلامية لها مكانتها الاجتماعية والسياسية ، والعربي ، ما زال بحكم
 انتمائه للقبيلة يفاخر بها ، ويعدد مآثرها ، وقد زاده الإسلام فخراً بالدين وشعوراً
 بالتفوق والإمتياز على غيره من الشعوب ، فرفض الدعوة الشيعية للمساواة ،
 قائلاً : « لا تساوينا العجم ، وإن تقدمتنا إلى الإسلام ، ثم صلت حتى تصير
 كالحنى ، وصامت حتى تصير كأوتار »⁽⁶⁷⁾ .

وفزع كل فريق إلى كتاب الله وحديث رسوله يؤيد وجهة نظره ، فكذبوا
 على رسول الله ، ووضعوا الأحاديث على لسانه ، من ذلك أن قريشاً سألت
 رسول الله ، فقالت : « أتباعك من هؤلاء الموالي ، كبلال وعمار وصهيب خير من
 قضي ابن كلاب وعبد مناف وهاشم وعبد شمس ؟ فقال : نعم ، والله لئن كانوا
 قليلاً لكثرن ، وإن كانوا ضعفاء ليشرفن ، حتى يصيروا نجوماً يُهتدى بهم ،
 ويُقتدى ، فيقال : هذا قول فلان وذكر فلان ، فلا تفاخروني بأبائكم الذين مُوتُوا
 في الجاهلية ، فلما يدهده الجُعلُ بمنخره خير من آبائكم الذين مُوتُوا فيها ،
 فاتبعوني أجعلكم أنساباً »⁽⁶⁸⁾ ومنها أنه قال : رأيت غنماً سوداً ودخلت فيها غنم
 كثيرٌ بيض ، فقالوا : فما أولئته يا رسول الله ؟ قال : العجمُ يشركونكم في دينكم
 وأنسابكم ، قالوا العجم يا رسول الله ! قال : لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله
 رجالٌ من العجم »⁽⁶⁹⁾ . ومنها « أن الله إذا غضب ، أنزل الوحي بالعربية ، وإذا
 رضي أنزل الوحي بالفارسية »⁽⁷⁰⁾ .

(67) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 317-318.

(68) ابن الفارح ، رسالة ابن الفارح (رسائل البلغاء) ص : 267.

البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص : 101 مع اختلاف في اللفظ .

(69) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج : 2 ص : 189-190.

(70) الحاجري ، الجاحظ ، حياته وآثاره ، ص : 53.

ولقد حاولت الشعوبية سلخَ قُرَيْشٍ عن العرب حتى لا يفاخرهم العرب بمحمد ، فحدثوا عن علي ابن أبي طالب قوله : « مَنْ كَانَ سَائِلًا عَنْ نَسَبِنَا ، فَلِنَا مِنْ نَبَطِ كُوَيْثٍ » وحدثوا عن ابن عباس بمثله فقالوا إِنَّهُ قَالَ : « نَحْنُ مُعَاشِرُ قُرَيْشٍ حَيٍّ مِنَ النَّبَطِ ، مِنْ أَهْلِ كُوَيْثٍ وَالْأَصْلُ آدَمُ ، وَالْكَرْمُ التَّقْوَى ، وَالْحَسَبُ الْخَلْقُ ، وَالْيَاقُوتُ ، وَالْيَاقُوتُ نَسَبُ النَّاسِ » (71) .

أضف إلى ذلك أحاديث كثيرة حتى نسبوا إلى النبي أحاديث في محاسن الديوك وذم الكلاب (72) . وذلك أَنَّ الْعَصِيَّةَ الشُّعْبِيَّةَ ، دَفَعَتْ أَهْلَهَا لِلتَّعَصُّبِ عَلَى الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَحَيَوَانِهَا وَنَبَاتِهَا ، وَمَضُوا ، يَطْعَنُونَ عَلَى الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مُحَاوِلِينَ إِظْهَارَ الْعَرَبِ بِمَظْهَرِ الْإِفْلَاسِ الْحَضَارِيِّ ، وَكَأَنَّهُمْ أُمَّةٌ حَدِيثَةُ النَّشْأَةِ لَاحِظٌ لَهَا مِنَ الْحَضَارَةِ وَالتَّقَدُّمِ ، فَخَاطَبُوا الْعَرَبَ بِقَوْلِهِمْ : « أَخْبَرُونَا ، إِنْ قَالَتْ لَكُمْ الْعَجَمُ ، هَلْ تَعْدُونَ الْفَخْرَ كُلَّهُ أَنَّ يَكُونُ مُلَكًا أَوْ نَبْوَةً ؟ فَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ

(71) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة كوثى ، ج : 4 ص : 488.

(72) وكما وضعت الشعوبية الحديث على لسان الرسول تؤيد فيه موقفها ، وتشدد من عضدها ، فقد وضع المتعصبون العرب أحاديث تناقضها ، وتذهب في تفضيل العرب كل مذهب وتؤكد على مكانة العرب في الإسلام .

انظر في ذلك البيهقي ، المحاسن والمساوى ، ص : 76 . وابن عبد ربه ، العقد ، ج : 3 ص : 246 ، وطفه الحاجري ، الجاحظ ، حياته وأثاره ، ص : 53 - وكتاب العرب في مجموعة رسائل البلغاء لمحمد كرد علي في صفحات متفرقة عديدة .

هذه الأحاديث وأمثالها دفعت عدداً من المستشرقين إلى الشك بكثير من الأحاديث النبوية الموثقة ، فشك (Goldziher) في خطبة الوداع ، وزعم أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الْجَدِيدَ وَضَعُوهَا ، لِيُرْهِقُوا أَنَّ الرَّسُولَ أَرَادَ مَسَاوَاةَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ عَرَبٍ وَغَيْرِهِمْ ، وَحُجَّتُهُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُتَدَبِّينَ الَّذِينَ يَرْغَبُونَ تَحْقِيقَ مَبْدَأِ الْمَسَاوَاةِ فِي الْإِسْلَامِ ، أَهْمُوا فِي ذَلِكَ ، كَمَا أَهْمُوا فِيهِ الَّذِينَ كَانُوا يَرْغَبُونَ فِي تَخْفِيفِ كِبَرِيَاءِ الْفَاتِحِينَ فَعَمِدُوا إِلَى أَوْثُقِ الْمَصَادِرِ عِنْدَهُمْ وَهُوَ الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ . أنظر :

Goldziher, Muhammedanische Studien P. 101.

وذهب غيره إلى القول بأن الإسلام نزل بصورة عربية صرفة ، والعالم بالنسبة لمحمد كان الجزيرة العربية والرسالة المحمدية نزلت لها وحدها ولسان أهلها من العرب ، زد على ذلك أَنَّ فِكْرَةَ الْأَمْبِرَاتُورِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ لَا تَوْجِدُ بَوْضُوحَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

*Muir, The Caliphate, P: 42-43.

ملك ، قالت لكم : وإن لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والنمارة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذي سُخِّرَتْ له الإنسُ والجن والطير والريح ، وإنما هو رجلٌ منا ؟ أم هل كان لأحدٍ مثل ملك الإسكندر الذي ملك الأرض كلها ، وبلغ مطلع الشمس ومغربها ، وبني ردماً من الحديد ساوى به بين الصَّفَدَيْنِ ، وسَجَن وراءه خلقاً من الناس ، تربى على خلق الأرض كلها كثرة ، يقول الله عز وجل : (حتى إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وهم مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) وليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره في الأرض ؟ ولو لم يكن له إلا منارة الاسكندرية الذي أسَّسها في قعر البحر ، وجعل رأسها مرآة يظهر البحر كله في زجاجتها » (73) .

وافتخروا بملوك الهند ، وذكروا رسالة كان قد وجهها أحد ملوكها الى الخليفة الأموي عمر ابن عبد العزيز ، يذكر فيها عراقته وعظمته بأنه ابنُ ألف ملك ، وتحتة بنت ألف ملك ، وفي مربطه ألف فيل (74) .

وإن زعم العرب أن الفخر لا يكون إلا بالنبوة ، أجابوهم بأن الأنبياء جميعاً من العجم ما خلا أربعة : هوداً وصالحاً وإسماعيل ومحمداً ، وافتخروا بآدم ونوح ، فقالوا : « ومنا المصطفون من العالمين : آدم ونوح ، وهما العنصران اللذان تفرَّعَ منها البشر : فنحن الأصل ، وأنتم الفرع ، وإنما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم » (75) .

وبعد فخرهم بأنبياء الأرض وملوكها ، افتخروا بتفوق الحضارات الأخرى على الحضارة العربية ، فقالوا : إن للأمم الأخرى من الأعاجم ملوكاً تجمعُها ، ومدناً تضمها ، وأحكاماً تدين بها ، وحضاراتٍ نتاجها فلسفة ، وعلوم وفنون وصناعات وألوان من وسائل اللهو والترفيه في حين أن العربَ تفتقرُ الى ملكٍ يضمُّها ، وقوانين تحتكم إليها ، وحضارتها خالية من النتاج العلمي والفكري ،

(73) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 318.

(74) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 318.

(75) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 318.

فما لها نتيجة في صناعة ، ولا أثر في فلسفة ، إلا ما مكان لها من الشعر ، وهذه الميزة لم تكن خاصة في العرب مقصورة عليهم فقد شاركهم الأمم الأخرى فيها إذ إن للروم أشعاراً قائمة الوزن والعروض⁽⁷⁶⁾.

وطعنوا على العرب باستعمالهم آلات بدائية في حروبهم ، وذكروا أن رماحهم كانت من مران وأستهم من قرون البقر ، وأنهم يركبون خيلهم دون سروج ، فإن كان للفرس سرج ، فلم يكن ذا ركاب ، مع أن الركاب من أجود آلات الطاعن برمحه والضارب سيفه ، وأنهم يستعملون الرماح الصماء ، والجوفاء أخف محملاً وأشد طعنة ، وهم يفخرون بطول القناة ، ولا يعرفون المطارد ، وإنما الطوال للمشاة والقصار للفرسان ، والمطارد لصيد الوحوش ، ويفخرون بقصر السيف « فلو كان المفتخر بقصر السيف الراجل دون الفارس لكان الفارس يفخر بطول السيف ، وإن كان الطول في الرمح إنما صار صواباً لأنه ينال به البعيد ، ولا يفوته العدو ، وإن ذلك يدل على شدة أسر الفارس وقوة أيده ، فكذلك السيف العريض الطويل »⁽⁷⁷⁾.

وقالوا إنهم لا يعرفون من آلات الحرب مثل « الرتيلة⁽⁷⁸⁾ » ، ولا العرادة ، ولا المجانيق⁽⁷⁹⁾ ، ولا الدباب⁽⁸⁰⁾ ، ولا الخنادق⁽⁸¹⁾ ، ولا الحسك ، ولا تعرفون : الأقيبة ولا السراويلات ، ولا تعليق السيوف ، ولا الطبول ، ولا البنود والتجافيف ، ولا الجواشن ، ولا الخوذ ، ولا السواعد ، ولا الأجراس ، ولا الوهق ، ولا الرمي بالبنجان⁽⁸²⁾ ، ولا الزرق بالنفط⁽⁸³⁾.

(76) ابن عبد ربه . المقد الفريد ، ج : 3 ص : 319.

(77) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 399-400.

(78) من آلات الحرب

(79) آلات حربية ترمي بها القذائف (كلمة يونانية)

(80) دباب : جمع دبابة وهي آلة تتخذ في الحصار ، كانوا يدخلون في جوفها ثم تدفع في أصل الحصن فينقبونه

(81) الخنادق : جمع خندق : حفير حول أسوار المدينة (كلمة فارسية)

(82) كل هذه الألفاظ من آلات الحرب وطرزها والتي يدعي الشعوبيون أن العرب لا علم لهم بها .

(83) الجاحظ البيان والتبيين . ج : 3 ص : 400.

وانتقدوا أساليب العرب القتالية ، فقالوا : إنهم لا يقاتلون بالليل ، ولا يعرفون الكمين ، ولا الميمنة ، ولا الميسرة ، ولا القلب ، ولا الجناح ، ولا الساقة ، ولا الطليعة ، ولا النفاضة ، ولا الدراجة ، وإنه ليس في حربهم صاحب علم يرجع إليه المنحاز⁽⁸⁴⁾ ، ويتذكره المنهزم ، وتمثلوا على أن العرب لا تقاتل بالليل بأقوال الشعراء ، كقول العامري :

« يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة⁽⁸⁵⁾ لولا الليل والحرم⁽⁸⁶⁾ »

وينتقل الشعوبيون الى مناقب العرب ، فيسخرّون منها ، ويهوّنون من أمرها ، فاذا افتخر التميمي أو العربي بحاجب ابن زرارة وقوسه ، ضحك الشعوبيون من هذه المأثرة ، وأزروا عليها ذاهبين في ذلك إلى خسارة العود وقلّة ثمنه متسائلين عن الحكمة بالفخر بمثل هذه القوس التي يستطيع الإنسان استبدالها ، أو الإستغناء عنها بأهون السبل⁽⁸⁷⁾ .

وإذا سمعوا قول القائل :

« أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذى البردين والفرس والورد »

تضاحكوا بالشعر ، واستهزؤا بالبردين والفرس الورد ، وعارضوا ذلك بملوك فارس وأسرتها وتيجانها ، وقالوا : إنّ أبريز ارتبطَ تسعماية وخمسين فيلاً على مرابطه ، واقتنى في قصره ألف إناء من ذهب ، وخدمته ألف جارية⁽⁸⁸⁾ .

ثم انتقلوا الى فضيلة الكرم العربية ، فذمّوها ، وبهرجوا عقول أصحابها ، وتمدّحوا بالبخل ، ووضعوا فيه الرسائل التي تحسّنها وتدعو إليه⁽⁸⁹⁾ .

(84) المنهزم من الخصم إليه والمنضم له .

(85) سخينة : نوع من الطعام كانت قریش تكثر منه فلقيت به

(86) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 400 .

(87) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 346-347 .

(88) مصدر نفسه . ص : 348 .

(89) مثلاً رسالة سهل ابن هارون ورسالة ابن التوأم في البخل ، وقد تعرضنا لهاتين الرسالتين فيما سبق من هذا البحث .

واتهموا العرب بالكذب والمبالغة ، وذكروا شعراء العرب وما في شعرهم من هجاء للأضياف كمزرد وحميد الأرقط ، وتساءلوا : بأي شيء يكون كرم العربي ؟ ومطاعمه خبيثة دنيئة كالحيات والضباب واليرابيع والعلهر⁽⁹⁰⁾ ، وشربه الفظ⁽⁹¹⁾ والمجدوح⁽⁹²⁾ ، وإن كان موسراً أكَلَ لحوم الإبل حينئذٍ غير نضيج ، ونيأ ، والعروق والعلابي⁽⁹³⁾ ، وسقط المائدة ، لا يعاف شيئاً ، ولا يتقذر من أكل السباع ، ونهش الكلاب ، وافتخروا بأطعمة العجم ، وحلوائها ، وآدابها على الطعام وأكلها باليارحين⁽⁹⁴⁾ والسكين⁽⁹⁵⁾ . وسخروا من شجاعة العرب وآيائها ، وقايسوا في ذلك أساورة فارس ومرابيتها ، وعددوا أيامها وبطولاتها⁽⁹⁶⁾ وعيروا العرب بوأد بناتهم وما في هذا التصرف من وحشية ، وبعد عن الإنسانية⁽⁹⁷⁾ . وقدح الشعوبيون بأنساب العرب وشككوا بصحتها وصفائها ، وقالوا : « فإنما هي (العرب) كالذئب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل ، فاذا أدركهن الصريح ، استنقدوا بالعشي ، وقد وطن كما توطأ الطريق المهيع⁽⁹⁸⁾ » ، فخر بذلك شاعر ، فقال :

وَالْحَقُّ رَكَبَ الْمُرْدَفَاتِ عَشِيَّةً

فَقِيلَ لَهُ : وَيَحْك ! وَأَيُّ فَخْرٍ لَكَ أَنْ تَلْحَقَ بِالْعَشِيِّ ، وَقَدْ... امْتَهَنَ⁽⁹⁹⁾

(90) العلهر : الفردان ترض وتعجن بالدم .

(91) الفظ : الكرش يعتصر ويشرب في المفاوز

(92) المجدوح : دم كان يخلط مع غيره فيؤكل أو هو مصل الدم فيشرب

(93) علابي : جمع علماء : عصبه في صفحة العنق

(94) آلة كالشوكة .

(95) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 363 .

(96) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 370 .

(97) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ج : 1 ص : 148 .

(98) المهيع : الطريق الواسع البين .

(99) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 319 .

وبعد ذكر الكثير من الشواهد على سبي النساء ، ووطنهن في الجاهلية ، قالوا :
 إِنَّ الْعَرَبَ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَنْكَحُ بَعْضُهَا نِسَاءَ بَعْضٍ فِي غَارَاتِهِمْ ، بِلَا عَقْدِ نِكَاحٍ ،
 وَلَا اسْتِبْرَاءٍ مِنْ طَمَئٍ ، فَكَيْفَ يَدْرِي أَحَدُهُمْ مَنْ أَبُوهُ ؟⁽¹⁰⁰⁾ . أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ
 [ارْتِكَابَهُمُ الْعِظَامَ وَالْفَضَائِحَ ، وَنِكَاحَ الْحَبَالَى ، وَاجْتِمَاعَ النَّفَرِ عَلَى إِيْتَانِ امْرَأَةٍ
 وَاحِدَةٍ فِي الطُّهْرِ الْوَاحِدِ ، وَادْعَاءِ الْأَدْعِيَاءِ وَأَوْلَادِ الْأَصْيَافِ ، وَمَا فِي عِبَادَاتِهِمْ مِنَ
 الْمُكَاةِ⁽¹⁰¹⁾ وَالتَّصَدِيَةِ⁽¹⁰²⁾] ⁽¹⁰³⁾ .

ويعدّدون ضروب الزواج في الجاهلية ، فيذكرون أَنَّ الْعَرَبِيَّ كَانَ يَرْسُمُ
 لَامْرَأَتِهِ أَنْ تَرْسَلَ إِلَى فُلَانٍ وَتَسْتَبْضِعَ مِنْهُ ، ثُمَّ يَعْتَزِّلُهَا أَيَّامَ حَمْلِهَا رَغْبَةً مِنْهُ فِي
 نَجَابَةِ الْوَلَدِ ، وَقَدْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِلْآخَرِ : إِنِّزِلْ عَنْ امْرَأَتِكَ لِي وَأَنْزِلْ لَكَ عَنْ
 امْرَأَتِي ، وَمِنْهَا نِكَاحُ الْمُقْتِ بِامْرَأَةِ الْأَبِ وَالْإِبْنِ وَاسْمُ الْوَلَدِ مِنْهُ ضَيْرُنُ⁽¹⁰⁴⁾ .

وَقَدْ تَابَعَ ابْنُ خَلْدُونِ الشَّعْبِيَّةَ فِي تَشْكِيكِهَا بِالْأَنْسَابِ الْعَرَبِيَّةِ فَقَالَ : « وَمِنْ الْبَيِّنِ
 أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرٍ بِقَرَابَةِ إِيَّاهُمْ أَوْ حَلْفٍ أَوْ
 وَلَاءٍ ، أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَائَةٍ أَصَابَهَا ، فَيُدْعَى بِنَسَبِ هَؤُلَاءِ وَيَعُدُّ مِنْهُمْ فِي
 ثَمَرَاتِهِ مِنَ النُّعْرَةِ وَالْقُودِ وَحَمْلِ الدِّيَاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ النِّسَبِ
 فَكَأَنَّهُ وَجِدَ ، لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكُونِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا جَرِيَانُ أَحْكَامِهِمْ
 وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ التَّحَمُّ بِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النِّسَبَ الْأَوَّلَ بِطُولِ
 الزَّمَانِ ، وَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ ، فَيُخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ ، وَمَا زَالَتِ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ
 مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ ، وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ »⁽¹⁰⁵⁾ .

(100) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 325 .

(101) المكاء : التصغير بالقم .

(102) التصدية : الإلتصاف

(103) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ج : 1 ص : 148 .

(104) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 83 .

(105) ابن خلدون - المقدمة ، ص : 130 .

ثم تمثل على ذلك بانتساب بعض قبائل البربر إلى القبائل العربية في المغرب وشمال أفريقيا⁽¹⁰⁶⁾ .

وإذا ظنَّ الشعوبيون أنَّهم نجحوا في خَلْجَةِ الأُسُسِ العَمَلِيَّةِ لِلانْسَابِ العَرَبِيَّةِ ، ادَّعَوْا أنَّهم لا ينكرون « تَبَايُنَ النَّاسِ ولا تَفَاضُلَهُمْ ، ولا السَّيْدَ مِنْهُمْ والمَسُودَ ، والشَّرِيفَ والمَشْرُوفَ . . . إِنَّ تَفَاضَلَ النَّاسِ فيما بَيْنَهُمْ ليس بِأَبَائِهِمْ ولا بِأَحْسَابِهِمْ ، وَلَكِنْ بِأَفْعَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وشَرَفِ أَنْفُسِهِمْ ، وبعدِ هِمَمِهِمْ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ مِنْ كَانَ دُنْيَا الهِمَّةِ ، سَاقَطَ المَرْوَةِ ، لم يَشْرَفْ وَإِنْ كَانَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فِي ذَوَابِتِهَا ، وَمِنْ أُمَيَّةٍ فِي أَرْوَمَتِهَا ، وَمِنْ قَيْسٍ فِي أَشْرَفِ بَطْنِ مِنْهَا ، إِنَّمَا الْكَرِيمُ مِنْ كَرَمَتِ أَفْعَالِهِ ، وَالشَّرِيفُ مِنْ شَرَفَتِ هِمَّتِهِ ، وَهَذَا مَعْنَى حَدِيثِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٌ ، فَأَكْرَمُوهُ »⁽¹⁰⁷⁾ . فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ لِأَبٍ وَأُمٍّ خُلِقُوا مِنْ تُرَابٍ وَأَعِيدُوا إِلَى التُّرَابِ ، فَإِذَا اطمأنوا بِأَنَّهُمْ طَاطَوْا مِنْ كِبَرِيَاءِ الْعَرَبِ وَشُكَّكَوهُمْ بِانْسَابِهِمْ اتَّخَذُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَذْهَبًا آخَرَ ، فَاعْتَزَلُوا إِلَى مَلُوكِ الْفَرَسِ وَأَسَاوَرَتِهَا وَمَرَازِبَتِهَا وَعَمَالِهَا وَافْتَخَرُوا بِهِمْ⁽¹⁰⁸⁾ وَانْتَسَبُوا إِلَى إِسْحَاقَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَفَخَرُوا بِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ لِسَارَةِ الْحَرَّةِ ، أَمَّا إِسْمَاعِيلُ أَبُو الْعَرَبِ فَهُوَ لَهَا جَرُّ الْأُمَّةِ ، « فَبَنُو الْأَحْرَارِ عِنْدَهُمُ الْعَجَمُ . . . وَبَنُو اللَّخْنَاءِ عِنْدَهُمُ الْعَرَبُ »⁽¹⁰⁹⁾

ليس ذلك فحسب بل افتخروا بآدم واعتزوا إليه وتمثلوا بحديث الرسول « لا تفضلوني عليه (آدم) فإنما أنا حسنة من حسناته »⁽¹¹⁰⁾ .

وَعَدَّدُوا مِثَالِبَ الْعَرَبِ ، وَأَلْفَوْا فِيهَا الْكُتُبَ ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ أَبُو عُبَيْدَةَ ، وَعَلَّانُ الْوَرَّاقُ وَسَهْلُ بْنُ هَارُونَ ، كَمَا أَلْفَوْا الْكُتُبَ فِي مِثَالِبِ الْعَرَبِ فَقَدْ أَلْفَوْا فِي مِثَالِبِ الْفَرَسِ ، وَمِثَالِبِ الْأَصْفَهَانِ ، وَمِثَالِبِ خُرَّاسَانَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُورِ وَالْمَدَنِ وَأَشْهَرَهُمْ فِي ذَلِكَ حَمْزَةُ الْأَصْفَهَانِيِّ وَعَلِيُّ بْنُ عِمْرَةَ .

(106) مصدر نفسه . ص : 132-133.

(107) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 323-324.

(108) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 350.

(109) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص - 351.

(110) مصدر نفسه . ص : 354.

وبعد هجومهم المركز على الجاهلية ، انتقلوا إلى العصور الإسلامية ، فقالوا : « فهذا كان شأن العرب والعجم في جاهليتها . فلما أتى الله بالإسلام ، كان للعجم شطر الإسلام ، وذلك أن النبي (ص) بُعِثَ إلى الأحمر والأسود من بني آدم ، وكان أول من تبعه حرّ وعبدٌ ، واختلف الناس فيهما ، فقال قومٌ : أبو بكر وبلال ، وقال قوم : علي وصهيب » (111) .

وقالوا : إنَّ عمرَ ابنَ الخطَّابِ لَمَّا طُعِنَ قَدَّمَ صُهَيْباً على المهاجرين والأنصار ، فصلى بالناس ، ولَمَّا قِيلَ له : استخلف قال : « لو أدرَكْتُ سالماً مولى أبي حذيفة حياً لَمَّا شَكَكْتُ فيه . . . فقال في ذلك شاعر العرب

« هذا وَلَوْ كَانَ الْمُشْرُمُ سَالِمٌ حياً لَنَالَ خِلَافَةَ الْأَمْصَارِ
ما بَالُ هَذِي الْعِجْمِ تَحْيَا دُونَنَا إِنَّ الْعَوِيَّ لَفِي عَمَى وَخَسَارٍ » (112)

وتَفَاحَرُوا على العربِ بكثرةِ الفُقهاءِ ، وأنَّ حَمَلَةَ العلمِ فيهم ، كهذا الحديث الذي دَارَ بين أحدِ الشعوبيين ، وهو ابنُ أبي يعلى وعيسى ابنِ موسى العباسي ، قال ابنُ أبي يعلى : « قال لي عيسى ابنُ موسى ، وكان جائراً شديداً العصبيَّةِ : من كان فقيهُ البصرة ؟ قلت الحسن ابنُ أبي الحسن ، قال : ثم مَنْ ؟ قلت محمد ابنِ سيرين . قال فَمَا هُمَا ؟ قلت : موليَّان . قال : فَمَنْ كان فقيهُ مَكَّةَ ؟ قلت : عطاء ابنُ أبي رباح ، ومجاهد ابنِ جبير ، وسعيد ابنِ جبير ، وسليمان ابنِ يسار . قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالي ، فَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، ثم قال : فَمَنْ أَفْقَهُ أهلُ قِباء ؟ قلت ربيعة الرأي ، وابنُ أبي الزناد ، قال : فما كانا ؟ قلت من الموالي ، فَارْبَدَ وَجْهُهُ ، ثم قال : فمن كان فقيهُ اليمَن ؟ قلت بطاوس وابنه هَمَّام ، وابنِ منبه ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالي . فانتفضت أوداجُهُ فانتَصَبَ قَاعِداً ، ثم قال : فمن كان فقيهُ خُرَاسان ؟ قلت : عطاء ابنِ عبد الله الخراساني ، قال فما كان عطاء هذا : قلت مولى . فازداد وجههُ تَرَبُّداً ، واسودَّ اسوداداً حَتَّى خِفَّتُهُ ، ثم قال : فمن كان فقيهُ الشَّام ؟ قلت مكحول . قال : فما

(111) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ، ص : 320 .

(112) مصدر نفسه . ج : 3 ، ص : 320-321 .

كان مكحول هذا قلت : مولى . فازداد تغيطاً وحنقاً ، ثم قال : فمن كان فقيه الجزيرة ؟ قلت : ميمون ابن مهران ، فما كان ؟ قلت : مولى . قال : فتتفس الصعداء ، ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قلت : فوالله لولا خوفه لقلت الحكم ابن عيينه وعمار ابن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت ابراهيم والشعبي ، قال : فما كانا ؟ قلت : عريان . قال : الله أكبر ، وسكن جاشه (113)

وقد أوردتُ هذا الخبر الذي يكاد ينطق بأنه موضوع ومدخول ، وروح الشعوبية فيه واضحة بشكل لا يقبل الشك ، لبيان الأساليب التي استعملها الشعوبيون للطعن على العرب في الإسلام ، فمسألة من كان فقيه كذا ، كمسألة من أشعر الناس ، يستطيع الإنسان أن يطلق فيه حكماً سريعاً غير مبني على أساس من الدقة في الملاحظة والموازنة ، وكما استبدل فقهاء الكوفة (بنظرة) بغيرهم خوفاً من بطش عيسى ابن موسى ، فإن تجردَهُ عن الهوى والتعصب كفيلاً بذكر غير هؤلاء الفقهاء أو معظمهم . ويظهر أن ابن خلدون ، بنى رأيه في هذه المسألة على هذا الخبر وأمثاله ، فأطلق حكماً لا يخلو من جورٍ واعتسافٍ ، فقال : « من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، وإن كان منهم العربي في نسبه ، فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتهما عربي » (114) .

ولواتني ابن خلدون في حكمه ، وجانب الهوى في نظره لرأى أن العرب والعجم ، قد أصبحوا أبناء دين واحد ومجتمع واحد وبيئة علمية واحدة ، فشارك العجم العرب في العلوم وإنتاجها سواء أكانت شرعية أو عقلية ونظرية ، ومن يتصفح تاريخ العلوم ، ورجالاتها يَر أن العرب نهضت فيها كما نهضت العجم .

وكما فآخر الشعوبيون العرب بكثرة العلماء والفقهاء ، فقد عيروا العرب

(113) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 328-329.

(114) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 543.

بحدائنه علمهم ، واستعارته من الأمم الأخرى ، فقالوا : « لولا ما عرفوكم من أبواب الحملانات ، لم تعرفوا صنعة الشبه ، ولولا غضار الصين على وجه الأرض ، لم تعرفوا الغضار . على أن الذي عملتم ظاهر فيه التوليد ، منقوص المنفعة عن تمام الصيني »⁽¹¹⁵⁾ .

وجحدوا فضلهم في الأمور التي اكتشفوها ، واخترعوها ، فقالوا : « على أن الشبه لم تستخرجوه . وإنما ذلك من الأمور التي وقعت اتفاقاً ، لسقوط الناطف من يد الأجير في الصفر الذائب ، فخفتم إفساده . فلما رأيتم ما أعطاه من اللون ، عملتم في الزيادة والنقصان ، وكذلك جميع ما تهياً لكم ، ولستم تخرجون في ذلك من أحد أمرين : إما أن تكونوا استعملتم الإشتقاق من علم ما أورثوكم ، وإما أن يكون ذلك تهياً لكم من طريق الاتفاق »⁽¹¹⁶⁾ .

ونبتت نابتة تزعم أن النبط خير من العرب . وقد جعل المسعودي طائفة من كبار المعتزلة في عداد هذه الفئة كضرار ابن عمرو وثمامة ابن الأشرس وعمرو ابن بحر الجاحظ . وحجتهم في « أن النبط خير من العرب ، لأن من جعل الله تبارك وتعالى النبي (ص) ، منهم ، لم يدع أكبر شرف في الدنيا إلا وقد أعطاهم إياه ، ومن لم يجعله منهم ، فلم يدع أكبر شرف في الدنيا إلا وقد أعراهم منه ، وسلبهم إياه ، ولا نعمة على من جعل الله عز وجل النبي (ص) منهم أكبر من النبي (ص) ، ولا بلوى على من لم يجعل الله عز وجل النبي (ص) منهم أكبر من خروج النبي (ص) ، إلا أنهم مع هذا كله لهم عند الله فضل ما بين النعمة والبلاء »⁽¹¹⁷⁾ .

كما وضع ابن وحشية كتاب الفلاحة النبطية لبيان حضارة النبط الزراعية⁽¹¹⁸⁾ .

(115) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 83.

(116) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 83-84.

(117) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 2

ص : 53.

(118) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 433.

ونجمت من الموالي فئة تقول : إِنَّ المولى بولائه ، قد صار عربياً ، لقول الرسول : « مولى القوم منهم ، ولقوله : الولاء لحمة كلحمة النسب ، لا يُباع ولا يُوهَّب » (119) .

فبعض الموالي ، وإن لم يتكرّر للولاء كما فعل بشار من قبل ، فقد افتخر بهذا الولاء على العرب أنفسهم ، فهم أشرف من العجم لأنهم دخلوا الإسلام كما أنهم يقدمهم في العجم صاروا أشرف من العرب ، إِنَّ الله جعل المولى « بعد أن كان عجمياً عربياً بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قُرَشِيّاً بحلفه ، وجعل إسماعيل بعد أن كان أعجمياً عربياً ، ولولا قول النبي (ص) : إِنَّ إسماعيل كان عربياً ، ما كان عندنا إلّا أعجمياً ، لأنّ الأعجمي لا يصير عربياً كما أنّ العربي لا يصير أعجمياً ، فإنما علمنا أنّ إسماعيل صَيَّرَهُ الله عربياً بعد أن كان أعجمياً بقول النبي (ص) ، فذلك حكم قول : مولى القوم منهم ، والولاء لحمة » (120) .

ويذكرون تأييداً لمذهبهم إكرام الرسول لمولاه زيد ابن حارثة حين أُمِّرَ على جيش فيه جَلّة المهاجرين والأنصار ، وإكرامه لابنه أسامة ابن زيد ، وإكرامه لسلمان الفارسي ، وعطفه وإكرامه لسائر مواليه (121) .

وَفَخَّرُهُمْ قائمٌ على حَيَازَتِهِمْ شرف الطرفين وأمجادهم ، فقد شاركوا العربي في فقره ، والخراساني في مجده والنبطي في فضله ، وهم نقباء بني العباس ودعاتهم ، بهم زال ملك بني أمية ، وبجهودهم قامت دولة الهاشمين ، فأبو سلمة الخلال منهم ، وأبو مسلم منهم ، وعلى أيديهما قامت الدعوة ، وتَمَّ الأمر ، واستقر السلطان (122) وفاخروا ببغداد وجعلوها من مناقبهم فهي لهم ، تَتَحَرَّكُ ، وتسكنُ بأمرٍ منهم « والدنيا كلّها معلقة بها ، فجميع الدنيا تبع لها » (123) . وقالوا :

(119) الجاحظ، مجموعة رسائل - القاهرة (1334 هـ) . ص : 7 .

(120) مصدر نفسه . ص : 299 .

(121) مصدر نفسه . ص : 14 .

(122) مصدر نفسه ، ص : 8 وما بعدها .

(123) مصدر نفسه . ص : 17 .

«لأنهم» أهل هذه الدولة وأصحاب هذه الدعوة ومنبت هذه الشجرة» (124) وكما أن الأوس والخزرج قد نصرُوا النبي في أول الزمان ، فإنَّ أهلَ خُراسان قد نصرُوا ورثته في آخر الزمان (125) .

ونرى الجاحظ ينبسطُ في دعوى الموالي ولعلَّ شعوره بالولاء كان دافعه للقول «إنَّ الموالي بالعرب أشبه ، وإليهم أقرب وبهم أَمس ، لأنَّ السنة قد نقلت الموالي إلى العرب في كثير من المعاني ، لأنَّهم عرب في المدعى وفي العقلة وفي الوراثة ، وهذا تأويل قوله (ص) : مولى القوم منهم ، ومولى القوم من أنفسهم والولاء لحمه كلحمه النسب ، وعلى شبيه ذلك ، صار حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم . . . وبذلك النسب حُرِّمَت الصدقةُ على موالي بني هاشم ، فإنَّ النبي (ص) أجراهم في باب التنزيه والتطهير مجرى مواليهم» (126) .

آراء ابن خلدون ونزعتها الشعوبية :

لعلنا لا نغالي إذا قلنا إنَّ دَعَاوى الشعوبية هي التي جعلت ابنَ خلدون يصدرُ أحكامه القاسية على العرب بالرغم من اعترافه بأنَّ هرمَ الدولة العربية العباسية وتفسخها لم يبدأ إلا بعد فساد العصية العربية وتغلب العجم على الدولة وتحكمهم بأمورها (127) . فهو لا يستطيعُ إلَّا التأثير بدعاية الشعوبية المبتوثة في كل مكان ، فأطلق أحكاماً عديدة قاسية بحقَّ العرب منها : أنَّ العربَ لا يحصلُ لهم الملكُ إلَّا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية والسببُ برأيه يعود - لخلق التوحش الذي فيهم ، فهم «أصعبُ الأممِ انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة ، فقلماً تجتمع أهواؤهم ، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية ،

(124) مصدر نفسه . ص : 99 .

(125) مصدر نفسه . ص : 99 .

(126) الجاحظ (ثلاث رسائل) - فان فلوتن - ص : 6 - 7 (ذم اخلاق الكتاب) .

(127) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 24 ، 15 ، 155 ، 208 .

كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم» (128) .

وَادْعَى أَنَّ الْعَرَبَ إِذَا تَغَلَّبُوا عَلَى أَوْطَانٍ أَسْرَعَ إِلَيْهَا الْخَرَابُ ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِالْقَوْلِ : « وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بَاسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ التَّوْحَشِ وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ ، فَصَارَ لَهُمْ خَلْقًا وَجِلَةً ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلَذُودًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْحُكْمِ وَعَدَمِ الْإِنْقِيَادِ لِلسِّيَاسَةِ ، وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعِمْرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ . فَعَايَةُ الْأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ الرِّحْلَةُ وَالتَّغَلُّبُ وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسَّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعِمْرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ » (129) .

وَأَمَّا شَوَاهِدُهُ عَلَى ذَلِكَ فَكَثِيرَةٌ مُنْتَزَعَةٌ مِنْ حَيَاةِ الْبَادِيَةِ وَعَادَاتِهَا فِي الْغَزْوِ وَالتَّرْحَلِ ، فَالْحَجَرُ لَا يَحْتَاجُهُ الْعَرَبُ إِلَّا لِنَصْبِهِ أَثَافِي الْقَدْرِ ، فَيَنْقَلُونَهُ مِنَ الْمَبَانِي ، وَيَخْرِبُونَهَا عَلَيْهِ ، وَحَاجَتُهُمْ لِلخَشَبِ لِيَعْمُرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ ، وَيَتَخَذُوا الْأَوْتَادَ مِنْهُ لِيَبْنُوهُمْ ، فَيُخْرِجُونَهُ مِنَ السَّقْفِ ، تَدْفَعُهُمْ طَبِيعَتُهُمْ لِإِنْتِهَابِ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَهُمْ لَا يَرُونَ قِيمَةً لِلصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ « وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ ، وَصَارَتْ مَجَانًا ، ضَعُفَتِ الْأُمَالُ فِي الْمَكَاسِبِ ، وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي عَنْ الْعَمَلِ ، وَابْدَعَرَ السَّاكِنُ ، وَفَسَدَ الْعِمْرَانُ ، وَأَيْضًا فَلِأَنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عَنَايَةٌ بِالْأَحْكَامِ ، وَزَجَرَ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ ، وَدَفَاعَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَإِنَّمَا هُمُومُهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً ، فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ ، أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهَرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ ، وَرَبَّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حَرَصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجَبَايَةِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا . . . » (130) .

فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي الرِّئَاسَةِ ، مُتَصَارِعُونَ عَلَى السُّلْطَةِ ، يَغْلِبُومُونَ رَعَايَاهُمْ ، وَيَتَقَلَّبُونَ عَلَيْهِمْ فِي الْجَبَايَةِ وَالْأَحْكَامِ « وَانْظُرْ إِلَى مَا مَلَكَوهُ ، وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنْ

(128) مصدر نفسه . ص : 151 .

(129) مصدر نفسه . ص : 149 .

(130) مصدر نفسه ، المقدمة ، ص : 149 — 150 .

الأوطان من لدن الخليقة ، كيف تقوَّضَ عمرائهُ ، وأقفرَ ساكنهُ وبُدِّلَت الأرضُ غير الأرض ، فاليمُنُ قراهُم خرابٌ إلّا قليلاً من الأمصار وعراقُ العربِ كذلك قد خربَ عمرائهُ الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد خراب ، كذلك ، وإفريقية والمغرب ، لمّا جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أوائل المائة الخامسة ، وتمرَّسوا بها ثلاثمائة وخمسين من السنين ، قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها» (131) .

ويمضي في تقرير دعواه ، فيزعم أنّ العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك لإيغالهم في البداوة والقفرة واعتيادهم الشظف وخشونة العيش ، وصعوبة انقيادهم بعضهم لبعض فريئسهم محتاجٌ إليهم للعصية والمدافعة فهو مضطّرٌّ إلى الإحسان إليهم ، وترك مراغمتهم ، بينما سياسة الملك والسلطان « تقتضي أن يكون السائس وإزعاً بالقهر ، وإلّا لم تستقم سياسته ، وأيضاً فإن من طبيعتهم . . . أخذ ما في أيدي الناس خاصةً والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ، ودفاع بعضهم عن بعض ، فإذا ملكوا أمةً من الأمم ، جعلوا غاية ملكهم الإنتفاع بأخذ ما في أيديهم ، وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم ، وربما جعلوا العقوبات على المفساد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات ، وتحصيل الفوائد ، فلا يكون ذلك وإزعاً ، وربما يكون باعناً بحسب الأغراض الباعثة على المفساد ، واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه ، فتنمو المفساد بذلك ويقع تخريب العمران ، فتبقى الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض ، فلا يستقيم لها عمران ، وتخرب سريعاً . . . فبعدت طباعُ العرب لذلك كلّهُ عن سياسة الملك» (132) .

مَطَاعِنُ الشُعُوبِيَّةِ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا :

وكما طعنت الشُعُوبِيَّةُ في ماضي العربِ وحَاضِرِهِم وشَكَّكَتْ بِأَنسَابِهِم ،

(131) مصدر نفسه . ص : 150 .

(132) مصدر نفسه ، ص : 151 — 152 .

وَنَدَّدَتْ بَعَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ وَسَخَّرَتْ مِنْ مَفَاجِرِهِمْ ، فَقَدْ طَعَنْتَ عَلَى لُغَتِهِمْ وَعَابَتْهَا ، وَحَاوَلْتَ هُنَاكَ الْهَالَةَ الْقَدْسِيَّةَ الَّتِي يَحُوطُهَا الْعَرَبُ بِهَا ، وَأَدْرَكَتَ أَنَّهَا الْوَعَاءُ الثَّقَافِي لِلْعَرَبِ ، وَأَنَّهَا بِحَيَوِيَّتِهَا وَمُرُونَتِهَا أَصْبَحَتْ اللُّغَةُ الثَّقَافِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ لَشُعُوبِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، فَالشُّعُوبِيَّةُ تَرِيدُ مُكَافَأَتَهَا وَإِظْهَارَ عِيُوبِهَا ، وَإِبْرَارَ مَزَايَا اللُّغَاتِ الْآخَرَى وَخَاصَّةً اللُّغَةَ الْفَارْسِيَّةَ ، فَعَابَ مَفْكَرُو الشُّعُوبِيَّةِ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ كَثْرَةَ مَفْرَدَاتِهَا ، وَاعْتَبَرُوا ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ مَعَايِبِهَا فَقَالَ الْبِيروني فِي «مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنِ اللُّغَةِ الْهِنْدِيَّةِ» فَمَوْضُوعُهَا إِيقَاعُ اسْمٍ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَأَثَارُهَا بِمَوَاطَأَةٍ بَيْنَ نَفَرٍ يَعْرِفُ بِهَا بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ غَرَضُهُ عِنْدَ إِظْهَارِ ذَلِكَ الْإِسْمِ بِالنُّطْقِ ، فَإِذَا كَانَ الْإِسْمُ لَوَاحِدٍ بَعِينَةٍ وَاقِعاً عَلَى عِدَّةِ مَسْتَمَاتٍ ، دَلَّ عَلَى ضَيْقِ اللُّغَةِ ، وَأَحْجَجَ السَّمَاعَ إِلَى سُؤَالِ الْقَائِلِ عَمَّا يَعْنِيهِ بِلَفْظِهِ ، فَسَقَطَ ذَلِكَ الْإِسْمُ إِمَّا بَأَخَرٍ مِثْلِهِ يَغْنِي ، . . . وَإِذَا كَانَ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ أَسْمَاءُ كَثِيرَةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ سَبَبُ ذَلِكَ اسْتِبْدَادَ كُلِّ قَبِيلَةٍ أَوْ كُلِّ طَبَقَةٍ بِوَاحِدٍ مِنْهَا ، وَكَانَ فِي الْوَاحِدِ مِنْهَا كِفَايَةٌ اتَّصَفَتِ الْبَاقِيَةُ بِالْهَمْرِ وَالْهَذَرِ وَصَارَتْ سَبَبُ التَّعْمِيَةِ وَالْإِخْفَاءِ ، أَوْ تَحْمِلُ الْمَشَاقَّ لِحِفْظِ الْجُمْلَةِ بِلَا فَائِدَةٍ غَيْرِ ضِيَاعِ الْعُمُرِ» (133) .

وَعَابُوا عَلَى الْعَرَبِ أَسْمَاءَهُمْ ، وَاسْتَشْنَعُوهَا ، مِثْلَ كَلْبٍ وَكَلِيبٍ ، وَأَكْلَبٍ ، وَمَا أَشْبَهَ ، وَطَعَنُوا عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ يَسْمُونَ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِي لُغَتِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ يَدْعُونَ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ اصْطِلَاحٌ مِنْ أَوَّلِيَّتِهِمْ (134) وَقَالُوا «لَيْسَ الْأَعْرَابِيُّ بِقُدُوءٍ إِلَّا فِي الْجَرِّ وَالنَّصَبِ وَالرَّفْعِ وَفِي الْأَسْمَاءِ ، وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ فَقَدْ يَخْطِئُ فِيهِ وَيَصِيبُ» (135) .

وَلَيْسَ كُلُّ أَعْرَابِيٍّ بَلِيغاً وَفَصِيحاً ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ تَفَاوُتٌ «فَلِمَ ذَكَرُوا الْغُبِّيَّ وَالْبَكِّيَّ ، وَالْحَصَرَ وَالْمَفْحَمَ ، وَالْخَطْلَ ، وَالْمَسْهَبَ ، وَالْمَتَشَدَّقَ وَالْمَتَفَهِّقَ ، وَالْمَهْمَازَ وَالْثُرَثَارَ وَالْمَكْثَارَ؟» (136) . . . وَلَمْ ذَكَرُوا الْهَجَرَ وَالْهَذَرَ

(133) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ج : اص : 185 .

(134) ابن دريد ، الاشتقاق ، ص : 3 — 4 .

(135) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 2 ص : 151 .

(136) من صفات الرجل إذا تكلم

والهذيان والتخليط ؟ وقالوا : رجلٌ تلقاة⁽¹³⁷⁾ وتلهاعة⁽¹³⁸⁾ ، وفلانٌ يتلهيعُ في خطبته ، وقالوا : فلانٌ يخطيءُ في جوابه ، ويحيلُ في كلامه ، ويناقضُ في خبره ، ولولا أنَّ هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض ، لَمَا سُمِّيَ ذلك البعضُ والبعض الآخر بهذه الأسماء⁽¹³⁹⁾ .

وطعنوا « على خطباء العرب بأخذِ المخرصة عند مُناقلةِ الكلام ، ومُساجلةِ الخصوم بالموزون والمقفى ، والمشور الذي لم يقف ، وبالأرجاز عند المتح⁽¹⁴⁰⁾ ، وعند مجاثاة الخصم⁽¹⁴¹⁾ ، وساعة المشاورة⁽¹⁴²⁾ ، وفي نفس المجادلة والمحاولة . وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعمال المشور في خطب الحمالة ، وفي مقامات الصلح ، وسلَّ السخيمة⁽¹⁴³⁾ ، والقول عند المعاقرة⁽¹⁴⁴⁾ والمعاهدة⁽¹⁴⁵⁾ »

وعابوا على خطباء العرب الإشارة بالعصي والإتكاء على أطراف القسي ، وخذَّ وجه الأرض بها والإعتماد عليها في الجموع ، وأخذ المخرصة في كل حال . كما عابوا عليهم الجلوس في خطب النكاح والقيام في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الحمالة أو أكَّد شأن المحالفة وحقَّق جرمة المجاورة . وعابوا خطبهم على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار والتماسيح بالأكف ، وقالوا : ما معنى التحالف على النار أو التعاقد على الملح ؟ وسخروا من أخذهم العهد المؤكَّد وحليفانهم اليمين الغموس ، وسخروا من قولهم : « ما سرى نَجْمٌ ،

(137) تلقاة : الكثير الكلام ، الأحمق

(138) تلهاعة : المسترسل في الكلام في غفلة .

(139) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 1 ص : 90 — 91 .

(140) المتح : استخراج الماء

(141) مجاثاة الخصم : الجلوس له

(142) المشاورة : المرافعة

(143) السخيمة : الضغينة .

(144) المعاقرة : المفاخرة بعقر الإبل

(145) الجاحظ البيان والتبيين . ج : 3 ص : 395 .

وهبت ريحٌ ، وبَلَّ بحرصوفةٌ ، وخالقت جرةً درةً» (146) .

وقالت الشعبيّة : « القَصِيْبُ للإيقاعِ ، والقَنَا للقرارِ ، والعَصَا للقتالِ ، والقوسُ للرمي ، وليس بين الكلامِ وبين العَصَا سببٌ ، ولا بينه وبين القوسِ نَسَبٌ . وليس في حَمْلِهَا ما يَشْحَذُ الذهنَ ، ولا في الإِشارةِ بِهَا ما يَجْلِبُ اللفظَ . . . وَحَمَلُ العَصَا بِأَخلاقِ الفُدادين أشبه ، وهو بجفاة الأعراب وعنجهية أهل البدو ، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق أشكلُ وبه أشبه » (147)

ولم تَرَ الشعبيّةُ للعرب في الخُطابةِ فضلاً ، فالخطابةُ موجودةٌ في جميع الأممِ والأجيال المتعاقبة محتاجة إليها حتى الزنج ، فإنّها تطيل الخُطْبَ ، وتفوق في ذلك جميع الأمم من العجم ، وإن كانت معانيها أجنّى وأغلظَ ، وألفاظها أخطأً وأجهلُ ، وأدعتُ أَنَّ الفرسَ أخطبُ الناس ، وأدعتُ أَنَّ أخطبَ الفرس أهلُ فارس ، وأنَّ أعذبهم كلاماً ، وأسهلهم مخرجاً ، وأشدّهم فيه تحنكاً أهلُ مرو ، وأما أفصحهم بالفارسية الدرية وباللهجة الفهلوية فأهل قصبة الأهواز ، « وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يبلِغَ في صناعةِ البلاغة ، ويعرف الغريب ويتبحرَ في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند وَمَنْ احتاجَ إلى العقل والأدب والعلم بالمراتب والمثلات والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة ، فليُنظرَ إلى سير الملوك » (148) .

فالشعبيّةُ تدّعي أَنَّ الفرسَ أخطبُ وأبلغُ وأعلمُ ، والتجربة الفارسية أعرقُ وأعمقُ ، ومع ذلك فالخطباء لا يحملون عصاً ، لا يتكثون على قوس « فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها . وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها . وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب . وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها وسيرها وعللها . فَمَنْ قرأ هذه الكتب عرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم ، وعرف أين البيان والبلاغة ، وأين تكاملت تلك الصناعة . فكيف سقط على جميع

(146) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 395 .

(147) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 398 .

(148) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 398 .

الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني ، وتخير الألفاظ ، وتميز الأمور ، أن يشيروا بالقنا والعصي والقضبان والقسي» (149) .

وبعد هذه المرافعة تخلص الشعوبية إلى غايتها ، فتنسب العرب إلى البداوة والغلظة والجفاء وبعدهم عن الحضارة والمدنية ، فتقول : « كَلَّا ، ولكنكم كنتم رعاة بين الإبل والغنم ، فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر ، وحملتموها في المدر بفضل عاداتكم لحملها في الوبر ، وحملتموها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب ، ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل جفا كلامكم ، وغلظت مخارج أصواتكم ، حتى كأنكم إنما تخاطبون الصَّمان إذا كلمتم الجلساء ، وإنما كان جلُّ قتالكم بالعصي ، ولذلك فخر الأعشى على سائر العرب ، فقال :

« لسنا نقاتل بالعصي ولا نرامي بالحجارة
إلاَّ علالة أو بداهة قارج نهد الجزارة» (150)

ولم تستثنِ الشعوبية في طعنها أحداً ، فطعنّت على قضيب النبي وعنزته وعلى عصاه ومخصرته (151) .

وقامت الشعوبية ممثلةً ببعض الرواة كحمّاد الراوية وخلف الأحمر وأبي عبيدة بحملة تشكيك في الشعر الجاهلي والإسلامي عن طريق الوضع والنحل والتخليط في الرواية ، والهدف من تلك المحاولات تشكيك العرب بترائهم الأدبي والحضاري بشكل عام (152) .

ورافق طعن الشعوبية على اللغة والثقافة العربية محاولات عديدة تهدف إلى إحياء الثقافات الأخرى وخاصةً الفارسية ، فبذل الكتاب والأدباء الشعبيون جهدهم

(149) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 398.

(150) مصدر نفسه ، ج : 3 ص : 398 — 399.

(151) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 432.

(152) قد اتينا على بحث ذلك فيما سبق من هذه الرسالة .

لبعث تلك الثقافة وإحيائها وبث الطابع الفارسي في الإدارة والمراسم العباسية ، وكان موقفهم يستند إلى العصبية الجامعة ، وقد فطن القدماء للعلّة في تصرفهم وغلّوهم وتعتهم فقال الجاحظ : « ولو علم القوم أخلاق كلّ ملّة ، وزيّ أهل كلّ لغةٍ وعلمهم في ذلك ، واحتجاجهم له ، لقلّ شغبهم ، وكفونا مؤونتهم »⁽¹⁵³⁾ . وقال : « ولو عرفوا أخلاق كلّ ملّة وزيّ كلّ لغة ، وعلمهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم ، وشمائلهم وهياتهم ، وما علّة كلّ شيء من ذلك ، ولمّ اختلقوه ؟ ولمّ تكلفوه ؟ لأراحوا أنفسهم ، ولخفّت مؤونتهم على من خالطهم »⁽¹⁵⁴⁾ . فقادهم تعصبهم إلى مكافحة العربية والعروبة والطعن عليها ، وإظهار مزايا اللغات الأخرى ، وخاصة الفارسية فحثوا أصحاب تلك اللغات على العودة إليها والنهل من ينابيعها والإنتاج فيها ، وكان هذا تمهيداً لاستعمال تلك اللغات من جديد في الكتابة وبدأ الشعراء الفرس منذ القرن الرابع الهجري ينظمون قصائدهم بالفارسية خاصة في ظل الإمارة السامانية ، وقاموا بترجمة العديد من الكتب إلى الفارسية كتاريخ الطبري وتواريخ بعض المدن كتاريخ قم للقمي ، وتاريخ بخارى للنرسخي « وأفتى بعضهم بجواز الصلاة بالفارسية »⁽¹⁵⁵⁾

(153) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 432 .

(154) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 406 .

(155) الدوري ، الجذور التاريخية للشعبية ، ص : 71 .

الفصل الثالث

الحركة الأدبية المناوئة للشعوبية وأساليبها في التصدي للشعوبيين

- الجاحظ

- ابن قتيبة

- أبو حيان التوحيدي

الحركة الأدبية المناوئة للشعبوية وأساليبها في التصدي للشعوبيين :

لاقت الشعبوية ودعواها ترحيباً وتأييداً في بعض الأوساط دون شك ، وكان لها مناصرون ومنظرون في شتى المجالات ، واستطاعت أن تتحول إلى تيار شعبي يستأثر بقطاعات شعبية واسعة من الفرس خاصة⁽¹⁾ غير أنها لاقت من المجابهة والرفض عند العرب خاصة وجمهور المسلمين عامة ما أعاقها ، وأفلح خططها ، وفضح غاية أصحابها ، وانبرى عدد من الكتاب العرب أو المتعصبين للعرب ، فوضعوا الكتب والرسائل التي تبين فضل العرب وتقدمهم على غيرهم ، وناقشوا الحجج الشعبوية ، وأبطلوها ، وكشفوا غاياتها . « وجاء موقف العرب واضحاً ، ينم عن إدراك عميق للمشكل . فقد كتبوا في التاريخ العربي (الإسلامي) بروح جدية ، وبتأمل ذاتي ، وأنتجوا من المؤلفات التاريخية ما يدهشك بكثرتة ، وسعته . . . شملت مختلف فئات المجتمع ومختلف فعاليتهم . وحين تتأمل هذا الوضع ترى أن شعورهم بدورهم التاريخي عامل أساسي في ذلك . . . وحين تهاجم الشعبوية العرب ، وتحاول رسم أسطورة مربكة للأنساب ، نجد من يكتب بروح المؤرخ المحقق ، ليظهر متانة الأنساب العربية ، وليبين دور العرب في التاريخ الإسلامي عامة »⁽²⁾ .

(1) ابن قتيبة ، كتاب العرب او الرد على الشعبوية (رسائل البلغاء) ص : 345 .

(2) الدوري ، الجذور التاريخية للشعبوية ، ص : 75 — 76 (انظر مثلاً في أنساب الأشراف لبلاذري وتأمل =

ونشط العربُ يعنون بترائهم الثقافي ، فقاموا بجمع الشعر العربي القديم ، ودَوَّنوه ، واستعانوا به في التفسير ، واستقرأوه ، واتخذوا منه شواهد في النحو ، ووجدوا فيه سجلاً لأنساب العرب ومآثرهم وآيامهم⁽³⁾ . وقاموا بجمع الآثار الأدبية من أمثال وخطب ونثر وأفردوا لها الكتب ، ليسهلوا تناولها ، وليقدموا صورة حية للبلغة العربية والتراث الأدبي عند العرب ، وظهرت محاولات - خاصة في القرن الثالث الهجري - تهدف إظهار الإتصال الثقافي ، وتأكيد الوحدة والإستمرار في الثقافة العربية عن طريق جمع الآثار الأدبية في العصور المختلفة في مؤلفات واحدة ، وظهر ذلك جلياً في مؤلفات الجاحظ وابن قتيبة .

وفندَ المزاعم الشعبية عدَدٌ من الأدباء والكتاب أبرزهم الجاحظ وابنُ قتيبة والمسعودي وابنُ دريد وأبو حيان التوحيدي ، فكيف كانت ردودهم ؟ وما هي النواحي التي عالجوها ، وبسطوا فيها القول ؟

الجاحظ : (4)

كان الجاحظُ خصماً من خصوم الشعبيّة ، وعدوًّا لدوداً من أعدائها ،

= محتوياته ، تَرَى أَنَّ هَيْكَلَ هذا التاريخ يستندُ إلى الأنساب العربية ، وتشعر بأنَّ العرب كانوا عور التاريخ الإسلامي) .

(3) قام بهذا الدور رواية ثقات وشعراء علماء كالأصمعي ، والمفضل الضبي وأبي نَعام . ، والبحري وغيرهم كثير .

(4) هو عمرو ابنُ بحر ابن محبوب ، والمكنى بأبي عثمان والملقب بالجاحظ لنتؤ حذقته وجحوظهما ، اختلف في نسبه فقيل إنه عربي من كنانة وقيل بل هو من مواليهم ، وإنَّ جده الأعلى فزارة كان عبداً اسودَّ ، وجملاً لعمرو ابن قلع الكنازي أحد النساء . وكما اختلف في نسبه فقد اختلف في مولده في حين اتفق الرواة أنَّ وفاته كانت في السنة الخامسة والخمسين بعد المائتين ، وأنَّه عُمِّرَ نيفاً وتسعين سنة .

ومهما يكن من أمر ، فقد ولد الجاحظ في البصرة ، ونشأ ، وترعرع فيها ، وتعلَّم أصول القراءة والكتابة في كتابتها ، وتردَّد على مساجدها ونوادبها الأدبية ومريدها . وثقف على كبار علمائها كأبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأحمش ، كما تتلمذ لإمام المعتزلة النَظَّام . وكان مولعاً بالمطالعة ، وقلماً وقع كتاب في يده ، ولم يكمل قراءته ، وكان يكتري دكاكين الوراقين ، يبيت فيها للمطالعة والنظر وامتد علمه وثقافته إلى فروع الثقافة المعروفة في عصره . =

تصدى لها كما تصدى لقريبتها الزندقة . ونأفح عن العروبة والإسلام ردحاً طويلاً من حياته المديدة . وعلى الرغم من اتهام المسعودي له بالشعوبية ، وأنه كان يفضل النبط على العرب⁽⁵⁾ ، وعلى الرغم من اتهامه بالزندقة ، فإن ما وصلنا من كتبه يؤيد وقوفه بوجه الشعوبيين والزنادقة على حد سواء .

فلما امتلأ ثقة بنفسه وبمواهبه ، يئتم شطر بغداد ، وأتصل برجالها وخاصةً شيوخ المعتزلة فيها ، وأصبح إماماً من أئمتها ورئيس فرقة من فرقها تعرف بالجاحظية . وانعقدت أواصر الصداقة بينه وبين الوزير محمد ابن عبد الملك الزيات ، وله ألف كتاب الحيوان . كما اتصل بعده بالقاضي ابن أبي دؤاد وألف له كتاب البيان والتبيين . وكان يملك قدرة عجيبة على الجدل والمناظرة ، ولوعاً بمدح الأشياء وذمها ، تحسينها وتقيبها ، تتمثل فيه صورة البليغ الذي يستطيع تصوير الحق بصورة الباطل وتصوير الباطل بصورة الحق ، وقد أربت كتبه ومؤلفاته على المائة ، وبالغ البعض فروى أنها نيفت على الثلاث مائة . وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبجر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، « وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين ، وفي حكاية مذهب المخالفين ، وفي الآداب والأخلاق وفي ضروب الجد والهزل ، وقد تداولها الناس ، وقرأوها وعرفوا فضلها » وصف المسعودي كتبه فقال : « وكتب الجاحظ - مع انحرافه المشهور - تجلوا صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، وورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ » .

انظر ترجمة الجاحظ : المسعودي ، مروج الذهب ج : 4 ص : 195 .
ابن النديم ، الفهرست ص : 220، 57 وتكملة الفهرست ص : 3 .
البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص : 175 وما بعدها .
الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 12 ص : 212 وما بعدها .
الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج : 1 ص : 386 وما بعدها .
ياقوت ، معجم الادباء ج : 16 ص : 74 وما بعدها .
ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج : 3 ص : 121 وما بعدها .
ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 3 ص : 121 وما بعدها .
ومن المراجع احمد امين ، ضحى الاسلام ج : 1 ص : 386 وما بعدها ،
عبد السلام هارون مقدمة تحقيق كتاب الحيوان ، الجاحظ ، الحيوان - المقدمة - ج : 1 ص : 3 وما بعدها .

طه الحاجري ، الجاحظ حياته وآثاره ، دار المعارف .

شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الثاني ، ص : 587 وما بعدها .

فوزي عطوي ، مقدمة البيان والتبيين ، ص : 5—13 .

(5) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 2 ص : 53 وما بعدها .

والحقيقة أنه لم يحاول حتى في ردوده على الشعوبية أن يسيء إلى الفرس أو غيرهم من الشعوب ، بل على العكس من ذلك نراه يدفع عن الفرس بعض التهم التي كانت تُلصقُ بهم اعتباطاً ، إذ أنه وإن عادى الشعوبيين ، فإنه لم يعادِ الفرس أو غيرهم ، فقد زعم البعض أنه ظَفَرُ بدليل يدين الفرس بالغش ، إذ لم يجد للنصيحة في لغتهم اسماً واحداً يجمعُ المعاني التي يقعُ عليها هذا الاسم ، فدفع الجاحظ هذه التهمة بالقول : « ففي لغتهم اسمٌ للسلامة ، واسمٌ لإرادة الخير ، وحسن المشورة ، وحملك بالرأي على الصواب : فللنصيحة عندهم أسماءٌ مختلفة ، إذا اجتمعت دلت على ما يدلُّ عليه الاسم الواحد في لغة العرب ، فمنَ قضى عليهم بالغش من هذا الوجه فقد ظلم »⁽⁶⁾ .

ولم ينظر الجاحظُ إلى الشعوبية كحركة تحرير وطنية أو قومية ، تهدف تحرير الفرس أو غيرهم من نيرِ العرب ، وسلطانهم السياسي أو الديني ، ولم يتعرض للمطالبيين بالمساواة بين الشعوب الإسلامية أو الرد عليهم ، وكان نفسه من الداعين لهذه المساواة ، فإنَّ ما أثيرَ عنه خصوصاً وعن المعتزلة عموماً ، هو تجويز الإمامة والخلافة في عامة المسلمين ، ولعلَّ هذا السبب بالذات هو الذي حمل المسعودي على اتهامه بالشعوبية ، فالجاحظُ بعيدٌ عن التفاخر بالأنساب أو الأجناس ، لِمَا تثيرُهُ تلك المفاخرات من فسادٍ ، وما تولده من بغضاء وعداوة ولقد حذَّر من تلك الخصلة بقوله : « واحذرْ خصلةً ، رأيتُ الناس قد استهانوا بها ، وضيعوا النظرَ فيها ، مع اشتغالها على الفسادِ ، وقَدَحِها البغضاء في القلوب والعداوة بين الأوداء : المفاخرة بالأنساب ، فإنه لم يغلطُ فيها عاقل قط ، مع اجتماعِ الإنس جميعاً على الصورة ، وإقرارهم جميعاً بتفرق الأمور المَحْمُودَةِ والمَذْمُومَةِ ، من الجمالِ والدَّمَامَةِ ، واللؤمِ والكُرمِ والجبن والشجاعة في كل حين ، وانتقالها من أمةٍ إلى أمةٍ ، ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من آدميين ، وهذا غير مدفوع عند الجميع ، فلا تجعلَنَّ له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حظاً تسلم بذلك على الناس أجمع مع السَّلامة في الدين »⁽⁷⁾ .

(6) الجاحظ البخلاء ، ص : 272 .

(7) الجاحظ ، رسالة المعاد والمعاش (مجموع رسائل الجاحظ) ص : 29 — 30 .

فَالْجَاحِظُ نَفْسَهُ - كما نرى - من أهلِ التسوية ، وهو لهذا السبب يردُّ على الشعبيَّة ويصدُّ هجماتها ، لأنَّ أصحابها تحلَّوا باسم التسوية⁽⁸⁾ ، وتجاوزوها إلى مواقفٍ عنصريَّة حاقدةٍ ، هدفها تدمير العرب وتدمير الإسلام . فالشعوبية في رأي الجاحظ غير أهلِ التسوية وأنما هم : « الأزاد مردية⁽⁹⁾ المبغضون لآل النبي (ص) ، وأصحابه مِنْ قَتَحَ الفُتُوحَ ، وقَتَلَ المَجُوسَ وجاء بالإسلام »⁽¹⁰⁾ ، يدفعهم إلى هذا الموقف حقدهم الدفين على العرب وكرههم لهم ، وعدم قدرتهم على التسليم بالمرحلة التاريخية الجديدة التي قُدِّرَ عليهم فيها التخلي للعرب عن مركز الزعامة والقيادة السياسية والحضارية . فأبغضوا كلَّ ما هو عربي ، واعتنقوا الزندقة نكايةً بالعرب والمسلمين ، إذ إنَّ « عامة من أرتاب بالإسلام ، إنما كان أوَّل ذلك رأيي الشَّعْبيَّة والتمادي فيه ، وطول الجدل المؤدِّي إلى القتال ، فإذا أبغض شيئاً ، أبغض أهله ، وإنَّ أبغض تلك اللغة ، أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ مَنْ أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العربُ هي التي جَاءَتْ به ، وكانوا السُّلَفُ والقُدوة »⁽¹¹⁾ .

هذا الموقفُ الحاقِدُ المُشْبَعُ بالعصبيَّة الجَامِحَةِ في الطُّعْنِ على العَرَبِ وتنفُّصهم وتجاهلِ دورهم الحضاري الهام ، وعدم الاعتراف به ، لم يُقَابَلْ من الجاحظ وغيره من الأدباء والمفكرين العرب بتشجيعٍ عنصري ويتعصب عرقي ، وإنما بمفهوم حضاري للعروبة ركائزه العادات والتقاليد واللغة والأرض والبيئة التي تصهر الناس فتكوِّن منهم مجتمعاً واحداً وأمةً واحدةً ، فالعربُ أُمَّةٌ « لأنَّ الدارَ والجزيرةَ واحدةً ، والأخلاقَ والشَّيْمَ واحدةً ، وبينهم من التَّصَاهِرِ والتَّشَابِكِ ، والإنفاقِ في الأخلاقِ وفي الأعراقِ من جهةِ الخُزُولَةِ المردِّدة ، والعمومة

(8) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 365.

(9) من أذا مَرَدَ كلمة فارسية معناها : الرجل الحر .

(10) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 319.

(11) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ص : 220.

المشتبكة ، ثم المناسبة التي بُنِيَتْ على غريزة التربة ، وطباع الهواء والماء ، فهم في ذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة ، والهمّة والشمائل ، والمراعي والراية ، والصناعة والشهوة ، فإذا بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نبياً من العرب ، فقد بَعَثَهُ إلى جميع العرب ، وكلّهم قومه ، ولأنهم جميعاً يدّ على العجم ، وعلى من حَارَبَهُمْ من الأمم ، لأنّ تناكحهم لا يعدوهم وتصارهم مقصور عليهم» (12) .

فحين هذا المفهوم للعروبة انطلقَ الجاحظُ للردّ على الشعوبية ، ونقض ادعاءاتها ، فالف كتاب الشعوبية (13) إلّا أنّ الكتاب قد ضاع ، وفوّت علينا بضياعه فرصة الإطلاع على الدعاوى الشعوبية اطلاعاً وافياً . غير أنّ ما بقي من آثاره يحكي لنا بعض المطاعن الشعوبية وأسلوب الجاحظ في نقضها وهدم أسسها .

فقد تعرض في « البيان والتبيين » إلى المطاعن الشعوبية في الأدب ، وردّ عليها ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنّهُ ألّف الكتاب مدفوعاً بهاجس الردّ على الشعوبية . فقسم كتابه إلى ثلاثة أجزاء ، وتحدّث في الجزء الأول منه عن عيوب اللسان والبيان والبلاغة ، وعرض فيه مفهوم البلاغة عند الأمم الأخرى كالفرس والهنود واليونان والروم ، وقدم صورةً وافيةً عن مفهوم البلاغة عند العرب ومشاهير البلغاء المحدثين .

والجاحظُ وإنّ لم يتعصب لعنصر على آخر ، فقد تعصب للأدب العربي ، وفضّله على آداب الأمم جميعاً ، بل نراه يغلّو أحياناً ، فيعتقد أنّ الأمم الراقية أو الممتازة أربع هي : العربُ وفارسُ والهندُ والرومُ . أمّا الأمم الأخرى فهُمُجُ وأشباه الهُمُج ، وقد تستبد به حمية العصبية ، فيقول : « وأمّا العوامُ من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا ، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ، ولم يبلغوا منزلة الخاصّة منا ، على أنّ الخاصّة تفاضلُ في الطبقات أيضاً» (14) وكلامُ الناسِ في طبقات ، كما أنّ الناس أنفسهم طبقات ، فمن الكلام : الجزل

(12) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 525 .

(13) الجاحظ ، البخله ، ص :

(14) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 1 ص : 87 .

والسخيف ، والمليح ، والقيح ، والسميح ، والخفيف ، والثقيل ، وكله عربي وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمارحوا وتعايوا (15) .

فإن زعم زاعم بأن كلام العرب أنفسهم يتفاضل ، ويتفاوت ، وإلا لم ذكروا الغيبي والبيكي ، والخطل والمسهب والمتشدق إلى غير ذلك من الصفات رد الجاحظ بالقول : « إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ، ولا أنفع ، ولا آتق ، ولا ألد في الأسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء » (16) .

فالبلاغة سليقة عند العرب ، وفطرة فطروا عليها ، إذا وصفوا أصابوا ولم يخطئوا ، إلا أنه زعم « أن سخيظ الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم ، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني » (17) .

وبعد أن يقدم صورة وافية للبلاغة العربية ويروي بعض خطب الرسول (ص) وصحابته ، ينوه بخطباء العرب وأنسابهم ، ويشيد بعادة العرب في خطبهم وحملهم المخاطر واعتمادهم على القسي ، وإشارتهم بالقنا والعصي ، مفاخراً بأن ذلك عادة ملوكية ، فالمخاصر ما كانت تفارق أيدي الملوك من العرب ، ويمثل على صواب رأيه ومذهبه بأقوال الشعراء في المدائح للملوك ، كقول الشاعر :

« في كفه خيزران ريحها عبث بكف أروع في عرينه شم
يغضي حياءً ويغضي من مهابة فما يكلم إلا حين يتسم » (18)

ثم يذكر طعن الشعوبية على أخذ العرب المخرصة في خطبها والقنا

(15) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 90 .

(16) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 91 .

(17) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 91 .

(18) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 194 .

والقضيبي والإتكاء والإعتماد على القوس ، ويؤكد أن الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع هي العرب والهند وفارس والروم ، ويقدم العرب عليها جميعاً ، ويسوق الأدلة على تفوق العرب في البلاغة والخطابة ، فيقول : « والدليل على أن العرب أنطق ، وأن لغتها أوسع ، وأن لفظها أدل ، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر والأمثال التي ضربت أجود وأسير . والدليل على أن البديهة مقصورة عليها ، وأن الإرتجال والإقتضاب خاص فيها . . . الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الفرس والروم شعراً ، وكيف صار النسيب في أشعارهم ، والذي أدخلوه في غنائهم ، وفي ألحانهم ، إنما يقال على السنة نسائهم ؟ وهذا لا يُصَابُ في العرب إلا القليل اليسير ، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة فتضع موزوناً على موزون ، والعجم تمطط الألفاظ ، فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون » (19) .

ثم ساق الأمثلة على بلاغة العرب في النثر والشعر .

وهم في الرد على الشعوبية في طعنها على خطباء العرب في الجزء الثاني إلا أنه أحب أن يُصدِّره بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدمين ، فاستقرَّ هذا الجزء برواية خُطْبِ الرُّسُول (ص) وخطباء العرب وبلغائهم ، متعرضاً لبعض الشعراء ونوادير الحمقى ، وكأنه أراد تقديم البرهان على تفوق العرب في البلاغة والخطابة .

وافتحَّ الجزء الثالث بكتاب العصا في الرد على الشعوبية ، وسماه بهذا الاسم رمزاً لخطابة العرب التي عابتها الشعوبية وقَدَحَتْ فيها . فَخَصَرَ الخطابة في العرب والفرس . أما الهند ، فلها معارف مدونة وكتب مجلدة لا تُنسب لرجل بعينه ، إنما هي نتيجة أمة الهند بأسرها ، وثمرة أجيالها المتعاقبة . وأما اليونان ، فليس لها إلا الفلسفة والمنطق ، فَلَا حَظَّ لَهَا مِنَ الخطابة ، وكيف ؟ وصاحب المنطق نفسه بكيء اللسان غير موصوف بالبيان ، فالخطابة إذن خاصة بأمتين من

(19) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 1 ص : 200 .

الأمم الأربع التي قَدَّمَهَا الجاحِظُ : العرب والفرس . فأما الفرسُ ، فهم خطباء ، إلا أن خُطَبَهُم نتيجةُ اجتِهَادٍ وخُلُوةٍ وطولِ فكرةٍ ومشاورةٍ ومعاونةٍ واجتهادٍ نفس بالتفكيرِ وقراءةِ الكتبِ ، وإطلاعهم على أقوالِ الأوائلِ ؛ وبنیانهم عليها . وأما العرب ، فخطبهم بديهةً وارتجالاً ، دون معاناةٍ أو مكابدةٍ ، أو إجمالةٍ فكرةٍ أو استعانةٍ بكتبِ الأولين وأقوالهم ، « وإنما هو أن يصرفَ وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخطام ، أو حين يمتحُ على رأس بشر ، أو يحدو ببيعير ، وعند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرفَ وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني إرسالاً ، وتنشال عليه الألفاظ انشالاً ، ثم لا يقيدهُ على نفسه ، ولا يدرسه أحدًا من ولده » (20) .

ثم إنَّ العرب أميون لا يعرفون قراءة أو كتابة ، يجرون على الطبع من دون تكلفٍ أو تصنع في كلامهم . مع هذا فالكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وقدرتهم عليه أكبر « وكلُّ واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفثقروا إلى تحقُّظٍ أو يحتاجوا إلى تدارس » (21) .

فضيلة العربي أنه لم يحفظ كلام غيره ، ولم يحتدِ قول من سبقه ، والفراسي بخلاف ذلك . وشاهد العرب على بلاغتهم ، وحلاوة منطقتهم ، ما خلَّفوه من القصيد والأرجاز والمنثور والمسجوع ، وما يمتاز به هذا التراث « من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، أو السبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم في البيان ، أن يقول في مثل ذلك إلاَّ النَّفر اليسير والنبذ القليل » (22) فالشعر ميزة خاصة بالعرب ، مقصورة عليهم وعلى من تكلم بلسانهم (23) .

(20) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 404 — 405 .

(21) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 405 .

(22) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 405 .

(23) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 74 .

وأما ما يَتَّبِعُ فيه الشعوبيون من كُتُبٍ في اللغة والغريب والأمثال والحكم والسِّير ، فَمَا أَدْرَانَا بِأَنَّهُ صَحِيحٌ غَيْرُ مَوْضُوعٍ وَقَدِيمٌ غَيْرُ مَوْلَدٍ « إذا كان مثلُ ابن المقفع ، وسهل ابن هارون وأبي عبيدة ، وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان ، لا يستطيعون أن يُولِّدُوا مِثْلَ تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السِّير » (24) .

فَتَرَأَتْ الْعَرَبَ صَحِيحٌ فِي نِسْبَتِهِ ، وَهُوَ قَلِيلٌ جَدًّا بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا ضَاعَ مِنْ هَذَا التَّرَاثِ ، أَمَّا التَّرَاثُ الْفَارِسِيُّ ، فَمَنْ يَضْمَنُ صَحَّتَهُ ، وَعَدَمَ الزِّيَادَةِ فِيهِ ، إِذَا كَانَ مِنْ نَقْلِهِ ، وَتَرْجَمَهُ مِمَّنْ غَلَتْ الْعَصْبِيَّةُ فِي عُرُوقِهِمْ ، وَأَوْقَدَتِ الشُّعُوبِيَّةُ نَارَ الشَّنَانِ فِي صُدُورِهِمْ .

وَالدَّلِيلُ النَّاطِقُ عَلَى تَفَوُّقِ الْعَرَبِ فِي الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ ، وَالَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ مَكَابِرُ أَنْ يَذْفَعَهُ ، مَائِلٌ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ الْخُلَصِ . فَلْيَذْهَبِ الشُّعُوبِيُّونَ إِلَيْهَا ، وَلْيَرَوْا بِأَعْيُنِهِمْ : أَنَّ مَا يَدَّعِيهِ الْجَاخِظُ هُوَ الْحَقُّ ، فَيَصِرُوا الشَّاهِدَ عَيْنَانًا ، فَالْمَعْرِفَةُ كَفِيلَةً بِإِزَالَةِ شَبَهَاتٍ كَثِيرَةٍ يَجْهَلُهَا الْإِنْسَانُ ، وَيَجْهَلُ أَسْبَابَهَا ، فَيُفْسِرُهَا ، أَوْ يُفْسِرُهَا لَهُ الْآخَرُونَ بِشَكْلِ مَنَاقِضٍ لَطِيبَتِهَا ، فَيَتَّخِذُ مَوْقِفًا مَبْنِيًّا عَلَى هَذَا الْمَفْهُومِ الْخَاطِئِ ، وَلَوْ تَجَلَّتِ الْحَقِيقَةُ بِشَكْلِ وَاضِحٍ لَغَيْرِ مَوَاقِفِهِ « وَلَوْ عَرَفُوا أَخْلَاقَ كُلِّ مَلَّةٍ وَزِي كُلِّ لُغَةٍ ، وَعَلَّلَهُمْ فِي اخْتِلَافِ إِشَارَاتِهِمْ وَأَلَاتِهِمْ ، وَشِمَائِلِهِمْ ، وَهَيَاتِهِمْ ، وَمَا عَلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلِمَ اخْتَلَقُوهُ ، وَلِمَ تَكَلَّفُوهُ ؟ لَأَرَاخُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَلَخَفَتْ مَوْزَنَتُهُمْ عَلَى مَنْ خَالَطَهُمْ » (25) .

فَقَطَعْنَا الشُّعُوبِيَّةَ عَلَى الْعَرَبِ فِي خُطَابَتِهِمْ غَيْرُ مَبْرَرٍ ، لِأَنَّ الْعَصَا « مَاخُوذٌ مِنْ أَصْلٍ كَرِيمٍ ، وَمِنْ مَعْدِنٍ شَرِيفٍ ، وَمِنْ الْمَوَاضِعِ الَّتِي لَا يَعْيُهَا إِلَّا جَاهِلٌ وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهَا إِلَّا مُعَانِدٌ » (26) .

وَدَلِيلُهُ عَلَى ذَلِكَ : « اتَّخَذَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى نَبِينَا

(24) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 405 .

(25) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 406 .

(26) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 406 .

وعليه، العصا الخطبته وموعظته . . . وإنا نبدأ بذكر سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، لأنه من أنبياء العجم ، والشعوبية إليهم أميل ، وعلى فضائلهم أحرص» (27) .

ويذهب الجاحظ في بيان فضل العصا وتشريفها ومناقبها كل مذهب ، مؤيداً رأيه بسيرة الأنبياء وآيات القرآن وأشعار الشعراء ، ذاكراً من القصص والأمثال ، ما يُزكّي العصا ، ويشرف حاملها ، « لأنَّ الشَّعْبِيَّةَ قد طعنت في جملة هذا المذهب على قضيب النبي (ص) وعزته ، وعلى عصاه ومخصرته ، وعلى عصا موسى ، لأن موسى عليه السلام ، قد كان اتخذها من قبل أن يعلم ما عند الله فيها » (28) .

ويُهَجِّنُ أبو عثمان رأيَ الشَّعْبِيَّةِ ، وينسبُه إلى الجَهْلِ وَعَدَمِ المَعْرِفَةِ ، إذ « لو عَلِمَ القَوْمُ أخلاقَ كُلِّ مَلَّةٍ ، وزَيَّ أهلِ كُلِّ لُغَةٍ ، وعللهم في ذلك ، واحتجاجهم له ، لَقُلَّ شَعْبُهُمْ ، وَكَفُونَا مَوْتَنَتَهُمْ » (29) فهذه الرُّهْبَانُ تتخذُ العَصِيَّ من غيرِ حاجةٍ ظاهرةٍ إليها . ولا بدَّ للجاثليق (30) من قناعٍ ومن مظلةٍ ومن عَكَازَةٍ ومن عصا من غير أن يكون الدَّاعِي إلى ذلك كبيراً ولا عَجْزاً ، فكما أنَّ العصا من سيما الرُّهْبَانِ والجاثليق ، فالعَمَّةُ والعصا عند العرب من السِّمَا ، وقد يتخلى الخَطِيبُ من العرب عن كُلِّ شيءٍ إلا العَمَّةَ والعصا أو ما يقوم مقامهما .

وَدَافَعَ أبو عثمان عن مذاهب العرب في أسمائها ، وَرَدَّ شُبُهَةَ الشَّعْبِيَّةِ في طَعْنِهَا على العربيَّةِ وأهلها ، فقال : « والعرب ، إنما كانت تسمَّى بكلب وحمار ، وحجر ، وجُعَل ، وحنظلة ، وقرَد ، على التفاضلِ بذلك ، وكان الرجل إذا وَلِدَ له ذَكَرٌ ، خَرَجَ ، يتعرضُ لِرَجْرِ الطَّيْرِ والقَالِ ، فإنَّ سمعَ إنساناً يقول حجراً ، أو رأى حجراً ، سَمَّى ابنَهُ به ، وتفاءَلَ فيه الشَّدَّةُ والصلابة ، والبقاء والصبر ، وأنه يحطُّ ما لَقِيَ . وكذلك إنَّ سمعَ إنساناً يقول : ذنباً ، أو رأى ذنباً ، تأوَّلَ فيه الفطنة ،

(27) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 406.

(28) مصدر نفسه ج : 3 ص : 432

(29) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 432.

(30) الجاثليق : كلمة يونانية تعني كبير الأساقفة

والخبْ والمَكْر والكسْب . وإن كان حماراً ، تأوَّل فيه طُول العُمُرِ والوقاحة والقوَّة والجَلَد ، وإن كان كلباً ، تأول فيه الحِرَاسَةَ واليَقْظَةَ وبعد الصوت والكسب وغير ذلك (31) .

فإذا قالت الشعبية : لو كان العربي يذهب في تسمية أبنائه هذا المذهب ، فلم لم يسم ببغل وبرذون وأشباه ذلك وهذه الأسماء من لغته ، كما أن تلك الأسماء من لغته ؟

نجد الجاحظ أو من يروي الجاحظ عنه يتلجلج في جوابه ، فيدعي أن ذلك لم يكن « لأنه لا يكاد يرى بغلاً أو برذوناً ، ولعله لا يكون رأهما قط ، وإن كانت الأسماء عندهم عتيقة لأمر لعلمهم يحتاجون إليها يوماً » (32) .

ولا أدري كيف يمكن لأبي عثمان وهو من هو في طول الباع والجدال والمناظرة ، أن يجيب بهذا الجواب ، وكيف يمكن للغه أن يكون في ألفاظها أسماء متداولة لا دلالة لها على أعيان محددة ولا هي صفات لتلك الأعيان ؟

فتقول الشعبية : إذا كان لم ير بغلاً أو برذوناً ، فقد رأى البعير والفرس ، كما رأى الحمار والثور ، وهذه أسماء يستقيم اشتقاق الأسماء منها كالحمار والثور ، ومع هذا نجد العربي يسمي بنجم ، ولا يسمي بكوكب ، والعرب تسمي بجبل وسند وطود ، ولا تسمي بأحد ، وثير وأجأ وسلمى ورضوى ، وهي ظاهرة لهم ماثلة أمامهم ويسمون ببرج ، ولا يسمون بفلك . وهم يسمون بشمس وقمر على جهة التلقب والمديح ، ولم يسموا بأرض وسماء وماء وهواء وهذه أصول أبلغ في الزجر ، كما أن جبلاً أبلغ من حَجَر وطوداً أجمع من صَخْر . وقد سمّت العرب بأسد وضرغامه ، وتركوا التسمية بسبع وسبعة ، والسبع اسم جامع لكل ذي ناب ومخلب (33) .

(31) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 324 .

(32) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 325 .

(33) مصدر نفسه ، ج : 1 ص : 325 — 326 .

وَيُثَبِّتُ الْجَاحِظُ رَوَايَاتٍ مُخْتَلِفَةً فِي الرَّدِّ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ ، مِنْهَا أَنَّ الْعَرَبَ سَمَّتْ بِأَسْمَاءِ الْجِبَالِ ، فَتَسَمَّوْا بِأَبَانَ وَسَلْمَى . وَمِنْهَا أَنَّ هَذِهِ أَسْمَاءُ أَنَاسٍ سَمَّوْا بِهَا هَذِهِ الْجِبَالِ ، وَقَدْ كَانَتْ لَهَا أَسْمَاءُ تُرِكَتْ لثِقَلِهَا ، أَوْ لَعَلَّةٍ مِنَ الْعِلَلِ . وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ تَفْسِّرُ تَسْمِيَتَهُمْ بِسَلْمَى وَتَرْكَهُمْ أَجَا وَرَضَوَى .

بَلْ رُبَّمَا اتَّفَقَ لِوَاحِدٍ أَنْ سَمِعَ أَوْ رَأَى حِمَاراً ، فَسَمَّى ابْنَهُ بِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الْكَلْبَ وَالذَّبَّ وَمَا أَشْبَهَ ، وَلَمْ يَتَّفَقْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَنْ سَمِعَ بِفَرَسٍ أَوْ هَوَاءٍ أَوْ مَاءٍ ، فَإِذَا نَمَا ذَاكَ الطِّفْلُ الْمُسَمَّى بِكَلْبٍ أَوْ حِمَارٍ أَوْ ثَوْرٍ ، وَصَارَ رَجُلًا مُعْظَمًا ، أَوْ سَيِّدًا نَبِيلاً ، تَتَابَعَتِ الْعَرَبُ تَطْيِيرَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَكْثُرُ ذَلِكَ فِي وَلَدِهِ خَاصَّةً بَعْدَهُ ، وَعَلَى ذَلِكَ صَارَ كُلُّ عَلِيٍّ يَكْنَى بِأَبِي الْحَسَنِ ، وَكُلُّ عُمَرَ يَكْنَى بِأَبِي حَفْصٍ فَالْأَسْمَاءُ ضُرُوبٌ ، وَمِنْهَا شَيْءٌ أَصْلِي كَالسَّمَاءِ ، وَالْأَرْضِ ، وَالْهَوَاءِ ، وَالْمَاءِ ، وَالنَّارِ ، وَأَسْمَاءٌ أُخَرُ مُشْتَقَاتٌ عَلَى جِهَةِ الْفِعْلِ ، وَعَلَى شَكْلِ اسْمِ الْأَبِ ، كَالرَّجُلِ يَكُونُ اسْمُهُ عُمَرُ وَيُسَمَّى ابْنُهُ عُمَيْرًا » (34).

وَأَمَّا وَجْهُ تَصْغِيرِ الْعَرَبِ لِلْكَلَامِ ، فَرُبَّمَا صَغُرَتْ الْعَرَبُ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ الشَّفَقَةِ وَالرَّقَةِ ، وَلَيْسَ إِلَى التَّصْغِيرِ يَقْصِدُونَ ، فَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ : « إِنَّمَا فُلَانٌ أَخِي وَصُدَيْقِي ، وَلَيْسَ التَّصْغِيرُ يَرِيدُ وَكَقَوْلِهِمْ لِأَبِي قَابُوسَ الْمَلِكِ : أَبُو قَبِيْسٍ ، وَكَقَوْلِهِمْ ذَبْتُ إِلَيْهِ دُرُوْهِيَّةَ الدَّهْرِ ، وَذَلِكَ حِينَ أَرَادُوا لَطَافَةَ الْمَدْخَلِ وَدِقَّةَ الْمَسَلِكِ » (35) وَكُلُّ أَسْمَاءِ الْعَرَبِ الَّتِي عَلَى وَزْنِ فُعَيْلٍ ، فَلِئَمَّا هِيَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَيْسَ عَلَى مَعْنَى التَّحْقِيرِ وَالتَّصْغِيرِ « وَرَبَّ اسْمٍ إِذَا صَغُرَتْهُ ، كَانَ أَمَلًا لِلصَّدْرِ مِثْلَ قَوْلِكَ أَبُو عُبَيْدٍ اللَّهِ ، هُوَ أَكْبَرُ فِي السَّمَاعِ مِنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ، وَكَعْبُ ابْنِ جُعَيْلٍ ، هُوَ أَفْخَمُ مِنْ كَعْبِ ابْنِ جُعَلٍ » (36).

وَفَخَّرَ الْجَاحِظُ بِالْعَرَبِ وَمَعْرِفَتَهَا لِلْأَثَارِ وَالْأَنْوَاءِ وَالنَّجُومِ ، فَقَالَ : « وَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ ، عَرَفُوا الْأَثَارَ فِي الْأَرْضِ وَالرَّمْلِ . وَعَرَفُوا الْأَنْوَاءَ وَنَجُومَ الْإِهْتِدَاءِ ، لِأَنَّ كُلَّ

(34) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 326 — 327.

(35) مصدر نفسه ، ج : 1 ص : 336.

(36) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 337.

مَنْ كَانَ بِالصَّحَاحِ الْأَمَالِيسِ - حَيْثُ لَا إِمَارَةَ وَلَا هَادِي ، مَعَ حَاجَتِهِ إِلَى بَعْدِ الشَّقَّةِ - مُضْطَرّاً إِلَى التَّمَسُّكِ مَا يُنْجِيهِ ، وَيُؤَدِّيهِ ، وَلِحَاجَتِهِ إِلَى الْغَيْثِ ، وَفِرَارِهِ مِنْ الْجَدْبِ ، وَضَنِّهِ بِالْحَيَاةِ ، اضْطَرَّتْهُ الْحَاجَةُ إِلَى تَعَرُّفِ شَأْنِ الْغَيْثِ . وَلَآئِهْ فِي كُلِّ حَالٍ يَرَى السَّمَاءَ ، وَمَا يَجْرِي فِيهَا مِنْ كَوَاكِبَ ، وَيَرَى التَّعَاقُبَ بَيْنَهَا ، وَالنَّجُومَ الثَّوَابِتَ فِيهَا ، وَمَا يَسِيرُ مِنْهَا مُجْتَمِعاً ، وَمَا يَسِيرُ مِنْهَا فَارِداً وَمَا يَكُونُ مِنْهَا رَاجِعاً⁽³⁷⁾

ومعارف العرب غير مقصورة على الآثار في الرمال ومعرفة الأنواء ، ونجوم الإهتداء ، فمعارفهم بالحيوان تضارع معارف الشعوب الأخرى ، وهي نتيجة الخبرة في المعاشية والمكابدة⁽³⁸⁾ .

وَفَنَّدَ الْجَاحِظُ مَطَاعِنَ الشُّعُوبِيَّةِ فِي آيَاتِ الْعَرَبِ الْحَرَبِيَّةِ وَاسَالِيهِمُ الْقِتَالِيَّةِ وَقَالَ : « إِنَّ الْعَرَبَ تَقَاتِلُ بِاللَّيْلِ كَمَا تُقَاتِلُ بِالنَّهَارِ ، وَإِذَا تَمَثَّلَ الشُّعُوبِيُّونَ بِبَعْضِ الشَّعْرِ كَدَلِيلٍ عَلَى جَهْلِ الْعَرَبِ الْقِتَالِ اللَّيْلِ ، فَقَدْ أَوْرَدَ الْجَاحِظُ مِنَ الْأَدْلَةِ وَالْأَشْعَارِ ، وَمَا يَكْفِي لِدَفْعِ هَذَا الْإِدْعَاءِ⁽³⁹⁾ . وَأَمَّا الْإِدْعَاءُ بِأَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَعْرِفِ الرِّكْبَ ، فَقَدْ أَجْمَعَ الرُّوَاةُ عَلَى أَنَّ الرِّكْبَ قَدِيمَةٌ ، وَإِنْ كَانَتِ الْعَرَبُ لَمْ تَعْرِفِ رَكْبَ الْحَدِيدِ إِلَّا آيَامَ الْأَزْرَاقَةِ . وَالْعَرَبُ لَا تَسْتَعْمَلُ الرِّكْبَ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ الْقُصْوَى ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنْزُو نَزْواً ، وَتَمَثَّلُ بِحَدِيثِ لَعْمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ : « لَا تَخُورْ قَوْى مَا كَانَ صَاحِبُهَا يَنْزُو ، وَيَنْزِعْ »⁽⁴⁰⁾ . وَبِحَدِيثِ آخِرٍ لَهُ (رَض) وَقَدْ رَأَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ ، وَقَدْ أَخْصَبُوا ، وَهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِمُقَارَبَةِ عَيْشِ الْعَجَمِ : « تَمَعَّدُوا ، وَاخْشَوْشُونُوا ، وَأَقْطَعُوا الرِّكْبَ ، وَانْزَوْا عَلَى الْخَيْلِ نَزْواً »⁽⁴¹⁾ .

وَزَعَمَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَدْعِ الرِّكْبَ لِلرَّحْلِ ، فَكَيْفَ تَدْعُهُ لِلسَّرَجِ ، لَكِنْ

(37) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 30.

(38) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 268 ، ج : 6 ص : 28 — 29.

(39) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 401.

(40) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 402.

(41) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 402.

أَبْطَلَهُمْ كَرَهُوا اسْتِعْمَالَهَا إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، كَرَاهَةَ أَنْ يَتَكَلَّوْا عَلَى مَا يُورِثُهُمُ
الْوَهْنُ ، وَالِاسْتِرْخَاءُ .

أَمَّا طَعْنُهُمْ فِي شَأْنِ رِمَاحِ الْعَرَبِ ، فَبَاطِلٌ ، وَالْأَمْرُ غَيْرُ مَا يَدَّعُونَ فَالْرِمَاحُ
عِنْدَ الْعَرَبِ طَبَقَاتٌ : مِنْهَا : النَّيْزُكُ وَالْمَرْبُوعُ وَالْمَخْمُوسُ وَالْخَطْلُ الَّذِي يَضْطَرِبُ
فِي يَدِ صَاحِبِهِ لَطُولِهِ . وَلِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الرِّمَاحِ وَقْتُ هُوَ أَجُودُ فِيهِ مِنْ غَيْرِهِ .
وَالْعَرَبِيُّ إِنْ اقْتَنَرَ بِطُولِ رِمَحِهِ ، فَأَخْبَرَ عَنْ فَضْلِ قُوَّتِهِ فَقَدْ افْتَخَرَ بِقَصْرِ سَيْفِهِ ،
فَذَلَّ عَلَى نَجْدَتِهِ .

وَالْعَرَبُ تَتَّخِذُ الرِّجَّ لِسَافِلَةِ الرِّمَحِ وَالسَّيْفِ لَعَالِيَتِهِ ، لِأَنَّهَا تَحَارِبُ بِالرَّاسَيْنِ
مَعًا ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : « لَقِيْتَهُ سَقَابًا وَنَقَابًا ، أَيِ مُوَاجِهَةٍ أَحَدَاهُمَا بِعَالِيَةِ الرِّمَحِ
وَالْآخَرُ بِسَافِلَتِهِ » (42) .

وَكَمَا افْتَخَرَ الْعَرَبِيُّ بِقَصْرِ سَيْفِهِ لِيُخْبِرَ عَنْ نَجْدَتِهِ ، فَقَدْ افْتَخَرَ بِطُولِهِ يَخْبِرُ
عَنْ قُوَّتِهِ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

« بِكُلِّ طَوِيلٍ السَّيْفِ ذِي خَبِيرَاتٍ جَرِيءٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ مُعْتَمِدِ الشُّطْبِ » (43) .

وَقَدْ هَاجَمَ الشُّعُوبِيُّونَ - كَمَا أَشْرْنَا مِنْ قَبْلِ - الْعَادَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَعَابُوا الْكِرْمَ وَذَمُّوهُ ،
وَمَدَحُوا الْبَخْلَ ، وَتَعْصَّبُوا لَهُ وَدَعَا إِلَيْهِ ، وَعَابُوا مَا كَلَّ الْعَرَبُ وَمَشَارِبَهُمْ . فَانْبَرَى
لَهُمُ الْجَاحِظُ فِي بَخْلَائِهِ ، يَصُورُ حَرَكَاتِ نَفْسِهِمْ وَحَرَصَهُمْ ، وَتَمَكَّنَ الْبَخْلُ فِي
طَبَاعِهِمْ بِأَسْلُوبِهِ السَّاخِرِ ، يَضْحَكُ مِنْهُمْ ، وَيُدْفَعُ النَّاسَ لِلضَّحْكِ مِنْهُمْ وَالسَّخِرِيَّةِ
بِهِمْ .

وَلِئِنْ صَرَّحَ عَنْ غَايَتِهِ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ ، فَقَالَ : « وَلَكَّ فِي هَذَا الْكِتَابِ ثَلَاثَةُ
أَشْيَاءٍ : تَبَيَّنَ حُجَّةٌ طَرِيفَةٌ ، أَوْ تَعْرِفُ حِيلَةً لَطِيفَةً ، أَوْ اسْتِفَادَةٌ نَادِرَةٌ عَجِيبَةٌ ، وَانْتَ
فِي ضَحْكِكَ مِنْهُ إِذَا شِئْتَ وَفِي لَهْوٍ إِذَا مَلَلْتَ الْجِدَّ » (44) .

(42) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 404 .

(43) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 404 .

(44) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 17 .

فَعَايَةُ الْجَاحِظِ مِنْ كِتَابِهِ أَدَبِيَّةٌ تَهْدِفُ إِشَاعَةَ الْفُكَاةِ وَالْمَرْحِ وَالضُّحْكِ ، وَقَدْ مَدَحَ الضُّحْكَ وَرَغَّبَ فِيهِ ، فَلَوْ « كَانَ الضُّحْكَ قَبِيحاً مِنَ الضَّاحِكِ ، وَقَبِيحاً مِنَ الْمُضْحِكِ ، لِمَا قِيلَ لِلزُّهْرَةِ وَالْحَبْرَةِ وَالْحَلَى وَالْقَصْرِ الْمُبْنَى : كَأَنَّهُ يَضْحَكُ ضَحْكَاً ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : (وَإِنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وَإِنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) (45) فَوَضَعَ الضُّحْكَ بِحِذَاءِ الْحَيَاةِ ، وَوَضَعَ الْبُكَاءَ بِحِذَاءِ الْمَوْتِ . . . وَلِفَضْلِ خِصَالِ الضُّحْكَ عِنْدَ الْعَرَبِ تَسْمِي أَوْلَادَهَا بِالضُّحَّاكِ وَبِسَامٍ وَبَطْلَقِي وَبَطْلَقِي » (46) .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ الْكِتَابُ ، وَكَأَنَّهُ تَعْرِیْضٌ بِالشُّعُوبِيَّةِ وَأَرْبَابِهَا وَتَسْفِیةٌ لِعُقُولِهَا وَأَحْلَامِهَا وَحِكَايَةٌ لَتَنَاقُضِهَا وَاهْتِرَازِهَا . صَدَّرَهُ أَبُو عَثْمَانَ بِرِسَالَةٍ سَهْلِ ابْنِ هَارُونَ فِي الْبُخْلِ (47) وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِشُعُوبِيَّتِهِ وَشِدَّةِ عَصَبِيَّتِهِ عَلَى الْعَرَبِ ، ثُمَّ بَدَأَ بِأَهْلِ خُرَاسَانَ ، لِأَنَّ النَّاسَ أَكْثَرُوا فِيهِمْ لِمَا ظَهَرَ مِنْ بَخْلِهِمْ (48) .

لَمْ يَتَوَرَّعْ أَبُو عَثْمَانَ عَنْ ذِكْرِ بَخْلَاءِ الْعَرَبِ وَحِكَايَةِ نَوَادِرِهِمْ ، وَخَصَّ بِخَلَاءِ عَصْرِهِ مِمَّنْ عَاشَهُمْ بِكَثِيرٍ مِنَ النَّوَادِرِ وَالْأَقَاصِيصِ ، فَأَثَبَتْ رِسَالَةُ لِأَبِي الْعَاصِ ابْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الثَّقَفِي (49) فِي ذَمِّ الْبُخْلِ وَالْبُخْلَاءِ ، وَمَذَحِ الْكَرَمِ وَالْكَرَمَاءِ ، وَافْتَحَرَ فِيهَا بِأَنَّ الْكَرَمَ فَضِيلَةٌ قَدْ مَجَّدَتْهَا الْعَرَبُ وَتَوَاصَّتْ فِيهَا ، وَنُوءَ بِذِكْرِهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ .

ثُمَّ أَعَقَّبَهَا بِرِسَالَةٍ لِابْنِ التَّوَّامِ (50) يَحْتِجُّ فِيهَا لِلْبُخْلِ وَأَهْلِهِ ، وَيُزِرِّي عَلَى الْكَرَمِ وَأَهْلِهِ ، وَيَسْخَفُ عُقُولَهُمْ ، وَيَسْفُسُ أَحْلَامَهُمْ سَالِكاً فِي ذَلِكَ مُسَلِّكُ الشُّعُوبِيَّةِ فِي الطَّغْنِ عَلَى الْعَرَبِ وَثَلْبِهِمْ (51) .

(45) القرآن الكريم ، سورة : النجم رقم الآية : 43

(46) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 18 .

(47) مصدر نفسه . ص : 21 .

(48) مصدر نفسه . ص : 30 .

(49) مصدر نفسه ص : 220 .

(50) مصدر نفسه . 239 .

(51) مصدر نفسه . ص : 255 ، 244 .

وَأَخْتَمَ كِتَابَهُ بِطَعَامِ الْعَرَبِ وَضُرُوبِهِ ، وَالْمَمْدُوحِ مِنْهُ وَالْمَذْمُومِ . فَعَدَّدَ أَنْوَاعَ
الْوَلَاثِمِ عِنْدَ الْعَرَبِ كَالْعُرْسِ (52) وَالْخُرْسِ (53) وَالْإِعْذَارِ (54) وَالْوَكِيرَةِ (56) ،
وَالنَّقِيعَةِ ، (56) وَذَكَرَ مُنَاسَبَاتِهَا وَأَوْقَاتِهَا (57) وَنَوَّهَ بِكَرَمِ الْعَرَبِ ، وَتَمَادِحِهِمْ بِدَعْوَةِ
الْجَفَلَى ، وَذَمُّهُمْ النَّقْرَى (58) وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

« نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى (59) تَرَى الْأَدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ » (60)

وَعَدَّدَ أَصْنَافَ الطَّعَامِ الْمَذْمُومِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَلَمْ ذَمُّوهُ ، فَجَعَلَهُ ضَرِيْبِينَ :
« أَحَدُهُمَا طَعَامُ الْمَجَاوِعِ وَالْحَطَطَاتِ وَالضَّرَائِكِ وَالسَّبَارِيَتِ (61) وَاللَّثَامِ وَالْجَبْنَاءِ
وَالْفُقَرَاءِ ، مِنْ ذَلِكَ الْفَتْحُ وَالْدُّعَاعُ وَالْهَيْبِدُ وَالْقُرَامَةُ وَالْقُرَّةُ وَالْعُسُومُ وَمُنَقَّعُ الْبَرَمِ
وَالْقَصِيدُ وَالْقَدَّ (62) وَالْحَيَاتِ » (63) . وَالصَّنْفُ الْآخَرُ كَالْخَزِيرَةِ (64) الَّتِي تَعَابُ بِهَا
مَجَاشِعُ ابْنِ دَارِمٍ ، وَكُنْحُو السَّخْنِيَةِ (65) الَّتِي تَعَابُ بِهَا قَرِيْشٌ . كَمَا تَهْجُو الْأَنْصَارُ
بِأَكْلِ التَّمْرِ (66) .

(52) العرس : وليمة الزواج .

(53) الخرس : وليمة الولادة .

(54) الإعذار : طعام الختان .

(55) الوكيرية : طعام البناء .

(56) النقيعة : ما ينحر من الأبل والغنم من عرض المغنم .

(57) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 297 وما بعدها .

(58) مصدر نفسه . ص : 301 .

(59) الجفل : الدعوة العامة ، النقري : الدعوة الخاصة ، الأدب : الصانع للمأدبة .

(60) الجاحظ البخلاء . ص : 297 .

(61) المجاوع : الواحدة جماعة ، الحططات : الواحدة حطمة السنة الشديدة ، الضرائك : الواحد ضريك :

الفقير البائس ، السباريت : واحدها سبروت : المحتاج المقل .

(62) الفت : نب يخبز حبه ويؤكل في الجذب ، الدعاع : حبة سوداء يأكلها أهل البادية ، الهيبد : الحنظل ،

القرامة : نحانة القرون والأظلاف ، القررة : الدقيق المختلط بالشعر ، العسوم : الواحد عسم : الخبز

اليابس ، البرم : ثمر شجر العضاء ، القصيد : اللحم اليابس ، القد : جلد السخلة

(63) الجاحظ البخلاء . ص : 303 .

(64) الخزيرة : مرققة تطبخ من النخالة المبلولة .

(65) السخنية : طعام يطبخ من الدقيق والماء ويؤكل بتمر .

(66) الجاحظ البخلاء . ص : 325 — 326 .

ومن شرابهم الفَظ ، وكذلك المَجْدوح ، وهو ماء ⁽⁶⁷⁾ المصافنة ⁽⁶⁸⁾ وهم في ذلك معذورون ، « وقد يُصِيبُ القَوْمَ في بادِيَتِهِمْ ، ومواضعهم من الجُهدِ ما لم يُسَمَّعَ به في أَمَةٍ من الأممِ ، ولا في نَاجِيَةٍ من النُّواجِي » ⁽⁶⁹⁾ « وهم وإن كانوا في بلاد جَدَبٍ ، فإنَّهم أحسنُ النَّاسِ حالاً في الخصبِ ، فلا تَظُنُّنَّ أَنَّ كُلَّ ما يصفون به قدورهم ، وجِفَانَهُمْ وثَرِيدَهُمْ وخَيْسَهُمْ باطلٌ » ⁽⁷⁰⁾ .

إلا أَنَّ الشعوبية « تَزِيدُ في خُسُوفِ عَيْشِهِمْ ، وخُسُوفِ ملبسهم ، وتَنقُصُ من نعيمهم ، وَرَفَاغَةِ عَيْشِهِمْ » ⁽⁷¹⁾ ، وهم من أحسنِ الأممِ حالاً مع الغيثِ ، وأسوئهم حالاً إذا خَفَّتِ السَّحَابُ . . . وإذا نَظَرْتُ في أشعارِهِمْ عَلِمْتُ أَنَّهُمْ قد أَكَلُوا الطَّيِّبَ وَعَرَفُوهُ ، لأنَّ النَّاعِمَ من الطَّعامِ لا يكونُ إِلَّا عندَ أَهْلِ الثَّراءِ وَأَصْحَابِ العَيْشِ » ⁽⁷²⁾ .

وَيُعَدُّ الْجَاحِظُ أَصْنَافَ الطَّعامِ عِنْدَ الْعَرَبِ كَالدَّرْمَكِ وَالْفَالَوْدَقِ ، والثريدِ وَالْحَيْسِ ⁽⁷³⁾ وَالْخُبْزِ ⁽⁷⁴⁾ وَيُنَبِّئُ لَأَمْرٍ مَهْمٌ في مِثَالِ الْقَبَائِلِ ، وذلك أَنَّ « الْعَرَبَ إِذَا وَجَدَتْ رَجُلًا مِنَ الْقَبِيلَةِ أَتَى قَبِيحًا أَلَزَمَتْ ذَلِكَ الْقَبِيلَةَ كُلَّهَا ، كما تُمَدِّحُ الْقَبِيلَةَ بفعلٍ جَمِيلٍ ، وإنَّ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا بواحد منها » ⁽⁷⁵⁾ . فَتَسْتَغِلُّ الشُّعُوبِيَّةُ هَذِهِ

(67) المصافنة : مقاسمة الماء في المازي والأسفار .

(68) الجاحظ البخلاء . ص : 303 .

(69) مصدر نفسه . ص : 307 .

(70) مصدر نفسه . ص : 313 .

(71) جشوبة : غلاظة ، رفاغة العيش : سعته وهناؤه .

(72) مصدر نفسه . ص : 319 .

(73) الدرمة : الخواري وهو من الطعام المدوح ، الفالودق : وهو من الطعام المدوح أيضاً وقد مدحه أمة ابن أبي الصلت فقال :

إلى رُوح من الشَّيْزِي عليها لُبَابُ الْبَرِّ يُبَلِّكُ بِالشَّهَادِ .
والشَّهَدُ الْعِسل . والثريد : نوع آخر من الطعام يشتم الخبز فيه ويطبخ . والحيس : تمر يتزع نواه ويدق مع الجبن ويعجنان بالسمن ثم يدلك باليد حتى يصير كالثريد .

(74) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 319 وما بعدها .

(75) مصدر نفسه . ص : 326-327 .

المطاعن والمثالب ، فتعممها على القبائل وتنسبها لجميع العرب .

وإذا افتخرت الشعوبية ببنيان العجم كرمز من رموز الحضارة ، أجاب الجاحظ بأن العرب قد شاركت العجم في البنيان ، فبنوا غمدان وكعبة نجران ، وقصر مارد ، وقصر مأرب ، وقصر شعوب والأبلق الفرد ، وفيه وفي مارد ضربوا المثل ، فقالوا : « تمرّد مارد وعز الأبلق » (76) .

فالعرب شاركت العجم في البنيان ، وانفردت بالشعر والبيان ، والشعر أقدر على البقاء من بنیان الحجارة ، وحيطان المدّر « لأن من شأن الملوك ، أن يطمسوا على آثار من قبلهم ، وأن يُميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن ، وأكثر الحصون » (77) بينما لو اجتمعت ملوك الأرض لطمس قصيدة سارت ، وانتشرت بين الناس ، لفشلوا في ذلك .

وفضّح الجاحظ أسلوب الشعوبية في الطعن على العرب والإسلام ، وكشفه ، وحذّر منه من ذلك رواية الهيثم ابن عدى بإسناد في وصف الأحنف - وكان سيد تميم - أنه « كان أصعل الرأس ، أحجن الأنف ، أغضن الأذن ، متراكب الأسنان ، أشدق الذقن ، ناتيء الوجنة ، باخق العين ، خفيف العارضين ، أحنف الرجلين ، ولكنه إذا تكلم جلى عن نفسه » (78)

فطعن أبو عثمان في هذه الرواية ، وقال : « ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضاً لمنعه ، ولولا أنه لم يجد بداً من أن يجعل له شيئاً على حال ، لَمَا أَقَرَّ بأنه إذا تكلم جلى عن نفسه ... المثل الأحنف يقال : إلا أنه إذا تكلم جلى عن نفسه » (79) .

وكثيراً ما كان أبو عبيدة يتخذ من التفسير والتأويل مطية للطعن على

(76) الجاحظ ، الحيوان ، ج : ١ ص : 72 — 73 .

(77) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 73 .

(78) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : ١ ص : 44 .

(79) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 44 — 45 .

العرب وثلبهم ، من ذلك تأويله لقول الله عز وجل (وثموداً فما أبقي) (80) فزعم أن في قبائل العرب بقايا من ثمود ، فناقش أبو عثمان تأويل أبي عبيدة ، فقال : « أنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن ، ويزعم أن في قبائل العرب من بقايا ثمود . وكان أبو عبيدة يتأول قوله : (وثموداً فما أبقي) أن ذلك إنما وقع على الأكثر وعلى الجمهور الأكبر . وهذا التأويل أخرجه من أبي عبيدة سوء الرأي في القوم ، وليس له أن يجيء إلى خبر عام مُرسَل غير مقيّد ، وخبر مطلق غير مستثنى منه فيجعله خاصاً كالمستثنى منه ، وأي شيء بقي لطاعن أو متأول بعد قوله (81) : (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) » (82) ؟

وإزاء تعصب الشعوبيين للثقافة الفارسية والثقافات الأعجمية ، وازدراؤهم لثقافة العرب وتراثهم ، وإعراضهم عن كل ما يمت لهذا التراث بصلة (83) وإزاء اقتران الشعوبية بالزندقة وتلازمها معها (84) فقد جعل أبو عثمان كتبه معرضاً فذاً لتألف الثقافات وتزواجها فلم يتعصب لثقافة أو على ثقافة ، فالثقافات جميعاً تغذى العقل وتهذب الحس ، وتبسط المعرفة ، وتحكي عن تجارب الأمم ، وإذا كان العلم والمعرفة غايته ، فلا ضير أن يبحث عنها أنى وجدها في ثقافة العجم وتراثهم أو ثقافة العرب وتراثهم ، ومن ينظر في فهرست كتبه ، يعلم أنه سبر أغوار المعرفة ، واستلهم كل الثقافات ، وألف في أخلاق الملوك ، كما ألف في أخلاق اللصوص والذعار والسوقة . ألف في الإمامة ووجوبها والنبوة وحججها ، ورد على

(80) القرآن الكريم ، سورة النجم ، رقم الآية : 51.

(81) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 1 ص : 109.

(82) القرآن الكريم ، سورة الحاقة ، رقم الآية : 8.

(83) الجاحظ ، ذم اخلاق الكتاب (ثلاث رسائل) ص : 42 — 43.

(84) مصدر نفسه . ص : 47 — 48.

لاحظ أبو عثمان أن الزندقة نتيجة من نتائج الشعوبية ، وقد سرد في هذه الرسالة أسماء بعض الكتاب الشعوبيين المتزندقين ، أمثال يونس ابن أبي فروة ، ويزدبادان وإبراهيم ابن إسماعيل ابن داود وغيرهم ، وانظر للمؤلف نفسه كتاب الحيوان ، ج : 7 ص : 220 ففيه تصوير دقيق للحالة النفسية للشعوبيين الذين يرمقون في أحضان الزندقة .

الزَّادِقَةُ والمَلَايِدَةُ وغيرهم من أصحاب الفرق وأهل الملل والديانات ، تكلّم في العرض والجوهر والجزء الذي لا يتجزأ وألّف في اللَّائِقَةِ وتحدّث عن المغنين .
ألّف في الحيوان والكيمياء وتحدّث عن الطبّ والأطباء وغير ذلك من أصناف المعرفة وأنواع العلوم ⁽⁸⁵⁾ .

ولعلّ خير كتبه التي يظهر فيها مزجه بين الثقافات المختلفة مزجاً واضحاً ، هو كتاب الحيوان الذي ألّفه لبيان قدرة الله عزّ وجلّ وحكمته من خلال مخلوقاته ، وهو كتاب - كما يقول - « تستوي فيه رَغْبَةُ الأَمَمِ ، وَتَشَابَهُ فِيهِ العَرَبُ والعَجَمُ ، لأنّه وإن كان عربياً أعرابياً وإسلامياً جَماعياً ، فقد أخذ من طَرَفِ الفلسفة ، وجمع بين معرفة السَّماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسّة وإحساس الغريزة » ⁽⁸⁶⁾ .

فالكتابُ مزيجٌ من ثقافة اليونان والفرس والهند والعرب وخليط من ديانات الفرس واليهودية والنصرانيّة والإسلام ، إضافة الى مذاهب الذّهريّة والفلاسفة والزنادقة . أمّا مصادِرُهُ فكثيرةٌ منها كتابُ الله وحديثُ رسولِهِ ، والتوراة والإنجيل ، ومنها أشعارُ العرب في الحيوان ، فالشعرُ العربي تحدّث عن الحيوان ، فوصف الأليفَ منه والوحشيَّ . ويعتقدُ الجاحِظُ أنّ معرفةَ العَرَبِ بالحيوانِ لا تَقِلُّ عن معرفة الشعوب الأخرى ، واعتقاده ناتج عن استقراره للشعر العربي ومقارنة معانيه بما جاء في كتب الأطباء والفلاسفة ، فقال : « وَقُلُّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة ، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين ، إلّا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب ، وفي معرفة أهل لغتنا وملّتنا . ولولا أنّ يطول الكتاب لذكرنا ذلك أجمع » ⁽⁸⁷⁾ .

ومعرفةُ العرب بالحيوان - عنده - نتيجةٌ للمُعاشرةِ والمكابدةِ ، فهم محتاجون

(85) الجاحِظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 3.

ياقوت ، معجم الادباء ، ج : 16 ص : 106 وما بعدها .

(86) الجاحِظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 11.

(87) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 268.

إليه في معاشهم كحاجتهم للمأشئة والأنعام والكلاب . يُكَايِدُونَ منه في تَرْحِلِهِمْ وَتَبْدِيهِمْ ، فقد « يُتَلَوْنَ بالناب والمخلب ، والدَّغِرُ والتَّسْعِرُ ، والعضُّ والأكل . فخرجت بهم النحال الى تعرف حال الجاني والجارج والقاتل ، وحال المجني عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطَّلَبُ والهَرَبُ ، وكيف الداء والدواء » (88)

وثقة الجاحظ بهذا المصدر (أعني الشعر العربي) كبيرة ، وكثيراً ما يرجحها على أقوال أرسطو ، فبعد أن ذَكَرَ قولَ أرسطو في عقوق العقاب ، يقول : « هذا قولُ صاحب المنطق في عقوق العقاب وجفائها لأولادها ، فأما أشعارُ العرب ، فهي تدلُّ على خلاف ذلك ، قال دريد ابن الصمة :

وكلُّ لجوجٍ في العنانِ كأنها إذا اغتمست في الماء فتخاء كاسرُ
لها ناهضٌ في الوكرِ قد مهدت له كما مهدت للبعل حسناء عاقرُ (89)

ولهذا السبب ، فالجاحظ لا يبحث في أصنافِ الحيوانِ الذي لم يَنْعَثْ الشعرُ العربيُّ (90) .

ومن مصادر الكتاب أيضاً كتاب الحيوان لأرسطو ، نَقَلَ عنه في مواضع عديدة ، كما نَقَلَ عن أفليمون صاحب الفراسة في الحمام ، ونقل عن جالينوس ، وتحذث عن سلمويه وابن ماسوية وحنين ابن إسحاق ، ونَقَلَ عن ابن المقفع ، وتكلَّم في أساطير الفرس ونيرانهم ، وتحذث عن المانوية والزنادقة وكتبهم وعباداتهم ، وعن اليهود والنصارى والشُّبه التي أُثيرت حول بعض الآيات القرآنية .

ومن مصادره أيضاً بيئة المعتزلة والكلام الذي ولدوه ، وفَتَقُوهُ ، أَصِفَ إلى ذلك خبرةَ الجاحظ الشخصية ، وولوعه بالتجربة ، ورحلاته العديدة إلى الأمصار ، ومجالسته للأطباء والعلماء ، وسؤاله للبحريين والصيادين والقرادين ، والحواثين ،

(88) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 6 ص : 29 .

(89) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 37 .

(90) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 168 — 169 .

فالكتاب معرضٌ للثقافات العربية والفارسية والهندية واليونانية ومزيجٌ من الإسلام والمسيحية واليهودية والزرادشتية والمانوية والدهرية⁽⁹¹⁾.

وما ستعرضُ له من هذا الكتاب هو المناظرةُ بين صاحبِ الكَلْبِ وصاحبِ الديك ، فقد زَعَمَ بعضُ المحدثين : أنَّ تلك المناظرةَ إنما هي مناظرةُ بين العربِ والشُعوبيةِ . فقال الحاجري : « فليس الأصل في العناية بهذين النوعين من الحيوان عند المتكلمين إلا هذا . . . الاعتبار الديني المتصل بالشُعوبيةِ . وما نحسبُ أنَّ هناك وجهاً آخرَ يصلحُ أن يكونَ أصلاً لها نرجعُ إليه في تحليلها ، ونطمئنُ إليه في ذلك . وقد يمكنُ القول بأنَّ الأمرَ بينهما يرجعُ إلى الخصومةِ بين النزعة العربية والنزعة الفارسية⁽⁹²⁾ .

فالكَلْبُ يُضَافُ إلى العربِ ، والدَّيْكَ يُضَافُ إلى العَجَمِ ، والعربُ في نظر الشعوبيةِ قومٌ جفأةٌ غلاطٌ ، رعاةُ إبلٍ وغنمٍ ، الكَلْبُ صديقُهم وصاحبُهم ، وحاجتُهم إليه ظاهرةٌ على هوانِهِ وقذارَتِهِ ولؤمِهِ وخيئِهِ . والعَجَمُ في نظر العربِ قومٌ سكانُ قرى أشبهُ بالأنباط ، أثرتُ فيهم بيئتهم ، فاستكانوا ، وذَلُّوا ، فلا كَرَمَ لهم أو نجدة وهم أشبهُ بالدَّيْكَ الذي يعايشهم ، ويرزُ خِصَالَهُم ، وضعفهم ، وضيقَ حياتهم⁽⁹³⁾ .

وللدَّيْكَ عند العَجَمِ منزلةٌ دينيةٌ قديمةٌ ، تحكيها الخرافات والأساطير ، وتمثِّلُ بتلك الإشارات التي يحكيها شاعرُ كالْحَكَمِ البهراني :

« ثُمَّ أَصْبَحْتُ بَعْدَ خَفْضِ وَلَهْوٍ مَدْنَفًا مَفْرَدًا مُحَالَفَ عُسْرِ
أُتْرَانِي مُقِتُّ مِنْ ذَبْحِ دَيْكٍ وَعَادَيْتُ مِنْ أَهَابِ بَصْفَرٍ⁽⁹⁴⁾ »

(91) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : ١ ص : 399 وما بعدها ، طه الحاجري ، الجاحظ ، ص : 397 وما بعدها . عبد السلام هارون ، مقدمة الحيوان ، ج : ١ ص : 18 وما بعدها ، شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ، ص : 596 وما بعدها .

(92) الحاجري ، الجاحظ ، ص : 403 .

(93) مرجع نفسه . ص : 403 — 404 .

(94) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 6 ص : 84 .

وبالذي يُروى عن أبي نواس ، وقد حُيسَ في حبس الزنادقة ، فسأله مَنْ
يَتَعَهَّدُ ذلك الحبس إن كان زنديقاً ، فيجيب بالنفي ، فسأله إن كان يعبدُ الكبشَ
أو الشمسَ أو الدِّيكَ (95) .

ويستظهر الحاجري برأي العوام في الدِّيكِ ، وبما وُضِعَ على لسان النبي
من أحاديث في تفضيله ، ومحبة الرسول له ، وقدرته على طرد الشياطين
والعفاريت (96) ، فلا يَشْكُ في أنَّ الديك كان رمزاً لحياة الفرس الإجتماعية ،
وأنَّ له صلة بحياتهم الدينية (97) .

والكلب ، وإن لم يكن له تلك المنزلة من القُدَّاسَةِ عند العرب ، فقد كان
له من الصَّلَةِ بحياتهم ، ما يجعله رمزاً لهم في أذهانِ الفُرسِ (98) .

ويتابع ضيفُ الحاجري في رأيه بهذا الشأن ، فيقول : « والمناظرةُ في رأينا
مناظرةُ بين الشعوبيَّةِ والعَرَبِ ، فأما الشعوبيَّةُ فرمزُهم الدِّيكُ الذي يُرى في قراهم
ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذي لا يفارقهم في منازلهم ومراعيعهم ،
وكأنَّ معبد والنظام المعتزلين اسمان اختارهما الجاحظُ ، ليقِيمَ مناظرته ، أمَّا في
حقيقة الأمر ، فليس هناك معبد ولا النظام ، إنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته
الرائعة . . . » (99) .

فهل صحيحُ ما ذهبَ اليه الحاجري وضيف ؟ للحكم في هذه المسألة ، لا
بدُّ من العودة الى الكتابِ نفسه ، واستقراء نصوصه ، لنَحْكُمَ إنَّ حكمنا على
بَيِّنَةٍ ، ونؤيد حُكْمَنَا بالدليل الواضح والبرهان القاطع ، فالمناظرةُ على ما يبدو لم
تَكُنْ من صنع الجاحظ ، وقد اشتهرت ، وانتشرت قبل أن يشرعَ الجاحظُ بتأليف
كتابهِ . والجاحظُ يروي كلامَ من عَابَ تلك المناظرة ، واشتغال مثل النظام

(95) الحاجري ، الجاحظ ، ص : 404 .

(96) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 2 ص : 354، 259 .

(97) الحاجري ، الجاحظ ، ص : 405 — 406 .

(98) مرجع نفسه . ص : 406 .

(99) شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الثاني ، ص : 598 .

وصاحبه فيها ، ويردُّ عليه . وَنَجِدُ هَذَا الْعَائِبَ ، يُسَهِّبُ فِي ذَمِّ الْكَلْبِ وَالذِّيكِ عَلَى السَّوَاءِ ⁽¹⁰⁰⁾ ، وَيَتَسَاءَلُ مُتَعَجِّباً عَنْ قَدْرِ الْكَلْبِ وَفَضِيلَةِ الذِّيكِ « حَتَّى يَتَفَرَّغَ لِذِكْرِ مُحَاسِنِهِمَا وَمَسَاوِيهِمَا ، وَالْمَوَازَنَةَ بَيْنَهُمَا وَالتَّنْوِيهَ بِذِكْرِهِمَا شَيْخَانِ مِنْ عَلِيَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَمِنْ الْجَلَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ . . . (حَتَّى) صَارَ هَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّظَرِ عَوَضاً مِنَ النَّظَرِ فِي التَّوْحِيدِ ، وَصَارَ هَذَا الشَّكْلُ مِنَ التَّمْيِيزِ خَلْفاً مِنَ التَّعْدِيلِ وَالتَّجْوِيرِ ، وَسَقَطَ الْقَوْلُ فِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَنُسِيَ الْقِيَاسُ وَالْحُكْمُ فِي الْأَسْمِ ، وَبُطِلَ الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْمَلَلِ ، وَالْمَوَازَنَةُ بَيْنَ جَمِيعِ النَّحْلِ ، وَالنَّظَرُ فِي مَرَاشِدِ النَّاسِ وَمَصَالِحِهِمْ ، وَفِي مَنَافِعِهِمْ وَمَرَافِقِهِمْ » ⁽¹⁰¹⁾ .

فَهَذَا الْعَائِبُ كَمَا نَرَى لَيْسَ مِنْ عَرْضِ الْقَوْمِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْكَلَامِ الَّذِينَ شَغَلَتْهُمْ تِلْكَ الْمَسَائِلُ مِنَ النَّظَرِ فِي التَّوْحِيدِ وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّجْوِيرِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْمَلَلِ . فَلَوْ كَانَتْ الْخُصُومَةُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالشُّعُوبِيَّةِ تَذَهَبَ هَذَا الْمَذْهَبُ ، وَتَبَالُغَ تِلْكَ الْمَبَالِغَةُ ، لَفُظْنَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَيْهَا ، وَهَبَكَ أَنَّهُ غَفَلَ أَوْ تَغَافَلَ عَنْهَا ، فَمَا بَالُ الْجَاحِظِ لَا يَذْكُرُهَا فِي بَابِ رَدِّهِ عَلَيْهِ ، وَيَتَغَافَلُ عَنْهَا أَيْضاً ؟ وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْغَرَضَ مِنَ الْمَنَاطَرَةِ ، فَيَقُولُ : « فَأَمَّا قَوْلُكَ : وَمَا بَلَغَ مِنْ خَطَرِ الذِّيكِ وَقَدْرِ الْكَلْبِ . فَإِنَّ هَذَا وَنَحْوَهُ كَلَامُ عَبْدٍ لَمْ يَفْهَمْ عَنْ رَبِّهِ ، وَلَمْ يَعْقِلْ عَنْ سَيِّدِهِ ، إِلَّا بِقَدْرِ فَهْمِ الْعَامَّةِ أَوْ الطَّبَقَةِ الَّتِي تَلِي الْعَامَّةَ . كَأَنَّكَ - فَهَمَّكَ اللَّهُ تَعَالَى - تَنْظُرُ أَنَّ خَلْقَ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ ، وَالتَّدْبِيرِ فِي خَلْقِ الْفَرَاشِ وَالذَّبَابِ ، وَالْحِكْمَةَ فِي خَلْقِ الذَّبَابِ وَالْأَسَدِ ، وَكُلِّ مَبْغُضٍ إِلَيْكَ ، أَوْ مُحَقَّرٍ عِنْدَكَ ، أَوْ مُسَخَّرٍ لَكَ ، أَوْ وَائِبٍ عَلَيْكَ ، أَنَّ التَّدْبِيرَ فِيهِ مُخْتَلَفٌ أَوْ نَاقِصٌ وَأَنَّ الْحِكْمَةَ فِيهِ صَغِيرَةٌ أَوْ مَمْرُوجَةٌ » ⁽¹⁰²⁾ .

فَالْغَايَةُ إِظْهَارُ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَتَدْبِيرِهِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ وَهَذَا الْمَعْنَى يَتَرَدَّدُ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْكِتَابِ ، فَيَذْكُرُ أَنَّ الْجِبَلَ لَيْسَ بِأَدَلَّ عَلَى اللَّهِ مِنْ

(100) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 190 وما بعدها .

(101) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 200 .

(102) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 203 .

الحصاة ، وأن الطاوسَ المستحسن ليس بأدَلَّ على الله من الخنزير ، وأن الثلج والنار وإن اختلفا في البرودة والحرارة فانهما متفقان في البرهان والدلالة ، فالطاوسُ ليس بأكرم على الله من الغراب ولا التدرج أعزَّ على الله من الحداة ولا الغزال أحب إلى الله من الذئب » فإنما هذه أمورٌ فرقتها الله تعالى في عيون الناس وميَّزها في طبائع العباد ، ... فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل » (103) .

فالبحث في قدر الديك وفضيلة الكلب كالبحث في الجزء الذي لا يتجزأ ليس غاية بنفسه ، وإنما هو وسيلة لما يتولد عنه من علم النهايات ، فإن اعترض هذا الرجل بالقول : ما يبلغ من قدر الكلب ، ومن مقدار الديك ، أجابه الجاحظُ : « فأَيُّ شيء بلغ - غفر الله تعالى لك - من قدر جزء لا يتجزأ من رمل عالٍ ، والجزء الأقل من أول قطع الذرة للمكان السحيق ، والصحيفة التي لا عمق لها ... حتى يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة والكهول العلية ، وحتى يختاروا النَّظَر فيه على التسبيح والتهليل ، وقراءة القرآن ، وطول الإنتصاب في الصلاة » (104) .

فالجاحظ - كما هو بين - افتنَّ شتى الأفانين في الدُّفاع عن هذه المناظرة ومن انغمس فيها ، ومع ذلك ، لم يأتِ على ذكر الشعوبية أو التعصب للعربية . وإنما صرح بأن المناظرة بين الكلب والديك لا تقصد النظر في أثمانهما ، ومناظرهما ومحلَّهما من صدور العامة أو اقدارهما عند النَّاس ، فالغاية النظر ، « فيما وضع الله عزَّ وجلَّ فيهما من الدلالة عليه ، وعلى إتقان صنعه وعلى عجيب تدبيره ، وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف ، وأودعهما من غوامض الإحساس ، وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلَّ بهما على أنَّ الذي البسهما ذلك التدبير ، وأودعهما تلك الحكم ، يحب أن يُفكَّرَ فيهما ، ويُعتَبَرَ بهما ، ويُسَبَّحَ الله عزَّ وجلَّ عندهما » (105) .

(103) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 206 — 207.

(104) مصدر نفسه ، ج : 1 ص : 216.

(105) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 109.

ليس ذلك فحسب ، وإنما صرَّحَ في مقدِّمة الجزء السابع بأنَّه لا يهدف إلى تفضيل فئة من الناس على فئة أخرى (106) .

والمتناظران متفقان على تفضيل العرب وتقديمها ، فصاحب الكلب متعصِّب للعرب (107) وصاحب الديك يقدم العرب على الأمم الأخرى ويقول : « لم يكن لعبد المطلب في قُرَيْشٍ نظير ، كما أنَّه ليس في العرب لقريشٍ نظير ، وكما أنَّه ليس للعرب في الناس نظير . . . وإذا قالوا سيِّد قريش ، فقد قالوا سيِّد العرب ، وإذا قالوا سيِّد العرب ، فقد قالوا سيِّد الناس » (108) .

والكتابُ كلُّه مناظرات في أصناف الحيوان ، فتارةً يوازن بين الكلب والديك وتارة أخرى يقايس بين الطاموس والديك (109) ثم بين الديك والغراب (110) وهكذا . . .

فالكتاب مناظرات متَّصلة بين أنواع الحيوان ، رمى الجاحظ فيها إلى الإمتاع والإطراف العلمي ، والدِّلالة على قُدْرَةِ اللَّهِ وعجيب صنعته ، وتدريب الناشئة على الجدل والمناظرة ، وقرع الحجة بالحجة ، ويظهر أنَّ الناس أولعوا في زمن الجاحظ بالمناظرات من كل نوع ، فإنَّه يحكي لنا عن رجلين تناظرا على باب موسى ابن عمران في العنب النيروزي والرازقي ، فتخاصما ، وتلاكما ، وتضاربا (111) .

لا تُنْكِرُ وجودَ العصبيَّةِ لبعض أنواع الحيوان أو عليه ، وأنَّ سبب هذا التعصُّب ، ما شجَرَ من خلافات بين العناصر المختلفة في المجتمع الإسلامي ،

(106) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 7 ، يقول الجاحظ : « وليس هذا الكتاب . . . في إيجاب الوعد والوعيد ، فيعترض عليه المرجى ، ولا في تفضيل علي ، فينصب له العثماني ، ولا هو في تصويب الحكمين ، فيتسخطه الخارجي . . . ولا هو في تفضيل العجم على العرب » .

(107) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 286 .

(108) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 245 وما بعدها .

(109) مصدر نفسه ، ج : 2 ص : 243 وما بعدها .

(110) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 319 .

(111) مصدر نفسه ج : 7 ص : 8 .

وقد أشار الجاحظ إلى أخبار عديدة في هذا الشأن ، كأن يقول : « وزعم لي سَلَمُويه ، وابن ماسويه متطبباً الخلفاء ، أنه ليس على الأرض جيفة أُنْتِنَ نَتْناً ، ولا أثقب ثقباً من جيفة بغير ، فظننت أن الذي وهما ذلك عصيتهما عليه ، وبغضهما لأربابه ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، هو المذكور في الكتب براكب البعير »⁽¹¹²⁾ .

ويشيرُ إلى تعصّب العرب للإبل ، وجبها لها ، وشغفها بها من خلال حوارهِ مع بعض الأعراب الذي أظهر حبه للإبل ، فسأله الجاحظ « أبيتها وبينكم قرابة ؟ قال : نعم ، لها فينا خؤولة ، إني والله ما أعني البخاتي ، ولكن أعني العراب ، التي هي أعرب ! قلت له : مسخك الله تعالى بغيراً ، قال : الله لا يمسحُ الإنسان على صورة كريم ، وإنما يمسحه على صورة لئيم ، مثل الخنزير والقرد »⁽¹¹³⁾ .

وتعصّب العرب للجمل قديم ، يرجع إلى الجاهلية ، فقد أذخِلَ أحدُ الأعراب على كِسرى ، ليعجبَ من جفائه وجهله ، فسأله « أي الأشياء أبعد صوتاً ؟ قال : الجمل ، قال : فأَي شيء أطيب لحماً ؟ قال : الجمل ، قال : فأَي شيء أنهض بالحمل ؟ قال : الجمل »⁽¹¹⁴⁾ .

وللديك عند الموالى منزلةٌ رفيعةٌ وقد حاكوا الأحاديثَ ، ونسبوا إلى النبي ، في فضله وقوته على طرد الشياطين وحراسة الدور من العفاريت⁽¹¹⁵⁾ . والكلب له اختصاص بالبادية وأهلها ، ومما احتج فيه صاحب الكلب أن جميع أهل البدو في جميع الآفاق من الأرض ، يربون الكلاب في خيامهم ، كذلك كانوا في الجاهلية ، وعلى ذلك هم في الإسلام⁽¹¹⁶⁾ .

(112) مصدر نفسه ج : 1 ص : 246 .

(113) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 100 .

(114) مصدر نفسه ، ج : 7 ص : 194 .

(115) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 377 ، ج : 2 ص : 207 ، 259 ، 354 .

(116) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 192 .

وفي « الحيوان » صورة واضحة عن تعصب الهند للغيل وتفضيله والمفاخرة فيه⁽¹¹⁷⁾ غير أن ما أنكره هو أن يكون الجاحظ قد قصّد في مناظرته إظهار هذا الجانب من منازعة الأمم والتعصّب فيه بين العرب والعجم .

ابن قتيبة :

لم تخفّ النزعة الشعوبية بعد عصر الجاحظ ، واستمرت قوية ، تكافح العرب ، وتجاهد النفوذ العربي في السياسة والدين واللغة والآداب والإجتماع . ممّا دفع ابن قتيبة العالم الأديب ، المروزي الأصل والبغدادي النشأة إلى الردّ عليها ، وفضح أساليبها ، وتعليل بواعثها وأسبابها ، وابن قتيبة شأنه شأن الجاحظ ، لم ينظر إلى الشعوبية كحركة وطنية ، تجسّد الآمال الفارسية ، وإنما نظر إليها كجماعة تتحمّل على العرب ، مدفوعة بالحسد والضغينة والحقد ،

(117) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 109 ، 171 ، 204 .

(118) هو أبو محمد عبد الله ابن مسلم ابن قتيبة الدينوري ، عالم أديب ، كثير الحفظ ، قويّ المنّة . وكان إماماً في اللغة والأدب والأخبار وآيام الناس ، ثقة صدوقاً فيما يرويه ، عالم بمشاكل القرآن ومعانيه ، وغريب الحديث ومراميه ، اختلف في مكان ولادته ف قيل إنه وُلِدَ بالكوفة ، وقيل بل في بغداد في سنة ثلاث عشرة ومائتين من الهجرة ، ونشأ فيها ، وثقّف على أهلها وأخذ العلم عن رجالها ، نُسب إلى الديّور ، ف قيل : الدينوري لأنّه أقام بها مدة حين تولى قضاءها .

وله مصنفات عديدة ومختلفة ، متممة ومفيدة ، تناولت جميع معارف عصره وكان حسن الدفاع عن القرآن والحديث ، واشترك في المناقشات الكلامية التي استعمر لها في عصره ، فنصر أهل السنة ونُسب إليها فاعتبره قوم لسان أهل السنة وخطيبها ، لكنّه لم يسلم من الاتهام فاتهم بالتشبيه والزندقة ، فصنف كتاباً يردّ فيه على المشبهة أودفع نعمة الزندقة عن نفسه .

واختلف الرواة في تاريخ وفاته ، ف قيل إنه توفي في سنة سبعين ومائتين وقيل سنة إحدى وسبعين ومائتين وقيل سنة ستة وسبعين ومائتين وهو الأصح .

انظر في ترجمة ابن قتيبة ، ابن النديم ، الفهرست ، ص : 115 ، الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 10 ص : 170 ، ابن خلكان ، وفیات الاعيان ، ج : 3 ص : 42 ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 169 ، احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 402 ، محمد عي الدين الحميدي ، ادب الكاتب ، ترجمة ابن قتيبة ، ص : 6 وما بعدها . ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، مقدمة الجزء الرابع - دار الكتب المصرية ص : 12 وما بعدها .

وتعمل جاهدة لتزييف حقيقة العرب في حاضرهم وماضيهم ، وتتوسّل لأجل ذلك الكذب والدّسّ والبهتان والمكابرة ، يدفعها الغلوّ إلى الكفر بالله ورسوله أحياناً ، لكنها لا تجاهر بكفرها خشية المسلمين وبطشهم⁽¹¹⁹⁾ ، وإنّما تتظاهر بالدّعوة إلى المساواة والإحتكام في ذلك إلى كتاب الله وحديث رسوله آخذة بظاهر النصّ ، متغافلة عن معناه ، فتعمد إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾⁽¹²⁰⁾ وقوله جلّ وعلا ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾⁽¹²¹⁾ ، وإلى قول النبي (ص) في خطبته في حجّة الوداع : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَجْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَفَاخُرَهَا بِالْأَبَاءِ ، لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَخْرٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، كُلُّكُمْ لَأَدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ ، وَقَوْلُهُ : الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ؛ وَهُمْ يَدُ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ »⁽¹²²⁾ .

فأَوْضَحَ ابْنُ قُتَيْبَةَ هَذَا الْمَعْنَى ، وَاعْتَبَرَ أَنَّ النَّاسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ سَوَاسِيَةٌ فِي الْأَحْكَامِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا ، فَالْأَنَاسُ تَتَفَاضَلُ ، وَفِيهِمُ الشَّرِيفُ وَالْمَشْرُوفُ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ (ص) « إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ ، فَأَكْرَمُوهُ ، وَقَوْلُهُ (ص) : أَقْبِلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ مِنْ عَشْرَاتِهِمْ . قَوْلُهُ (ص) فِي قَيْسِ ابْنِ عَاصِمٍ : هَذَا سَيِّدُ الْوَبَرِ »⁽¹²³⁾ .

فَالنَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا ، فَإِذَا تَسَاوَوْا فِي الْمَنْزِلَةِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ هَلَكُوا « وَكَيْفَ يَسْتَوِي النَّاسُ فِي فُضَائِلِهِمْ ، وَالرَّجُلُ الْوَاحِدُ لَا تَسْتَوِي فِي نَفْسِهِ أَعْضَاؤُهُ ، وَلَا تَتَكَافَأُ مَقَاصِلُهُ ، وَلَكِنْ لِبَعْضِهَا الْفَضْلُ عَلَى بَعْضٍ »⁽¹²⁴⁾ .

وإِنْ انْطَلَقَ الشُّعُوبِيُّونَ مِنَ الْمُنَادَاةِ بِالسَّوَادَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ تَجَاوَزُوا

(119) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 344 .

(120) القرآن الكريم - سورة الحجرات - رقم الآية : 13 .

(121) مصدر نفسه . سورة الحجرات ، رقم الآية : 10 .

(122) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 322 .

(123) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 322-323 .

(124) مصدر نفسه ، ج : 3 ص : 323 .

ذلك - كما سبق وأشرنا - إلى الغلو والمبالغة ، ففاضلوا بين العرب والعجم ، وفضلوا العجم ، وتقصوا العرب ، وأظهروا مشائهم ومثالبها ، وحرفوا الكلم في مناقبها ، إن عرفوا خيراً ستروه ، وإن ظهر حقروه ، وإن احتمل التأويلات أولوه إلى أقبحها ، ينشرون مثالبها ، وينقرون عنها ، ويتخرفونها . « وعائب الناس ، يعيهم بفضل عيه ، ويتقصهم بحسب نقصه ، ويذيع عوراتهم ليكونوا شركاءه في عورته ، ولا شيء أحب للفاسق من زلة العالم ، ولا إلى الخامل من عشرة الشريف » (125) .

وإذ يتصدى ابن قتيبة للشعوبية وهجماتهما ، فليس لأنه متعصب للعرب ، أو حاقداً على العجم . فالعجم قومه والعرب إخوانه في الدين ، وإنما رأى خصومةً ومنازعةً ولجاجاً ومعاندةً ، فأراد الحكم في هذه الخصومة والنظر فيها كقاضٍ عادلٍ ، يتوخى الحق والإنصاف في أحكامه ، قال : « وسأقول في الشرف بأعدل القول ، وأبين أسبابه ، ولا أبخس أحداً حقاً ، ولا أتجاوز به حده ، فلا يمنعي نسبي في العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها ، وأثني أعتتها عما تقدم إليها سفلتها » (126) .

فالشعوبية - في رأيه - نسيء إلى العجم ، كما نسيء إلى العرب ، لما تثيره من عداوة ، وما تؤججه من بغضاء وحقد . وهو وإن ذهب كل مذهب في تفضيل العرب وتقديمها ، ورفض التأويل الشعبي لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، واحتج على ذلك بالقرآن والحديث ، يميل إلى القول بالتسوية ويرى الأخذ بها ، لأن الصفات المحمودّة والمذمومة متفرقة على الناس من جميع الأمم ، فعدل القول عنده : « أن الناس لأب وأم ، خلّقوا من تراب ، وأعيدوا إلى التراب ، وجروا في مجرى البول ، وطووا على الأقدار ، فهذا نسبهم الأعلى الذي يردع أهل العقول عن التعظيم والكبرياء ، ثم إلى الله مرجعهم ، فتنقطع

(125) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 345 — 346 .

(126) مصدر نفسه ، ص : 356 .

الأنساب ، وتبطل الأحساب إلا من كان حَسْبَهُ تقوى الله وكانت ماته طاعة الله» (127) .

وقوله بالتَّسْوِيَةِ لا يلغي التفاضل بين الأفراد والجماعات ، فالتفاضل إنما يقع في النَّسَبِ الأدنى ، وما حبا الله الأُمَّمَ والأفراد بصفات اختصوا بها وعرفوا فيها ، كالعرب ، فإنها من الأُمَّمِ الكريمة بِلَبَانِهَا « ولم تَزَلْ في الجاهليَّةِ ، تتواصى بالحلم والحياء والتَّذَمُّمِ ، وتتعاير بالبخل والغدر والسَّفه ، وتتنزَّه مِنَ الذَّنَاءِ والمذمَّةِ ، وتتدرب بالنَّجدة والصبر والبسالة ، وتوجب للجار من حفظ الجوار ورعاية الحقِّ فوق ما توجهه للحميم والشفيق ، فربما بذل أحدهم نفسه دون جاره ، ووقى ماله بماله » (128) .

وعادات العرب في الجاهليَّة لم تكن مذمومةً كُلِّها ، فالضيافة لهم ، يتواصون بها ، ويؤثرون السائل على أنفسهم ، ويجودون بما لديهم عن طيب نفس ، فإن احتجَّ محتجٌّ بشاعر أو بشاعرين ، مِمَّنْ وصفوا بالبخل واشتهروا بهجاء الأضياف ، دافع ابن قتيبة عن العرب بالقول : إنه ليس في الناس صنفٌ خالٍ من العيب ، منزَّهٌ عن الصغائر ، ولولا الشر ما عُرفَ الخيرُ ، « وإنما يُقْضَى بأغلب الأمور ، ويحكمون بأشهر الأخلاق ، وليس في ثلاثة من الشعراء أو أربعة ما هدر مكارم أخلاق آلاف من الناس ، وبدد صنائعهم » (129) .

ولقد عرفت العربُ حَيِّثَ المطاعم والمشارب ، كالعُلْهُز والحَيَّات والفظَّ والمجدوح (130) ، وما شاكلها من طعام في المجاوع والضَّرورات ونازلة القفر والفلوات ، وإنما كان ذلك في ضرورة وحاجة وفقر ، قال الشاعر :

« إذا السنة الشهباء حلَّ حَرَامُهَا » (131) .

(127) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 356 .

(128) مصدر نفسه . ص : 361 .

(129) مصدر نفسه . ص : 364 .

(130) سبق وشرحنا معنى هذه الألفاظ

(131) ابن قتيبة ، كتاب العرب . ص : 365 .

ولا عيبَ في الضَّرورةَ ، وإنما العيبُ لو كانت العربُ مختارةً لهذه الأنواعِ من المأكَلِ والمشارِبِ ، كما يختارُ بعضُ العجم الذَّبَابَ وبهم عنه غنى وكأكلهم السراطينَ والدَّجاجَ لهم معرضة . أمّا في الضرورة والفقر والجذب ، فهم مضطرون إلى ما يأكلون ، وَمَنْ جاع أكل ما وجد وَمَنْ لم يَجِد الماءَ شَرِبَ المَجْدوحَ والْفُظَّ .

أما أهلُ اليَسارِ من العرب ، فإنهم يَتَقَرَّضُونَ من هذه المطاعم والمشارِبِ ، ويعيرون بها ، ولا يقربونها ، كقول الشاعر :

« فما لحم الغراب لنا بيزاد ولا سرطان أنهار البريص »⁽¹³²⁾

وقال آخر لامراته :

« أكلت دماً إن لم أرغك بضرةً بعيدة مهوى القرط طيبة النشْرِ »⁽¹³³⁾

فلو كان شرب المَجْدوح عادياً لديه ومحموداً عنده ، لم يجعلَ يمينه شرب الدَّم . وفي العرب من أكل العُلايى والعروق واللحم النيء ، وترك الأدب عند الطعام ، إلا أنَّ هؤلاء هم الفقراء الذين لا يجدون ما يعينهم على الإستمرار في الحياة غير ذلك ، فأما أهلُ الغنى واليسار ، فقد عرفوا الطَّيِّبَ من الطعام وأكلوه ، وهم أحسن النَّاسِ أدباً على طعام ، ومن أطعمتهم : المضيرة والهريسة ، والوشيقة والعصيدة والفالودق ،⁽¹³⁴⁾ ، وهم أحسن النَّاسِ وصفاً للطَّعام والطفهم في ذكره ، ومن أطبختهم الغسانية والحيسة والريكة والخزيرة ، واللفيفة⁽¹³⁵⁾ .

ومن آدابهم على الطعام ، أنهم كانوا يقولون « إذا أكلتم ، فسموا ، وادنوا »⁽¹³⁶⁾ وكانوا يكرهون أكل الدُّماغ لما في استخراجِه من صورة الجشع

(132) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 365 .

(133) مصدر نفسه . ص : 366 .

(134) أنواع من طعام العرب

(135) ابن قتيبة كتاب العرب . ص : 366 — 367 .

(136) مصدر نفسه . ص : 367 .

والحرص والطمع ، ومنهم مَنْ يَعاْفُ أكل إلية الشاة ، وهم يعييون الشَّرَّة والنهم والكسل والكفظة⁽¹³⁷⁾ .

وأما أكلهم لسقط المائدة لإكرام للطعام ، وإعظام للنعمة وواهبها ، وإدامة للشكر ، وبالشكر تدوم النعم ، ومتابعة لحديث الرسول (ص) وسنته ، فإِنَّه قال : « أكرموا الخبز ، فإن الله سخر له السموات والأرض . وقد أمرنا (ص) بأكل سقط المائدة ورغبنا فيه »⁽¹³⁸⁾

« والعجب . . . من قوم نحلتهم الإسلام ، ونبههم محمد (ص) ، ثم تنابعت الأخبار عنه بشيء أمر به ، أو نهى عنه ، فيعارضون ذلك بالعيب وبالطعن ، من غير أن يعرفوا العلة ، ولا أن يكون لهم في الإنكار له نفع ، أو عليهم في الإقرار به ضرر »⁽¹³⁹⁾ . والعربُ لا تأكل باليارحين والسكين لأن ذلك مفسدٌ للطعام ولذته ، والناس يعرفون - إلا المكابر منهم - أنَّ المباشرة باليد أجودُ في الأكل وألذُّ للطعام ، ولا معنى للتقذّر من الكفّ النظيفة المطهّرة ، وغيرها أولى بالتقزّز والتقذّر⁽¹⁴⁰⁾ .

وأما الشّجاعةُ ، فصفةٌ من صفات العرب ، لأنّها « أعزُّ الأممِ أنفساً ، وأعزّها حريماً ، وأحماها أنوفاً ، وأحسنها جانباً ، وكانت تغير في جنبات فارس ، وتطرقها حتى تحتاج الملوك إلى مداراتها ، وأخذ الرهن منها »⁽¹⁴¹⁾ .

وكان لمرازبة الفرس وأسوارتها بأس وشجاعة ، إلا أن بين شجاعة الفرس وشجاعة العرب فرقاً ، لأنّ العجم أكثر أموالاً وأجود سلاحاً وتنظيماً ، وأشد اجتماعاً ، لها ملك يسوسها ، ورئاسة تفيء إليها ، وتعمل برأيها ، وهذه أمور تقوّي المنة ، وترفع المعنويات ، وتقوّي القلوب . فأما العرب ، فإنّها كانت

(137) مصدر نفسه . ص : 368 .

(138) مصدر نفسه . ص : 369 .

(139) مصدر نفسه . ص : 370 .

(140) مصدر نفسه . ص : 370 .

(141) مصدر نفسه . ص : 370 .

تحارب متفرقة بلا نظام يجمعها ، أو ملك تفيء إليه ، يحارب أكثرها راجلاً بالسيف الكليل أو فارساً على فرس لا سرج له أو على سرج لا ركاب له . والعجم يغلب على قتالها الرمي ، والعرب يغلب على قتالها السيف والرمح . فهي أكثر تعرضاً للأهوال والمخاطر ، وأشد صموداً وأبعد من الفرار . وشجعان العرب في الجاهلية معروفون ، منهم : عتبة ابن الحارث ابن شهاب ، وبسطام ابن قيس وبجير وعفاف ابنا مليل ، وعامر ابن الطفيل وعمرو ابن ودوأشباهم ، وشجعانهم في الإسلام أكثر من أن يعدوا⁽¹⁴²⁾ . والرجليون (العداؤون) للعرب خاصة ، منهم المنتشر ابن وهب الباهلي ، وسليك ابن عمير السعدي وأوفى ابن مطر المازني . وبقوة العرب استعداد بهرام جور ملك أبيه ، لما غضبه فارس إياه ، وبفرسان العرب شتت بنو شيبان أسنورة كسرى في معركة ذي قار⁽¹⁴³⁾ ومما يدل على تعزز العرب في الجاهلية وأنفتحتها وشدة حميتها ، امتناع النعمان من تزويج أبريز إحدى بناته رغبة عنه⁽¹⁴⁴⁾ .

ومن مفاخر العرب في الجاهلية حيازة قُرَيْش لبيت الله الحرام المنصور بالطير الأبابيل ، ولم يزالوا سدنته وولاته والقائمين بأموره ، ولهم يقال : جيران الله وأهل الله ، والعرب قوم لم يكونوا وثنيين تماماً ، وإنما كان فيهم بقايا من الحنفية يتوارثونها عن إسماعيل (ع) منها : حج البيت وزيارته ، والختان ، والغسل ، والطلاق والعق ، وتحريم ذوات المحارم بالقراة والرضاع والصهر⁽¹⁴⁵⁾ وهم في ذلك بخلاف العجم الذين يحللون البنات والأخوات . وعندما فعل ذلك حاجب ابن زرارة تأسياً بالفرس ، ندِم على ذلك ، وأظهر ندمه ، فقال :

« لحا الله دينك من أغلف يحل الخوات لنا والبنات
أجشت على أسرتي سوء وطوقتُ جيدي بالمخزيات

(142) مصدر نفسه . ص : 370.

(143) مصدر نفسه . ص : 371.

(144) مصدر نفسه . ص : 371 — 372.

(145) مصدر نفسه . ص : 372.

وأبقيت في عنقي سبّة مشاتم يحيين بعد الممات
فتاة تجلّلها شيخها فبش الشيخ ونعم الفتاة⁽¹⁴⁶⁾

ومن بقايا الحنفية أيضاً إيمان العرب بالملكين الكاتبين ، وقد ثبت هذا الزعم بالعثور على كتاب لعبد المطلب ابن هاشم « كتبه من أهل مكّة على فلان ابن فلان الحميري من أهل زول صنعاء ، عليه ألف درهم فضة طيبة كيلاً بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه ، شهد الله بذلك والملكان ، وقال الأعشى :

لا تحسبني كافراً لك نعمة على شاهدي يا شاهد الله فاشهد⁽¹⁴⁷⁾

ومن ذلك أيضاً أحكام كانت في الجاهلية ، وأقرّها الإسلام ، ولم يغيّرّها . منها « دية النفس مائة من الإبل ، ومنها أتباع حكم المبال في الخنثى ، ومنها البينونة بطلاق الثلاثة ، وللرجل على المرأة في الواحدة والإثنين⁽¹⁴⁸⁾ .

وأما ادّعاء الشعوب أنّ العرب بنو اللّخناء ، لأنّ اسماعيل من هاجر الأمّة ، فهذا غلط في التأويل على اللّغة ، وافترأ على أولياء الله بالأنباذ القبيحة ، فليس كلّ أمّة لخناء ، وإنّما اللّخناء من الإماء الممتنّة في رعاية الإبل وسقيها ، وجلب الحطب وما أشبه ذلك . فلا يقال لكل أمّة لخناء ، كما لا يقال لكل أمّة لكعاء . وإنّما قيل لخناء لثنت ريحها . « وأما مثل هاجر التي طهرها الله من كل دنس ، وطيبها من كل دفر ، وارتضاها للخليل فراشاً ، وللطيبين إسماعيل ومحمّد عليهما السلام أمّاً وجعلهما لها سلالة ، فهل يجوز لمحدد فضلاً عن مسلم ، أن يطلق عليها اللّخن . . . ولو جاز أن يُطلق على كلّ أمّة لخناء ، لجاز أن يُقال لكلّ شريف ولده أمّة : هذا ابن اللّخناء ، كما يقال هذا ابن الأمّة ، وقد ولدت الإماء الخلفاء والخيار الأبرار مثل علي ابن الحسين ابن علي بن أبي طالب ، والقاسم ابن محمد ابن أبي بكر الصّدّيق ، وسالم ابن عبد الله ابن عمر ابن الخطّاب⁽¹⁴⁹⁾ .

(146) مصدر نفسه . ص : 372.

(147) مصدر نفسه . ص : 372.

(148) مصدر نفسه . ص : 373.

(149) مصدر نفسه ، أص : 352.

وكَيْفَ يَعْتَزِي الفُرسُ لإِسْحاقَ ابنِ إِبْراهيمَ ، والنَّسَبُ لا يَعْرِفُونَ لأهلِ فارسَ ، ولا لِلنَّبَطِ نَسَباً يَمْتَلِكُ لإِسْحاقَ بَصْلَةً ، وإِبنُ إِسْحاقَ هُما عَيْصُو وَيَعْقُوبُ ، فَأَمَّا يَعْقُوبُ ، فَهُوَ أَبُو الْأَسْبَاطِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَيْصُو أَبُو الرُّومِ ، فَاعْتَزَّاهُ الْفُرسُ لإِسْحاقَ خَطَأً وَافْتِرَاءً⁽¹⁵⁰⁾ .

ومن هَذَا الْقَبِيلِ فَخَرَهُمْ عَلَى الْعَرَبِ بَادِمُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ : « لا تَفْضُلُونِي عَلَيْهِ ، فَإِنِّي حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِهِ »⁽¹⁵¹⁾ وادْعَاؤُهُمْ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْعَجَمِ إِلَّا أَرْبَعَةً نَفَرًا : هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَمُحَمَّدٌ ، وَهَذَا فَخْرٌ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ ، وَادْعَاءٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، وَافْتِرَاءٌ عَلَى الْعَرَبِ وَظَلَمٌ فَاحِشٌ لَهُمْ ، فَكَيْفَ يَفْخَرُونَ بِبَادِمٍ ؟ أَلَيْسَ الْعَرَبُ مِنْ وَلَدِهِ ؟ وَكَيْفَ يَنْتَحِلُونَ مُوسَى وَعِيسَى وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نَسَبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فَارِسَ ، وَكَيْفَ يَدْفَعُونَ الْعَرَبَ عَنْهُمْ وَهُمْ أَوْلَى بِهِمْ وَبَنُو عُمُومَتِهِمْ وَعَصَبَتُهُمْ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)⁽¹⁵²⁾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي النَّسَبِ ، وَفِيمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى : إِنِّي سَأُقِيمُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ أَجْعَلُ كَلَامِي عَلَى فِيهِ . يَرِيدُ أَنَّهُ يَقِيمُ لَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ نَبِيًّا مِثْلَ مُوسَى ، يَعْنِي مُحَمَّدًا (ص) ، وَهَذَا حُجَّةٌ مِنْ حُجَجِنَا عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ كُتُبِهِمْ⁽¹⁵³⁾ .

وَأَمَّا فَخْرُ الْعَجَمِ عَلَى الْعَرَبِ بِالْمَلِكِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسَاوِيهَا فِيهِ « وَتَفْضُلُهَا . . . بِأَنَّ قَوَاعِدَ مَلِكُهَا نَبَوَّةٌ ، وَقَوَاعِدَ مَلِكِ فَارِسَ اسْتِلَابٌ وَغَلْبَةٌ ، وَتَفْضُلُهَا الْعَرَبُ بِأَنَّ مَلِكُهَا نَاسَخٌ وَمَلِكُ فَارِسَ مَنْسُوخٌ وَتَفْضُلُهَا بِأَنَّ مَلِكُهَا مُتَصِلٌ بِالسَّاعَةِ وَمَلِكُ فَارِسَ مُحْدُودٌ ، وَتَفْضُلُهَا الْعَرَبُ بِأَنَّ مَلِكُهَا وَاعِلٌ فِي أَقْصَايِ الْبِلَادِ ، دَاخِلٌ فِي آفَاقِ الْأَرْضِ ، وَمَلِكُ فَارِسَ شَطِيطٌ مِنْهُ ، لَيْسَ فِيهِ الشَّامُ ، وَلَا

(150) مصدر نفسه . ص : 352 .

(151) مصدر نفسه . ص : 354 .

(152) القرآن الكريم ، صورة آل عمران ، رقم الآية : 33 .

(153) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 354 .

الجزيرة ، ولا خُراسان ، في أكثر مددهم ، ولا اليمن إلا في أيام وهرز وسيف ابن ذي يزن ﴿١٥٤﴾ .

وللعرب في الإسلام فَضِيلَةٌ فاقت كُلَّ فَضِيلَةٍ ، ومكرمة أُرِبَتْ على كُلِّ مكرمة ، وذلك أَنَّ اللَّهَ قد ابْتَعَتْ منها النبي (ص) سَيِّدَ الأنبياءِ وخَاتَمَ المرسلين ، فَنَسَخَ كُلَّ شريعةٍ قبلَهُ . فَجَمَعَ كَلِمَةَ العربِ ، ونَشَرَ عَدَدَهَا ، وأَمَدَّهَا بالملائكة ، وأَيَّدَهَا بالقُوَّة ، ومَكَّنَ لها في البلاد . وأوطأها رِقَابَ الأُمَمِ ، فالنبوةُ فيها والإمامةُ فيها خالدة باقية حتى يأتي المسيح (ص) فيصلي خلف الإمام منها ، وهذه فضيلة ومكرمة فريدة ، لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثلها أو يدعيها . وخاطبها يومئذ لا عجم فيها ، فقال عز وجل ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿١٥٥﴾ ، فللعرب هذا الخطاب ، والأُمم طرأ داخلَةٌ عليها فيه ، فأما قوله في بني إسرائيل ﴿ وهو فضلكم على العالمين ﴾ ﴿١٥٦﴾ ،

فمن باب العام الذي أريدَ به الخاص ، كقوله حكاية عن ابراهيم : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ ﴿١٥٧﴾ ،

وحكاية عن موسى : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ ﴿١٥٨﴾ ، وقد كانت الأنبياء قبلهما مؤمنين ومسلمين ﴿١٥٩﴾ ، ومن مآثر العرب في الإسلام قريش ، وقد أكثرهم الله ، وأيدهم بنصره ، وآمنهم من الخوف ومَكَّنَ لهم في الأرض ، وأعلى كلمتهم ، وسخر لهم ممالك الأُمم ، لا يصحَّ الإسلام إلا بمحبتهم وتقديمهم ، قضى الله لهم بالفضل على جميع الخلق والأُمم ، فالنبوةُ فيهم ، والإمامةُ مقصورة عليهم ، وأحاديث رسوله كثيرة في تفضيلهم وتقديمهم ﴿١٦٠﴾ .

(١٥٤) مصدر نفسه . ص : 353 — 354.

(١٥٥) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، رقم الآية : 110.

(١٥٦) مصدر نفسه . سورة الاعراف ، رقم الآية : 163.

(١٥٧) مصدر نفسه . سورة الانعام رقم الآية : 140.

(١٥٨) مصدر نفسه . سورة الاعراف ، رقم الآية : 143.

(١٥٩) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 373.

(١٦٠) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 374 — 375 . (وهنا يسرد ابن قتيبة ما حضره من

أحاديث منسوبة للنبي في تفضيل قريش وتقديم العرب .)

أما أساليب الشعوبية في الطعن على العرب ، وتحريف الكلام في مناقبها ، وتزييف حقائقها فقد كشفها ابن قتيبة وحكى لنا بعضاً منها ، وفند تخرصاتهما وسخر من أصحابها ، من ذلك طعن أبي عبيدة معمر ابن المثنى في قوس حاجب ابن زرارة وسخريته وضحكه منها وإزرائه عليها في خسارة عودها وقلة ثمنها ، وقدرة أي فرد على اقتناء مثلها أو الإستعاضة عنها ، فدافع ابن قتيبة عن هذه المأثرة العربية ، واعتبر أنه لو كان الأمر على ما ذكره أبو عبيدة ، لرجع العيب على كسرى ، لأنه الأخذ ، لا على حاجب لأنه الدافع ، والدافع لا يألو جهداً أن يدفع أحقر ما يجد في أكثر ما يأخذ ، والمغبون من اغترّ بالصغير عن الكبير وبالخسيس عن الرفيع ، ولكن الأمر مختلف عن ذلك ، وحاجب رهن قوسه عن العرب ، وضمن عنها كف الأذى عن كسرى ومملكته ، ولو رهن مكانها مائة ألف رأس من الغنم ، لكان القوس أحسن منها في هذا المكان ، وأذعى للوفاء ، لأن سلاح الرجل عزّه وشرفه ، وإسلام المال أحسن من إسلام العزّ والشرف ، والرجل من العرب قد يدفع رداءه وخاتمه عن الأمر العظيم ، فلا يسلمه خوفاً من السبّة وأنفة من العار ، من ذلك ما فعله الفرزدق عندما رهن رداءه بوفاء تميم ، فقبل سليمان ابن عبد الملك ذلك ، فلما جاءت بيعة وكيع ابن أبي سود التميمي ، افتخر الفرزدق بذلك ، فقال :

« فِدَى لِسِيوفٍ مِنْ تَمِيمٍ وَفَى بِهَا رِدايَ وَحَلَّتْ عَنْ وَجْهِ الْأَهَاتِمِ »⁽¹⁶¹⁾

ولقد رهن سيّار ابن عمرو ابن جابر الفزاري قوسه ، وضمن لبعض الملوك ألف بغير دية أبيه ، فقبل الملك رهنه ، ووفى سيّار بما ضمن ، وفي ذلك يقول القائل :

وَنَحْنُ رَهْنَا الْقَوْسِ ثُمَّ تَخَلَّصْتُ بِالْفِ بَالْفِ عَلَى ظَهْرِ الْفَزَارِيِّ أَقْرَعًا⁽¹⁶²⁾

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ جِرَانٍ وَقَدْ ذَكَرَ اجْتِمَاعُهُ مَعَ نِسَاءٍ كَانَ يَأْلُفُهُنَّ :

(161) مصدر نفسه . ص : 347.

(162) مصدر نفسه . ص : 347.

« ذَهَبَنَ بِمَسْوَكِ وَقَدْ قُلْتُ إِنَّهُ سَيُوجَدُ هَذَا عِنْدَكَ ، فَيَعْرِفُ » (163)

فِيظَنُّ مَنْ يَسْمَعُ الشَّعْرَ ، وَلَا يَعْرِفُ الْخَبَرَ ، أَنَّهُنَّ سَلْبَنَهُ مَسْوَكَ ، وَأَنَّهُ يَعْتَدُ عَلَيْهِنَ بِهَذَا الْمَسْوَكَ ، فَيَقُولُ : مَا قَدَرُ الْمَسْوَكَ ؟ وَمَا قِيَمَتُهُ ؟ حَتَّى يَشْهَرُ ذَلِكَ بَيْنَ الْعَرَبِ وَعَلَى أَلْسِنَةِ الرِّوَاةِ ! .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْعَرَبَ أَنْظَرَ قَوْمَ فِي التَّافَةِ الْحَقِيرِ ، وَكُلَّ أَهْلِ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي مَعْرُوفُونَ بِنَوْعٍ مِنَ الشَّجَرِ ، يَسْتَكَوْنُ بِعُودِهِ ، وَكَانَ جِرَانُ الْعُودِ مَعْرُوفًا بِهَؤُلَاءِ النَّسْوَةِ ، يَزُورُهُنَّ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، وَهُوَ يَسْتَنْ مِنَ الشَّجَرِ مَا يَنْبَغُ فِي بَلَدِهِ ، فَأَتَّخِذْنَ مَسْوَكَهُ لِيَتَذَكَّرَنَّهُ ، كَمَا يَفْعَلُ الْمَحْبُوبُ ، فَتَبْهَهُنَّ ، وَقَالَ لَهُنَّ ، إِنَّ وَجَدَ مَسْوَكَي أَمَعَنَّ اسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى زِيَارَتِي لَكُنَّ ، وَافْتَضَحَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ (164) .

وَقَدْ يَقْصِدُ الشُّعُوبِيُّ لِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

« يَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةَ مَالِكٍ وَيَا ابْنَةَ ذِي الْبُرْدَيْنِ وَالْفَرَسِ الْوَرْدِ » (165)

« فَيَتَضَاحُكَ بِالشَّعْرِ ، وَيَسْتَهْزِئُ بِالْبُرْدَيْنِ وَالْفَرَسِ الْوَرْدِ ، وَيَعَارِضُ ذَلِكَ بِمَلُوكِ فَارَسٍ ، وَأَسْرَتِهَا وَتِيجَانِهَا ، وَبِأَنَّ أَبْرُويزَ ارْتَبَطَ تِسْعِمَائَةَ وَخَمْسِينَ فَيْلًا عَلَى مَرَابِطِهِ ، وَبَلَغَتْ مَخْدَتُهُ الَّتِي كَانَ يَشْرَفُ بِهَا عَلَى الدَّخْلِ عَلَيْهِ أَلْفُ إِنَاءٍ مِنَ الذَّهَبِ ، وَخَدِمَتْهُ أَلْفُ جَارِيَةٍ » (166) .

وَهَذَا جَهْلٌ بِالشَّعْرِ ، وَخَطَأٌ فِي الْمَعَارِضَةِ ، وَفَخْرٌ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ ، فَأَمَّا مَعْنَى الشَّعْرِ : فَإِنَّ وَفُودَ الْعَرَبِ اجْتَمَعَتْ عِنْدَ النَّعْمَانِ ابْنِ الْمُنْذَرِ ، فَأُخْرِجَ بُرْدَى مُحَرَّقٌ عَمْرُ وَابْنُ هَنْدٍ ، وَقَالَ : لِيَقُمَ أَعَزُّ الْعَرَبِ قَبِيلَةً فَيَأْخُذَهُمَا ، فَقَامَ عَامِرُ ابْنِ أُحَيْمِرَ ابْنِ بَهْدَلَةَ ، فَأَخَذَهُمَا ، وَادَّعَى أَنَّ الْعِزْفِيَّ قَبِيلَتَهُ وَعَشِيرَتَهُ ، وَدَعَا مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ إِلَى مَنَافَرَتِهِ ، فَسَكَتَ النَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ النَّعْمَانُ : هَذَا أَنْتَ فِي عَشِيرَتِكَ ،

(163) ابْنُ قَتِيْبَةٍ ، كِتَابُ الْعَرَبِ (رِسَالَتُ الْبَلْغَاءِ) ص : 347 .

(164) مَصْدَرُ نَفْسِهِ . ص : 347 — 348 .

(165) مَصْدَرُ نَفْسِهِ . ص : 348 .

(166) مَصْدَرُ نَفْسِهِ . ص : 348 .

فكيف أنت في بيتك ونفسك ، فقال : أنا أبو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، ثم وضع قدمه في الأرض ، وقال من أزالها من مكانها ، فله مائة من الإبل ، فلم يقم إليه أحد من الناس ، فذهب بالبردين فسمي ذا البردين ، وفي ذلك قال الفرزدق :

« فما تم في سعد ، ولا آل مالك غلام إذا ما قيل لم يتبهدل
لهم وهب النعمان ثوبي محرق بمجد معد والعديد المحصل » (167)

وأما الفرس الورذ ، فالخيل حصون العرب ، ومنبت عزهم ، وسلم مجدهم ، عليها يذكرون تأرهم ، يؤثرونها على عيالهم . كنى الله عنها بالخير في كتابه لما فيها من الخير ، فقال حكاية عن نبيه سليمان (ص) : ﴿ إِنِّي أُحِبُّ حَبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (168) . وفيها قال النبي (ص) : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » (169) .

وليس لأحد مثل عتاق العرب ، ولا عند أحد من العلم بها ، ما عندهم ، والرجل منهم إذا كان لديه فرس كريم جواد شهر به ، فليل العسجدي وداحس والغبراء ، والورد .

« وإذ أريت العرب تنسب إلى شيء خسيس في نفسه ، فليس ذلك إلا لمعنى شريف فيه » (170) من ذلك قولهم لهنيذة بنت صعصعة : ذات الخمار ، فمن لم يعرف الخبر ، ظن أنها كانت تختمر دون نساء العرب . وإنما ذهبوا إلى قولها : « من جاءت من نساء العرب بأربعة مثل أربعتي ، يحل لها أن تضع الخمار عندهم ، فصرمتي لها : أبي صعصعة ، وأخي غالب ، وخالي الأقرع ابن حابس ، وزوجي الزبرقان ابن بدر ، فسميت ذات الخمار » (171) .

(167) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 348 — 349 .

(168) القرآن الكريم ، سورة ص ، رقم الآية : 32 .

(169) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 349 .

(170) مصدر نفسه . ص : 350 .

(171) مصدر نفسه . ص : 350 .

وأما الخطأ في المعارضة ، فإنَّ أحداً لم يدَّعِ أَنَّهُ كانت للعرب في جاهليتها دولة كدولة العجم واتساعها وعزَّها وكثرة جنودها وأموالها ، فتفاخر بملوك العجم ، وأسرتها وتيجانها ، وذكر فيلة أبرويز وجواريه وأوانيهِ ، « وقد كان هذا لأولئك - كما ذكر - ثم جعله الله لهؤلاء ، فابتزَّوه ، واستلبوه والتحوهم ، كما يُلْتَحَى القضيْبُ ، والناسخ أفضل من المنسوخ » (172).

وعلى كل حال ، فإنَّ هذا الفخر جائز ، لو افتخر به ملوك العجم وأبناء ملوكها ومرازبتها وأسوارتها ، فأما أن يفخر به رجل من عرضهم غير معروف الحسب أو مشهور الأب ، « فما حظُّه في سرير كِسرى وتاجه وحريره وديباجه ، وليس هو من ذلك في مراح ولا مغدى ولا مظل ولا مأوى . فإنَّ قال : لأنِّي من العجم وكِسرى من العجم ، فمرحباً بالمثل المبتذل : ابن جبار النجار . ولو قال : لأنِّي من الناس وكِسرى من الناس . كان وهذا سواء ، وما هو بأولى بهذا السبب من العرب ، لأن العرب أيضاً من الناس » (173) .

والأمر العجيب الغريب ، أن كلَّ رجل من العجم يزعم أَنَّهُ من أبناء الملوك والدهاقين ، والأشراف ، فأين أبناء الكساحين والحجَّامين والدبَّاعين والخمارين والرعايع والمهَّان ؟ وهل كان الملوك والأشراف « إلّا كاللمعة في جلد البعير » ؟ (174) . أبادت العجم واضمحلت ، فلم يبقَ منها إلّا أبناء الملوك والدهاقين ؟ .

وأما فخر العجم بالعلوم ، فليست العلوم حكراً على العجم ، وللعرب من العلوم والحكم والشعر والكلام المسجَّع المنثور ، ما يشهد بفضلها ويتقدمها على غيرها ، وقد انفرادت بجملة من العلوم واختصَّت فيها « كعلم الخيل والفراسة والقيافة والكهانة والقال » (175) وأما فخر العجم بكتاب حدِّ المنطق وغيره ، فهذه

(172) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 350.

(173) مصدر نفسه . ص : 350 — 351.

(174) مصدر نفسه . ص : 351.

(175) ترجمة ابن قتيبة في مقدمة الجزء الرابع من كتاب عيون الاخبار (نشر دار الكتب المصرية) ص : 32 =

لليونان ولا حظّ للفرس فيها ومع ذلك فلو « أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتّى يسمع دقائق الكلام في الدّين والفقه والفرائض والنحو ، لعدّ نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله (ص) وصحابته ، لأيقن أنّ للعرب الحكمة وفصل الخطاب » (176)

أبو حيان التوحيدي : (177)

والتوحيدي مفكرٌ آخر تعرّض للشّعوبيّة وافترائها على العرب والعروبة ، وهو بخلاف الجاحظ وابن قتيبة ، لم يقصد الحديث في الموضوع أو التّأليف فيه ، وإنما تعرّض لهذه المسألة في معرض حديثه في مجالس الوزير أبي عبد الله العارض أحد وزراء الدولة البويهية (178) .

ولحديث أبي حيان أهميّة خاصّة من وجهين : أحدهما أنّه يقول بالتسوية ، ويؤمن بها ، ويدافع عنها ، ويرى أنّ الأمم جميعاً مشتركة في الفضل والإساءة . فهو شعوبيّ عند من يعتبر أنّ الشعوبيّة هم أهل التسوية . والآخر أنّه يحكي في

== وفيها تعريف لكتاب العرب وعلومها . ولم يمكننا الاطلاع الا على القطعة التي نشرها محمد كرد علي في رسائل البلغاء . لأن الكتاب ما زال مخطوطاً ولم ينشر كاملاً .

(176) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، ص : 5

(177) هو عليّ ابن محمد ابن العباس ، أبو حيان التوحيدي ، شيرازي الأصل ، وقيل نيسابوري ، صوفي السمّ والهيئة ، وكان يتألّه والناس على نفة من دينه ، وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه ، فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة وإمام البلغاء ، أحرق كتبه قبل موته لأنّها لم تنفعه في حياته . من مؤلفاته المقابسات والصدّاقة والصديق ، ورسالة في العلوم ، والإمتاع والمؤانسة ، اتهمه ابن الجوزي بالزندقة ، فقال : زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندي والتوحيدي ، وأبو العلاء ، وشرّهم التوحيدي لأنّها صرحاً ولم يصرح . مات في حدود الثمانين والثلاثمائة ، غير أنّ أحمد أمين عثر على نصّ للتوحيدي يشير لبقائه بعد سنة أربع مائة للهجرة .

انظر ترجمة التوحيدي : ياقوت ، معجم الادباء ، ج : 15 ص : 5 وما بعدها .

ابن خلكان ، وفیات الاعيان ، ج : 5 ص : 112 -- 113 .

أحمد أمين ، مقدمة الامتاع والمؤانسة .

(178) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج : 1 ص : 70 .

خلال حديثه مزاعم الجيهاني في تنقّص العرب وثلبيهم ، وهي مزاعم ، قلّ بل ندر وجودها في غير كتابه . وحديث التوحيدي كان إجابةً عن سؤال الوزير أبي عبد الله العارض له إنّ كان يفضّل العجم على العرب أو العرب على العجم .

وقد قدّم لحديثه بحكاية حديث منسوب لابن المقفع في تفضيل العرب واعتبارها أعقل الأمم⁽¹⁷⁹⁾ . إلّا أنّه لم يتابع ابن المقفع في رأيه ، ورأى أنّ مسألة تفضيل أمة على أخرى ، « أمّهات ما تدارأ الناس عليه ، وتدافعوا فيه ، ولم يرجعوا منذ تناقلوا الكلام في هذا الباب إلى صلح متين ، واتفاق ظاهر »⁽¹⁸⁰⁾ وهذا الاختلاف أمر طبيعي ، لأنّه ليس من طبع الفارسي ومنشأه وعادته أنّ يعترف بفضل العربي ، وكذلك العربي ليس في عادته وجبلته أنّ يقرّ بفضل الفارسي ، وكذلك الهندي والرومي والتركي . والقول في الفضل والشرف ، يعتمد برأيه على شيئين : أحدهما ما خُصّ به قوم دون قوم في أيام النشأة الأولى ، وبالإختيار للجيّد وللرديء . وبالقياص على هذا الأمر ، فلكلّ أمة فضائل ورذائل ، ولكلّ قوم محاسن ومساوئ ، ولكلّ طائفة من الناس في صناعتها كمال وتقصير . وعليه ، فالخيرات والفضائل والشور والمساوئ مفاضة على جميع الخلق مشتركة بينهم . ولكلّ أمة فضائل خصّتها وعُرفت بها ، « فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم ، وللروم العلم والحكمة ، وللهند الفكر والروية والخفة والسحر والأناة ، وللترك الشجاعة والإقدام ، وللزنج الصبر والكد والفرح ، وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان »⁽¹⁸¹⁾ .

والفضائل المذكورة في هذه الأمم ، ليست لكلّ واحد من أفرادها ، وإنّ كانت شائعة بينها ، فالفرس ، لا تخلو من جاهل بالسياسة خال من الأدب والعرب ، لا تخلو من جبان بخيل عمي ، وكذلك الأمم جميعاً ، وعلى ذلك لو قرّن أهل الفضل والكمال من الهند والروم ، لتلاقوا على نهج واحد مستقيم ، ولم

(179) لقد تعرضنا لهذا الحديث في كلامنا على ابن المقفع فيما سبق من هذه الرسالة .

(180) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج : 1 ص : 73 .

(181) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 74 .

يكن بينهم تفاوت إلا في حدود الفضل والكمال . وكذلك لو قوبل أهل النقص والرذيلة من أمة بأهل النقص والرذيلة من أمة أخرى ، لتلاقوا على نهج واحد ، ولما اختلفوا إلا في الحدود والمقادير ⁽¹⁸²⁾ .

وفي هذا برهان : « أن الأمم كلها تقاسمت الفضائل والنقائص باضطراد الفطرة ، واختيار الفكرة ، ولم يكن بعد ذلك إلا ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابية والعادة المنشئية والهوى العالب من النفس الغضبية ، والنزاع من القوة الشهوية » ⁽¹⁸³⁾ .

والشيء الآخر أن لكل أمة زماناً على ضدها ، يظهر فيه فضلها وإحسانها ، والأمم بين مِمَّنْ أرسل وهمه في دولة اليونان والإسكندر ، لَمَّا غلب الملوك وساس الأمم ، ودبر الأمور ، فإن عطف إلى حديث كسرى أنوشروان وجدَّ هذه الأحوال نفسها مع تغيّر الزمان والأسماء والصفات ، فكل « أمة في مبدأ سعادتها أفضل وأنجد وأشجع وأمجّد وأسخر وأجود وأخطب وأنطق وأراى وأصدق ، وهذا الاعتبار ينساق من شيء عام لجميع الأمم ، إلى شيء شامل لأمة أمة ، إلى شيء حاوٍ لطائفة طائفة ، إلى شيء غالب على قبيلة قبيلة . . . وهذا التحول من أمة إلى أمة ، يشير إلى فيض وجود الله تعالى على جميع بريته وخليقته بحسب استجابتهم لقبوله ، واستعدادهم على تطاول الدهر في نيل ذلك من فضله ، ومن رقي إلى هذه الرتبة بعين لا قذى بها ، أبصر الحق عياناً بلا مرية ، وأخبر عنه بلا قرينة ، ومتى صدق نظرك في مبادئ الأحوال وأوائل الأمور ، وضح لك هذا كله . . . ولم يبقَ حيثُ ذرّيب في عرفان الحق وحصول الصواب ، إلا ما يلتاث بالهوى ، ويسمح بالتعصّب ، ويجلب اللجاج ، ويخرج إلى المحكّ ، فهناك يطيح المعنى ، ويضلّ المراد » ⁽¹⁸⁴⁾ .

(182) التوحيد ، الامتاع والموانسة ، ج : ١ ص : 74 .

(183) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 74 — 75 .

(184) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 75 — 76 .

فالتوحيدي يقول بالتسوية ، ويذهب إليها ، ويدافع عنها من دون أن يدفعه ذلك إلى التعصّب على العرب ، أو يجذبه إلى بغضها ومعاداتها . وإنّما يظهر إعجابه بلغة العرب وحدث أصحابها وعاداتهم ، ففرغ باب الغيب والشعور بالمستور من الأمور ، والهاجس بالشيء المتوقّع ، والأمر المزمع ، شيء فاش في العرب ، لطول الوحدة ، وصفاء الفكر ، وجودة النية ، واعتدال الهيئة وصحة الفطرة : واتقاد الطبع ، إضافة إلى ما هو معروف فيهم ومنسوب إليهم ، من « الشجاعة والنجدة والدّماء والضيافة والفطنة والخطابة والحمية والأنفة والحفاظ والوفاء ، والبذل والسّخاء ، والتهالك في حبّ الثناء والنكل الشديد عن الدّم والهجاء ، إلى غير ذلك ممّا خُصّت به في جاهليتها قبل الإسلام ، ممّا لا سبيل إلى دفعه ، والبهت فيه ، والمكابرة عليه » (185) .

وأما اللغة العربيّة ، فلها من السّعة في تصاريف الكلام في الأسماء والأفعال والحروف والإشتقاق وبدائع الإستعارات ولطف الكنايات وفنون الكلام وحسن وقع الحركات ، ما هو مُسلّم لها وموقّر عليها « وقد سمعنا لغات كثيرة - وإن لم نستوعبها - من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاب وأندلس والزنج ، فمّا وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربيّة ، أعني الفرج التي في كلماتها ، والفضاء الذي نجده بين حروفها ، والمسافة التي في مخارجها ، والمعادلة التي نذوقها في أمثلتها ، والمساواة التي لا تُجحد في أبيّتها » (186) .

ويدعو التوحيدي من يشكّ في حكمه إلى دراسة اللّغات المختلفة ، ومقابلتها وموازنتها فإنّه - لا شك - واصل إلى النتيجة نفسها ، شرط أن يكون « بريئاً من الآفة ، متنزّهاً عن الهوى والعصبية » (187) ، ويتخلّص من ذلك إلى العجب من الجيهاني كيف سمح لنفسه ، مع علمه وفضله ، أن يسبّ العرب ،

(185) التوحيدي ، الامتاع والموانسة ، ج : 1 ص : 77 .

(186) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 77 .

(187) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 78 .

ويتناول أعراضها ، ويحطّ من أقدارها ، ثم يبدأ بحكاية مزاغم الجيهاني ونقضها ، فيذكر ما عاب الجيهاني على العرب من مطاعمها ، ويردّ عليه ، بأنّه لو نَزَلَ ذلك الفقر وتلك الجزيرة كُلُّ كِسْرَى كان للفرس ، وكلُّ قيصِر كان للروم ، وكل ملك كان في ممالك العجم ، لَمَّا صنعوا بخلاف ما يصنع العرب ، لأنّ مَنْ جاع ، أَكَلَ ما وَجَدَ ، وشَرِبَ ما قدر على شربه « حَبًّا للحياة وطلباً للبقاء ، وجزعاً من الموت وهرباً من الفناء ، أُتْرِى أنوشروان إذا وقع إلى فيافي بني أسد . وبرّوبار وسفوح طَيِّية ، ورمّل يبرين وساحة هبّير ، وجاع وعطش وعرى ، أمّا كان يأكلُ اليربوع والجُرْذان ، وما كان يشرب بَوَلَّ الجمل ، وماء البئر وما أسن في تلك الوهّادات ؟ وما كان يلبس البرجد والخميصة والسمل من الثياب وما هو أدَوْن وأخشن ؟ بلى واللّه ، ويأكل حشرات الأرض ونبات الجبال وكلّ ما حمض ومر » (188) .

ويضيف التوحيدي : أنّ العرب لا تأكل ما عِيَّتْ به إلّا في سنين الجذب والقحط ، فإذا جادت السماء ، وصدقت الأنواء ، وكثرت الخيرات ، تلاقت القبائل على المحاضر ، وتقاولوا ، وتضايفوا ، وتعاهدوا ، وتعاقدوا ، وأظهروا الكرم ، فأعطوا العُفّة ، وَزَوَّدوا السابِلة ، وفكّوا الأسرى ، وحضروا الأسواق ، وتداعوا الجَفَلَى ، وتعافوا النَّقْرى ، وتنافسوا في أفعال الخير والمعروف والمناقب . وممّا هو متفق عليه ، ولا شكّ فيه ، إنّهُ ليس على وجه الأرض قوم اعتادوا العيش والفقر وحياة الصحارى ، ولهم ما للعرب « من علمهم بالخصب والجذب ، واللّين والقسوة ، والحر والبرد ، والريّاح المختلفة ، والسّحائب الكاذبة ، والمخايل الصادقة والأنواء المحمودة والمذمومة والأسباب الغريبة والعجيبة » (189) .

فهم في توخّشهم مستأنسون ، وفي بواديههم متحضّرون ، اجتمع لهم من الحاضرة أحسن العادات ، ومن البادية أشرف الأخلاق ، وأمّا أهل المدن

(188) التوحيدي ، الامتاع والموانسة ، ج : 1 ص : 80 .

(189) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 80 — 82 .

وأصحاب الحواضر ، فقد غلبت على أخلاقهم وطباعهم الذناء والخلاية والهيين ، والمكر والحيلة ، والغش والكذب وعدم الوفاء . أما العرب ، فقد جبلها الله على أطر الأخلاق وأشرف العادات » ولهذا تجد أحدهم ، وهو في بت حافياً حاسراً ، يذكر الكرم ، ويفتخر بالمحمدة ، ويتحل النجدة ، ويحتمل الكل ، ويضحك في وجه الضيف ، ويستقبله بالبشر ، ويقول : أحذثه ، إن الحديث من القرى » (190) .

والدليل على تحضرهم في بواديههم ، وتبديهم في حواضرهم ، وتحليهم بأشرف أحوال الأمرين أسواقهم في الجاهلية مثل دومة الجندل وسوق هجر المعروف بالمشقر ، وسوق دبا وصحار ، وإرم وقرى شحر وعدن ، والرابية من حضر موت وصنعاء وغكاظ ، وهي أسواق موسمية متصلة على مدار السنة ، يحضرها القريب من العرب والبعيد ، ولهذه الأسواق صفة أدبية واجتماعية إضافة إلى صفتها التجارية ، فكان العرب يتناشدون فيها الأشعار ، ويتهاجون ، ويتمادحون ويعقدون الصلح والأحلاف ، هذا شأنهم » وهم همل لا عز لهم إلا بالسؤدد ولا معقل لهم إلا السيف ، ولا حصون إلا الخيل ، ولا فخر إلا بالبلاغة » (191) .

فلما هبت ريحهم ، وأشرق نور النبوة فيهم ، ومكن الله لهم بالإسلام ، وأنزل على نبيهم بالقرآن ، ونشرهم بدعوة الإسلام ، حازوا فضائل الأمم ، ومحاسن الشعوب من غير كد في طلبها ، أو نصب في تعقبها ، وإنما جاءتهم رهواً وسهواً ومالت إليهم سهلاً وعضواً ، « ثم لما ملكوا الدور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر ، لم يقعدوا عن شأو من تقدم بآلاف السنين ، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم ، بل أبروا عليهم ، وزادوا ، وأغربوا وأفادوا ، وهذا الحكم ظاهر معروف ، وحاضر مكشوف ، ليس إلى مردّه سبيل ولا لجاحده ومنكره دليل » (192) .

(190) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 83 .

(191) مصدر نفسه ، ج : 1 ص : 85 .

(192) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 85 .

أما ما ذكّرهُ الجيهاني من تشريف الله لفارس ، وتقديمها بتبويثها الجنائن ، والأرياف وأنواع الترف ، وحرمان العرب منها ، وحصرهم في رقعة من الأرض ضيقة مجدبة ، يعانون فيها ألوان الفقر وأنواع العذاب ، فليس الأمر كما ادعى ، ولقد خُصّت العرب بأشياء ، تطول حسرة من فاتته عليها ، وإنما ذهب هذا المذهب ، لظنه أن الجاهل إذا تقلّب في الترف والنعيم ، أشرف من العالم إذا لبس الأطمار ، وعانى الفقر ، وكابد الجوع . وهذا خطأ في الرأي مردود عند الله وجميع أهل الفضل والحجّ ، لأنّ المدار على العقل « الذي من حُرْمِهِ ، فهو أنقص من كل فقير وعلى الدين الذي من عُرْيٍ منه فهو أسوأ حالاً من كل معسر »⁽¹⁹³⁾ ، ونعمة الله على ضربين : أحد الضربين عمّ به عباده ، وغمر بفضله خليقته ، بدءاً « بلا استحقاق . . . وهذا هو العدل المخلوط بالإحسان ، والتسوية المعمومة بالفضل والقدرة المشتملة على الحكمة ، والضرب الثاني هو الذي يُستحقّ بالعمل والإجتهاد والسعي والإرتياد والإختبار والإعتقاد ، ليكون جزاءً وثواباً ، ولهذا حرّم العاصي المخالف ، وأنال الطائع الموافق ، فقد بَانَ الآن أنّ المدار ليس بالجنان والترّف ، ولا بالذهب والفضة ولا بالوبر والمدر »⁽¹⁹⁴⁾ .

وأما فخر الجيهاني بالعلوم وادعاؤه بأنّ ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقى وغيره من الكتب ، فإنّ هذا كلّهُ للعرب بنوع طبيعي كما هو لغيرهم بنوع صناعي ، وقد مازج هذا ذاك . ثمّ ما علاقة الفرس بالمجسطي وهو لليونان ؟ فإنّ قال : اليونان من العجم والفرس من العجم ، فماذا يقول إذا فاخر يونان ؟ أيقول لهم نحن من العجم وأنتم من العجم⁽¹⁹⁵⁾ ؟

وبعد ، فلو كانت الفضائل كلّها مجموعة للفرس ، مصبوبة على رؤوسهم ، موسومة بوسمهم وطالعة في جباههم ، لوجب عليهم أن لا يفاخروا الأمم ، « وأنّ يخرسوا عن دقّها وجلّها » لِمَا أخذوا أنفسهم فيه من تحليلهم ذوات المحارم

(193) في النص موسر ومعسر أكثر انسجاماً في سياق الكلام .

(194) التوحدي ، الامتناع والمؤانسة . ج : 1 ص : 87 — 88 .

(195) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 89 — 90 .

كالاتمات والبنات والأخوات ، لأن ذلك « كربه في الطَّبَاع ضعيف في السَّماع ، ومردود عند ذي فطرة سليمة ، ومُسْتَبْشَعٌ فِيْ نَفْسِ كُلِّ مَنْ لَهُ جَبَلَةٌ مُعْتَدِلَةٌ » (196) .
وقد صنعوا ذلك ، وادَّعوا زوراً ، بأنَّ الله قد أحلَّ لهم ذلك ، وأذنَّ لهم فيه بشريعة. أَتَتْهُمْ مِنْ عِنْدِهِ ، وهذا كذب على الله ، لأنَّ زرادشت لم يكن نبياً ، ولو كان كذلك ، لذكره الله في القرآن ، كما ذكر انبياءه ، ونوّه بأسمائهم ، لذلك قال النبي (ص) : « سَنَوا بِهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ » (197) وكانوا لا كتاب لهم منزل من عند الله ، وَقَدْ مَوَّاهُ عَلَيْهِمْ زَرَادَشْتُ ذَلِكَ ، وغلبهم بقوة الملك الذي قبل افتراءه وبهتانه ، وكيف يكون نبياً ، وقد دعا إلى إلهين اثنين ، وهذا مستحيل بالعقل ، « وَإِنَّمَا جَاؤُوا إِلَى وَهْيٍ فَرَقَعُوهُ ، وإلى حرام بالعقل ، فأباحوه ، وإلى خبيث بالطبع ، فارتكبهوه ، وإلى قبيح في العادة ، فاستحسنوه .

وقد وجدنا في البهائم ما إذا أُنزِي الفحلُ على أمه ، لم يطاوع ، وإذا أَكْرَه ، وخُدِعَ ، وعَرِفَ ، غَضِبَ على أهله ، ونَدَّ عنهم ، وشرر عليهم ، فما تقول في خلق لا ترضاه البهيمة ، ولا تطاوعه فيه الطبيعة ، بل يأباه حسه مع كلوله » (198) .

وكيف قبلوا ذلك من زرادشت ، وصدَّقوه ؟ وكان الأحرى بهم ، والأجدى عليهم ، أن ينكروا هذه الخصلة اللثيمة ، ولو أقام كلُّ برهان وآية ، فنثر عليهم النجوم ، وغير صورة الفلك ، فأطلع الشمس من مغربها ، وسير لهم الجبال ، وغَيَضَ لهم البحار ، وأراهم الثريا ، تمشي على الأرض ، لوجب عليهم الشكُّ فيه وبهجة رأيه ، وتكذيبه وقتله . لكنهم قبلوا منه ، وصدَّقوه ، وبالعقل نفسه ، صدقوا مزدك ، واتبعوه ، « وهم يدعون الحكم والعلم والحزم والعزم ، ولفرط جهلهم ، وغلبة شهوتهم ، غفلوا عما يجوز أن يكون الله سبحانه مبيحاً له ، أو حاضراً ، أو مطلقاً أو مانعاً ، أو محلاً أو محرماً » (199) .

(196) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 90 .

(197) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 91 .

(198) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 91 .

(199) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 93 .

ولو كانت هذه الخصلة المذمومة في العرب ، لكانوا أعذر ، لشدة غلتمهم ، وكثرة تهيجهم ، وقدرتهم على البضاع ، وهم مع ذلك ، لم يقلوه ، ولم ينتحلوه ولو أكرههم على هذا مكره ، ودعاهم إليه لَمَّا أطاعوه ، وما منعهم من هذا « إلا الأنفس الكريمة ، والطباع المعتدلة والشكائم الشديدة ، والأرواح العنيفة والعادات الرضيّة ، والضرائب الطيّبة ، وكان وأد البنات عندهم أنفى للمعاير ، وأطرد للقبائح من هذا الذي استحسسه زرادشت وقبل منه الفرس » (200).

فأيّ مفارقة بين عقول العرب وعقولهم ، والعرب يقولون « اغتربوا لا تضوا واستفاض هذا منهم ، حتى سُمِعَ من صاحب الشريعة (ص) ، وذلك أنّ الضوى مكروه ، والعرب قالت هذا بالإلهام لقرائحهم الصافية ، وأذهانهم الواقعة ، وطينتهم الحرّة وأعراقهم الكريمة ، وعاداتهم السليمة ، وإنّما شعروا بهذا لأنّ الضوى الواصل إلى الأبدان هو سارٍ إلى العقول ، ولكنّ الفرس عن هذا الشرّ غافلون ، ولا يفتن لهذا وأمثاله إلا الألمعيون الأحوذيون » (201).

والعرب تريد بالضوى ضوى العقل ، لأنّهم يطلبون سلامة الجسم وسلامة العقل ، وذلك ظاهر في الأرض ، وإنّما الأرض تزكو إذا حوّل ترابُ أرضٍ إلى أرض وإذا كان الإغتراب ، يؤثر في الأرض ، فحرّي به أن يؤثر في الإنسان ، لأنّ الإنسان من التراب . « فَمَا ظَنُّكَ بقوم يجهلون آثار الطبيعة ، وأسرار الشريعة ، ما أدلّهم الله باطلاً ، ولا سلبهم ملكهم ظالماً ، ولا ضربهم بالخزي والمهانة إلا جزاءً على سيرتهم القبيحة ، وكذبهم على الله بالجرأة والمكابرة وما الله بظلام للعبيد » (202).

« فليستحي الجيهاني بعد هذا البيان ، والكشف والإيضاح ، بالإنصاف ، من القذع والسفّه اللذين حشا بهما كتابه ، ويرفع نفسه عمّا يشين العقل ، ولا

(200) مصدر نفسه . ج : ا ص : 93.

(201) مصدر نفسه . ج : ا ص : 94.

(202) مصدر نفسه . ج : ا ص : 95.

تقبله الحُكَّام العدل . وصاحب العلم الرّصين والأدب المكين ، لا يسلّط خصمه على عرضه بلسانه ، ولا يستدعي مرّ الجواب بتعرضه ، ويرضى بالميسور في غالب أمره » (203) .

والتوحيدى على الرّغم من اندفاعه في الدّفاع عن العرب ، وتمجيد خصالهم ، وإعجابه بلغتهم وآدابهم ، لم يتجاوز مبدأه القائل بالمساواة بين الأمم والشّعوب ، وإنّ الفضائل والمساوىء مشتركة بين أمم الأرض ، « فالخلق كلهم في نعم الله تعالى مشتركون ، وفي أيّديه مغموسون ، وبمواهبه متفاضلون . . . (و) العربُ أذهب مع صفو العقل ، ولذلك هم بذكر المحاسن أبده ، وعن أضدادها أنزه ، ولو كانت رويّتهم في وزن بديّتهم ، كان الكمال ، ولكنّ لما عزّ الكمال فيهم ، عزّ أيضاً في غيرهم من الأمم ، فالأمم كلّها شرع ، واحد في عدم الكمال » (204) .

(203) مصدر نفسه . ج : ا ص : 85 — 86 .

(204) مصدر نفسه . ج : ا ص : 88 — 89 .

خاتمة

ظَهَرَ لَنَا أَنَّ الشُّعْبِيَّةَ حَرَكَةً عُنْصَرِيَّةَ عَرَقِيَّةَ حَاقِدَةً عَلَى الْعَرَبِ هَدَفُهَا تَحْطِيمَهُمْ سِيَاسِيًّا ، وَإِرْبَاكَهُمْ دِينِيًّا ، وَتَشْكِيكَهُمْ بِتَرَاثِمِ الْحَضَارِيِّ وَقَطْعَ صِلَتِهِمْ بِمَاضِيهِمْ تَمْهِيدًا لِلْإِنْقِضَاظِ عَلَيْهِمْ ، وَدَفْعَهُمْ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى الصَّحْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ . وَالشُّعْبِيَّةُ نَشَاتٌ كَرَدَ فَعَلَ لِلظُّلْمِ الْإِجْتِمَاعِيِّ وَالْقَمْعِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي مُوَسَّسَ عَلَى الْمَوَالِيِّ وَالْعَجْمِ طِيلَةَ الْعَهْدِ الْأُمَوِيِّ ، وَكَتَيْبَةُ لُخِيَّةِ الْأَمَلِ الْمَرِيرَةِ مِنَ السُّلْطَانِ الْعَبَّاسِيِّ الَّذِي تَخَلَّى عَنْ مَعْظَمِ الشُّعَارَاتِ الَّتِي نَادَى بِهَا ، قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى السُّلْطَةِ ، وَهَذِهِ الشُّعْبِيَّةُ ، وَإِنْ لَمْ تَظْهَرْ إِلَّا فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ الْأَصُولِ وَالْجُذُورِ مَا يَعُودُ إِلَى الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ ، وَعَصْرِ الْفَتْوحَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَإِنَّ السِّيَاسَةَ الْأُمَوِيَّةَ كَانَتْ مِنْ أَوْكَدِ الْأَسْبَابِ لَتَفْجَرِ النَّزْعَةِ الْعَدَائِيَّةِ لِلْعَرَبِ فِي صُفُوفِ الْعُنَاصِرِ الْأُخْرَى ، وَدَافِعًا لَهُمْ إِلَى الْإِشْتِرَاكِ بِكُلِّ الثُّورَاتِ الَّتِي نَشَبَتْ ضِدَّ الْبَيْتِ الْأُمَوِيِّ⁽¹⁾ ، لَكِنْ أَثَرُ الْمَوَالِيِّ فِي هَذِهِ الثُّورَاتِ ظَلٌّ ضَعِيفٌ وَمَحْدُودٌ ، فَلَمْ يَشَارِكُوا فِي قِيَادَتِهَا أَوْ التَّخْطِيطِ لَهَا ، حَتَّى كَانَتْ الثُّورَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ ، وَانْتِصَارُهَا ، وَمِشَارَكَتُهُمْ الْفَعَّالَةَ فِيهَا تَخْطِيطًا وَتَنْفِيزًا ، فَكَانَتْ تِلْكَ الثُّورَةُ مِنْ أَمَمِ الْأَسْبَابِ لِنُهُوضِهِمْ وَاسْتِعَادَةِ الثِّقَةِ بَأَنْفُسِهِمْ وَالشُّعُورِ بِقُوَّتِهِمْ وَأَهْمِيَّتِهِمْ ، فَاسْتَيْقِظَ حِلْمُ طَالِمَا رَاوَدَهُمْ ، وَهُوَ مُنَافَسَةُ الْعَرَبِ وَالتَّغَلُّبُ عَلَيْهِمْ وَالتَّأَرُّسُ مِنْهُمْ ، فَشَتُّوا تَحْتَ سِتَارِ الدِّينِ هَجَمَاتٍ شَدِيدَةً عَلَى الْعَرَبِ ، وَأَظْهَرُوا بِغَضِّهِمْ وَازْدِرَاءِهِمْ ، وَجَاهَرُوا

(1) إِنَّ النِّقْمَةَ عَلَى الْأُمَوِيِّينَ كَانَتْ مَنَاجِجَةً فِي صُفُوفِ الطَّبَقَاتِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَجْتَمَعِ ، أَمَّا الدَّهَاقَةُ وَسَائِرُ الطَّبَقَةِ الْأَرِسْتَقْرَاطِيَّةِ فَكَانَتْ عَلَى تَفَاهَمٍ تَامٍ مَعَ السُّلْطَةِ لِأَنَّ مَصَالِحَهَا الْإِقْتِسَادِيَّةَ بَقِيَتْ مُؤَمَّنَةً إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ .

بحقدهم عليهم إذ اعتبروا العربَ قوَّةَ احتلالٍ وتسَلَّطٍ يجب التخلُّص منها ،
فنشطوا في شتى الميادين يناصبون العربَ العداءَ ويحاولون التفوقَ عليهم .

رَكَزَتِ الشُّعوبِيَّةُ هجماتها على الجاهليَّةِ ، فعَدَّدتِ المِثَالِبَ العربيَّةَ وشكَّكتِ
بالأنساب ، وسخرت من مناقب العرب ومآثرهم وعاداتهم وتقاليدهم ، واستهانت
بكلِّ ما هو عربي كالكرم وقرى الضيف والوفاء والنَّجْدَةِ والمروءَةِ والفروسيَّةِ ،
وعابت مآكلهم ومشاربهم ، وحاولت إظهارهم كآمَةٍ متوحَّشة لا حظَّ لها من
الحضارة ، وقابلت الحياةَ العربيَّةَ في الجاهليَّةِ بالحياةَ الفارسيَّةِ ، وفخرت بملوك
الفرس وأساورتهم ومرازبتهم ورقيق عيشهم ورفاهيتهم وعظمتهم وغناهم وحاكت
الأقاصيص واختلقت الروايات التي تمجَّد الحضارةَ الفارسيَّةَ القديمة وتعظَّم ملوكها
ورجالها .

وشكَّكتُ بالشعر العربي وحقيقته بِمَا أدخله رواؤها فيه من وضع وانتحال
باعتبار أنَّ الشعر ديوان العرب ، وفيه تخليد لأيامها ، ومآثرها ، وباعتباره تراثاً
يجسِّد الأصالة العربية . وهاجمت اللغةَ العربيَّةَ باعتبارها الوعاء الثقافي للحضارة
العربية والتراث العربي الإسلامي . وأنكرت دورَ العرب الرِّيادي في الإسلام ،
وحاولت طمس الدَّور العربي في حمل الرسالة الإنسانية وحاولت الظهور بالحضارة
العربية الإسلامية وكأنَّها امتداد للحضارة الفارسية القديمة أو اقتباس عنها وتطوير
لهذا التراث القديم ، وصنَّع المجتمع بصيغة فارسية ، فترجموا الكتب الفارسية
في المراسم والعادات والأخلاق والسَّير ، ووضعوا الكثير من الكتب والرسائل
والحكم والأمثال ، ونسبوها لحكماء الفرس وملوكها ، وأحيوا أعياد الفرس
القديمة ، واحتفلوا فيها احتفالاً واسعاً ، وعملوا على نشر المجون والفجور
والتحلُّل الأخلاقي واللامبالاة الاجتماعيَّة والتهاكك على الملذَّات .

ونشط الشُّعوبيون في المجال الديني ، وحاولوا إحياء أديانهم ونحلهم
القديمة كالزرداشتية والمانوية والمزدكية والخرميَّة ، وأسروها وأظهروا الإسلام
وتسَّروا به ، وكوَّنوا ما يُعرَف بالتاريخ بحركة الزندقة واتخذ بعضهم الغلو ستاراً
للتخريب في الإسلام ، فمزجوا عقائدهم القديمة ببعض المفهومات الإسلامية ،

لِتَسَعِ لَهُمِ الْمَجَالُ بِالظُّهُورِ وَالْعَمَلُ بِحَرِيَّةٍ ، وَوَضَعُوا الْأَحَادِيثَ الْمُنَاقِضَةَ لِجَوْهَرِ الْإِسْلَامِ ، وَنَحَلُوهَا النَّبِيَّ ، لِيَشْكُوكَ الْمُسْلِمِينَ بِعَقِيدَتِهِمْ ، وَيُظْهِرُوا الْإِسْلَامَ كَدِينٍ مُتَنَاقِضِ الْقَوَاعِدِ وَالْأَحْكَامِ .

وَنَشِطُ الشَّعُوبِيُونَ سِيَاسِيًّا ، فَحَاوَلُوا السَّيْطِرَةَ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ خِلَالِ الْوِزَارَةِ وَبَعْضِ الْمَنَاصِبِ الْآخَرَى ، وَطَبَعَ الْإِدَارَةَ بِالطَّابَعِ السَّاسَانِيِّ ، وَفَجَرُوا الثُّورَاتِ الدَّمَوِيَّةَ ذَاتِ الشُّعَارَاتِ الدِّينِيَّةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي تَهْدَفُ الْقَضَاءَ عَلَى الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ كَالرَّائِدِيَّةِ وَالْحَرَمِيَّةِ وَالْبَابَكِيَّةِ .

وَهَاجَمُوا تَقَالِيدَ الْعَرَبِ الْأَدَبِيَّةِ فِي الشُّعْرِ وَالْخُطَابَةِ ، وَنَاصَبُوا الثَّقَافَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْعِدَاءَ وَتَعَصَّبُوا لِلثَّقَافَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَتَشَدَّقُوا فِيهَا تَحْتَ شُعَارِ الْحَرِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالتَّحَرُّرِ الْفِكْرِيِّ .

وَالشُّعُوبِيَّةُ وَقَرِيبَتُهَا الزَّنْدَقَةُ ، إِنَّمَا تَسْتَمِدُّ الْوَحْيَ مِنْ خَارِجِ النَّطَاقِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ فَهِيَ بَوْلَانُهَا وَعَصَبِيَّتُهَا وَثِقَافَتُهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الرُّوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، مُتَنَاقِضَةٌ مَعَهَا . وَهَذَا التَّنَاقُضُ كَانَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَهْمَةِ الَّتِي أَبْعَدَتْ الْعُنَاصِرَ الْفَارَسِيَّةَ الْمُتَدَبِّئَةَ عَنْهَا ، لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبَ ، بَلْ نَشِطَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِمُحَارَبَتِهَا ، وَمُكَافَحَتِهَا ، وَدَحْضِ افْتِرَائِهَا عَلَى الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ . فَفَشَلَتْ بِإِيْجَادِ تَيَّارِ قَوْمِي فَارِسِيٍّ مُنَاضٍ لِلْعَرَبِ ، يَجَسِّدُ الْأَمَالَ الْقَوْمِيَّةَ لِعَامَّةِ الْفَرَسِ وَكَانَ التَّطَرُّفُ الشُّعُوبِيُّ مِنْ أَوْكَدِ أَسْبَابِ هَذَا الْفَشَلِ .

لَمْ يَقِفِ الْعَرَبُ ، وَالْمُتَحَمِّسُونَ لَهُمْ مَوْقِفَ الْمُتَفَرِّجِ إِذَا هَذِهِ الْهَاجِمَاتُ الْمَرِيَّةُ ، فَنَشِطُوا يَمْجُدُونَ فُضَائِلَ الْعَرَبِ وَخُصَائِصَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَيُثْنُونَ عَلَى الدَّورِ الرَّيَّادِيِّ الَّذِي اضْطَلَعَ فِيهِ الْعَرَبُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَوْضَحُوا مِثْلَ الْأَنْسَابِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَصَالَتِهَا ، وَفُضَائِلَ الْعَادَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَزَايَاهَا وَمَعَارِفَهَا ، وَافْتَخَرُوا بِشِعْرِهِمْ وَفَصَاحَتِهِمْ وَبِلَاغَتِهِمْ وَخُطَابَتِهِمْ ، وَاعْتَبَرُوا الْقَصِيدَةَ الْجَاهِلِيَّةَ الْمِثْلَ الْأَعْلَى الَّذِي يَحْتَضِيهِ الشُّعْرَاءُ ، وَنَشِطُوا يَجْمَعُونَ الشُّعْرَ الْجَاهِلِيَّ وَالْإِسْلَامِيَّ مِنْ ثِقَاةِ الرِّوَاةِ ، يَمَيِّزُونَ الصَّحِيحَ مِنَ الْمُدْخُولِ ، وَيَجْعَلُونَهُ شَوَاهِدَ فِي النُّحُوِّ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ ، كَمَا جَمَعُوا أَمْثَالَ الْعَرَبِ وَحُكْمَهُمْ وَأَخْبَارَهُمْ ، وَاعْتَنَوْا بِاللُّغَةِ .

العربية عنايةً فائقةً ، فأصلّوا أصولها ، وأغنوها بالدراسات النحويّة والصرفيّة والفقهية اللغويّة ، واعتبروها أشرف اللغات وأرقاها وأفضلها عند الله ، واعتبروا الإقبال عليها من الديانة « إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد ، ثم هي لإحراز الفضائل والإحتواء على المروءة وسائر المناقب »⁽²⁾ فإنّ من علامات الإسلام وحسن التدين حبّ العرب والعربيّة والإعتقاد « أنّ محمداً... خيرُ الرسل والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم والعربيّة خير اللغات والألسنة »⁽³⁾ .

وكما اعتزّوا بالعربيّة وأهلها ، فقد اعتزّوا بالإسلام ، ودافعوا عنه ، وصدّوا هجمات الزنادقة والملاحدة والمشكّكين ، وانخرطوا تطوّعاً في الجيوش التي وُجّهت للقضاء على ثورات المجوس والخرميّة والبابكيّة ، ولم يواجهوا تعصّب الشّعوبيّة للثقافات الأعجمية بتعصّب للثقافة العربية الإسلامية والإقتصار عليها ، وإنّما افتتحوا على سائر الثقافات المعاصرة ونهلوا من ينابيعها ، واقتبسوا وأخذوا منها ما يلائم حياتهم وحاجاتهم ، ومزجوه بالثقافة العربيّة والإسلامية ، فكانت الحضارة العباسيّة ثمرة لهذا التزاوج والإمتزاج ، مع المحافظة على الطابع العربي والإسلامي لهذه الحضارة .

وابتعد أنصار العروبة من المثقفين عن العنصرية الضيّقة ، وركزوا على مفهوم الأمّة الذي يعتمد على الثقافة والتاريخ واللغة والأرض والبيئة والعادات الإجتماعية .

ولنا أخيراً أن نسأل : هل نجحت الشّعوبيّة في تحقيق أهدافها وغاياتها ؟ إنّ الشّعوبيّة وقريبتها الزندقة ، لم تنجح في المجال الديني ، واستمرّ الإسلام قوياً ناشطاً ، ففضى على معاقل المجوسيّة ، بالرغم من المقاومة العنيفة التي أبدتها النحل المجوسية .

(2) الثعالبي ، فقه اللغة ، ص : 2

(3) مصدر نفسه . ص : 2.

والشعوبية لم تنجح في صدّ اللغة العربية أو إضعافها ، ووقف انتشارها وامتدادها ، بل إنّ العربية فرضت سلطانها على الشعبين أنفسهم ، فاتخذوها أداة تخاطب ووسيلة تعبير أدبية وفكرية ، ولم ينجحوا في بعث اللغة الفارسية واعتمادها في التأليف العلمي والأدبي على نطاق واسع إلا في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري ، والعامل الشعبي ، لم يكن العامل الوحيد في هذا التحول . وظلّت البلاغة العربية ، والقصيدة الجاهلية المثل الذي يقلّده الشعراء والبلغاء ، ويطمحون لمداناته والسبك على مثاله .

ولم تنجح الشعوبية على الصعيد السياسي نجاحاً كاملاً ، ولم تستطع كسب منطقة نفوذ كبيرة لها ، ولم تشكّل في يوم من الأيام قوّة سياسية يمكن أن تخلّ بالتوازنات التي على أساسها قامت الخلافة العباسية ، يبدو ذلك من خلال السهولة التي كان الخلفاء يقضون فيها على الرموز الفارسية في السلطة . فقد قضى السفاح على أبي سلمة الخلال ، وكان رأس الدعوة العباسية ، من دون أن ينتطح فيه عنزان ، وقضى المنصور على أبي مسلم الخراساني ، الذي لم يجروا بالرغم من قوّته على المضي بالمعاندة ، دون أن يحدث ذلك بليلة فورية تذكر . ونكب المهدي الزنادقة واضطهدهم ونكّل بهم وأوسعهم قتلاً وتشريداً ونكب الرشيد البرامكة بعد عهد طويل من تمرّسهم بالسلطة واصطناعهم القواد والولاة والجيوش . ولئن نشطت الشعوبية في عهد المأمون ، فإنها لم تستطع أن تستأثر به ، ولقد نال الفضل ابن سهل عقابه ، لما حاول ذلك . وكان موت طاهر ابن الحسين بعد عزمه على التمرّد درساً لابنائه من بعده ، فأقاموا على طاعة الخليفة حتّى آخر أيّامهم .

ولم ينجح الشعوبيون في إقامة إمارات فارسيّة مستقلة إلّا بعد تسرب الضعف والانحلال الى جسم الدولة ، فقامت الإمارات في خُراسان وفارس ، كما قامت في الشام ومصر وشمال افريقية وأطراف الجزيرة العربية .

واستمرّ العرب يشكّلون طبقة إجتماعية ممتازة حتى بعد فقدانهم لمركز الصدارة السياسيّة ، وظلّ الإعتراف إليهم والإنساب فيهم من علامات الشرف

والنبل والوجهة الإجتماعية . واستمرّ العراق ، وهو الساحة الرئيسية للصراع بين العرب والشَّعوبَية عربياً بانتماؤه ولغته وعاداته وتقاليده .

ولئن أسهمت الشَّعوبَية بخلخله المجتمع الإسلامي وأضعفت عرى وحدته ، وساعدت على إنحلال الدولة وتسرب الضعف إليها ، فلقد أسهمت بانتشار الوعي القومي المُبكر لدى مختلف الشُّعوب الإسلامية . وساعدت على التطوُّر الفكري والعلمي وجعلت العرب يفتحون عيونهم على الكنوز الحضارية الفكرية المعروضة أمامهم فيسدون فراغاً حضارياً أحسوا فيه بعمق وخاصةً في مجال العلوم والفلسفة .

وتطورت الآداب العربية بشكل يلائم الحياة الحضارية المتطورة التي عاشوها في العصر العباسيِّ وتجاوزت التقليد الثابت للأصول الأدبية القديمة من حيث الشكل والمعنى وإن كان التجديد في المضمون والمعاني أوضح فلقد طرأ تجديدٌ في الأشكال والأغراض الأدبية لا يخفى على الباحثين .

فهرس الأعلام

- آدم : 111, 123, 123, 131, 140, 297
386, 393, 314, 335, 341, 342
- آسية بنت علي (أمينة) : 185
- ابراهيم : 131, 277, 392, 394
- ابراهيم ابن أبي عون : 131
- ابراهيم ابن اسماعيل ابن داود : 125
- ابراهيم ابن الاشير : 44, 48
- ابراهيم ابن المدبر : 133
- ابراهيم ابن مشاد : 275
- ابراهيم ابن المهدي : 196-199
220-222
- ابراهيم ابن النعمان ابن بشير
الانصاري : 39
- ابراهيم ابن الوليد : 74
- ابراهيم الامام : 63, 67, 68
70, 75, 76, 77
- ابراهيم الموصلي : 174, 194
- ابرويز : 163, 338, 391, 396, 398
- ابليس : 111, 131, 294, 297
- ابن ابي بكر : 316, 392
- ابن ابي الزناد : 342
- ابن ابي الغدافر الشلمساني : 128,
130, 131
- ابن ابي يعلى : 342
- ابن الاثير : 16, 43, 106, 130
- ابن الاشعث : عبد الرحمن ابن
الاشعث
- ابن الاعدى الحريري : 125
- ابن برد : بشار ابن برد
- ابن بويه الديلمي : 241
- ابنة ذي البردين : 338, 396
- ابنة عبد الله : 338, 396
- ابنة مالك : 338, 396
- ابن التوام : 262, 263, 372
- ابن جامع : 174
- ابن الحنفية : محمد ابن الحنفية
- ابن خلدون : 151, 152, 161, 171, 172
- 340, 343, 346, 348, 201
- ابن خلكان : 182, 333
- ابن دريد : 156, 358

- ابن ذي يزن : سيف ابن ذي يزن
ابن رائق : 238, 239
ابن الراوندي : 125, 127
ابن سعد : 225
ابن شبيب الزيات : 131
ابن شكلة : ابراهيم ابن المهدي
ابن شوزب : 52
ابن طالوت : 125
ابن طباطبا القاسم ابن ابراهيم : 108
324, 325
ابن طولون : 236, 237
ابن طيغور : 231
ابن عائشة : 120
ابن عباس : عبد الله ابن عباس
ابن عياش : 186
ابن عزوان : 262
ابن القارح : 123
ابن قتيبة : 17, 18, 95, 163, 190
329, 358, 385, 399
ابن ماسوية : 378, 384
ابن مشارك : 262
ابن مطيع : عبد الله ابن مطيع .
ابن المقفع : عبد الله ابن المقفع .
ابن منبه : 342
ابن النديم : 101, 121, 128, 203
324, 328, 331
ابن وحشية : 334
ابو الاصلع الهندي : 277
ابو ايوب المورياني : 188, 190
- ابو بردة ابن أبي موسى الأشعري : 41
ابو بكر الشبلي : 129
ابو بكر الشيباني : 36, 54
ابو بكر الصديق : 62, 65, 113
342, 278, 123
ابو تمام : 123, 143, 174
ابو جعفر المنصور : 63, 64, 98, 99
132, 138, 139, 140, 168, 179, 180
185, 186, 187, 189, 191, 193, 203
208, 324, 326, 413
ابو الحسن علي ابن حمزة ابن عماره :
332
ابو حنش : 317
ابو حنيفة الدينوري : 62, 107
ابو حيان التوحيدي : التوحيدي
ابو خالد : احمد ابن خالد
ابو خالد النمري : 312, 317
ابو ذور خالد بن ابراهيم : 66, 79, 80
185, 186, 215
ابو الدفيس : 156
ابو ذلف القاسم ابن عيسى العجلي :
104, 105
133, 134, 227, 228, 288
ابو السرايا ابن طباطبا : 216, 220
ابو سلام أسلم ابن سلام : 66
أبو سلمة الخلال : 66, 67, 182
183, 189, 192, 345, 413
ابو شاكر : 125
ابو الشمقمق : 118

ابو العاص ابن عبد الوهاب الثقفي :	ابو كيشة : عمرو ابن مالك .
262, 160	ابو لؤلؤة المجوسي : 34
372, 263	ابو مسلم الخراساني : 75, 72, 66, 63
ابو العباس السفاح :	118, 98 63, 62
413 267, 192, 184, 183, 182	ابو العباس الناشيء : 125
ابو عبد الله الجهمي : 331	ابو عبد الله العارض : 400, 399
ابو عبد الله : الفضل ابن يعقوب	ابو عبيد الله الوزير : 192, 191
ابو عبيدة معمر ابن المثنى : 316, 249	ابو غلة : 185
352, 341, 329, 328	ابو نواس : 157, 122, 121, 118, 117, 116
395, 376 375, 366,	259, 253, 251, 212, 168
ابو العتاهية : 318, 301, 298, 271, 123	380, 329, 318, 289, 272
ابو عثمان : الجاحظ	ابو الهندي : 288, 158
ابو عطاء السندي : 272	ابو يزيد : 274
ابو عكرمة السراج : 66, 65, 61	أتامش : 232
ابو العلاء المصري : 123, 115, 94	الأجشم المروزي : 140
ابو علي ابن بسطام : 131	أحمد ابن ابي دؤاد : 107, 105, 104
ابو علي رجاء يزدا نبخت : 103	331, 230, 229, 228, 227
ابو علي الهوي : 66	احمد ابن خالد (ابو خالد) : 112
ابو عمرة كيسان : 52, 50, 44	احمد ابن الخطيب : 232
ابو عمرو : 311, 162	احمد ابن عبدوس : 131
ابو عون الكلبي : 72	احمد ابن محمد : الجيهاني
ابو عيسى ابن الرشيد : 278	احمد بن محمد : المستعين
ابو عيسى الوراق : 125	احمد ابن يحيى : الراوندي
ابو الفرج الاصفهاني : 115, 112, 55	احمد ابن معقوب : 237
174, 122, 117	أحمد أمين 27, 26, 19, 18, 17
ابو قابوس : 369	327, 324 251, 132, 108, 94, 28

- احمد لواساني : 17
احمد ابن شميظ : 51, 50, 46
اسماعيل ابن يسار النسائي : 56, 55
267,
اسماعيل العوفي : 19
الاحنف ابن قيس : 375, 317, 216, 36
الاصوص : 324
اشجع ابن عمرو : 168
الاشعث ابن قيس : 35
ادريس : 131
ادريس ابن عيسى : 66
اتناس : 228, 226
اردشير : 322, 175, 155, 124
ارسطوطاليس : 378, 251, 162
ارنولد : 179
اسامة ابن زيد : 345, 32, 31, 30
استاذسيس : 208, 186, 140, 139
اسحاق ابن ابراهيم : 341, 307, 105
393,
اسحاق ابن ابراهيم الموصلي : 169
329, 174,
اسحاق (الترك) : 144, 138
اسحاق ابن حسان الحزيمي : 269
270,
اسحاق ابن علي العباسي : 197
اسحاق ابن مسلم : 184
اسد ابن يزيد : 207
اسد الحزبي : 215
اسفنديار : 275, 248, 164
الاسكندر ذو القرنين : 326, 28
401, 336, 327
اسماعيل ابن ابراهيم : 341, 336, 307
392, 391, 345
اسماعيل ابن صبيح : 209
افليمون : 378
الأقرع ابن حابس : 397
اقليدس : 405, 161
اكنم ابن صيفي : 127
أم جعفر (زبيدة) : 206, 202, 161
207,
امرؤ القيس : 317
أم عمار : 306
أم عمرو : 306, 113
أم ناجية : 306
الأمين (محمد ابن الرشيد) : 101
, 224 205, 197, 196, 173 142, 141, 119,
301, 299 273, 272, 225
أنس ابن ابي شيخ : 101
انوشروان : 246, 163, 124, 92
403, 401, 322, 306

أهرمن : 91, 90, 89
أوفي ابن مطر المازني : 319
إيتاخ : 230

بغا الكبير : 232, 231, 229

البغدادى (عبد القاصر) : 162
بكر ابن المعتمد : 211, 207
بكر ابن وائل : 316, 66

بكير ابن ماهان : 66

البلاذري : 166, 154

بلال (الصحابي) : 166, 154

بها فريز : 138

بهرام ابن هرمز : 91

بهرام جور : 391

بيدبا : 327

البيروني : 327, 324, 169, 108

349, 332

(ت)

تأبط شرا : 170

التبريزي : 107

تبع : 26

التوخى : 203, 200

القوصيدي (ابو جيان) : 358, 332

408, 399,

توزون : 241, 240, 239

(ث)

ثابت ابن نعيم : 69

ثمارة ابن اشرس : 344, 125

(ج)

جابر : 120

(ب)

بابك الحزمي : 137, 107, 104, 103

228, 222 144, 143, 142, 141

باح بما في الفؤاد باحا : 332

باغر : 232

بايكباك : 236, 235, 234

بجكم التركي : 239

بجير ابن مليل : 391

البحثري : 289, 288, 175

بخت نصر : 27

بختيشوع : 302

براون : 78

برزويه : 327, 163, 111, 108

برمك : 192, 133, 78

بروكلمان : 19

البريدي : 240, 239

بزمجمهر : 322, 275, 163, 124

بسام ابن محمد : 80

بسظام ابن قيس : 391

بشار ابن برد : 116, 115, 111, 94, 55

166, 132, 121, 118, 117

253, 248, 191, 174, 167

345, 290, 278, 269, 268

بغا الشرايبي (الصغير) : 231, 229

234, 232,

- الجاحظ عمرو ابن بحر : 18, 17, 408, 402, 400, 332, 122, 120 118, 97, 96, 95, 94 42, 20, 19, 249, 168, 164, 163, 162 160, 159, 124 (ح)
- حاتم طي : 249 346, 344, 333, 332, 324, 321, 310, 251 399, 386, 385 358, 353
- حاجب ابن زرارة : 338, 329, 316 395, 391 جالينوس : 378
- الحاجري : طه الحاجري جاويدان : 142, 141
- حامد الوزير : 130 جبرائيل ابن يحيى : 140
- حتي : فيليب حتي جراق العود : 396, 365
- الحجاج ابن يوسف : 52, 42, 41 جرير : 329, 316, 40
- 325, 53 جعفر : 278, 30
- حجر الكندي : 316 جعفر ابن يحيى البرمكي : 195, 101
- حرب ابن زياد : 80 196, 197, 198, 199, 200, 201, 202, 204, 210
- حريب : 117 جمهور ابن مرار العجلي : 144, 139
- حريش مولى خزاعة : 67 جميل ابن محفوظ : 118, 116
- الحسن ابن أبي الحسن : 342 جنان (جارية الثقفيين) : 300, 290
- حسن ابن حسين : 143 الجنيد ابن محمد : 128
- حسن ابن حمدان : 80 الجهشيارى محمد ابن عبدوس : 196
- الحسن ابن رجاء الكاتب : 123 208,
- الحسن ابن سهل : 220, 216, 213 جولد زيهر : 19
- 221, 222, 223 الجيهاني احمد ابن محمد : 332, 125
- الحسن ابن عبد الله ابن حمدان : ناصر الدولة 408, 402 400
- الحسن ابن علي : 31, 61, 63, 131, 219 جنان (جارية الثقفيين) : 300, 290
- 219 الجند ابن محمد : 128
- الحسن ابن قحطبة : 187, 184 الجهشيارى محمد ابن عبدوس :
- الحسين ابن ابي العلاء : 241 196, 208
- الحسين ابن حمدان : سيف الدولة جولد زيهر : 19
- الحسين ابن سعيد ابن حمدان : 239 الجيهاني احمد ابن محمد : 125

- الحسين ابن علي : 48, 47, 46, 45, 219, 131.
- الحسين ابن علي ابن ماهان : 215, 214, 212, 173.
- الحسين ابن القاسم ابن وهب : 131.
- حفص ابن دينار : 80.
- الحكم ابن عيينه : 343.
- الحكم ابن قنبر المازني : 315.
- الحكم البهراني : 379.
- الحلاج حسين ابن منصور : 131, 128, 107.
- حمدوية صاحب الزنادقة : 123.
- حمران : 38.
- حمزة ابن الحسن الأصفهاني : 341, 332.
- حماد ابن الزيرقان : 174, 118, 116.
- حماد ابن عمرو : 140.
- حماد الراوية : 171, 170, 118, 116, 352.
- حميد الارقط : 339.
- حنين ابن اسحاق : 378.
- حيان العطار : 66, 65, 61.
- (خ)
- خازم ابن خزيمه : 169, 140.
- خاقان : 140.
- خالد (اخو بلال) : 32.
- خالد ابن ابراهيم : ابو داود
- خالد ابن برمك : 190, 189, 187, 78, 203, 195, 193, 192.
- خالد ابن عبدالله القسري : 74, 73.
- خالد ابن يزيد الشيباني : 228.
- خالد الخداء : 120.
- خزيمة ابن خازم : 209, 169.
- الخطيب البغدادي : 180, 122.
- الخفاف : 120.
- خلف الاحمر : 352, 171, 170.
- خليل (مولى ابن يخدج) : 49.
- الخليل ابن احمد الفراهيدي : 156.
- الخليل ابن سهل : 164.
- خماروية : 237.
- خودا بوش : 78.
- خولة بنت مقاتل : 39.
- الخيرزان : 114.
- الخياط : 126.
- (د)
- داود ابن علي : 100, 62.
- داود ابن كرار : 140.
- ديشليم : 326.
- درهم (مولى بني نهد) : 49, 47.
- دريد ابن الصمة : 378.
- دعبل ابن علي الخزاعي : 331, 226, 123, 73.
- الدمبري : 158.
- الدوري : عبد العزيز الدوري .
- ديصاف : 99, 93, 92.

ديك الجن : 277.

زروان الكبير : 89.

(ذ)

زكريا (النبي) : 393.

زياد ابن حقصة : 50.

زياد ابن صالح : 66.

زيد (مولى الرسول) : 30, 31, 32.

345.

زينب بنت سليمان : 222.

(ر)

الرازي : 125, 127, 128.

الراضي : 107, 130, 238, 239.

رافع ابن الليث : 144, 207, 208, 209.

رافع ابن نصر : 77.

الربيع ابن يونس : 132, 187, 190.

191, 192.

ربيعة ابن مخارق : 44.

رزين ابن عبد الله السلولي : 50.

رستم : 164, 248, 275.

رسول الله : النبي محمد

الرشيد : هارون الرشيد

رفاعة ابن شداد الفتياني : 46.

الرياشي : 39.

ربطة (ابنة السفاح) : 192.

(ز)

زاهية قدورة : 19, 32, 33, 41, 76, 77.

150, 151, 179, 189, 190.

203, 210, 211, 219.

الزيرقان ابن بدر : 397.

زرادشت ابن يوراشب : 90, 92, 93.

407, 406, 138.

(س)

السائب ابن مالك الاشعري : 46, 47.

سابور : 27, 56.

سابور ابن اردشير : 91.

سارة (الحرة) : 307, 341.

سالم (مولى ابي حديفة) : 34, 342.

سالم ابن عبد الله ابن عمر : 392.

سباع ابن النعمان الازدي : 183.

سبل ابن طهمان : 66.

سعد ابن ابي وقاص : 29.

سعد ابن عباد : 119.

سعيد : 119

سعيد ابن جبير : 41, 342.

سعيد ابن حميد ابن البختكان : 331.

سعيد ابن العاصي : 31.

سعيد ابن المسيب : 119.

سعيد الحرشي : 141.

السفياني : 212.

سلم (صاحب بيت الحكمة) : 246.

سلمان الفارسي : 31, 54, 173, 345.

سلموية : 378, 384.

- سليط ابن عباس : 185.
- سليمان ابن عمير السعدي : 391.
- سليم ابن منصور : 119.
- سليمان (الملك) : 131, 336, 366, 397, 367.
- سليمان ابن حبيب : 185.
- سليمان ابن عبد الملك : 61, 395.
- سليمان ابن علي : 115.
- سليمان ابن كثير : 66, 67, 68, 183.
- سليمان ابن يسار : 342.
- سموأل : 311.
- سنباز : 139, 144.
- سندس (زوج المأمون) : 230.
- السندي الحرشي : 207, 208, 211.
- سهام المروزي : 185.
- سهل ابن هارون : 160, 204, 246.
- سوار القاضي : 38.
- سيسان : 90.
- سيف ابن ذي يزد : 274, 394.
- سيف الدولة : 237, 240, 241, 281, 287.
- سيار ابن عمرو ابن جابر الغزاري : 395.
- شبيب ابن حميد : 213.
- شراحيل : 317.
- الشريف الرضي : 275.
- الشعبي : 44, 172, 343.
- شعيب (النبي) : 393.
- الשלغماني : ابن ابي العذاقر.
- شوقي ضيف : 19, 253, 380.
- (ص)
- صالح (النبي) : 131, 336.
- صالح (صاحب المصلى) : 193.
- صالح ابن داود : 113.
- صالح ابن الرشيد : 207.
- صالح ابن عبد القدوس : 115, 116, 125.
- صالح ابن عجيف : 230.
- صالح ابن وصيف : 234, 235.
- صعصعة ابن صوحان العبدي : 35, 397.
- صفوان الانصاري : 113, 278.
- صهيب : 34, 172, 334, 342.
- (ض)
- ضرار ابن عمرو : 344.
- حمزة ابن ربيعة : 52.
- ضيف : شوقي ضيف.
- (ط)
- طه الحاجري : 51, 379, 380.
- طه حسين : 250, 302.
- (ش)
- الشارزنجي : 278.
- شبت ابن ربيعي : 44, 49.

- طاهر ابن الحسين : 210, 211, 213
 215, 216, 217, 223, 224
 261, 272, 273, 278
 279, 413
 طاهر ابن عبد الله : 229
 طاوس : 342
 الطبري : 46, 50, 52, 184, 199
 طلحة ابن زريق : 66
 (ظ)

 (ع)
 عائشة : 30, 31
 عاتكة : 108, 324
 عامر : 120
 عامر ابن أحмир ابن بهدلة : 396, 397
 عامر ابن صعصعة : 116, 153
 عامر ابن الطفيل : 391
 عامر ابن عبد القيس : 38
 عبادة : 116
 عبادة ابن الحارث : 73
 العباسة اخت الرشيد : 199, 201
 العباس ابن جعفر : 207
 العباس ابن عبد المطلب : 62, 63, 64
 100, 218
 العباس ابن المأمون : 220
 العباس ابن موسى : 220
 عبد الله ابن الأفطس : 200
 عبد الله ابن الجارود : 42
 عبد الله ابن جعفر : 31, 73
 عبد الله ابن الحسين ابن علي : 183
 عبد الله ابن خازم : 209
 عبد الله ابن الزبير : 43, 46, 47, 48
 83
 عبد الله ابن شدد الجشمي :
 عبد الله ابن شريك : 47
 عبد الله ابن طاهر : 104, 106, 143
 211, 218, 222, 229, 273, 274, 279
 عبد الله ابن عامر : 38
 عبد الله ابن عباس : 31, 124, 218
 219, 322, 331, 335
 عبد الله ابن علي : 184
 عبد الله ابن عمر : 30, 31, 32
 عبد الله ابن كامل الشاكري : 50
 عبد الله ابن مالك الخزاعي : 141
 202, 207
 210, 213, 215, 216
 عبد الله ابن محمد ابن علي : 61
 62, 63
 عبد الله ابن مطيع : 44, 46, 47
 عبد الله ابن معاوية : 73, 75
 عبد الله ابن المعتز : 237, 238, 276
 277, 279, 280
 عبد الله ابن المقفع : 94, 99, 108
 111, 124, 163, 169, 245, 246, 259, 260
 322, 323, 328, 366, 378, 400
 عبد الله ابن همام : 45, 46
 عبد الله ابن وهب : 50, 51

- عبد الجبار الازدي : 144.
- عبد الحميد (الكاتب) : 124, 77, 366, 312.
- عبد الحميد ابن عبد الرحمن : 42.
- عبد ربه السلمي : 44.
- عبد الرحمن ابن الاشعث : 42, 41, 83, 57, 53, 52, 43.
- عبد الرحمن الانباوي : 210.
- عبد الرحمن ابن عبد الملك : 213.
- عبد الرحمن ابن مخنف : 45.
- عبد الرحمن ابن مسلم : ابو مسلم
الخراساني
- عيد شمس : 334, 172.
- عبد الصمد ابن علي : 187.
- عبد العزيز الدوري : 79, 76, 52, 214, 144.
- 219.
- عبد القادر المهيري : 260.
- عبد القاهر الكيلاني : 130.
- عبد الكريم ابن ابي العوجاء : 98, 172, 99.
- عبد المطلب ابن هاشم : 392, 343.
- عبد الملك ابن صالح : 201, 196, 232, 223, 214, 212.
- عبد الملك ابن مروان : 39.
- عبد مناف : 334, 172.
- عبيد الله ابن عباس : 219.
- عبيد الله ابن يحيى ابن خاقان : 231.
- عبيد الكلابي : 164.
- عتبة ابن ابي سفيان : 31.
- عتبة ابن الحارث ابن شهاب : 391.
- عثمان ابن عفان : 47, 46, 39, 38.
- عجيف ابن عنبة : 228.
- عطاء : المقفع الخراساني
- عطاء ابن ابي رباح : 342.
- عطاء ابن عبد الله الخراساني : 342.
- عفاف ابن مليل : 391.
- عقيل ابن علفة المدي : 39.
- العلاء ابن الحداد الأعمى : 100.
- علان الشعبي : 341, 330, 274.
- علي ابن أبي طالب : 43, 35, 34, 31, 123, 113, 112, 65, 64, 63, 62, 61, 47, 278, 219, 218, 193, 182, 179, 173, 131, 387, 342, 335, 322.
- علي ابن جبلة القلوك : 288, 134, 133.
- علي ابن الحسين ابن علي ابن ابي طالب : 392.
- علي ابن الخليل : 167, 116, 101, 271, 270, 168.
- علي ابن الشاه : 327.
- علي ابن عبد الله ابن عباس : 63.
- علي ابن عبيدة الريحاني : 331, 125.
- علي ابن عمارة : 341.
- علي ابن عيسى ابن ماهان : 202, 213, 211, 210, 209, 208.
- علي ابن القاسم : 122.
- علي ابن الكرمانى : 72.
- علي ابن موسى الرضا : 211, 210.

- 221, 218, عيسى ابن مريم (المسيح) 91, 92.
- علي ابن يقطين : 100.
- عليه بنت المهدي : 201.
- عمار : 172, 334.
- عمار ابن ابي سليمان : 343
- عمارة ابن حربية : 116, 117, 118.
- عمارة ابن حمزة : 168, 187, 193.
- عمر ابن ابي ربيعة : 200.
- عمر ابن الخطاب : 16, 29, 30, 31,
- 32, 33, 34, 46, 47, 62, 65, 123, 342,
- 370.
- عمر ابن عبد العزيز : 42, 43, 235,
- 336.
- عمر النغم : 80.
- عمرو ابن اعين : 66.
- عمرو ابن بحر : الجاحظ
- عمرو ابن شيان : 66.
- عمرو ابن عثمان : 31.
- عمرو ابن الليث الصغار : 237.
- عمر ابن مالك : 44.
- عمرو ابن هند : 396.
- عمرو ابن ود : 391.
- عمرو المكي : 128.
- عمير ابن الحباب : 48.
- عمير العجلي : 67.
- عيسى ابن ادريس : 66, 67.
- عيسى ابن زيد : 190.
- عيسى ابن علي : 183, 324.
- عيسى ابن ماهان : 77, 79, 80, 185,
- 186.
- (غ)
- غالب ابن صعصعة : 249, 397.
- الغزالي : 130.
- غيلان : 366.
- (ف)
- فاتك : 237.
- فاجدا : 115.
- فاضنة (اخت الرشيد) : 200.
- فاطمة بنت ابي مسلم الخراساني :
- 141.
- فاطمة بنت محمد : 219.
- الفتح ابن خاقان : 231, 289.
- الفردوسي : 157.
- الفرزدق : 153, 315, 316, 329, 395.
- الفضل ابن الربيع : 119, 153, 198,
- 199, 200, 201, 202, 207, 208, 209, 211,
- 215, 329.
- الفضل ابن سهل : 208, 211, 212,
- 213, 215, 216, 218, 220, 221, 222,
- 223, 224, 272, 413.
- الفضل ابن مروان : 226, 227.
- الفضل ابن يحيى البرمكي : 64, 153,
- 158, 194, 195, 196, 200, 203, 301.
- الفضل ابن يعقوب : 112.

فلهوزن : 19.
فون كريمر : 53.
فيليب حتي : 20, 19.
الكسائي : 249.
كسرى : 164, 163, 115, 56, 27.
193, 203, 218, 269, 271.
275, 276, 288, 306, 307.
309, 311, 385, 391, 395.
(ق)

القاسم : 116.
القاسم ابن محمد : ابن ابي بكر
القاسم ابن ابراهيم : ابن طباطبا
القاسم ابن الرشيد : 208.
القاسم ابن مجاشع : 66.
قباذ : 26.
قباذ ابن فيروز : 92.
قبيعة (ام المعتز) : 235.
قتادة :

قتيبة : 317.
قثم ابن عباس : 219.
قحطبة ابن شبيب : 76, 72, 67, 66.
215, 77.

قس ابن ساعدة : 153.
قصي ابن كلاب : 334, 172.
القلاع ابن حزن : 39.
قوهيار : 106.
قيس ابن عاصم : 386, 38.

(ك)
كامل ابن مظفر : 185, 79.
كثير ابن اسماعيل : 50.
الكرماني (زعيم اليمانية) : 69, 67.
70, 71, 72.
مازيار : 228, 144, 143, 106, 104.
مالك ابن الهيثم : 215, 67, 66.
المأمون (عبد الله) :
103, 105, 125, 133, 134, 141.
142, 143, 188, 197.
204, 205, 224, 225.
230, 247, 260, 261.
272, 299, 330, 331.
413.

- ماني ابن فاتك : 91, 92, 93, 94, 98,
 99, 100, 113, 120, 121, 122.
 المؤيد : 231, 234.
 مبارك التركي : 193.
 المبرد : 111.
 المتقي : 239, 240, 241.
 المتنبي : 280, 288.
 المتوكل : 175, 229, 231, 289.
 مجاهد ابن جبير : 342.
 محمد ابن ابي خالد : 215.
 محمد ابن ابي العباس : 98.
 محمد ابن الاشعث : 45, 183.
 محمد ابن الحنفية : 44, 61, 62, 63.
 محمد ابن خالد : 74.
 محمد ابن الخطيب : 125.
 محمد ابن خنيس : 61, 65.
 محمد ابن ذود الجراح : 237.
 محمد ابن الرشيد : الامين :
 محمد ابن زكريا : الرازي :
 محمد ابن زياد : 261.
 محمد ابن حيرين : 342.
 محمد ابن عبد الله : 63, 64.
 محمد ابن عبد الله ابن طاهر :
 232, 233, 288, 289.
 محمد ابن عبد الله ابن عبد المطلب :
 النبي محمد
 محمد ابن عبد الملك الزيات :
 105, 227, 229, 230.
 محمد ابن عبد وس : الجهشياري :
 المستكفي : 241.
 محمد ابن علي ابن ابي طالب :
 محمد ابن الحنفية :
 محمد ابن علي ابن عبد الله : 61
 62, 63, 64, 65, 67, 192.
 محمد ابن علي الاصبهاني : 332.
 محمد ابن علي الشلمساني : ابن ابي
 العذاقر
 محمد ابن الليث : 199
 محمد ابن الليث الخطيب : 330.
 محمد ابن الواثق : 229.
 محمد ابن يزيد الأموي : 274, 279,
 330.
 المختار الثقفي : 43, 52, 53.
 المرتد الخراساني : 102, 103.
 مرداويخ : 107.
 مرقش : 312.
 مرقبون : 93, 99.
 مروان ابن ابي حفصة : 63, 64, 194,
 195.
 مروان ابن محمد : 69, 70, 72, 73,
 74, 78.
 مزرد : 339.
 مزدك ابن همدادان : 92, 105, 121,
 124.
 133, 137, 140, 144,
 246, 291, 322, 406.
 مساور الشاري : 235.
 المستعين : 232, 234.
 المستكفي : 241.

- مسرور الخادم : 197.
 مسروق : 17, 16, 15.
 مسعر الحنفي : 50, 49.
 المسعودي : 333, 102, 62, 22, 17, 360, 359, 358, 344.
 مسلم ابن قتيبة (ابو امية) : 184.
 مسمع : 317.
 مصعب ابن الزبير : 50, 45.
 مصعب (جد الطاهرين) : 279.
 مطر : 187.
 مطيع ابن اياس : 132, 122, 116, 99, 174.
 معاذ ابن جبل : 322.
 معاذ ابن مسلم : 140.
 معاوية : 179, 61, 36, 35, 31.
 معبد : 380.
 المعتز : 235, 234, 233, 232, 231.
 المعتصم : 125, 107, 104, 103, 223, 188, 143, 142.
 275, 230, 229, 224.
 المعتضد (ابو العباس) : 237, 236.
 المعتمد : 275, 237, 236.
 المعذل ابن غيلان : 121.
 المعري : ابو العلاء المعري
 معقل ابن ادريس : 67, 66.
 المفضل الضبي : 170.
 مقتدر : 237, 131.
 المقنع الخراساني : 186, 144, 140, 208.
 المكثفي : 241, 238, 237.
 مكحول : 343, 342.
 المنتشر ابن وهب الباهلي : 391.
 المنتصر : 232, 231.
 منكبور : 104.
 المهدي محمد ابن الواثق : 235, 234.
 المهدي : 115, 114, 113, 100, 99, 141, 140, 133, 132, 122.
 191, 190, 188, 187, 168.
 268, 253, 208, 193, 192.
 مهلب ابن ابي صفرة : 317, 45.
 مهييار ابن برزويه : 290, 276, 275.
 موسى (النبي) : 367, 131, 91, 394, 393.
 موسى ابن شاكر : 247.
 موسى ابن كعب : 215, 66.
 موسى ابن محمد الامين : 210, 209.
 موسى ابن المهدي : الهادي
 موسى ابن يحيى البرمكي : 199, 198.
 الموفق : 237, 236.
 مويس ابن عمران : 383, 262.
 ميسرة العبدي : 66, 65, 61.
 ميمون ابن مهران : 343.
 (ن)
 النابغة : 308.
 ناصر الدولة : 241, 240, 239.
 نافع ابن جبير : 37.

- صيف : 232, 231, 226.
- يزدا بعدادان : 124.
- يزدان : 89.
- يزدان ابن ياذان : 100.
- يزد ابن انس : 46.
- يزيد ابن عمر : 72.
- يزيد ابن الفيض : 116, 101.
- يزيد ابن محمد المهلبلي : 230.
- يزيد ابن منصور الحميري : 315.
- يزيد ابن الوليد ابن عبد الملك : 74.
- يزيد الرقاشي : 267.
- يعقوب ابن اسحاق : 393.
- يعقوب ابن داود : 115, 114, 113.
- يعقوب ابن الفضل : 100.
- يعقوب ابن الليث الصفار : 275, 237.
- يقطين : 100.
- يقطين ابن موسى : 184.
- يوسف البرم : 208.
- يونس ابن ابي فروة : 124, 101.
- يونس ابن هارون : 116.
- يحيى : 232, 231, 226.
- يحيى ابن ابي سود التميمي : 395.
- الوليد ابن عتبة : 31.
- الوليد ابن يزيد : 74, 73.
- وهرز : 394.
- (ي)
- ياقوت : 131.
- يحيى النبي : 393.
- يحيى ابن ابي حفصة : 39.
- يحيى ابن حصين : 80.
- يحيى ابن خالد ابن برمك : 175, 133.
- 187, 193, 194, 195, 196, 197, 199, 200, 206, 207, 330.
- يحيى ابن زياد : 118, 99.
- يحيى ابن سليم : 210.
- يحيى ابن عبد الله ابن حسن : 199.
- 202,
- يحيى ابن علي المنجم : 276.
- يحيى ابن معاذ : 207.

مصادر البحث ومراجعته

المصادر :

الابشيهي ، شهاب الدين ، احمد (850هـ - 1446).

— المستطرف في كل فن مستظرف ، دار احياء التراث العربي ، بيروت 1952

ابن ابي طالب ، علي (40هـ - 661) .

— نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد ، القاهرة ، 1911 .

ابن الأثير ، علي ابن احمد ابن ابي الكرم (630هـ - 1232)

— الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، 1979 .

ابن برد ، بشار (167 هـ - 783) .

— ديوان بشار ابن برد ، جمع وتحقيق بدر الدين العلوي ، بيروت ،

1981 .

ابن حجة ، ابوبكر تقي الدين .

— ثمرات الاوراق في المحاضرات ، دار أحياء التراث العربي ،

بيروت 1952 .

ابن خلدون ، ولي الدين عبد الرحمن (808 هـ - 1405)

— المقدمة ، دار الفكر ، بيروت ، لا . ت .

ابن خلكان ، شمس الدين (681 هـ - 1282) .

– وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، .

1978

ابن دريد ، محمد ابن الحسن (321هـ – 933) .

– الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المسيرة ، بيروت .

1979

ابن طباطبا ، القاسم ابن ابراهيم .

– كتاب الرد على الزنديق ابن المقفع ، جويدي ، روما ، 1927 .

ابن الطقطقي ، علي ابن محمد ابن طباطبا .

– الفخري في الآداب السلطانية ، دار صادر . لا . ت .

ابن العماد الحنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي (1089 هـ – 1678) .

– شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، دارالمسيرة ط 2 بيروت .

1979

ابن القارح ، علي ابن منصور (421 هـ – 1030) .

– رسالة ابن القارح ، نشر محمد كرد علي (رسائل البلغاء) ، ط

3 - القاهرة - 1946 .

– رسالة ابن القارح ، تحقيق فوزي عطوي (رسالة الغفران) بيروت

1969 .

ابن قتيبة ، عبد الله ابن مسلم (276 هـ – 889) .

– ادب الكاتب ، تحقيق محمد محي الدين الحميد ، ط 4 ، مصر .

1963

– الامامة والسياسة ، تحقيق طه الزيني ، دار المعرفة ، بيروت ، .

1967

– الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت 1964 .

– عيون الاخبار ، دار الكتب المصرية 1925 .

— كتاب العرب ، نشر محمد كرد علي (رسائل البلغاء) ط 3 ،
القاهرة 1946 .

— المعارف ، تحقيق محمد اسماعيل الصاوي ، ط 2 ، بيروت .
1970

ابن المدبر ، ابراهيم ابن محمد (142 هـ - 759) .

— الرسالة العذراء ، نشر محمد كرد علي (رسائل البلغاء) ط 3 ،
القاهرة 1946 .

ابن المقفع ، عبد الله .

— كلية ودمنة ، المؤسسة المتحدة للكتاب ط 2 ، بيروت 1980 .

— الاثار الكاملة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت . لا . ت .

— رسالة الصحابة ، نشر محمد كرد علي (رسائل البلغاء) ط 3 ،
القاهرة 1946 .

ابن منظور

— لسان العرب ، دار صادر ، بيروت 1955 .

ابن النديم (385 هـ - 995) .

— الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت 1978 .

ابن هانئ ، ابونواس ، الحسن (195 هـ - 810 - 199 هـ - 814) .

— ديوان ابي نواس ، تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب
العربي ، بيروت . لا . ت .

ابو حنيفة ، احمد ابن داود الدينوري (281 هـ - 894) .

— الاخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، المعادي ، 1959 .

ابو الفرج الاصفهاني ، علي ابن الحسين (356 هـ - 966) .

— الاغاني ، دار صعب ، بيروت ، مصورة عن طبعة بولاق . لا .
ت .

ابو يوسف القاضي ، يعقوب ابن ابراهيم (189 هـ - 804) .

— الخراج ، مصر 1884 .

الازهري ، محمد ابن احمد (370 هـ - 980) .

— تهذيب اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، محمد النجار ، الدار

المصرية 1964 .

البغدادي ، عبد القاهر ابن احمد (429 هـ - 1037) .

— الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار

المعرفة بيروت . لا . ت .

البلاذري ، احمد ابن يحيى (279 هـ - 892) .

— فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، دار الكتب

العلمية ، بيروت 1978 .

البيروني ، محمد ابن احمد (440 هـ - 1048) .

— الآثار الباقية عن القرون الخالية ، نشر سخاو ، ليبزغ 1878 .

— تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل او مردولة ، حيدر

اباد 1958 .

البيهقي ، ابراهيم ابن محمد (320 هـ - 932) .

— المحاسن والمساوىء ، دار صادر ، بيروت . 1970 .

التنوكي ، المحسن ابن علي (384 هـ - 994) .

— الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبد الشالجي ، دار صادر ، بيروت .

1978

التوحيدي ، ابو حيان علي ابن محمد ابن علي (400 هـ - 1009) .

— الامتاع والمؤانسة ، تحقيق احمد امين ، وأحمد الزين ، مكتبة

الحياة ، بيروت . لا . ت .

الثعالبي ، عبد الملك ابن محمد ابن اسماعيل (429 هـ - 1037).

— بتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، دار الكتب العلمية ، بيروت
1979.

— فقه اللغة واسرار العربية ، مكتبة مصطفى الحلبي ، مصر 1318
هـ.

الجاحظ ، ابو عثمان ، عمرو ابن بحر (255 هـ - 869).

— البخلاء ، دار صادر ، بيروت . لا . ت .
— البيان والتبيين ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت .
1968

— التاج في اخلاق الملوك ، تحقيق فوزي عطوي ، بيروت 1970 .
— الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، المجمع العلمي ، ط 3
بيروت 1969 .

— رسالة الرد على النصارى (ثلاث رسائل) ، القاهرة ، نشر فنكل .
لا . ت .
— رسالة في ذم اخلاق الكتاب (ثلاث رسائل) ، القاهرة ، نشر
فنكل . لا . ت .

رسالة المعاد والمعاش (مجموعة رسائل) . القاهرة 1324 هـ .
— رسالة الى الفتح ابن خاقان (مجموعة رسائل) ، القاهرة 1324
هـ .

الجهشياري ، محمد ابن عبدوس (321 هـ - 933) .

— الوزراء والكتاب ، القاهرة 1938 .

الحسيني ، محمد مرتضى .

— تاج العروس ، ط 1 ، القاهرة 1888 .

الحصرى ، ابو اسحاق .

— زهر الآداب وثمر الألباب ، القاهرة 1925 .

الخطيب البغدادي ، احمد ابن علي (463 هـ - 1070) .

— تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي ، بيروت . لا . ت .

الدميري ، كمال الدين (808 هـ - 1405) .

— حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة الاسلامية لصاحبها الحاج رياض

الشيخ . لا . ت .

الزمخشري ، محمود ابن عمر (538 هـ - 1143) .

— اساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت 1965 .

الشهرستاني ، محمد ابن عبد الكريم (548 هـ - 1153) .

— الملل والنحل ، تحقيق محمد سعيد الكيلاني ، دار المعرفة ،

بيروت 1980 .

الصولي ، ابو بكر محمد ابن يحيى (335 هـ - 649) .

— اشعار اولاد الخلفاء (كتاب الاوراق) بيروت 1979 .

— اخبار الراضي بالله والمتقي لله (كتاب الاوراق) ج . هـ .

دن ، دار المسيرة ، ط 2 بيروت 1979 .

— اخبار الشعراء المحدثين (كتاب الاوراق) ج . هـ . دن . دار

المسيرة ، بيروت 1979 .

الطبري ، ابو جعفر محمد ابن جرير (310 هـ - 922) .

— تاريخ الامم والملوك ، دار الفكر ، بيروت 1979 .

عبد الحميد الكاتب (133 هـ - 750) .

— رسالة عبد الحميد عن مروان ابن محمد ، نشر محمد كرد

علي (رسائل البلغاء) ، القاهرة ، ط 3 ، 1946 .

الفيروزابادي

— القاموس المحيط ، ط 1 ، القاهرة 1912 .

القالبي ، ابو علي اسماعيل ابن القاسم .

— كتاب الامالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت . لا . ت .

القزويني ، زكريا ابن محمد ابن محمود
(682 هـ - 1283)

— عجائب المخلوقات والحيوانات ، وغرائب الموجودات ، المكتب
الاسلامي . لا . ت .

الماوردي ، علي ابن محمد ابن حبيب (450 هـ - 1058).

— الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت
1978 .

المبرد ، ابو العباس محمد ابن يزيد (285 هـ - 898).

— الكامل في اللغة والادب ، مكتبة المعارف ، بيروت . لا .
ت .

المتنبي ، احمد ابن الحسين (354 هـ - 965).

— ديوان المتنبي ، شرح البرقوقى ، ط 2 ، دار الكتاب العربي ،
مصورة عن طبعة 1938

المرتضى ، علي ابن طاهر (436 هـ - 1044)

— امالي المرتضى ، مصر 1957

المسعودي ، ابو الحسن علي ابن الحسين (346 هـ - 957).

— مروج الذهب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،
دار الفكر ، ط 5 ، بيروت 1973 .

المعري ، ابو العلاء .

— رسالة الغفران ، تحقيق فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية ، بيروت
1969 .

ياقوت ، عبد الله الحموي (626 هـ - 1228).

— معجم الأدباء ، دار احياء التراث العربي ، بيروت . لا . ت .

— معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1977 .

المراجع :

ادونيس ، علي احمد سعيد .

— الثابت والمتحول ، الكتاب الثاني ، دار العودة ، بيروت . ط 2 ،
1979 .

امين ، احمد .

— ضحى الاسلام ، دار الكتاب العربي ، ط 1 ، لا . ت .

الانصارى ، عبد الواحد .

— مذاهب ابتدعتها السياسة في الاسلام ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت .
1973 .

البستاني ، كرم .

— المجاني الحديث ، عن مجاني الاب شيخو ، جدها لجنة من
الاساتذة بادارة فؤاد افرام البستاني ، دار المشرق ، المطبعة
الكاثوليكية ، ط 3 ، لا . ت .

البستاني ، بطرس

— قطر المحيط ، فوتو اوفست عن طبعة 1869 ، مكتبة لبنان ،
بيروت .

الترك ، عفيف .

— محاضرات في عالم التاريخ الاسلامي ، الجامعة العربية .
1972

جفال ، خليل .

— الخليفة عبد الملك ابن مروان الناقد الاديب ، رسالة ماجستير ،
الجامعة اللبنانية ، بيروت 1979 .

الحاجري ، طه .

— الجاحظ حياته وآثاره ، دار المعارف ، ط 2 ، مصر 1969 .

حاوي ، ايليا .

— نماذج في النقد الأدبي ، دار الكتاب اللبناني . ط 2 ، بيروت .

لا . ت .

حسين ، طه .

— حديث الاربعاء ، دار المعارف . ط 9 - 1974 .

حمزة ، عبد اللطيف .

— ابن المقفع ، مصر 1937 .

سعد ، فهمي .

— العامة في بغداد ، القديس يوسف - 1980 .

صفوت ، احمد .

— جمهرة رسائل العرب ، مصطفى الحلبي ، ط امصر 1937 .

ضيف ، شوقي .

— تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الاول . دار المعارف ط 3

لا . ت .

— تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الثاني ، دار المعارف .

1973

— الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، ط 1969 .

عبد الباقي ، محمد فؤاد .

— المعجم المفهرس للالفاظ القرآنية ، دار الكتب المصرية 1945 .

العوفي ، اسماعيل .

— في الشعوبية - بيروت 1979 .

قدورة ، زاهية .

— الشعبية واثرها الاجتماعي والسياسي ، دار الكتاب اللبناني ، ط 1 ، 1972 .

لواساني ، احمد .

— نظرات جديدة في الادب ، بيروت 1980 .

مسعود ، جبران .

— الرائد ، دار العلم للملايين ، ط 2 - بيروت 1967 .

مجلة الحوادث ، عدد تشرين ثاني . 1980 .

حولية الجامعة التونسية ، العدد الاول 1964 .

المراجع المعربة :

بروكلمان ، كارل .

— تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : فارس وبعلبكي ، دار العلم للملايين ، ط 2 ، بيروت 1979 .

حتي ، فيليب .

— تاريخ العرب (المطول) ترجمة فيليب حتي جبرائيل جبور ، جبور عبد النور ، دار الكشف ، بيروت 1965 .

كريم ، فون .

— الحضارة الاسلامية ، ترجمة مصطفى بدر - 1947 .

المراجع الاجنبية :

Bouvat — le

Le Barmécides Paris 1912

Browne, Edward.

A Literary History of Persia London 1909.

Goldziher, Ignas.

Muhammedische Studien 2 Vols, Halle 1888 — 1890

Huart, Tomme.

Histoire des Arabes . Paris 1912 .

Omar, F.

— Islamic Culture, Vol. XLVIII N 1 Hudaib Abad 1974. (The Nature of the Iranian Revolts In the Early Abbasid Period).

— Encyclopédie de l'Islam. Nouvelle Edition, Tome III. (Harim Al— Rashid).

Shaban, M.

— Islamic History; a new Interpretation, Cambridge: Cambridge University Press; 1976.

Sadighi.

— Les Mouvements religieux Iraniens, Paris. 1938

Le Strange, G.

— Baghdad, During the abbasid CALIPHATE, Oxford 1900

Muir, William.

— The CALIPHATE Edinburgh 1924.

Wellhausen, J.

— Arab Kingdom and its. fall, Translated by Margart Graham Weir, Calcuta. 1927.

فهرس الموضوعات

الاهداء

المقدمة

الباب الأول : الجذور التاريخية للشعبوية	13- 83
تمهيد : تعريف الشعبوية في اللغة والاصطلاح	15- 21
تعريف الشعبوية في اللغة	15- 16
تعريف الشعبوية في الاصطلاح	16- 21
الفصل الأول : الجذور التاريخية للشعبوية	23- 57
نشأة الشعبوية	25
علاقة العرب بالفرس قبل الاسلام	25- 29
العرب والموالي في العهد الراشدي	29- 35
الموالي في العهد الأموي	35- 43
ثورتا المختار وابن الاشعث	43- 54
ملاحع شعوبية في الشعر الأموي	54- 57
الفصل الثاني : الدعوة العباسية والصراع القبلي	59- 83
الدعوة العباسية	61- 72

74- 72	الصراع القبلي
82- 74	معاملة الموالي القاسية وردة فعلهم
83	انتشار الشعوية
85	الباب الثاني : الشعوية والبعد الديني
134- 87	الفصل الأول : الزندقة وتلازمها مع الشعوية
93- 88	الأديان الفارسية في العراق وفارس قبل الاسلام
89	المجوسية
89	الكيومرثية
89	الزروانية
90	الزرادشتية
91	المانوية
92	المزديّة
93	المرقيونية
134- 93	الزندقة
98	موقف السلطة العباسية من الزنادقة
105	وقائع محاكمة الافشين
107	تغلغل الزندقة في المجتمع العباسي
125	الزندقة العقلية
128	الزندقة الصوفية
134- 132	استغلال الزندقة للتنكيل بالمعارضة
	الفصل الثاني : الحركات الثورية ذات الأساس الديني
144- 135	وعلاقتها بالشعوية
	الحركات الثورية ذات الأساس الديني
137	وعلاقتها بالشعوية
139	ثورة سبأذ
139	ثورة استاذسيس

40	ثورة المقنع
141	الخرمية
143	ثورة المازيار
145	الباب الثالث : الشعوبية ببعديها الاجتماعي والسياسي
175- 147	الفصل الأول : الشعوبية والبعد الاجتماعي
152	الشعوبية والأنساب العربية
154	اتهام الشعوبية العرب بالافلاس الحضاري
	طعن الشعوبية على العرب بتسميتهم
156	بما ليس في لغتهم
157	مهاجمة العادات العربية
160	اتهام العرب بقلّة انتاجهم العقلي
164	نفسي العصية بين الشعوبية والعرب
167	أساليب السخرية من العرب
169	هجوم الشعوبية على اللغة العربية
241- 177	الفصل الثاني : الشعوبية والبعد السياسي
	العلاقات السياسية في الخلافة العباسية
179	بين العرب والفرس
180	الوزارة في الدولة العباسية
192	البرامكة والوزارة
205	الفتنة بين الأمين والمأمون
218	عهد المأمون لعلي ابن موسى الرضا
224	خلافة المعتصم وبدء النفوذ التركي
229	النفوذ التركي
408- 243	الباب الرابع : الشعوبية والبعد الأدبي
263- 245	تمهيد : الأثر الشعبي في التجديد الأدبي
253	الأثر الشعبي في التجديد الشعري

259	الأثر الشعوبي في التجديد الشري
318- 265	الفصل الأول : الشعوبية الأدبية في الشعر
267	المظاهر الشعوبية في الشعر
289	الحسن ابن هانيء
291	مجون أبي نواس
303	هجاء العرب والسخرية منهم
353- 319	الفصل الثاني : الشعوبية ومظاهرها في النثر
	الكتاب الشعوبيون ، والمضمون
321	الشعوبي في كتاباتهم
323	ابن المقفع والشعوبية
328	شعوبية أبي عبيدة
330	شعوبية علان الوراق
330	من اعلام الشعوبية
333	دعاوى الشعوبية
346	آراء ابن خلدون ونزعتها الشعوبية
348	مطاعن الشعوبية على اللغة العربية وآدابها
	الفصل الثالث : الحركة الأدبية المناوئة للشعوبية واساليبها
408- 355	في التصدي للشعوبية
	الحركة الأدبية المناوئة للشعوبية واساليبها
357	في التصدي للشعوبيين
358	الجاحظ
385	ابن قتيبة
399	ابو حيان التوحيدى
409	خاتمة
415	فهرس الأعلام
433	فهرس المصادر والمراجع

هذا الكتاب

لقد قيل الكثير في الشعوبية ، ووضعت الكتب الكثيرة في تاريخ نشوئها ومضامينها ومساراتها وأهدافها . غير أن هذا المؤلف ، هو أنجحها جميعاً في معالجة موضوع الشعوبية ، بروح علمية ، ونزعة موضوعية ، تحاشت الوقوع في الانحياز والتحريف والتزوير ، فعرض لهذه الظاهرة الخطيرة بشمولية تناولت جميع جوانبها ومختلف مجالاتها وتأثيراتها السياسية والاجتماعية والقومية والأدبية والحضارية ، والدينية على الحياة العربية الاسلامية ، وتبيان دورها الايجابي والسلبي في مجمل الأوضاع الحياتية التي مرت بها الأمة العربية والعالم الاسلامي .

ودار النضال إذ تضع هذا الكتاب بين أيدي القارئ العربي ، تهدف إلى إغناء المكتبة العربية ، بتناج يسهم في تبيان حقيقة الشعوبية وكشف ما خفي من أهدافها وإظهار خط سيرها عبر تاريخ أمتنا الطويل .

الناشر

